الأنوار في الأسرار



تأليف

جراسيموس مسره

بسم الآب والابن والروح القدس

نحمدك اللّهمّ يا من كشفت لنا باسرار حكمتك سرائر القلوب . وسترت بحجاب رحمتك ما اجترحنا من الذنوب . وافضت علينا من مواهب روحك القدوس ينابيع الرحمة وصلاح النفوس . وبنيت كنيستك المقدسة على ركن الايمان المستقيم . مؤيدة بسبع دعائم هي ملجأ الخلاص العظيم . اسرار نخلق بها خلقة جديدة . ونمو في المعيشة الروحية السعيدة . ونقتات بذخيرة الحياة المتبدة . وننقي قلوبنا من درن الخطايا . ونشفي نفوسنا واجسادنا من طوارىء البلايا . ونؤلف قلوب عيالنا على طاعتك وحفظ وصاياك . لكي تبارك بواسطة خدامك الامناء اعمال رعاياك . انك انت الاله الرحيم والقدير الحليم

اما بعد فلما كانت الكتب الدينية . الغريبة عن روح الكنيسة الارثوذكسية . قد تكاثرت في بلادنا العثمانية . ولغتنا العربية . واخذت تتداولها ايادي العلماء . ويقرأها الفقهاء والبسطاء وكانت الكتب الارثوذكسية الموضحة صحيح التعليم والمفندة ما بعد عن الرأي القويم قليلة العدد حيث وجدت لانحصاره خطأ ببعض افراد او لا وجود

لما مطلقًا في اكثر الانحاء والبلاد. كانت الخدمة في نشر الحقائق الدينية
القويمة فرضًا واجبًا. وبمساعدة ابناء الكنيسة الارثوذكسية في سبيلها دينًا
لازمًا. وبما اني بمنَّة الله الكريم وحسن سعي كلٍّ من رجلي الله الفاضلين
كبربوس كير ملاتيوس مطران اللاذقية مولاي الكلي الطهر والوقار.
والشهم الغيور الخواجه ديمتري شحاده الدمشقي الجزيل الفضل والاعتبار.
قد اخذتُ تعاليمَ الايمانِ القويم عن اساتذةٍ ارثوذكسيين في مدرسةٍ لاهوتيةٍ
اسمها وفضلها اشهر من نارٍ على علَم. وهي مدرسة خالكي التي اسسها دير على
اسم الثالوث الاقدس القديس فوتيوس. ونظَّمها مدرسةً لكنيسة المسيح
المعظم السعيد ذكرهُ جرمانوس. وكلاهما من افاضل الرجال. الذين ذاع
صيتهم واشتهر فضلهم بالاقوال والافعال. وافتخر بهم كرسي القسطنطينية
البطريركي. رأيتُ وقد استمددتُ من الله العون والتوفيق. ان
اخدم وطني بتأليف وجمع وتعريب كتبٍ ومواضيع دينية تنشر على
العموم حقائق التعليم الارثوذكسي. تعليم الكنيسة الواحدة الجامعة
المقدسة الرسولية. وتدرأ باستقامتهِ ما انحرف عنهُ وزاغ عن الانجيل وتسليم
الرسل القديسين. وتزيل حُجُبَ الاوهام عن الذين ربما تُستحسن عندهم
تلك التعاليم المنحرفة. اما لتحريف استنادات. او لتلفيق سفسطات. او
للباسٍ آخر مما اعتاد ان يتلبسهُ الخطأ ليظهر به صوابًا. غير معتبرٍ
اولئك الذين يخونون كنيستهم. ويتركون ديانتهم. اما لغرضٍ في النفس.
او لطمعٍ في الدرهم والفلس. او لسببٍ آخر دنيء معيب. ويلقون بانفسهم
في آبارٍ عميقةٍ وهم عثرة شكٍّ للغريب والقريب. يضعون اعناقهم تحت

نير الرجس والويل الرهيب.

ولما كانت اسرار الكنيسة السبعة موضوع اختلافاتٍ متعددةٍ بين
الكنيسة المقدسة الجامعة وبين سواها من الكنائس. رأيتُ ان
اجعل مقدمة خدمتي هذه الدينية كتابًا في الاسرار السبعة يبحث فيها
اجمالاً وفي كلٍّ منها افرادًا من حيث نشأتهِ وتاريخهِ وما أُحدِثَ وابتُدِعَ
فيهِ. فاخذت اطالع واقابل ما كتبهُ في ذلك اشهر المؤلفين الكنائسيين
من شرقيين وغربيين. ارثوذكسيين وغير ارثوذكسيين. واخذتُ ما اخذتهُ
عنهم واستوفيتُ مقتضى التطويل حيث رأيتُ التطويلَ واجبًا.
وراعيتُ شروط الايجاز حيث رأيت الايجاز جائزًا. وتبعتُ من الاساليب
ما جرى عليهِ السعيد الذكر مكاريوس. وقسمت الكتاب بحسب
مواضيعهِ الى تمهيدٍ وسبعة ابوابٍ وخاتمةٍ. فجاء بحمد الله تعالى
كتابًا مستوفي الشروط وافيًا بالمقصود سديد البراهين يثبت بها ما اثبتتهُ
الكنيسةُ الارثوذكسية. ويفند ما ابتدع عند البعيدين عن التعاليم
الرسولية. وقد سميتهُ الانوار في الاسرار تلميحًا الى ما فيهِ من ايضاح
الغامض. واهديتهُ لسيادة مولاي مطران اللاذقية الكلي الطهر قيامًا
بفروض الامتنان واشارةً الى ما احرزتهُ لسيادتهِ من الشكران. لانهُ
اوَّلُ من مهَّدَ السبيل لدخول ابناء البلاد في مدرسة خالكي الشهيرة.
واسأل الله العظيم ان ينفع بهذا الكتاب ابناء الوطن والايمان
القويم. ويعضدنا في كل ما يرضيهِ انهُ السميع الكريم. والجواد الرحيم

تمهيدٌ

يشتمل على تعليم الكنيسة الارثوذكسية في الاسرار وذكر ما فيها عند المبتدعين من الآرآء الفاسدة واسلوب البحث للتوصل الى حقيقتها

١

التعليم الارثوذكسي الاجمالي في الاسرار

١ . تعريف السر ٢ . عدد الاسرار ٣ . الشروط المطلوبة لتتميم الاسرار

١ . ان السرّ حسب تعريف الاعتراف المستقيم الرأي[1] هو عملٌ مقدسٌ بهِ تنال نفس المؤمن نعمة الله غيرَ المنظورة تحت علاماتٍ منظورةٍ . وهو مرتَّبٌ من ربنا يسوع المسيح الذي بوساطتهِ ينال النعمة الالهية[2] كلُّ واحدٍ من المؤمنين .

فعلى ذلك تكون الاسرار في جوهرها اعمالاً مقدسةً مانحةً فعلاً النعمة الالهية المؤمنين ومن ثمَّ ليست رسوماً للمواعد الالهية فقط بل هي ايضاً آلاتٌ تفعل ضرورةً في المتقدمين اليها بواسطة النعمة الالهية .[3] اما

---

(١) الاعتراف المستقيم الراي جواب على السؤال ٩٩ (٢) قال القديس يوحنا الذهبي الفم «لان المسيح لم يسلمنا شيئاً حسيًّا بل سلمنا بالاشياء الحسية كلّ ما اعطانا عقليًّا . هكذا في المعمودية ايضاً . اما بالشيء الحسي فصير منحة الماء . ولكنّ المكمّل عقليٌّ وهو الولادة والتجدُّد . لانك لو كنت بلا جسمٍ لكان سلمك المواهب العديمة الجسم مجرّدةً . ولكن بما ان النفس متحدةٌ بالجسم قد سلمك العقليات بالحسيات» (تفسير متى مقالة ٨٢ §٤) (٣) رسالة بطاركة الشرق بند ١٥

لوصافها الجوهرية فهي حسب تعليم الكنيسة ، اولاً انها مؤسسة من الله . ثانيًا انها ذات هيئةٍ اوصورةٍ منظورةٍ او محسوسةٍ. ثالثًا انها تناول النعمة الالهية غير المنظورة لنفوس المؤمنين

٢ . الاسرار سبعة : وهي المعمودية والمسحة والشركة والتوبة والكهنوت والزيجة وصلاة الزيت . فبالمعمودية يولد الانسان ولادةً ثانيةً سريةً للحياة الروحية . وبالمسحة ينال النعمة التي تنمو وتثبّته في الحياة الروحية. وبالتوبة يُشفَى من امراضه النفسانية وهي الخطايا . وبالكهنوت ينال نعمةً بها يُجدّدُ ولادة الاخرين الروحية بواسطة تميم الخِدَم وتعليم كلام الله . وبالزيجة ينال النعمة المقدسة السيرة الاقترانية للولادة الجسدانية ولتربية الاولاد المسيحية . وبصلاة الزيت ينال شفاءَ الامراض النفسانية والجسدانية ايضًا . "[1] وليس عندنا في الكنيسة اكثر ولا اقل من هذه الاسرار السبعة "[2]

٣ . ويُطلَب لتميم كل سرٍ من الاسرار ثلاثة شروط : اولاً المادّة الملائمة لتميم السرّ مثل الماءِ للمعمودية والخبز والخمر للشركة والزيت للمسحة وغير ذلك من سائر الاسرار . ثانيًا كاهنٌ مشروطٌ قانونيًا او اسقفٌ . ثالثًا استدعاءَ الروح القدس من الكاهن بالعبارات المعينة لتقديس السرّ بقوة وحلول الروح القدس "[3] . وعلى ذلك نرفض جميع الآراءِ المضادة في هذا الباب لتعليم المسيح التي منها رأي القائلين بان السرّ تمّ حينما تُستعمَل مادته المباركة استعمالاً فعليًا (مثلاً حينما ناكل

(١) التعليم المسيحي الكبير في الفصل العاشر (٢) رسالة بطاركة الشرق فصل ١٥ . (٣) الاعتراف المستقيم الراي قسم ١ سؤال ١٠٠ .

الخبز وشرب الخمر في سرّ الشركة) وان هذه المادة في غير وقت استعمالها ليست سوى جوهرٍ بسيطٍ اعتياديّ لا قوة لها وان تكن قد بوركت حين تميم السرّ . وكذلك نرفض ايضًا رأيًا آخر كاذبًا زَعَمَ الذين ارتأوا ان نقص ايمان المتقدم الى السرّ تعرّي السرّ نفسهُ من كماله "[1] .

٣

الآراءُ الفاسدة في التعليم الابتدائي عن الاسرار وطريقة نقضها

١ . في تعريف السرّ ٢ . في عدد الاسرار ٣ . في شروط تميم الاسرار ٤ . اسلوب الكتاب .

انّ بعضًا من الخارجين عن الايمان القويم من المتقدمين والمتأخرين قد علّموا ويعلّمون آراءً فاسدةً مضادةً لتعليم الكنيسة المستقيمة الرأي السابق ذكرهُ كما يأتي

١ . زعم لوثيروس ان جواهر الاسرار ليست سوى رسومٍ وعلاماتٍ المواعد الالهية يُقصَد بها إنهاض الايمان بيسوع المسيح "[2] وكلوينوس وزوينكليوس اعتبرا الاسرار بمثابة اشاراتٍ للنعمة بها يتوطد المنتخب ويثبت في الايمان وفي المواعد الالهية التي نالها او بالحري هو يوطِّد الكنيسة بايمانهِ اكثر مما يوطِّدُ نفسهُ "[3] .

والـوكنيون والارمن يعتبرون الاسرار طقوسًا خارجيةً فقط تميز

(١) رسالة بطاركة الشرق في الايمان الارثوذكسي فصل ١٥

(٢) Lutheros; Opp .t. 111 fol. 266, ed. Ien. Melanchthon. Loc. theolo. p.146, 141. (٣) Calvin. gust. lid.4,cap4§1,ir. 18. ZWingl. Confss ad.Carol. Im p iuOpp.t. 11,p.477,5 41,

المسيحيين بعضهم عن بعضٍ دينيا[1]. والقائلون بالمعمودية الثانية يعتبرون الاسرار علاماتٍ أو رسوماً رمزية للحياة الروحية[2]. والزُوَيْدنبورجيون يظنونها اشاراتٍ بسيطة لاتحاد الانسان مع الله[3]. والكويكرس ومحاربو الروح يرفضون قسم الاسرار المنظور رفضاً كلياً و يعتقدون انها اعمالٌ داخلية اوروحانية للنور السموي[4]. فأيّاً كان وكيفما كان الفرق بين هذه المبادئ والآراء الفاسدة وجميع انواعها وغيرها من الآراء البروتستانية في الاسرار فاننا نرى وجهاً واحداً قد اتفقت فيه بالاجماع وهو انها كلها ترفض الراي الصحيح في الاسرار اذ لا تعتقد انها تناول حقيقة النعمة الالهية للمؤمنين وانها تولدهم وتجددهم وتقدسهم ·

٢ · ثم ان المذهب البروتستاني لم ينحصر بانهُ جعل لنفسهِ الرأي الحقيقي في جوهر الاسرار وفي فاعليتها دنيوياً بل تجاسر ان يمدّ يدهُ ويختلس من عددها ايضاً · وفي هذا الموضوع صار اختلافٌ عظيمٌ بين اتباع البدعة البروتستانية[5] · لكنهم اخيراً اتفقوا على الغالب ان يقبلوا المعمودية والشركة وحدهما سرّين · غيران هذا الاتفاق ايضاً ليس حقيقياً بل

(1) Socinian.CatecH.Racov. 6 . 3. Arminian.Confess. Remonstr. 22, 3.
(2) Voy. Mœhler. Symbolique, t.11. p. 185 et 3g. (3) Ibid. t.11, p 330 et sg. (4) Voy. sur les Quakers, ibid. P. 235. sur lis Pneumatoeques dans le traité de NovitzKy.

(٥) فان لوثيروس مثلاً وملنكتون قبلا احياناً ثلاثة اسرار وهي المعمودية والشكر والتوبة لكن اعتقدا بان الاولين اصليان (لوثيروس في سبي بابل صفحة ٢٧٦ وملنكتون في احتجاجه ١٦٧ و ٢٠٧ [illegible]) وزوينكليوس لا يقبل سوى الزيجة سرّاً عوضاً عن التوبة وكلو [illegible] يقبل الكهنوت (كتاب ١٨١٤)

ظاهريٌ · لان كلاً من رؤساء البِدَع البروتستانية يعتبر هذين السرّين هيولى ذات رأيٍ ومشيئةٍ · واما الهراطقة الذين في روسيا يرفضون القسوس ولا ينكرون تأسيس الاسرار السبعة فيكتفون بسرّين فقط قائلين «انا نكتفي ضرورة بسرّين وهما المعمودية والتوبة ونترك البقية»[1] ·

٢ · وفي ما يتعلق بالشروط المطلوبة لتتميم السر وفاعليتهِ زعم لوثيروس ان تتميم السر لا يقتضي كاهناً او اسقفاً مشرطناً شرطونية قانونية · لان كل مسيحيٍ له الكفاءة والاهلية على زعمهِ ان يتم الاسرار سواء كان اكليروسياً او علمانياً رجلاً او امرأةً ولا فرق في ذلك · وزعم ايضاً ان الاسرار متى تُمِّمَت من احد المسيحيين او احدى المسيحيات تلبث حافظة اهميتها وقوتها كيفما تُمِّمَت سواء كان تتميمها بقصدٍ او بلا قصدٍ بنيةٍ او بلا نيةٍ بجدٍ وحقيقةٍ او بتهكّمٍ ومزحٍ وتقليدٍ[2] · واما هراطقة الروس المذكورون سابقاً فبعضهم يسلم للعوام تتميم الاسرار وبعضهم وهم الذين يقبلون الكهنة يسمح للكهنة المحرومين او المقطوعين الذين ينشقون عن الكنيسة الارثوذكسية ويتحدون معهم ان يتمموها[3] · والدوناتيون القدماء والفوديون (Vodois) والالبيجيون (Albigeois) الذين نبغوا في القرن الثاني عشر والويكلفيتس (WiKleifites) الذين ظهروا في القرن

(١) القديس اغناطيوس في اسرار الكنيسة السبعة صفحة ٨ ·
(٢) Lib. de missa privata, apub Bellarmin de sacrament 1, cap. 24, n. 2.
(٣) القديس اغناطيوس في اسرار الكنيسة صفحة ٥ و ٢٦٦–٢٧٠ ·

الرابع عشر تطرقوا تطرقاً آخر في هذا الاعتقاد الردي. فانهم زعموا انهُ لا بدّ لتتميم السر وفاعليته ان يكون الكاهن لا مشرطناً قانونياً فقط بل تقياً ايضاً زاعمين ان الاسرار اذا تُممت من خدمة طالحين وغير مستحقين تكون بلا معنىً ولا قوة.(١) اخيراً ذهب اتباع لوثيروس وسائر البروتستانت ان حقيقة الاسرار وفاعليتها لا تتوقفان على اهلية متممها وطويته بل على نية وايمان متناوليها وعلى هذا المذهب لا يكون السرُّ سراً ولا تكون لهُ قوة وفاعلية الاّ حينما يتناولهُ الانسان وهو مؤمن بهِ. واما في غير وقت الاشتراك بالسر او ان اشترك احدٌ بهِ ولم يكن اشتراكهُ مقروناً بالايمان فيبطل السرُّ ان يكون سراً ولا يكون سوى عمل عديم الفاعلية والثمرة(٢)

٤ . فلكي نبين صحة اعتقاد الكنيسة الارثوذكسية في الاسرار ونبرهن فساد الآراء المخالفة للعقيدة الارثوذكسية نشرح اولاً التعليم المتعلق بكل واحدٍ من الاسرار بمفردهِ ونوضح الرأي الارثوذكسي بالتدقيق الممكن وندرج معهُ ملاحظاتنا على الآراء الفاسدة المتعلقة بكلٍّ منها ما لم نذكر عنهُ شيئاً بعد. ثم نردف ذلك بملاحظاتٍ اجمالية في الاسرار مستندين على تلك الملاحظات الافرادية وبها ننقض الآراء الفاسدة المتعلقة بهذا الموضوع.

(١) Apud Natal. AleX, Hist. eccles. sec X let XII cap.4, art. 13, § 2., sec. XIII et XIV, cap.3.art. 1, §2; art. 22, § 4;sec.XV et XVI, cap 2, art. I, §2.

(٢) في السبي ٢ : ٢٨٦ الاعتراف الارغسطي ١٢ الاحتجاج ٢ : ١٥٥

١
سر المعمودية

الفصل الاول

١ . رتبة المعمودية بين سائر الاسرار ٢ . معناها او تعريفها ٣ . اسماؤها المتنوعة

١ . للمعمودية الرتبة الاولى بين اسرار الكنيسة الارثوذكسية السبعة لانها بمثابة بابٍ يدخل الناس بهِ الكنيسة حسب اقوال مخلصنا «ان لم يولد احدٌ من الماء والروح لا يستطيع ان يدخل ملكوت الله»(١) ويعني بملكوت الله ملكوت النعمة وملكوت المجد. فتكون المعمودية اذن كبابٍ لسائر الاسرار ايضاً المحفوظة والمتممة في كنيسة المسيح قانونياً ومنذ تأسيس الديانة المسيحية الى الان مُنح هذا السرّ للناس قبل سائر الاسرار. والذي لم ينل المعمودية لا يمكنهُ البتة ان يشترك ببقية اسرار الكنيسة(٢)

٢ . ويُعنى بالمعمودية السرُّ الذي بهِ يولد الانسان الخاطئ المولود بدنس الاجداد المتواصل «ولادةً ثانيةً من الماء والروح القدس». وبنوعٍ اخص: المعمودية سرٌّ بهِ يُغطَّس الانسان الخاطئ في الماء وقد

(١) يوحنا ٣ : ٥ (٢) شرح كيرلس الاسكندري على يوحنا ٢ : ١٢ واوغسطينوس في الخطية وغفرانها ١ : ٢٠ : ٢٦

نظمَ الايمان المسيحي ثلاث دفعاتٍ على اسم الآب والابن والروح القدس فيطهر من كل خطيةٍ بواسطة النعمة الالهية ويصير انسانًا جديدًا مبرّرًا ومقدّسًا[٣] وعلى هذا الوجه تبتدئ النعمة الالهية التي تدعو الخاطئ الى الايمان بالمسيح وتنهض فيهِ هذا الايمان بان تنسكب على طبيعة الانسان نفسها وتنقيها وتقدسها وتعيد ابداعها ·

٢ · ووفقًا لهذه الآراء التي هي آراء جميع القدماء بالاجمال يسمى سرّ المعمودية باسماء متنوعة · فاوّلاً باعتبار قسمهِ المنظور يُدعى حمياً[٢] وينبوعًا مقدسًا[٣] واحيانًا ماء[٤] فقط · ثانيًا باعتبار نتائجهِ غير المنظورة واهميتهِ يُدعى نورًا[٥] ومنحة[٦] وولادة جديدة[٧] وتقديسًا[٨] وختمًا بالمسيح[٩] وختم الدين المسيحي[١٠] وختم الايمان[١١] · ثالثًا باعتبار اتحاد هاتين الخاصتين

(١) اعتراف الراي القويم ج ٢ · ١٠٣ (٢) يوستينوس في احتجاجهِ ١ : ٥٢ واكليمنضس الاسكندري في المربي ١ : ٦ والذهبي الفم في غير المدرَك مقالة ٤ : ٥ وترتليانوس في المعمودية ١٢ : ٧ (٣) اوغسطينوس في مالك الله ١٢ : ٧ (٤) رسالة برنابا ٢ : ومربي اكليمنضس ١ : ٦ وكبريانوس رسالة ٥٠ : ١٣ (٥) احتجاج يوستينوس الاول ٦١ ومربي اكليمنضس ١ : ٦ غريغوريوس النبي عظة ٣٢ وثاوذوريتوس في الحقوق الالهية ٥ : ١٨ (٦) مربي اكليمنضس ١ : ٦ (٧) احتجاج يوستينوس الاول ٦١ وغريغوريوس النبي عظة ٣٢ وترتليانوس في الحث على النقاوة ١ · (٨) عظة ٢٥ و ٤٠ وثاوذوريتوس في شرحهِ نشيد الانشاد ١ · (٩) ايناثيوس في الخدم ١٥ (١٠) اقرام في النعمة والرحمة جزء ٢ صفحة ٢٥٤ (١١) افلوجيوس الاسكندري ضد النافاتيين ٣

يسمى حمياً سريًا[١] وحميم الخلاص[٢] وحميم التوبة والمعرفة[٣] وحميم لو معمودية اعادة الولادة[٤] والانلاد الثاني[٥] وحميم الحياة[٦] وماء الحياة الدائمة[٧] وينبوعًا الهيًا[٨] وسرّ الماء[٩] وسرّ الولادة الجديدة[١٠] الخ

الفصل الثاني

في تأسيس سرّ المعمودية الالهي

١ · الفرق بين المعمودية المسيحية ومعمودية يوحنا والتلاميذ ٢ · تأسيس سرّ المعمودية الالهي واستعمالهُ وحفظهُ في الكنيسة ٣ · شهادات الآباء في الفرق بين معموديتي يوحنا والكنيسة ·

١ · امرٌ محققٌ ومؤكّدٌ ان سرّ المعمودية هو سرٌّ مؤسَّسٌ من الله · وبقولنا هنا سرّ المعمودية لا نعني كلّ معموديةٍ بل المعمودية المسيحية · ومن ثمّ نستثني اولاً معمودية القديس يوحنا وان تكن قد اخذت مبدأها من السماء[١١] لان معمودية يوحنا كانت رسمًا فقط لمعمودية المسيح[١٢] وكانت تهيئ اليهود بنوعٍ خصوصي لقبول المسيح وملكوتهِ[١٣] فكانت معمودية للتوبة[١٤] غير

(١) تقريظ غريغوريوس النبي لباسيليوس الكبير جزء ٢ صفحة ١٨٢ (٢) يوستينوس مخاطبة تريفُن ١٣ امبروسيوس ١١ : ٤ : ١٤ (٣) مخاطبة يوستينوس ١٧ (٤) تي ٣ : ٥ (٥) ثاوفيلُس لافطوليكُس ٢ : ١٦ ويوحنا الذهبي الفم في مقالاتهِ على اشعيا ١ : ٣ واوسابيوس على مزمور ١١٨ : ٧٣ (٦) اوامر الرسل ٢ : ٧ (٧) رسالة كبريانوس ٦٣ خطاب يوستينوس ١٤ (٨) كاسيودوروس على نشيد الانشاد ٧ (٩) ترتليانوس في المعمودية ١٢ (١٠) ايلاريوس على مزمور ٦٣ : ١١ واوغسطينوس في الخطية والغفران ١١ : ٢٧ : ٤٧ (١١) مرقس ١١ : ٣٠ (١٢) متى ٣ : ١١ ولوقا ٣ : ١٦ ومرقس ١ : ٨ (١٣) متى ٣ : ١–٣ ولو ١ : ١٦ و ٣ : ٣ (١٤) مر ١ : ٤ · اع ١٩ : ٤

قاعدة لمن يعمد بنعمة الروح القدس ولادة المعمَّد. ولهذا كان من الواجب ان الذين عمَّدهم يوحنا يُعمَّدون فيما بعد بمعمودية المسيح[1]. ثانيًا نستثني ايضًا تعميد القديس يوحنا للمخلص وان كان يسوع المسيح كمَّل بها كما يقول القديس يوحنا الذهبي الفم المعمودية اليهودية وفتح الباب المودي الى معمودية كنيسة العهد الجديد[2] وبارك بانحداره الى مجاري الاردن طبيعة المياه لكي تتقدس فيها الطبيعة البشرية كلها[3] وان كنا نرى ايضًا ان الروح القدس نزل على المسيح بشبه حمامةٍ حين تعمده لكي ننحدر بهذه الطريقة نعمة الروح القدس المحيية على كل واحدٍ من المؤمنين في المعمودية المسيحية[4].

(١) اع ١٩: ٢—٦ قال بولس الرسول «ان يوحنا عمَّد بمعمودية التوبة (ولم يقل معمودية المغفرة) قائلاً للشعب ان يؤمنوا بالذي يأتي بعده» وقد قال القديس يوحنا الذهبي الفم «لانهُ لم تكن الذبيحة قُدِّمت بعد ولا انحدر الروح القدس ولا انحلت الخطية ولا ارتفعت العداوة ولا انمحت اللعنة فكيف ازمع الغفران ان يكون ؟ . . . وانظر كيف حرر ذلك بكل تدقيق . لانهُ لما قال «انهُ اتى لينذر بمعمودية التوبة في برية اليهودية» اضاف الى ذلك قولهُ «للمغفرة» (مر ١ ٤) كانهُ يقول «لهذا السبب كان يقنعهم ان يعترفوا بخطاياهم ويتوبوا عنها لا لكي يعذبوا بل لكي يقبلوا الغفران بعد ذلك باكثر سهولةٍ . لانهم لو لم يدينوا انفسهم لما كانوا طلبوا النعمة ولو لم يطلبوا لما نالوا الغفران فكانت من ثمَّ هذه المعمودية تفتح طريقًا لتلك المعمودية (تفسير متى مقالة ١: ١ و٢.) (٢) يوحنا الذهبي الفم في تفسيره انجيل متى مقالة ١٢: ٣ (٣) كيرلس الاورشليمي عظة ٨: ٥١ (٤) قال يوحنا الذهبي الفم «لان الحمامة ظهرت وقتئذٍ لهذه الغاية اعني لتكون بمثابة اصبع تشير للحاضرين وليوحنا عن ابن الله وليس لتلك الغاية وحدها فقط بل لكي تعلم انت ايضًا ان الروح يأتي عليك عندما تُعمَّد» (تفسير متى مقالة ١٢ : ٢) . وقال القديس يوحنا الدمشقي

اخيرًا نستثني المعمودية التي كان تلاميذ الرب يتممونها في مدة حياته على الارض . لانهُ حسب ملاحظة القديس الذهبي الفم لم تكن هذه المعمودية تفرق عن معمودية يوحنا[1] ومع انها كانت تُقام مع معمودية يوحنا لم تكن تقوم مقام معمودية المسيح[2] لانها كانت مختصة باليهود فقط[3] فلم تكن غاية كل واحدةٍ من هاتين المعموديتين سوى تهيئة الشعب للتوبة وقبول المسيح الآتي الى العالم ليدخلوا في ملكوته[4] هذه جميعها كانت علامات سابقة ورسومًا ومقدماتٍ لظهور سرّ المعمودية المسيحية .

٢. اما ربنا يسوع المسيح فانهُ اسَّس هذا السرّ بعد قيامته اذ كان اشترانا وفتئذٍ بدمهِ الكريم وامتلك بذلك حقًا ليوزع مواهب الروح القدس[5] على المؤمنين به . فقال في ذلك لتلاميذهِ علنًا «قد أُعطي لي كلُّ سلطانٍ في السماءِ وعلى الارض فاذهبوا وتلمذوا جميع الامم وعمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس وعلموهم حفظ جميع ما اوصيتكم به وها انا معكم كل الايام والى انقضاءِ الدهر»[6] «مَن آمن واعتمد خلص ومن لم يؤمن يُدَن»[7]. فمن قولهِ هذا يتضح اولاً ان المعمودية هي سر لجميع البشر غير محصورٍ باليهود فقط . ثانيًا انها سرٌّ يتمُّ الى انقضاءِ

«ان الروح القدس نزل بحسب الجوهر على الرب بهيئة حمامةٍ ليظهر مقدمات معموديتنا» (كتاب ٤ فصل ٩) (١) انظر شهادته الآتية بين شهادات الآباء (٢) يو ٤: ١—٣ (٣) يو ٣: ٢٢—٢٣ (٤) مت ١: ٧ (٥) يو ٧: ٣٩ و ١ بط ١: ٢ و ١ كو ١: ٤ (٦) مت ٢٨ : ١٩ و ٢٠ (٧) مر ١٦ : ١٦ وقابل ذلك بالبند ١٥ من رسالة بطاركة الشرق في الايمان الارثوذكسي .

الدهور لا الى مدةٍ من الزمان محدودةٍ ومعينةٍ . ثالثًا انها شرطًا لا فرار منهُ للحصول على الخلاص الابدي وليست استعدادًا بسيطًا فقط للدخول في ملك نعمة المسيح . اما الرسل القديسون فبعد ان ارسلهم الرب ليعمدوا الامم بشروا وقد لبسوا قوةً من العلا[1] ان يتمموا سرَّ المعمودية بكل اقدامٍ ويطهروا المؤمنين ويعيدوا ولادتهم بالماء وبنعمة الروح القدس . ففي نهار عيد الخمسين وقف القديس بطرس وقال لليهود «توبوا وليعتمد كلٌّ منكم باسم يسوع المسيح لغفران الخطايا فتأخذوا موهبة الروح القدس»[2] «فقبلوا كلامهُ بفرحٍ واعتمدوا وانضمَّ في ذلك اليوم ثلاثة آلاف نفسٍ»[3] وبعد وقتٍ ليس بكثيرٍ عمد القديس فيلبُّس الخصيَّ[4] والقديس بطرس عمد قائد المائة كرنيليوس مع عائلتهِ واشخاصًا آخرين[5] والقديس بولس عمد امرأةً اسمها ليدية[6] وحافظ السجن مع كل عائلتهِ[7] وكريسبُس رئيس المجمع وكلَّ بيتهِ وكثيرين من سكان كورنثوس[8] وبعضًا من التلاميذ في افسُس الذين كانوا قد اعتمدوا بمعمودية يوحنا[9] من الرسل القديسين . هكذا سُلِّم سرُّ المعمودية للكنيسة من الرب والرسل وهي من ذلك الحين الى الآن تقيمهُ ولن تزال تتممهُ الى انقضاء الدهور بلا انقطاع وبهِ تقبل في احضانها كامِ حنونةٍ كلَّ من يريد ان يصيرها ابنًا وينال الخلاص .

(١) لو ٢٤: ٤٩ (٢) اع ٢: ٣٨ (٣) ٢: ٤١ (٤) ٨: ٣٨
(٥) ١٠: ١—٤٨ (٦) ١٦: ١٥ (٧) ١٦: ٣٣ (٨) ١٨: ٨
(٩) ١٩: ١—٥ الخ

٢ . ان آباء الكنيسة ومعلميها القدماء قد علموا هذا الفرق نفسهُ فيما بين هاتين المعموديتين اعني معمودية يوحنا والمعمودية المسيحية بحسب التأسيس وبحسب المبدإ على السواء . فانَّ ترتليانوس مثلاً يقول هكذا «نجد في اعمال الرسل ان الذين اعتمدوا من يوحنا لم يكونوا قد اخذوا الروح القدس ولا كانوا سمعوا بهِ[1] وهذه المعمودية كانت للتوبة وكمقدمةٍ لمعمودية يسوع المسيح الآتية لترك الخطايا وخلاص النفوس . فاذا كان يوحنا ينادي بمعمودية التوبة لمغفرة الخطايا لم يكن ذلك الاَّ بالنظر الى المغفرة اللاحقة . لان التوبة تتقدم والمغفرة تلحقها . لكنَّ معمودية يوحنا تُحدُّ صريحًا في الانجيل الشريف بانها تهيّءُ الطريق المودية الى الايمان بالمسيح . . . فتلاميذ المسيح عمدوا كخدامٍ ويوحنا كذلك عمد كسابقٍ فتكون معمودية التلاميذ هي معمودية يوحنا نفسها لا معمودية اخرى اذ لم توجد ولا توجد معمودية اخرى سوى الموسسة من يسوع المسيح . وهذه المعمودية لم يكن ممكنًا ان تَتمَّ وقتئذٍ من التلاميذ . لانهُ في ذاك الوقت لم يكن مجد الرب قد اتضح تمامًا وفاعلية الجحيم لم تكن بعد قد بدت بآلامهِ وقيامهِ . . . فقبل تألم الرب وقيامتهِ لم يكن شيءٌ آخر يحصل بهِ الانسان على الخلاص سوى الايمان وحدهُ الذي لما توشح قوةً وقدرةً بآلامِ الرب وقيامتهِ جعل سر المعمودية المقدسة تامًا وكاملاً . فكان هذا السر ختم المسيح وثوب الايمان لان الايمان قبل المعمودية كان فارغًا وعادمًا القوة والشريعة واما الآن فقد مُنِحت شريعة المعمودية

(١) اع ١٩

وأعلنت صورتها بكلام المخلص حيث قال «اذهبوا وتلمذوا كل الامم»[١] وقد تحرر تعريف الشريعة هكذا «ان لم يولد احد من الماء والروح فلا يستطيع ان يدخل ملكوت الله»[٢] فخضع الايمان من ثمّ لضرورة المعمودية ومن ذلك الحين جميع المؤمنين يعمَّدون»[٣].

والقديس باسيليوس الكبير يقول «يوحنا كان ينادي بمعمودية التوبة وكانت تخرج اليه جميع اليهودية. والرب ينادي بمعمودية التبني ومن من المتكلين عليه لا يطيعه؟ تلك معمودية الادخال وهذه معمودية التكميل. تلك لابتعاد الخطية وهذه للتقرّب من الله»[٤].

والقديس غريغوريوس اللاهوتي يقول «ان موسى كان يعمّد ولكنّ تعميده كان بالماء وقبل ذلك في الغمام وفي البحر. وهذا كان رسماً فقط كما رأى بولس ايضاً اما البحر فللماء واما الغمامة فللروح. المنّ لخبز الحياة والمشروب للمشروب الالهي. ويوحنا ايضاً عمّد ولم تكن معموديته يهودية محضة لانه لم يعمد بالماء فقط بل للتوبة ايضاً. غير ان معموديته لم تكن روحية كلها لانه لم يضف لفظة بالروح. ويسوع ايضاً عمّد ولكن بالروح وهذا هو الكمال»[٥].

والقديس يوحنا الذهبي الفم يقول «لاي سببٍ قال انه لم يكن يعمّد» سبق يوحنا فقال «هو سيعمدكم بالروح القدس ونار؟[٦] لكنه لم

(١) مت ٢٨: ١٩ (٢) يوحنا ٣: ٥ (٣) في المعمودية ١٠ و١١ و١٢
(٤) مقالة يحث فيها على الاعتماد ١ (٥) خطبة ٣٩ في عيد الظهور
(٦) متى ٣: ١١

يكن بعد قد أُعطي الروح. فبحقٍ الذين لم يكن يعمِّد. اما التلاميذ فكانوا يعمّدون قاصدين ان يقدموا كثيرين للتعليم الخلاصي ... وان سأل احدٌ بماذا كانت تمتاز معمودية التلاميذ عن معمودية يوحنا؟ نقول له: لم تكن تمتاز بشيء لان المعموديتين كلتيهما كانتا عادمتَي نعمة الروح ولكلتيهما غايةٌ واحدة في التعميد وهي تقديم المعتمدين الى المسيح. ولهذا فالمعمودية اليهودية تبطل واما معموديتنا فتاخذ ابتداءً وما حصل للفصح يحصل المعمودية ايضاً. لان السيد له المجد لما استعمل هنا كلا الفصحين ابطل الواحد واعطى الآخر ابتداءً. وهنا ايضاً اذ تمّم المعمودية اليهودية فتح حالاً ابواب معمودية الكنيسة. وكما فعل في ذلك الوقت على مائدةٍ واحدةٍ هكذا الآن في نهرٍ واحدٍ رسم الظل ووضع الحقيقة. لان هذه المعمودية وحدها لها نعمة الروح واما معمودية يوحنا فكانت عادمة هذه الموهبة. ولهذا السبب لم يحدث على سائر المعتمدين شيءٌ من ذلك ولا نالوا الروح القدس. واما عليه فقد انحدر الروح الذي هو مزمعٌ ان يعطيهُ لكي نتعلم مما سبق ذكره ان هذا لم تفعله تقاوة المعمّد بل قدرة المعتمد. ومن ثمّ انفتحت وقتئذٍ السموات وانحدر الروح»[١].

والقديس كيرلّس الاسكندري يقول «كما ان الناموس الموسوي كان يحوي الحقيقة مغشاةً بحجابٍ سريّ وكان يصلح كمقدمةٍ للخيرات العتيدة والعبادة بالروح هكذا معمودية يوحنا ايضاً. فانها تتضمن خاصة استعدادية لمعمودية المسيح»[٢].

(١) مقالة ١٢ · ٤٠ على متى (٢) على يوحنا كتاب ٢ راس ٥٧

هذا التعليم نفسه نجده ايضًا في مؤلفات القديس كيرلس الاورشليمي[١] والقديس اثناسيوس[٢] واوغسطينوس الجليل[٣] وايارونيموس[٤] والقديس يوحنا الدمشقي وآخرين[٥].

الفصل الثالث

في قسم المعمودية المنظور

تقسيم الفصل ١ . ماء المعمودية والرش ٢ . التغطيسات الثلاث ٣ . الاعتماد باسم الثالوث الاقدس

ان قسم المعمودية المنظور يقوم على الخصوص بصبغة المعتمد اعني بتغطيسه في الماء ثلاث دفعات مع لفظ هذه العبارة وهي « يعمَّد عبد الله (فلان) باسم الآب والابن والروح القدس[٦] » وفي هذا العمل نميز بنوع خصوصي ثلاثة امور: اولاً مادة السر او جوهره اعني الماء. ثانيًا تميم السر اعني تغطيس المعتمد في الماء وإعادة ذلك ثلاث دفعات. ثالثًا الكلمات الملفوظة في هذا السر.

(١) عظة ٣:٤ (٢) على متى ٣ و ٢ وعلى الظهور ١٧٦ (٣) رسالة ٦٤ (٤) مخاطبة ضد لوكيفيروس (٥) قال الدمشقي « ان معمودية يوحنا كانت كمقدمة لمعمودية المسيح وكانت للتوبة ليؤمنوا بيسوع المسيح. لان يوحنا نفسه كان يقول « انا اعمدكم بالماء للتوبة واما الآتي بعدي . . . هو سيعمدكم بالروح القدس والنار » (متى ٣:١١) وهكذا كان يوحنا ينقي قبلاً الآتين اليه ليجعلهم اهلاً لنوال الروح القدس » كتاب ٤ راس ٩ . راجع غريغوريوس الكبير ٣ على الانجيل كتاب ١ مقالة ٢٠ . ٣ وثاوفيلوس على متى ٣ ومرقص ولوقا ٣ (٦) التعليم المسيحي الكبير في المعمودية

١ . فاولاً يجب ان تكون مادة سر المعمودية ماء قراحًا[١] اعني تلك المادة التي عينها المخلص للمعمودية بالاقوال الآتية « ان لم يولد احد من الماء والروح فلا يستطيع ان يدخل ملكوت الله »[٢] والتي عمد بها الرسل القديسون كما ذكر الكتاب: انهم كانوا يعمدون بالماء . ففي كتاب اعمال الرسل الشريف نقرأ عن القديس فيلبس الرسول والخصي هكذا « وفيما هما سائران في الطريق اقبلا على ماء فقال الخصي هوذا ماء ماذا يمنع ان اعتمد؟ . . . فامر ان تقف المركبة ونزلا كلاهما الى الماء فيلبس والخصي فعمده »[٣] وكذلك حينما حل الروح القدس بغتة على جميع الامم الذين كانوا يسمعون القديس بطرس قال هذا الرسول « أترى يستطيع شيء ان يمنع الماء حتى لا يعتمد هؤلاء الذين قبلوا الروح القدس كما نحن ايضًا؟ وامرهم ان يعتمدوا باسم الرب »[٤]. فالكنيسة المقدسة الرسولية وفقًا لتعليم الرب وتسليم الرسل القديسين تتمم منذ القديم سر المعمودية بالماء كما يستنتج من شهادات آبائها ورعاتها التي لا تحصى . وانظر كيف يشهد القديس يوستينوس

« ان جميع الذين يقتنعون ويصدقون أن ما نعلمه ونقوله حقيقي ويعِدون أنهم يستطيعون ان يعيشوا هكذا يُعلَّمون ان يصلوا ويطلبوا من الله بصوم مغفرة خطاياهم السالفة ونحن نصلي ونصوم معهم . بعد ذلك نأتي بهم الى حيث يوجد ماء ويُعاد ولادتهم باسلوب إعادة

(١) اعتراف الراي القويم قسم ١ سوال وجواب ١٠٣ (٢) يو ٣:٥ (٣) اع ٨ ٣٦—٣٨ (٤) ١٠:٤٧—٤٨

الولادة الذي أُعيدت بهِ ولادتنا . لانهم يستحمُّون حينئذٍ في الماء على اسم ابي الكل الاله السيد ومخلصنا يسوع المسيح والروح القدس»[1] .

والقديس كيرلس الاورشليمي يقول «كما ان الذي يدخل في الماء ويُعمَّد يغمر بالمياه من كل جهةٍ هكذا قد اعتمدوا تمامًا من الروح ايضًا . لكن الماء يغمر (المعمَّد) من الخارج واما الروح فانهُ يعمد النفس باطنيًّا بلا انقطاعٍ»[2] .

والقديس غريغوريوس اللاهوتي يقول «بما اننا مركبون من شيئين اعني من نفسٍ وجسدٍ احدهما طبيعةٌ منظورةٌ والآخر (طبيعةٌ) غير منظورةٍ فلهذا جُعِل التطهير مضاعفًا اعني بالماء والروح . اما الواحد فيؤخذ ظاهرًا جسديًا واما الآخر فيأتي منزَّهًا عن الجسم المحسوس وبنوعٍ غير منظور . وايضًا اما الواحد فهو رمزيٌّ واما الآخر فحقيقيٌّ ومنقٍّ للاعماق وهو بما انهُ مجددٌ للولادة الأُولى يجعلنا جُددًا من عتقاءَ ومتألهين الشكل عوض ما نحن عليهِ»[3]

والقديس باسيليوس الكبير يقول «لكون الغاية من المعمودية مضاعفة وهي ان يبطل جسد الخطية كي لا يثمر فيما بعد للموت وان تكون الحياة بالروح ليكون لنا الثمر بالتقديس يكون الماء ليرسم صورة الموت اذ يقبل الجسد بمثابة قبرٍ واما الروح فيُدخِل القوة المحيية مجددًا نفوسنا من موت الخطية الى الحياة الأُولى»[1] .

(١) احتجاج ٧ صفحة ٧٩ (٢) عظة ٣ : ٢ (٣) خطابة في المعمودية

واوغسطينوس المغبوط يقول «ما هي معمودية المسيح؟ حميم ماء الحي وبعض عبارات تُقال عليهِ . فان نزعتم الماء فليس تعميد . او حذفتم العبارات فليس تعميدٌ ايضًا»[1]

والقديس يوحنا الدمشقي يقول «ان الرب امرنا ان نُعيد ولادتنا بالماء والروح اذ يحل الروح القدس على الماء بعد التضرع والدعاء لانهُ كما ان الانسان مركبٌ من قسمين اعني من نفسٍ وجسدٍ هكذا الرب ايضًا طهَّرنا بالماء والروح . اما الروح فليجدِّد الصورة التي فينا والمثال الذي عليهِ خُلقنا واما الماء فلينقي الجسد من الخطيئة بنعمة الروح القدس وينقذهُ من الهلاك . فالماء هنا صورة الموت لكنَّ الروح عربون الحياة»[2] فيما تقدم نستنتج ان جميع الذين يرفضون القسم المادي في سرّ المعمودية كما كان الباوليكيون مثلاً[3] يهدمون اعتباره كلهُ فيبطل التعميد ان يكون تعميدًا . وكذلك يخرج عن دائرة الصواب ويسقط في الضلال جميع الذين يتبعون لوثيروس في يدعون ان يعتبروا لا الماء فقط بل كل مادةٍ سيَّالةٍ غيره مناسبة لهذا السرّ[4] ويجيزون التعميد بالزيت والزيبق والخمر الخ

٢ · ويجب ان يتمّ سر المعمودية طبقًا للقانون الرسولي[5] ولتعليم معلمي

(١) تفسير يوحنا ١٥ : ٤ (٢) كتاب الايمان ٤ : ١٠ صفحة ٢٣٦ (٣) فوتيوس ضد ماني ١ : ٩ (٤) بلارمينوس في المعمودية فصل ٢ (٥) كل اسقف او قس لا يتم ثلاث غطسات في السر الواحد بل غطسة واحدة تُعطى لموت الرب فليقطع لان الرب لم يقل عمدوا الموتى بل قال اذهبوا وتلمذوا كل الامم وعمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس» (قانون ٥٠).

الكنيسة القدماء بتغطيس المعتمد ثلاث دفعاتٍ في المآء باسم الاقانيم الثلاثة للثالوث الكلي قدسهُ[1] كتذكارٍ لموت الرب يسوع ودفنهِ وقيامتهِ[2] ولهذا كانت الكنيسة القديمة تعتبر معمودية الافنوميين والهراطقة الآخرين الذين كانوا يتممون المعمودية بغطسةٍ واحدةٍ باطلةً[3] اما وجوب تغطيس الموعوظ في المآء فهو للاسباب الآتية: اولاً لان المسيح اعتمد من السابق على هذه الصورة[4] ثانيًا لان الرسل القديسين هكذا كانوا يعتمدون[5] ثالثًا لان المعمودية تُشخص في الكتاب المقدس بانها صورةٌ تامةٌ للطوفان العمومي ورسمٌ يطابقهُ حسب تعليم الرسول بطرس حيث يقول «الذي يخلصنا مثالهُ الآن اي المعمودية»[6] واما بولس الرسول فيسميها حميم مآءٍ لتقديس النفس وتنقيتها[7] و«قبرًا دُفنا فيهِ مع المسيح بالمعمودية للموت ونهضنا من الاموات معهُ»[8] فتشبيهها بالطوفان وتسميتها حميماً وقبرًا دُفنا بهِ مما يقتضي التغطيس لا الرشَّ لان

(١) ترتليانوس ضد براكسياس ٢٦. والذهبي الفم في تفسير يوحنا مقالة ٢٥ : ٢ وامبروسيوس في الاسرار ٢ : ٧ وايارونيموس ضد لوكيفيروس فصل ٤. وباسيليوس الكبير الذي قال «فبثلاث غطساتٍ ودعاء مساوٍ لها في العدد يتم سر المعمودية العظيم لكي يتصور رسم الموت وتستنير نفوس المعتمدين بتسليم معرفة الله». في الروح القدس لامفيلوخيوس فصل ١٥ (٢) القديس كيرلس الاورشليمي تعليم ٢ في الاسرار فصل ٤ وغريغوريوس النيصي في معمودية المسيح جزء ٢ صفحة ٣٢٧ (طبعة مولر) وفي مواعظهِ فصل ٢٥. رسالة لاون فصل ٣. (٣) «انما نقبل الافنوميين الذين يعمدون بغطسةٍ واحدةٍ والمونتانيين . . . وجميع الذين يريدون منهم ان يأتوا الى الكنيسة الارثوذكسية كما نقبل اليونانيين» قانون ٧ للمجمع المسكوني الثاني (٤) مت ٣ : ١٦ امر ١ : ٥ يو ٣ : ٢٣ (٥) اع ٨ : ٣٧ و٣٨ (٦) ١ بط ٣ : ٢٠ - ٢١ (٧) افس ٥ : ٢٦ وتي ٣ : ٥ (٨) رو ٦ : ٤ وكو ٢ : ١٢

الدفن لا يكون دفنًا ما لم يُقرَن بالدخول في قلب القبر وهكذا المعمودية لا تكون معموديةً ما لم يدخل الانسان قلب المآء اي يغطَّس فيهِ. ثم ان لفظة معمودية التي هي في اصلها «فابتزما» لا يمكن ان تُطلَق على سرّ المعمودية ما لم يُتمّ بالتغطيس . لانْ لفظة «فابتزما» هي صيغةُ مبالغةٍ من «فابتين» الذي معناهُ الصبغ اي ادخال الشيء في قلب السيّال المطلوب الاصطباغ بهِ ولفظة «فابتزما» معناها ادخال الشيء في السيال مع كبسهِ الى اسفل كما تقتضي المبالغة وهذا لا يكون الّا بالتغطيس. رابعًا لان شهادة المخالفين لنا في المذهب[1] تصرّح بان سر المعمودية يتمّ في الكنيسة القديمة بالتغطيس كما يشهد بذلك القديس ديونيسيوس الاريوباغي[2] وترتليانوس[3] والقديس باسيليوس الكبير[4] والقديس غريغوريوس النيصي وغيرهم ايضاً[5].

اما نضح المآء او سكبهُ على المعتمدين الذي تستعملهُ الان الكنيسة الغربية تحت اسم المعمودية فنقول فيهِ ما نقول في غيرهِ من امثالهِ وهو ان هذه الكنيسة قد اعتادت ان تجعل ما يخرج عن القانون قانونًا في هذا السرّ وفي غيرهِ . فقد حوّلت معموديتها الى رشٍّ مستندةً على ان الكنيسة

(1) Cabassut.Synops.Consil.,III,P.331,paris;1838.Klee Kathol).Dogmat., III5,128,MainZ,1845;manuel deI,hist.de po gm.chrét . ,II, ,P 209 , P arés, 1838.

(٢) في رئاسة الكهنوت الكنائسية ٢ : ٧ (٣) «لاننا لا نغطس مرةً واحدةً بل ثلاث مراتٍ باسم كل واحدٍ من الاقانيم» (ضد براكسياس ٢٦) «حين نأتي الى المآء نغطس ثلاث مراتٍ» (في الاكليل ٣) (٤) انظر شهادتهُ السابقة (٥) خطاب للموعوظين فصل ٢٥ .

القديمة عمدت احيانا بالرش · على ان الكنيسة القديمة لم تسمح بهذا النوع الا في ظروف ضرورية لا مناص منها وعلى الخصوص للمرضى والمقعدين المُلقَين الذين لا يمكن تعميدهم بالتغطيس [1] · ومع ذلك فقد كانت صورة المعمودية هذه للمرضى في القرن الثالث موضوع مشاجرات بين مسيحيي ذلك العصر اذ كان القسم الكبير منهم لا يعتبرون المرضى المرشوشين معمَّدين وكانوا يطلبون اعادة تعميدهم حتى ان القديس كبريانوس اضطرَّ اخيرًا ان يكتب في هذا الموضوع لينزع الخلاف من بينهم ذاهبًا الى ان سرَّ المعمودية لا يعدم قوتهُ ولا صحتهُ اذا تُمِّم عند الضرورة بالرش [2] وانهُ لا حاجة بعد ذلك الى اعادة التعميد · والكنيسة الارثوذكسية ايضًا تتنازل لهذه الاحكام ولا تعيد معمودية للذين اقتضت الضرورة تعميدهم بالنضح او بالسكب كالمرضى وامثالهم ولا تعتبر قوة سرّ المعمودية مفقودةً عنهم بسبب النضح [3] ولكنها لا تسمح ولا تقبل باجراء المعمودية على هذه الصورة الأدنى الظروف التي تقتضيها وهي لا تزال تحسب ذلك خروجًا عن القانون العام ووجهًا اضطراريًا للذين حكمت عليهم طوارق الدهر حتى لا يكونوا بلا تعميد

فضلال الذين يعمِّدون بالرش ظاهرٌ واضحٌ ولا يحتاج الى اكثر مما ذكرنا الآن في هذا المقام·

٢· ويجب ان تتمَّ المعمودية باسم الثالوث الاقدس اعني بان يلفظ

(١) ترتليانوس في التوبة فصل ٦ وتاريخ اوسابيوس ٦ : ٤٣ واوغسطينوس في تفسير يوحنا ٨ : (٢) رسالة ٧٦ (٣) انظر الكتاب الذي عنوانهُ «احتجاج المسيحيين الذين تعمدوا بالنضح» وهو مطبوع سنة ١٧٠١ باللغة الروسية

خادم هذا السرّ المقدس الكلمات الآتية وهي «يعمَّد عبد الله (فلان) باسم الآب والابن والروح القدس» كما امر ربنا تلاميذهُ ان يعمدوا جميع الامم باسم اللاهوت المثلث الاقانيم · فكنيسة المسيح المقدسة امتثالاً لهذه الوصية تعمد الجميع على هذا الاسلوب · وعندها على ذلك شهاداتٌ كثيرة · ففي القوانين الرسولية نقرأ «ان كل اسقفٍ او قسٍّ لا يعمِّد حسب امر الرب بالآب والابن والروح القدس بل بثلاثة عديمي الابتداء (آباء) او بثلاثة بنين او بثلاثة معزّين يُقطع [1] ولشهد بذلك شهادات القديس الشهيد يوستينوس وترتليانوس السابقة الذكر · واريجانس يقول «معمودية الخلاص لا ينبغي ان تُتمَّ على وجهٍ آخر الا باسم الثالوث الكلي قدسهُ اعني باستدعاء الآب والابن والروح القدس» [2] والقديس كبريانوس يقول «ان الرب ذاتهُ وصى بان نعتمد باسم الثالوث القدوس بجملتهِ» [3] والقديس اثناسيوس يقول «مَن يرفض هذا الاقنوم او ذاك من الثالوث الاقدس ويعتمد باسم الآب فقط والابن وحدهُ او الآب والابن خلا الروح القدس فذاك لا يشترك بالسرّ اصلاً لان الكمال والخلاص هما في الثالوث» [4] والقديس باسيليوس يقول «ان الايمان والمعمودية هما طريقان للخلاص متحدتان احدهما بالاخرى وغير منقسمتين · فان الايمان يكمَّل بالمعمودية والمعمودية تؤيَّد بالايمان وكلاهما يكمَّل بالاسماء نفسها · لاننا كما نؤمن

(١) قانون ٤٩ (٢) انظر اعلاهُ (٣) رسالة ٧٢ (٤) الرسالة الى سرابيون اصفحة ٣٠

باسم آبٍ وابنٍ وروح قدسٍ هكذا نعتمد ايضاً باسم الآب والابن والروح القدس . فيتقدم الاعتراف مدخلاً في الخلاص وتتبعهُ المعمودية خاتمةً قبولنا »[4] . ونجد شهاداتٍ أُخر كهذه في مؤلفات القديس غريغوريوس اسقف نيصص وامبروسيوس وكيرلُّس الاسكندري وايارونيموس واوغسطينوس وغيرهم .

اما عبارات الكتاب المقدس التي تقول عن صيرورة المعمودية « في المسيح يسوع »[2] او « باسم يسوع المسيح »[3] فلا يُقصد بها نفي المعمودية باسم الثالوث الاقدس والاقتصار على ذكر اسم يسوع المسيح فقط حين التعميد بل هي تدلُّ حسب تفسير آباء الكنيسة القديسين ومعلميها على ان عمل الخلاص بالمعمودية قد صار بواسطة تجسُّد الاقنوم الثاني من الثالوث الاقدس ربنا يسوع المسيح الذي علَّمنا صريحاً ان نعتمد باسم الثالوث الكلي قدسهُ . فالعبارة إذن « إعتمد بيسوع المسيح تدلُّ اولاً على الاعتماد بالمعمودية التي أمر بها واسَّسها يسوع المسيح اعني الاعتماد لا بمعمودية يوحنا او غيرها من التي مثلها بل بالمعمودية المسيحية على اسم الثالوث القدوس . وقد قال صريحاً القديس إفلوجيوس بطريرك الاسكندرية « ان الاعتماد بيسوع المسيح هو الاعتماد حسب وصية يسوع المسيح وتعليمهِ الصريح اعني باسم الآب والابن والروح القدس » ونجد في كتاب الاعمال ان بعض اشخاصٍ كانوا قد اعتمدوا بمعمودية

(١) في الروح القدس لامفيلوشيوس فصل ١٢ (٢) ا كو ١ و ٢ : ١٣

(٣) اع ٢ : ٣٨ و ٨ : ١٦ و ١٠ : ٤٨ و ١٩ : ٣

يوحنا ولم ينالوا مواهب الروح القدس . وبعد ذلك اعتمدوا باسم الرب يسوع[1] ليستحقوا نوال هذه المواهب . وهذا بلا ريبٍ يدل على ان الكتاب يعني باعتمادهم باسم الرب يسوع أنهم اعتمدوا بمعمودية المسيح .

ثانياً ان العبارة « إعتمدَ باسم يسوع المسيح » فضلاً عن انها لا تنفي ضرورة ذكر اسم الآب والروح القدس في المعمودية هي تؤكد ذلك وتقتضيهِ . لان اسم اقانيم الثالوث الاقدس جميعها هو بحسب الطبيعة والربوبية واحدٌ لا ينقسم . وقد قال في ذلك القديس باسيليوس « لا يعثرنَّ احداً كلام الرسول حيث يسكت احياناً عن ذكر اسم الآب والروح القدس في المعمودية ولا يُظنَّ لهذا السبب ان استدعاء الاسماء امرٌ ليست ملاحظتهُ واجبةً . لانهُ يقول « ايها الذين اعتمدتم بالمسيح قد لبستم المسيح » وايضاً « ايها الذين اعتمدتم بالمسيح بموتهِ اعتمدتم » . فذكر المسيح هو اعترافٌ بالجميع . لان هذا الاسم المقدَّس يدلُّ على الاله الذي مَسَحَ والابن الذي مُسِحَ والمسحة وهي الروح القدس كما تعلمنا من بطرس حيث يقول يسوع الذي من الناصرة الذي مسحهُ الله بالروح القدس »[2] . ومعلمٌ آخر من آباء الكنيسة يقول « بحقٍ كتب بولس الرسول محامياً عن حقيقة الايمان بالمسيح اذ رأى ان اسم الثالوث واحدٌ فليس اسمٌ آخر تحت السماء قد أُعطي بين الناس بهِ ينبغي ان نخلص »[3] . لانهُ فيما كان يعلِّم الناس ان يعتمدوا باسم يسوع المسيح لم يكن يعلّمهم الاَّ

(١) اع ١٩ : ٤ و ٥ (٣) اع ١٠ : ٣٨ (في الروح القدس فصل ١٥

(٢) اع ٤ : ١٢

باسم الآب والابن والروح القدس وحده لا غير . لان الثالوث الذي فيه وحدة الوجود كاملة ليس فيه فرقٌ طبيعيٌ من جهة الاسم » . والقديس يوحنا الدمشقي يقول في ذلك « وان كان الرسول الالهي يقول اننا اصطبغنا بيسوع المسيح وبموتهِ[1] الاّ انهُ لا يعني ان يكون الاستدعاء حين التعميد هكذا (اي باسم يسوع فقط) بل اراد ان يبين بهذا التعبير ان هذا السرّ رسمٌ لموت المسيح . لان المعمودية بالغطسات الثلاث تشير الى إقامة الرب في القبر ثلاثة ايام . والاعتماد بالمسيح لا يدلّ الاّ على الاعتماد بالايمان بهِ اذ بدون الايمان بهِ لا يمكننا ان نتعلم الاعتراف بالآب والابن والروح القدس . بالحقيقة ان يسوع المسيح هو ابن الله الحيّ وقد مُسح من الآب بالروح القدس ... فقد علّم الرب نفسهُ تلاميذهُ ما هي الالفاظ التي ينبغي ان تُستعمَل حين الدعاء قائلاً « اذهبوا وتلمذوا كل الامم وعمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس »[2] .

فالكنيسة اذن وفقاً لوصية المخلص الصريحة السابق ذكرها تتمّ المعمودية باسم الآب والابن والروح القدس . وقد افرزت في كل مكانٍ جميع الهراطقة الذين كانوا يبتعدون عن هذا الرسم الالهي ويعمدون باسم ثلاثة آباء او ثلاثة بنين او ثلاثة مُعزّين[3] ومنهم عددٌ من الغنوسطيين والافنوميين الذين كانوا يعمدون بموت المسيح[4] . والماركيين الذين كانوا يعمدون باسم ابي الجميع غير المعروف واسم الحقيقة امّ

(١) رو ٦ : ٥ (٢) مت ٢٨ : ١٩ كتاب الايمان ٤ فصل ٩ (٣) قانون ٤٩ من قوانين الرسل (٤) قانون ٥٠ من قوانين الرسل اوريجانس على رسالة رومية ٦ : ٣ تاريخ سوكراتس الكنائسي ٥ : ٢٤

كلِّ موجودٍ واسم المسيح الذي نزل على يسوع ليتحد معهُ ويشاركهُ في فعل العجائب والخلاص[1] . والافنوميين الذين كانوا يعمّدون باسم الصانع او باسم الاله الخالق والابن المخلوق والروح المقدَّس الذي خُلق بواسطة الابن[2] وآخرين مثلهم قد افرزتهم الكنيسة .

الفصل الرابع :

في النتائج غير المنظورة التي من المعمودية وفي عدم اعادة المعمودية

١ . اعادة الولادة — ٢ . التبرير — ٣ . نعمة التبني — ٤ . حقوق ارث الملكوت — ٥ . شهادات الآباء — ٦ وحدة المعمودية — ٧ . معمودية الهراطقة

١ . في البرهة التي فيها يشاهَد الموعوظ بالايمان المقدس غاطساً في مياه المعمودية وينطق خادم السرّ هذه الكلمات وهي « يُعمَّد عبد الله (فلان) باسم الآب والابن والروح القدس » في تلك البرهة نفسها تفعل النعمة الالهية فعلاً غير منظورٍ في طبيعة المعتمد كلها . فاولاً تُعيد ولادتهُ وتجدد خلقتهُ حسب شهادة مخلصنا الالهي في خطابهِ مع نيقوديموس حيث يقول « اجاب يسوع وقال لهُ الحقّ الحقّ اقول لك ان لم يولد احدٌ من فوق فلا يستطيع ان يرى ملكوت الله . فقال لهُ نيقوديموس كيف يستطيع الانسان ان يولد وهو شيخ ؟ هل يستطيع ان يدخل ثانيةً بطن امهِ ويولد ؟ اجابهُ يسوع الحقّ الحقّ اقول لك ان لم يُولَد احدٌ من الماء والروح فلا يستطيع ان يدخل ملكوت الله . المولود من الجسد جسدٌ

(١) ايفانيوس في هرطقة ٢٤ . تاريخ اوسابيوس الكنائسي ٤ : ٣ : ١١

(٢) ايفانيوس في الهرطقة ٧٦

هو والمولود من الروح روحٌ هو»[1] ولهذا يسمّي القديس بولس المعمودية ولادةً ثانيةً»[2] .

٢ . ان المعمودية المقدسة تنقّي المعتمد من كل خطيئةٍ وتبرّرهُ وتقدّسهُ . وهذا يستنتج بكل صوابٍ من مخاطبة المخلص لنيقوديموس عينها حيث نرى جليًّا اننا قبل المعمودية نكون جسدًا واننا نكون مدنّسين بدنس الخطيئة الجدية الذي يمنعنا ان ندخل ملكوت الله ولكننا بولادتنا من الروح القدس في سرّ المعمودية نصير روحًا وننقّى من خطيئة اجدادنا ومن كل دنسٍ جسديٍّ وهكذا نستحق دخول ملكوت الله « توبوا وليعتمد كلٌّ منكم باسم يسوع المسيح لغفران الخطايا »[3] . ثم ان المعمودية لا تنقّي دنس الجسد فقط بل ادناس الضمير ايضًا لاجل الله كما يقول بطرس الرسول «الذي المرموز اليه به يخلصنا نحن ايضًا اي المعمودية المراد بها لا ازالة القذر عن الجسد بل سؤال ضميرٍ صالحٍ لدى الله بقيامة يسوع المسيح»[4] . وهذا يُستنتَج ايضًا من شهادة القديس بولس حيث يقول « المسيح احبَّ الكنيسة وبذل نفسهُ لاجلها ليقدّسها مطهرًا اياها بحميم الماء بالكلمة ليحضرها لنفسهِ كنيسةً مجيدةً لا دنس فيها ولا غضن ولا شيء مثل ذلك بل تكون مقدسةً منزهةً عن كل عيبٍ »[5] فهنا تُدعَى المعمودية «حميمَ الماء بالكلمة» كما رأينا سابقًا في تكلمنا عن تسمية المعمودية . وهذا الاسم اي « الحميم » يفسّرهُ الرسول نفسهُ في محل آخر بقولهِ « لكن اغتسلتم

(١) يو ٣ : ٣—٦ (٢) تي ٣ : ٥ (٣) اع ٢ : ٣٨ (٤) ١ بط ٣ : ٢١ (٥) اف ٥ : ٢٥—٢٨

بل تقدّستم بل تبررتم باسم الرب يسوع وبروح الهنا »[1] . فالمعمودية اذن التي هي حميمُ الماء بالكلمة تغسل المعتمد وتقدّسهُ وتبرّرهُ اعني تنقيهِ من جميع خطاياهُ ومن الخطيئة الجدية وتجعلهُ بارًّا وقديسًا ونقيًّا[2]

٣ . ان المعمودية تجعل الانسان ابنًا لله وعضوًا في جسد المسيح كما يقول الرسول بولس « لانكم جميعكم ابناء الله بالايمان بيسوع المسيح . لانكم انتم الذين اعتمدتم بالمسيح قد لبستم المسيح . . . لانكم جميعًا واحدٌ بيسوع المسيح »[3] . وفي موضعٍ آخر يقول « لاننا جميعنا بروحٍ واحدٍ ايضًا اعتمدنا لجسدٍ واحدٍ يهودًا كنا ام يونانيين عبيدًا ام احرارًا وجميعنا سُقينا روحًا واحدًا »[4] .

٤ . ان المعمودية تعتقنا من عقوبات خطايانا الابدية وتجعلنا وارثي الحياة الابدية « من آمَن واعتمد خلص ومن لم يؤمن يُدَن »[5] وبولس الرسول يقول « خلّصنا هو لا اعتبارًا الاعمال برٍ عملناها بل بمقتضى رحمتهِ بغسل الميلاد الثاني وتجديد الروح القدس الذي سكبهُ علينا بكثرةٍ بيسوع المسيح مخلصنا لكي نتبرّر بنعمتهِ فنصيرَ ورثةً على حسب رجاء الحياة الابدية »[6] . فنتائج النعمة اذن في سرّ المعمودية هي الولادة الثانية والتبرُّر والتبني والملكوت . وهذه النتائج مرتبطةٌ بعضها ببعضٍ

(١) ١ كو ٦ : ١١ (٢) اعتراف الرأي القويم قسم ١ جواب ٢ . ١ (٣) غلا ٣ : ٢٦—٢٨ (٤) ١ كو ١٢ : ١٣ و اع ٢ : ٤١ ورو ٦ : ٣—٤ (٥) مر ١٦ : ١٦ (٦) تي ٣ : ٥—٧ و ١ بط ٣ : ٢١

ارتباطاً لا ينفك. لان النعمة الالهية اذ تعيد ولادة الانسان بالمعمودية تنقيه من كل خطيئةٍ مبرّرةً ومقدسةً اياه. واذ تنقيه من الخطايا تخلّصهُ من عواقبها الابدية. واذ تبررهُ امام الله وتقدسهُ تجعلهُ ابناً لله وعضواً في جسد يسوع المسيح ووارثاً للحياة الابدية

٥. وهذا التعليم في سرّ المعمودية بالنظر الى نتائجها غير المنظورة هو تعليم جميع آباء الكنيسة القديسين ومعلميها. فالقديس برنابا يقول «ثمّ المعمودية لمغفرة الخطايا. فننزل في الماء موعَبين من الخطايا والوسخ ونصعد مثمرين الخوف في قلوبنا والكائن الرجاء بيسوع في روحنا»[1]

والقديس يوستينوس يقول «يجب ان نفتش ونعرف من أية طريق يمكننا ان ننال صفح الخطايا ونتملك رجاء ميراث الخيرات الموعود بها. ولنا في ذلك طريقٌ واحدةٌ فقط وهي ان نعرف يسوع ونغتسل بالمعمودية لغفران الخطايا وهكذا نبتدئ ان نعيش بالقداسة»[2].

واكليمنضُس الاسكندري يقول «هذا الامر عينهُ يحصل علينا ايضاً نحن الذين قد صار لنا المسيح مثالاً. فاذ نعتمد نستنير. واذ نستنير نتبنّى. واذ نتبنّى نكمَّل. واذ نكمَّل نُضحي غير مائتين كما يقول «انا قلت انكم آلهةٌ وبنو العلي جميعكم» ويُدعى هذا الفعل باسماءٍ كثيرةٍ لعني نعمةً واستنارة وكمالاً وحميماً. فهو حميمٌ لاننا بهِ نغسل خطايانا. ونعمة لانهُ بهِ تُترَك عقوبات خطايانا. واستنارةٌ لانهُ بهِ يُرى النور القدوس

(١) رسالة برنابا فصل ١١

(٢) في خطابهِ لتريفُن فصل ٤٤

الخلاصي اعني اننا نَشخَص بهِ الى اللاهوت. وكمالٌ لانهُ لا يحتاج الى شيء»[1].

والقديس كيرلُس الاورشليمي يقول «عظيمةٌ هي المعمودية المعدَّة. فداءٌ عن المأسورين. وصفحٌ للاوزار. وموتٌ للخطيئة. وولادة ثانيةٌ للنفس. وثوبٌ نيّرٌ. وختمٌ مقدسٌ لا ينفكُّ. ومركبةٌ الى السماء. وتعليم الفردوس. وعلَّةُ الملكوت. ومنحةُ التبني»[2].

والقديس باسيليوس الكبير يقول «المعمودية فديةُ المأسورين. وصفح الاوزار. وموتُ الخطية. واعادة ولادة النفس. وثوبٌ نيّرٌ. وختمٌ لا ينفكُّ. ومركبة الى السماء تودي الى الملكوت. ومنحةُ التبني»[3].

والقديس غريغوريوس الثالوغوس يقول ان نعمة المعمودية هذه وقوتها لا تجلب طوفاناً الى العالم كما جرى لهُ في القديم بل تنقي الانسان من كل خطيئةٍ وتغسلهُ غسلاً كاملاً من الاوساخ والاقذار اللاحقة بهِ من الرذيلة ... وهي من حيث انها مجددةٌ للولادة الاولى تجعلنا جدداً من عتقٍ والهيين بدلاً مما نحن عليهِ»[4].

ثم ان المعمودية تمنحنا صفح الخطايا السالفة في الماضي دون المستقبلة والتطهير الذي ننالهُ بالمعمودية هو افضل بما لا يقاس من تطهير الذبيحة الناموسية «لانهُ ان كان دم ثيرانٍ وتيوسٍ ورمادُ نعجةٍ يرشُّ على المنجسين فيقدسهم لتطهير الجسد فكم بالاحرى دمُ المسيح الذي بالروح الازلي قدم نفسهُ لله بلا عيب يطهر ضمائركم من الاعمال الميتة لتعبدوا الله الحي»[5]

(١) المربي كتاب ١ فصل ٦: ٢٦ (٢) تعليمٌ ابتدائيٌّ للموعوظين فصل ١٦ (٣) مقالة ١٣ (٤) خطبة في المعمودية (٥) عب ٩: ١٤ — ١٥

قال القديس يوحنا الذهبي الفم «ان معمودية النعمة تطهر كل انسانٍ سواءٌ كان فاسدًا او زانيًا. عابدًا للاصنام او غير ذلك لانهُ مهما كان غارقًا في الخطيئة فحالما يدخل مياه المعمودية يخرج من هذه المياه الالهية انقى من اشعة الشمس عينها. وليس نقيًا فقط بل قديسًا بل بارًا ايضًا لان الرسول لم يقل «اغتسلتم» فقط بل «وتقدستم وتبررتم باسم الرب يسوع»[1]. ثم اننا فضلاً عن نوالنا بالمعمودية صفح الخطايا والتنقية من المآثم والمظالم نولد بعد المعمودية ولادةً ثانيةً ونُخلَق ونُصوَّر بها[2]». وهذه المعاني نفسها نراها في مؤلفات ثاوفيلوس بطريرك انطاكية[3] وامبروسيوس[4] وغريغوريوس النيسي[5] واوغسطينوس[6] وثاودريطس[7] وآخرين كثيرين[8]

٦. ان الكنيسة الارثوذكسية بالنظر الى النتائج المذكورة التي تحصل

(١) ١ كو ٦: ١١ (٢) عظة ثالثة (٣) الى افطوليكوس ٢: ١٦
(٤) «كل خطيئةٍ تترك في المعمودية» (في الاسرار ٣: ١٧) (٥) «فالمعمودية اذن هي تنقية من الخطايا وترك المآثم وعلة التجديد والولادة الثانية» (في معمودية المسيح) (٦) «انا باتلادنا من الماء والروح القدس نتطهر من كل خطيئةٍ سواءٌ كانت من آدم الذي به خطئ الجميع او بفعلنا وقولنا لاننا نُغسَل منها بالمعمودية» (رسالة ١٧٨: ٣٨) (٧) «هي وحدها (اي المعمودية) تمنحنا ترك الخطايا المفعولة ورجاء الخيرات الموعودة. في تجعلنا شركاء موت الرب وقيامته وتمنحنا مواهب الروح القدس وتصيرنا ابناء الله وليس ابناء فقط بل وارثي الله ايضًا ومشاركين في ميراث المسيح (مختصر شرح العقائد الالهية فصل ١٨) (٨) ايارونيموس في رسالة ٨٣ فصل ٢. ايلاريوس في شرح الزبور ٦٣: ٢. ذيذيموس في الثالوث ٢: ١٢

من المعمودية لنفوس المؤمنين تعلمنا طبقًا لكلام الله[1] ان نعترف بمعموديةٍ واحدةٍ فقط. ونعني بالاعتراف بمعموديةٍ واحدةٍ ان لا يعاد سرُّ المعمودية لمن قد اعتمد قانونيًا[2] مرةً واحدةً. لان هذا السرّ بحسب معناهُ يولد الانسان لحياةٍ روحيةٍ[3]. فكما ان الانسان لا يولد اكثر من مرةٍ واحدةٍ بحسب حياتهِ الطبيعية هكذا بحسب حياتهِ الروحية ايضًا. وكما ان كل واحدٍ منا يأخذ بالطبع حين ولادتهِ الطبيعية هيئةً خاصةً وصورةً معينةً يبقى عليها مدى حياتهِ هكذا يحصل في الولادة الروحانية ايضًا. فان سرّ المعمودية يرسم في كل واحدٍ ختمًا لا يُمحَى ولا يُستأصَل باقيًا عليهِ مدى حياتهِ. فينال الانسان حالاً وهو يعتمد مغفرة الوف من الخطايا حتى خطيئة انكار الايمان[4] وهذا الختم الذي لا يمحى والذي يُرسَم على كل انسانٍ بواسطة سرّ المعمودية مذكورٌ في الاوامر الرسولية[5]. وجميع آباء الكنيسة القدماء يقرّون به مثل هرماس[6] واكليمنضس الاسكندري[7] والمجمع المنعقد في قرطاجنة والقديس كيرلس الاورشليمي[8] والقديس يوحنا الذهبي الفم[9] وايارونيموس[10]

(١) افسس ٤: ٦ (٢) التعليم المسيحي الكبير في المعمودية (٣) يو ٣: ٥
(٤) رسائل بطاركة الشرق في الايمان القويم فصل ١٦ (٥) في اوامر الرسل توصف المعمودية بانها «ختم الختم الذي لا ينكسر» كتاب ٣ فصل ١٦ (٦) في الراعي ٣: ٩: ١٦ (٧) من هو الغني الخالص ٤٢ (٨) تعليم ابتدائي للموعوظين ١٦ (٩) مقالة ٣: ٧ على كورنثوس الثانية (١٠) «ان المعمودية هي ختم الله وكما خلق الانسان الاول على صورة الله ومثاله هكذا الذي يتبع الروح القدس يُختَم منه ويأخذ صورة الخالق» على رسالة افسس ١: ١٣

واوغسطينوس[١] وآخرين كثيرين[٢] وعلى ذلك قد اقرّ معلمو الكنيسة القديمة بعدم اعادة المعمودية[٣]. فان ترتليانوس مثلاً يقول «لا يجوز ان تُعاد المعمودية»[٤]. والقديس يوحنا الذهبي الفم يقول «فقد دُفنّا معهُ بالمعمودية للموت. وكما انهُ غير ممكنٍ ان يُصلَب المسيح مرةً ثانية هكذا لا يقدر من قد اعتمد مرّةً واحدة ان يقبل معمودية ثانية»[٥]. والقديس افرام السرياني يقول «ان الرب وصّى تلاميذهُ ان ينقّوا بمياه المعمودية خطايا الطبيعة البشرية مرةً واحدة»[٦]. وثاودوريطوس يقول «كما ان المسيح تألّم مرةً واحدة هكذا نحن ايضاً لا نستطيع ان نشاركهُ في آلامهِ الا مرةً واحدةً فقط. فبالمعمودية نُدفَن ونقوم معهُ ولا يجوز ان نقبل المعمودية ثانيةً»[٧]. والقديس يوحنا الدمشقي يقول «نعترف بمعموديةٍ واحدةٍ فقط لمغفرة الخطايا وحياةٍ ابديةٍ. لان المعمودية هي رسمُ موتِ المخلص وبها دُفنّا معهُ كما يقول الرسول»[٨]. ولهذا كما ان الرب مرةً واحدةً تألّم هكذا نحن ايضاً نعتمد مرةً واحدةً «باسم الآب والابن

(١) فالسمة السيدية لا تمحى البتة عن الذين تقبلهم ولا نعمدهم ثانيةً» رسالة ١٨٥ الى بونيفاتيوس فصل ٢٢ (٢) مقالات يوحنا الدمشقي في الايمان كتاب ٤ فصل ٦ (٣) ديونيسيوس الاسكندري في التاريخ الكنائسي لاوسابيوس ٧: ٩ والرسالة ٧٣ لكبريانوس . واوبتاتس في انشقاق الدوناتيين ٥: ٣ . وايفانيوس في تحديد الايمان العام ١٣ وتيأس كتاب ١ رسالة ٣٤ واوغسطينوس على المزمور ٣٩: ١ (٤) في العفة ١ (٥) مقالة ١١: ٢ على رسالة العبرانيين (٦) كتاب الايمان ٤: ٩ (٧) على رسالة العبرانيين ٦: ٦ (٨) رو ٦: ٤ كو ٢: ١٢

والروح القدس» حسب قول مخلصنا[١] حيث يعلمنا الاعتراف بالآب والابن والروح القدس». فجميع الذين اعتمدوا مرةً واحدةً باسم الثالوث الكلي قدسهُ وتعلموا ان يعترفوا بطبيعةٍ واحدةٍ فقط في ثلاثة اقانيم اذا اعادوا اعتمادهم فقد اعادوا صلب الرب يسوع حسب اقوال الرسول الالهي «لان الذين قد انيروا مرةً وذاقوا الموهبة السماوية وجُعلوا مشتركين في الروح القدس وذاقوا كلمة الله الطيّبة وقوات الدهر الآتي ثم سقطوا فلا يمكنهم ان يتجددوا ثانيةً للتوبة صالبين لانفسهم ابن الله ثانيةً ومشكّلين بهِ[٢]»

٧ اما معمودية الخارجين والبعيدين عن الكنيسة الارثوذكسية فنميزها اولاً الى نوعين: معمودية المنشقين عن الكنيسة او الساقطين من الايمان ومعمودية الهراطقة عن ابٍ وجدٍ. فالذين انشقوا او هرطقوا او سقطوا من الايمان المسيحي بانفسهم اذا رجعوا الى الكنيسة لا تُعاد معموديتهم مطلقاً لانهم اخذوا المعمودية من الكنيسة الارثوذكسية التي ولدوا واعتمدوا فيها قبل سقوطهم. واما الهراطقة فبما انهم لم ينالوا المعمودية من الكنيسة يجب تعميدهم وهذا التعميد ليس هو اعادةً للمعمودية كما يظنُّ بعضهم بل معموديةً اولى اذ لم تسبقهُ معموديةٌ قانونيةٌ. فبحسب التدقيق الديني ينبغي ان نعمّد جميع الهراطقة عند ما يرجعون كما تحدِّدُ قوانين الرسل والمجامع. غير انهُ بحسب التدبير الكنائسي قد

(١) مت ٢٨: ١٩ (٢) عب ٦: ٤—٦ مقالات يوحنا الدمشقي في الايمان كتاب ٤ راس ٩

قُسمت معمودية الهراطقة الى نوعين: النوع الاوّل هو معمودية الهراطقة التي تُتَمّ عندهم قانونيًا باسم الآب والابن والروح القدس مستوفية شروطها . والنوع الثاني هو التي لا تُتمّ قانونيًا ولا تستوفي شروطها عندهم كمعمودية الذين يعمّدون باسم الآب فقط او بثلاثة آباء الخ . فالنوع الاوّل لم ترفضهُ الكنيسة رفضًا كليًا بل أمرت ان يُقبَل عند الضرورة[1] وان الذين يرجعون وهم معمّدون بموجبهِ يُقبلون في احضان الارثوذكسية بوضع الايدي حسب امر مجمع قرطاجنة[2] او بسرّ المسحة[3] . واما النوع الثاني فقد رُفضَ من الكنيسة رفضًا قطعيًا وهي لا تقبل الذي اعتمد معمودية غير قانونيةٍ ولا تعرفهُ عضوًا في جسد المسيح ما لم تعمّدهُ وفقًا للقوانين الرسولية والمجمعية . فالمعمودية اذن لا تُعاد في الكنيسة الارثوذكسية التي تعلّم بمعموديةٍ واحدةٍ بل تُمنَح لغير المعتمدين باسم الثالوث القدوس بحسب امر الرب الذين لم ينالوا نعمة هذا السرّ[4].

---

(١) قوانين الرسل ٤٦ و ٤٧ و ٦٨ قانون المجمع الاوّل ٨ والمجمع الثاني قانون ٧ والمجمع السادس قانون ٩٥ ومجمع قرطاجنة قانون ١ وقوانين باسيليوس ١ و ٢٠ و ٤٧ و ٢ كو ٦: ١٥ (٢) قانون ١٦ «حتى ان الصغار المعمدين عند الدوناتيين . . . حتى متى شرم ورجعوا الى الكنيسة الجامعة . . . فبحسب الترتيب القديم نقبلهم بوضع الايدي من اسم الضلال» وديونيسيوس الاسكندري في رسالتهِ الى اسطفانوس في تاريخ اوسابيوس ٧ : ٢ . والرسالة ٧٤ لكبريانوس (١) المجمع الثاني المسكوني قانون ٦ والقانون السابع لمجمع اللاذقية. (٢) قانون ٨ من قوانين مجمع اللاذقية والقانون ٧ من

الفصل الخامس

في ضرورة المعمودية للجميع ومعمودية الاطفال والدم

١ . ضرورة المعمودية للجميع وبراهين ذلك من الكتاب والآباء ٢ . ضرورة تعميد الاطفال وايضاح ذلك ببراهين ٣ . معمودية الدم او الشهادة

١ . مما تقدم ذكرهُ من نتائج المعمودية يتضح ان هذا السرّ المقدس هو كلي الضرورة لكل انسانٍ يرغب ان يتطهر من خطاياهُ وان يصير ابنًا لله وينال الخلاص الابدي .

وقد اوضح مخلصنا والرسل وآباء الكنيسة كلهم ضرورة المعمودية للجميع بكل صراحةٍ . فاولاً قد اكد ذلك ربنا قائلاً «ان لم يولد احدٌ من الماء والروح فلا يستطيع ان يدخل ملكوت الله»[1] «من آمن واعتمد خلص ومن لم يؤمن يُدَن»[2] ووضوح هذه الآيات المقدسة الشاهدة بضرورة المعمودية غنيٌ عن الشرح والتفسير . ثانيًا قد اكّد ذلك الرسل القديسون ايضًا . فالقديس بطرس في تعليمهِ الاوّل في اورشليم حينما رأى كثيرين من السامعين مقتنعين ومتخشعين في قلوبهم ومنسحقين بروحهم وهم يسألونهُ ويسألون بقية الرسل «ماذا نصنع ايها الرجال الاخوة ؟ قال لهم «توبوا وليعتمد كلٌ منكم باسم يسوع المسيح لمغفرة الخطايا فتأخذون موهبة الروح القدس»[3] وبما انهُ

قوانين المجمع الثاني المسكوني والقانون ٩٥ من قوانين المجمع الرابع المسكوني حيث يقول «جميع الذين اعتمدوا على وجهٍ آخر وليس باسم الثالوث القدوس يجب ان تعاد معموديتهم» و يوحنا الدمشقي كتاب ٤ فصل ٩

(١) يو ٣: ٥ (٢) مر ١٦:١٦ (٣) اع ٢: ٣٧ و ٣٨

كان يعتبر ضرورة المعمودية امرًا لا بدّ منهُ للحصول على الخلاص
كان بسيط الفهم لم يكونوا قبل التعميد اهلاً لان ينالوا مواهب الروح
القدس كما يتضح ذلك من الاقوال الآتية «فدهش المؤمنون من اهل
الختان كلُّ الذين رافقوا بطرس من إفاضة موهبة الروح القدس
على الامم ايضًا فانهم كانوا يسمعونهم يتكلمون بلغاتٍ و يعظمون الله ·
حينئذٍ أجاب بطرس ألعلّ احدًا يستطيع ان يمنع الماء فلا يعتمد
هؤلاء الذين نالوا الروح القدس مثلنا ؟ »[١] وهذا الاعتقاد عينهُ نراهُ
في رسالات القديس بولس ايضًا حيث قال عن المسيح انهُ «اسلم نفسهُ
عنها (اي عن الكنيسة) ليقدسها مطهرًا اياها «بغسل الماء» بكلمة
(الحياة)[٢] » وفي محلٍّ آخر يقول «خلّصنا بحميم الميلاد الثاني وتجديد
الروح القدس[٣] » · ثالثًا هذه الحقيقة نفسها قد اعترف بها جميع آباء
الكنيسة القديسين ومعلميها الذين لا تُحصى شهاداتهم في هذا الموضوع[٤]
فالقديس كيرلس الاورشليمي مثلاً يقول «حينما تدخلون في الماء لا تجدون
بعد ماء بسيطًا بل تنتظرون خلاصًا بالروح القدس لانكم تستطيعون
بلا مانعٍ ان تصلوا الى الكمال · وهذا الكلام ليس كلامي بل كلام
الرب يسوع نفسهُ الذي لهُ السلطة التامة في هذا السرّ كما في كلّ سرٍّ
غيرهِ وهو «إنْ لم يولد احد من فوق من الماء والروح القدس فلا يستطيع

(١) اع ١٠ : ٤٥ ــ ٤٨ (٢) افس ٥ : ٢٥ ــ ٢٦ (٣) تي ٣ : ٥
(٤) ابريناوس ضد المرطقات ٥ : ١٥ : ٣ ترتليانوس في المعمودية ١٢ و ١٣ و ١٣ و ١٨ · وذيذيموس في الثالوث الاقدس ٢ : ١٢ وتفسير الذهبي الفم على الرسالة الى الفيليبين مقالة ٣ : ٤

ان يدخل ملكوت الله » الذي معناهُ ان لا تكون المعمودية بماءٍ فقط · لان
الذي يعتمد بالماء فقط لا يستحق نعمة الله ولا ينالها كاملةً كما ان الذي لم
ينلْ ختم الماء مهما كان صالحًا باعمالهِ لا يستطيع ان يدخل ملكوت السموات ·
هذا الكلام صعبٌ ولكنهُ ليس بكلامي · لان الرب يسوع هكذا تكلم
واليك البرهان في الكتاب المقدس · فكرنيليوس كان رجلاً صدّيقًا
مستحقًّا ان يرى الملاك وصلواتهُ وصدقاتهُ قد صعدت الى السماء حتى
عرش العليّ · وبحضور بطرس انسكب الروح القدس على المؤمنين
وطفقوا يتكلمون بالسنٍ غريبةٍ ويتنبأ ون · فيقول الكتاب ان بطرس
بعد هذه النعم الروحية كلها عمّدهم باسم يسوع المسيح لكي تُعاد ولادة النفس
بالايمان فينال الجسد ايضًا النعمة بواسطة الماء »[١] : والقديس باسيليوس
يقول «من اين نحن مسيحيون ؟ فكلٌّ يجيب انَّنا بالايمان مسيحيون · وبايّ
وجهٍ نخلص ؟ امرٌ واضحٌ اننا بولادتنا بنعمة المعمودية نخلص »[٢] ·
وامبروسيوس يقول «لا احد يدخل ملكوت السموات بغير
الماء والروح »[٣] «الموعوظ يؤمن بصليب الربّ يسوع الذي بهِ
يُختَم ولكنهُ ان لم يعتمد باسم الآب والابن والروح القدس فلا يستطيع
ان ينال صفح الخطايا ولا منحة النعمة الروحية »[٤] وجناديوس اسقف
ماساليا يقول «نؤمن ان طريق الخلاص تُفتَح للمعتمدين
فقط »[٥] ·

(١) عظة ٣ : ٢ (٢) في الروح القدس فصل ١٠ (٣) في ابرهيم ٢ : ٧٩
(٤) في الاسرار فصل ٤ (٥) في العقائد الكنائسية فصل ٧٤

٣ . واذ قد تقرّر ان المعمودية ضرورية لكل انسانٍ اذ هي الباب الوحيد الذي به يدخل ملكوت الله وجب ان تمنح للجميع بلا استثناء اعني للكبار وللاطفال . وقد زعم بعض المراطقة مثل اصحاب التعميد الثاني وغيرهم زعماً فاسداً في هذا الموضوع اذ منعوا المعمودية عن الاطفال لكنهم اخطأوا فيما زعموا : اولاً لان الاطفال هم مستحقون بنوعٍ خصوصي ملكوت الله بتقديس الروح . وقد قال مخلصنا لتلاميذه « دعوا الاولاد يأتون اليّ ولا تمنعوهم لان لمثل هؤلاء ملكوت السموات »[1] . ونحن نرى ايضاً ان الله بارك الاولاد احياناً كثيرة واوعبهم روحاً قدوساً قبل خروجهم من بطن امهم مثل ارميا ويوحنا السابق[2] . ثانياً لان الاطفال هم مشتركون ايضاً مثل الكبار بالخطيئة الجدية ولا يمكنهم ان يتطهروا منها ويدخلوا ملكوت الله الا بالمعمودية وفقاً لشهادة مخلصنا « إنْ لم يولد احدٌ من الماء والروح فلا يستطيع ان يدخل ملكوت الله المولود من اللحم لحمٌ هو والمولود من الروح روحٌ هو »[3] . ثالثاً لانه امرٌ معلومٌ ان الختان الذي كان الاسرائيليون يدخلون به في عهد الله في العهد القديم كان يُجرى بامر الله على الاطفال الذين بلغوا ثمانية ايام[4] . ومعلومٌ ايضاً ان الختان في العهد القديم كان رسماً لسرّ المعمودية التي بها ندخل في عهد الله الذي وضعه لنا في العهد الجديد[5] . فاذا كان الله نفسه منح الاطفال في العهد القديم نعمة الدخول في عهده أفيليق بنا ان

(١) مت ١٩ : ١٤ و١٨ : ٢ مر ١٠ : ١٥ لو ١٨ : ١٥ (٢) ارميا ١ : ٥ لو ١ : ١٥ و٤١ . (٣) يو ٣ : ٥ رو ٥ : ١٢ و١٨ (٤) تك ١٧ : ١٢ (٥) كو ٢ : ١١ و١٢ غلا ٣ : ٢٧ ـ ٢٩

نتصوّر انه حرمهم هذا الاحسان في العهد الجديد ؟ رابعاً لان الكتاب المقدس يشهد ان الرسل القديسين قد عمّدوا عيالاً كاملةً مثل عائلة ليدية[1] واستيفانا[2] وجميع الذين كانوا مع حافظ السجن[3] فلا سبيل لاحد ان ينكر وجود اطفالٍ وقاصرين في تلك العيال المتعددة او يبرهن ان جميع اعضائها كانوا راشدين او يبين ان اطفال تلك العيال تُركت بلا معمودية . ثم اننا نتأكد من شهادات آباء ومعلمي الكنيسة بشهاداتٍ قاطعةٍ ان المعمودية كانت دائماً تمنح للاطفال وانها يجب ان تمنح لهم في ايامنا ايضاً وهذا امرٌ اوضح من ان يبرهن حتى ان بعضهم يذكر صريحاً ان تعميد الاطفال تقليد رسوليٌ . ومن تلك الشهادات نأتي هنا ببعضها

قال القديس ايريناوس « ان يسوع المسيح اتى لكي يخلص جميع البشر اعني الذين به وُلدوا ثانيةً لله سواءٌ كانوا « اطفالاً » او شباناً او شيوخاً

واوريجانس يقول « ان الكنيسة تسلمت من الرسل تقليد تعميد الاطفال ايضاً[2] فالاطفال يُعمَّدون لمغفرة الخطايا ليُغسَلوا من الوسخ الجدي بسر المعمودية »[3]

والقديس كبريانوس يقول « اذا كان الذين خطئوا سابقاً امام الله

(١) اع ١٦ : ١٤ (٢) ١ كو ١ : ١٦ (٣) اع ١٦ : ٣٠ (٤) ضد المراطقة ١١ : ٢٢ فصل ٥ : ١٥ (٥) كتاب ٥ في رسالة ٦ الى رومية (٦) مقالة ١٤ على لوقا و٨ على اللاويين

د يؤمنون يأخذون صفح خطاياهم ولا يُمنع احدٌ منهم عن المعمودية والنعمة وان كان قد فعلَ خطايا غير محصاةٍ فالاطفال الذين ضميرهم غير متفتح لم يخطأوا في شيء والذين نظراً للخطيئة الجدية الكامنة فيهم تدنَّسوا بها وصاروا مشاركي الموت الآدمي يحتاجون هم ايضاً الى المعمودية لانها شرطٌ لنوال الخلاص والصفح ليس عن الخطايا الشخصية بل الابوية. ولذا ايها الاخ الحبيب قد حدَّد مجمعنا ما يأتي وهو «انهُ لا يجوز ان نمنع احداً من المعمودية ونعمة الله الذي هو صالح ورأوف بالجميع. فالمعمودية هي للجميع «وخصوصاً للاطفال الصغار» الذين بنوعٍ خصوصيٍ يستميلون انتباهنا وصلاح الله»[1]

والقديس غريغوريوس الثاولوغوس يقول «هل عندكِ طفلٌ؟ فلا يأخذنَّ فيهِ الشرُّ فرصةً بل ليتقدَّس وهو رضيعٌ وليكرَّس للروح منذ نعومة اظفارهِ. انكِ تخافين ايتها الام من الختم بسبب ضعف الطبيعة بما انكِ ضعيفة النفس وقليلة الايمان. لكنَّ حنَّة قبل ان تلد صموئيل وعدت الله بهِ وبعد ولادتهِ حالاً كرَّستهُ وبالحلة الكهنوتية ربتهُ ولم تخف من الضعف البشري بل آمنت بالله»[2].

وآباء مجمع قرطاجنة (سنة ٤١٨) في القانون ١٢١ يقولون «ايضاً حكم ان كل من ينكر «ان المتعمدين من الاولاد الصغار المولودين حديثاً من بطون امهاتهم» يعتمدون لمغفرة الخطايا او يعترف بذلك ولكنهُ يزعم انهم لم يشتركوا بشيء من الخطيئة الجدية المحتاجة الى التطهير

(١) رسالة ٥٩ (٢) خطبة في المعمودية المقدسة (٣) رو ٥ : ١٢

بجحيم الولادة الثانية (وينتج من هذا الزعم الوخيم ان رسم المعمودية التي لمغفرة الخطايا في هؤلاء الاطفال ليس بحقيقيٍ بل مخترعٌ ظاهريٌ) فليكن مفرزاً. لان عبارة الرسول القائلة «بانسانٍ واحدٍ دخلت الخطيئة العالم وبالخطيئة الموت وهكذا اجتاز الموت الى جميع الناس اذ خطئ الجميع» لا يجب ان تُفهَم بمعنىً آخر الاَّ كما فهمتها دائماً الكنيسة الجامعة الممتدة والمنتشرة في كل مكانٍ. اعني: ان الاطفال ايضاً الذين لا يستطيعون ان يرتكبوا بذواتهم خطيئةً من الخطايا يعمَّدون بناءً على قانون الايمان هذا معموديةً حقيقيةً لمغفرة الخطايا ليتطهر فيهم بالولادة الثانية ما ورثوهُ من اجدادهم».

واوغسطينوس الجليل يقول «ان الكنيسة كانت دائماً تمسك «بتعميد الاطفال» متسلمةً اياهُ من ايمان السلفاء ولم تزل حافظةً اياهُ الى الآن وسوف تحفظهُ الى الانقضاء ايضاً»[1]. وفي محلٍ آخر يقول ان «تعميد الاطفال تقليدٌ رسوليٌ»[2] وهذه الشهادات عينها نراها في الاوامر الرسولية ايضاً وفي مؤلفات القديس ديونيسيوس الاريوباغي واكليمنضس الاسكندري وايسيذورُس البيلوسيوتي وامبروسيوس ويوحنا الذهبي الفم وسائر المؤلفين كما ذكرنا آنفاً.

٢ - ولمعلمي الكنيسة رأيان في حظ الاطفال الذين يموتون بلا معموديةٍ بالنسبة الى الحياة العتيدة. فبعضهم يرى ان الاولاد غير المعمدين يعذَّبون في الحياة المقبلة بقصاصاتٍ خفيفةٍ بحسب

(١) خطاب ١٧٦ (٢) في التكوين ١٠ : ٣٢

سنيهم [1] وآخرون يقولون وهو الرأي الارجح والمقبول انهم يكونون في رتبةٍ متوسطةٍ بين الغبطة والعقاب. وهذا الراي هو راي القديس غريغوريوس النيسي [4] فلا يعذَّب الاطفال مثل الخطاة ولا ينالون مكافاةً مثل الصديقين. وقد ارتأى ذلك القديس غريغوريوس الثاولوغوس حيث قال «ان الاطفال غير المعمَّدين لا يمجَّدون ولا يعذَّبون من الحاكم العادل الابدي لانهم وان كانوا غير مستنيرين وغير متقدسين بالمعمودية لم يخطأوا خطيئةً شخصية. ولذا لا يستحقون كرامةً ولا قصاصاً» [1].

٤ . بعد ان تكلمنا عن وجوب المعمودية لكل انسانٍ سوآء كان راشدًا او قاصرًا نرى ضروريًا ان نذكر هنا بعض حوادث مستثناةٍ تقوم مقام المعمودية العاديَّة حسب ايمان الكنيسة الارثوذكسية وتسمَّى «معمودية فوق العادة» وهذه الحوادث هي موت الشهادة باسم المسيح الذي يسمَّى معمودية الدم او معمودية الشهادة . ويتضح اعتبار الكنيسة لهذه المعمودية من اليوم التاسع والعشرين من كانون الاوَّل الذي فيهِ نعيّد تذكار الاطفال المقتولين في بيت لحم بامر الملك هيرودوس لاجل يسوع المسيح ويتضح ايضاً من تعدادها الشهداء في تاريخها ومصاف قديسيها الذين كانوا في ازمنة الاضطهادات يستشهدون مهرقين دماءهم عن الايمان بالمسيح قبل المعمودية وكانوا يصطبغون بدمهم صبغة المسيح [2].

ولكي تُفهَم قوة هذه المعمودية غير العاديَّة وفعلها التامّ فهماً كاملاً

(١) اوغسطينوس في الخطايا ١: ١٦ وفولكيتديوس في الايمان ٥: ٢٧ (٢) امبروس في الاولاد الذين خطفهم الموت طبعة سنة ١٨٢٨ (٣) خطابة في المعمودية (٤) مت ٢٠: ٢٢

نذكر كلام مخلصنا نفسهُ حيث يقول «فكل من يعترف بي قدام الناس اعترف بهِ انا ايضاً قدام ابي الذي في السموات» [1] وايضاً «لان من اراد ان يخلص نفسهُ يهلكها ومن اهلك نفسهُ من اجلي ومن اجل الانجيل فهو يخلصها» [2] وايضاً «طوبى للمطرودين من اجل البرّ فان لهم ملكوت السموات» [3] وايضاً «تُترك لها خطاياها الكثيرة لانها احبَّت كثيرًا» [4] «من يحبني يحبهُ ابي» [5] «ليس لاحدٍ محبةٌ اعظم من هذه ان يضع نفسهُ عن اصدقائهِ . انتم اصدقائي اذا كنتم تعملون بما اوصيكم بهِ» [6] فبالمعمودية التي نحن بصددها اعني معمودية الدم قد اعترف الشهدآء بالمسيح اعترافاً تاماً قدام الناس واهلكوا نفوسهم وحياتهم لاجلهِ ولاجل الانجيل وطُردوا للبر وحفظوا محبتهم لهُ تامةً حتى الموت.

ثمَّ ان آباء الكنيسة القديسين ومعلميها قد عرفوا قوةً عظيمةً واهمية كبيرةً لمعمودية الدم . فالقديس كبريانوس مثلاً كتب «لا احد يجهل ان الموعوظين بعد استشهادهم لا يكونون غير معمَّدين لانهم اصطبغوا انظم صبغةٍ واشرفها اي صبغة الدم التي عنها تكلم المخلص [7] والرب يؤكد ايضاً ان المعمدين بدمهم والمقدَّسين بالتعذيبات يضحون كاملين وياخذون نعمة الموعد الالهي» . والقديس كيرلُّس الاورشليمي يقول «مَن لا يقبل المعمودية لا خلاص لهُ ما عدا الشهدآء وحدهم الذين بدون المآء ينالون الخلاص لان المخلص لما كان يفتدي العالم كلهُ بالصليب

(١) مت ١٠: ٣٢ (٢) مت ١٦: ٢٥ و ٢٠ (٣) مت ٥: ١٦ (٤) لو ٧: ٤٧ (٥) يو ١٤: ٢١ (٦) يو ١٥: ١٣ و ١٤ (٧) مت ٢٠: ٢٢

نُخِس في جنبِهِ الذي خرج منهُ دمٌ وماآءٌ ليعتمد البعض بالماآء في اوقات السلام وليتمموا ذلك بدمهم في اوقات الاضطهادات · ان المخلص نفسهُ دعا الشهادة صبغةً قائلاً « هل تستطيعان ان تشربا الكاس التي اشربها انا وان تصطبغا الصبغة التي اصطبغها انا ؟ »[1]

والقديس باسيليوس يقول « انَّ بعضاً نالوا الموت بالجهادات التي عن حسن العبادة لاجل المسيح حقيقةً لا اقتداآءً ولم يحتاجوا الى شيءٍ من الرسوم التي من الماآء لخلاصهم لانهم تعمدوا بدمهم »[2] ·

والقديس غريغوريوس الثاولوغوس يقول « انني اعرف معموديةً أُخرى ايضاً وهي معمودية الشهادة والدم المعمودية التي تعمَّدها مخلصنا نفسهُ · هذه المعمودية هي اكثر مجداً من غيرها »[3] ونكتفي نحن بذكر ما تقدم من الشهادات عن غيرها من شهادات اوريجانِس[4] وترتليانوس[5] واوسابيوس اسقف قيصرية[6] وامبروسيوس[7] ويوحنا الذهبي الفم[8] وذيذيموس واوغسطينوس[9] ويوحنا الدمشقي[10] وغيرهم ·

---

(١) عظة ٢ : ٨ (٢) لامفيلوشيوس في الروح القدس راس ١٥ (٣) خطاب في عيد الظهور (٤) تفسير يوحنا جزء ٦ فصل ٢٦ وحثٌ على الشهادة فصل ٣٠ ومقالة ٧ : ٣٠ ضد اليهود (٥) في المعمودية فصل ١٦ (٦) في جهادات القديس بمفيليوس فصل ٦ (٧) في شرح المزمور ١١٨ : ١٤ (٨) يوحنا الذهبي الفم خطاب للقديس لوكيانوس الشهيد فصل ٢ وذيذيموس في الثالوث ١١ و١٢ واوغسطينوس في المعمودية ٤ : ٢٢ : ٢٧ وفي ملك الله ١٣ : ٧ (٩) « معمودية الدم والشهادة · وهذه المعمودية التي بها اعتمد المخلص لاجلنا هي المعمودية الاكثر مجداً وغبطةً لانها لم تتدنس بدنسٍ جديدٍ » (في الايمان ٤ : ٩) (١٠) جناديوس في العقائد الكنائسية

الفصل السادس

في مَن لهُ ان يعمِّد وما هو المطلوب من المعتمدين

١ · لمن حق التعميد ٢ · واجبات المعتمدين ٣ · وظيفة الاشابين

١ · حق تتميم سرّ المعمودية مُنِحَ منذُ البدء للرسل القديسين من مخلصنا يسوع المسيح[1] ومن الرسل للاساقفة خلفائهم ومن الاساقفة للقسوس · وهذا يظهر جليًّا من القوانين الرسولية التي لا يُذكَر في ايرادها خدَمة سرّ المعمودية الاَّ الاساقفة والقسوس · ففي القانون السابع والاربعين مثلاً تقول « كلُّ اسقفٍ او قسٍّ يعمِّد ثانيةً من نال تعميدًا حقيقيًّا الخ » وفي القانون التاسع والاربعين تقول « كلُّ اسقفٍ او قسٍّ لا يعمِّد حسب امر الرب الخ » وفي القانون الخمسين تقول « كلُّ اسقفٍ او قسٍّ لا يعمِّد بثلاث غطساتٍ الخ »[2] · وتُستَنتَج هذه الحقيقة من الاوامر الرسولية ايضاً حيث نقرأُ : « اننا لا نسمح بحقّ التعميد لاحدٍ من الاكليروسيين مثل القارئين والمرتلين والبوابين والخَدَمة الاَّ للاساقفة والقسوس وحدهم الذين يخدم معهم الشمامسة »[3] ومن شهادات آباآء الكنيسة ومعلميها يثبت هذا الامر ايضاً :

فان القديس اغناتيوس المتوشح بالله يقول في رسالتهِ الى ازمير

---

٨ : ٢٠ وكاسيانوس ١٦ (١) مت ٢٨ : ١٩ مر ١٦ : ١٦ (٢) ان بلصامون قد علق على هذا القانون هذه الحاشية « ان القانون ذكر الاساقفة والقسوس فقط لانهُ لا يسمح لاحدٍ غيرهم ان يعمد » (٣) كتاب ٣ قانون ١١

«لا يُسمَح لكم ان تعمدوا بدون أسقفٍ ولا ان تقربوا قرابين ولا ان تقدموا ذبيحة»

وترتليانوس في كلامهِ عن المعمودية يقول «ان السلطة في تتميم المعمودية منوطةٌ بالاسقف ثم بالقسوس مع الشمامسة ولكن لا بدون رخصةٍ من الاسقف لشرف الكنيسة» . وآخرون كثيرون غيرهم يشهدون بذلك مثل ديونيسيوس الاريوباغي[1] وامبروسيوس[2] واپارونيموس[3] وابيفانيوس[4] وايلاريُن[5] وذيذيموس الاسكندري[6] واوغسطينوس[7] . وقد سُمِحَ احيانًا للشمامسة ايضًا ان يعمدوا على مثال القديس فيلبُس الذي كان شماسًا في الكنيسة القديمة[8] لكنَّ ذلك لم يكن الاَّ لداعي ضرورةٍ كليةٍ حيث يكون الاسقف او القس غائبًا[9] وقد ذُكِر في الاوامر الرسولية «ان الشماس ... لا يعمّد»[10] وقال القديس ابيفانيوس ايضًا[11] «انهُ حسب النظام الكنائسي لا يتم الشمامسة سرًّا من الاسرار لكنهم يخدمون خُدّام الاسرار غير انهُ حينما تدعو الضرورة يُسمَح للعالمين ايضًا ان يعمِّدوا»[12] «كما انهُ مسموحٌ الآن لا

(١) في رئاسة الكهنوت الكنائسية فصل ٢ : ١١ (٣) في الاسرار فصل ٢ : ٨ : ١ (٢) ضد لوكيفيروس فصل ٤ (٤) ضد الهرطقات ٧ : ٢٤ و ٧٩ : ٢ و ٧ (٥) شرح المزامير ٦٧ : ٣٢ (٦) في الثالوث ١١ : ١٢ (٧) في ملك الله ٢٢ : ١٨ وضد برمنديوس ١١ : ١٣ (٨) اع ٦ : ٥ — ٨ و ١٢ و ١٣ و ٢٨ (٩) ترتليانوس في المعمودية ١٨ وكيرلُس الاورشليمي عظة ١٧ : ٢ وثاودوريتوس في شرح سفر الايام الثاني سؤال ١ (١٠) كتاب ٨ فصل ٢٨ (١١) ضد الهرطقات ٨٩ صفحة ٤ (١٣) ترتليانوس في المعمودية فصل ١٧

للرجال فقط بل للنساء ايضًا ان يُعمّدنَ حين الضرورة[1] . ولكن في ما سوى ذلك من الاوقات ممنوعٌ تعميد العالميين وعلى الخصوص النساء[2] وقد قال القديس ابيفانيوس[3] «انهُ لو كان التعميد مسموحًا به للنساء لما تقبَّل ربنا يسوع المسيح المعمودية من يوحنا بل من امهِ الكلية القداسة» واما العادة التي تسمح للنساء ان يعمدنَ في غير اوقات الضرورة الكلية وهي لم تزل الى الآن عند بعضٍ من الهراطقة فكانت ولم تزل تُحسَب دائمًا سوء استعمالٍ وهي ممنوعةٌ وقد ظهرت اولاً عند اتباع ماركيُن الهرطوقي[4] .

٢ . ان المطلوب من المعتمدين حين يبلغون سن الرشد هو الايمان والتوبة . فيُطلَب الايمان تبعًا لوصية المخلص للتلاميذ «اذهبوا وتلمذوا الخ»[5] «ومَن آمنَ واعتمد خلص ومن لم يؤمن يُدَن»[6] . فكان الرسل من ثمَّ يتلمذون الجميع قبل التعميد ويعمِّدون منهم المؤمنين

واپارونيموس ضد لوكيفيروس فصل ٢٤ واعتراف الراي المستقيم جواب ٢ . ١ ورسائل البطاركة مادة ١٦ (١) موسخوس فصل ٣ ونيكيفوروس في اعترافهِ قانون ١٥ «وفيما بعد ان اعتمد طفلٌ للضرورة من عالميٍّ بغطسات ثلاث على اسم الثالوث المقدّس ثم شفي ونجا من خطر الموت فالقوانين الكنائسية ترسم : ان يتم الكاهن كلَّ طقس المعمودية على ذلك الطفل المعمّد ما عدا الغطسات الثلاث واستدعاء الثالوث الاقدس» (انظر الافخولوجيون والتيبيكون الكبير) (٢) «لا يسمح للنساء ان يتكلمنَ في الكنيسة ولا ان يعلمنَ او يعمدن اوان يقدّمن ذبيحة» (ترتليانوس في البتولية فصل ٦) «هولاء النساء الهرطوقيات كم هنَّ عديمات الخجل لانهنَّ يتجاسرن ان يعلمنَ ..... ويعمدنَ» (فصل ٤١) (٣) ضد الهراطقة ٧٩ . (٤) ابيفانيوس ضد الهراطقة ٣٤ وشرح بلصامون على القانون ٩٥ لمجمع ترولُس . (٥) مت ٢٨ : ١٩ (٦) مر ١٦ : ١٥

فقط كما نرى في خبر القديس بطرس الرسول انهُ بعد حلول الروح القدس على الرسل ابتدأ يعلّم الحاضرين «والذين قبلوا كلامهُ اعتمدوا»[1]. هكذا جرى في السامرة ايضًا «لما صدقوا فيلبس وهو يبشر بالامور المختصة بملكوت الله... اعتمدوا رجالاً ونسآء»[2]. وهكذا جرى ايضًا حين ملاقاة الخصي وفيلبس فان فيلبس علمهُ اولاً عن المسيح وبعد ذلك قال لهُ «انهُ يجوز ان تعتمد اذا كنت تؤمن من كل قلبك» حينئذٍ اقرّ الخصي بايمانهِ واعتمد منهُ»[3]. وهكذا جرى حين ملاقاة بطرس وكرنيليوس قائد المائة[4] ومع ليدية وكل عائلتها[5] ومع كريسبس[6] وغيرهم. ولهذا ترى رعاة الكنيسة منذ تأسيسها الى الآن يطلبون الايمان من المعتمدين قبل كل شيء[7]. ولهذه الغاية نفسها كانوا يجتهدون ان يعلموهم اولاً التعليم الانجيلي ويملأوا اذهانهم من حقائق الايمان ويجعلوهم متعمقين فيها ولم يكونوا يعمدونهم قبل ان يجهزوهم على هذا الوجه[8]. هكذا في ايامنا ايضًا كل من يتقدم الى هذا السرّ المقدس ملزومٌ ان يتلو بصوتٍ جهيرٍ الاعتراف الذي نسميهِ دستور الايمان. — ثم انهُ يطلب من المعتمدين التوبة ايضًا كما ذكرنا. وذلك بنآء على ما كان يقولهُ القديس بطرس الرسول للذين كانوا يسمعون

(١) اع ٢: ٤١ (٢) اع ٨: ١٢ (٣) اع ٨: ٢٥—٣٨ (٤) اع ١٠: ٢٤—٤٨ (٥) اع ١٠: ٣٠—٣٤ (٦) اع ١٨: ٨ (٧) هرماس في الامثال ٩: ١٧ واحتجاج يوستينس ١: ٦١ وابوليطس على سوسنة ١٧ ومقالة الذهبي الفم ١: ٣ على الاعمال (٨) اوامر الرسل ٧: ٣٩ و٤٠ وكيرلس الاورشليمي عظة ١

تبشيرهُ «توبوا وليعتمد كلٌّ منكم باسم يسوع المسيح لمغفرة الخطايا فتأخذون موهبة الروح القدس»[1] «فتوبوا اذن وارجعوا لتُمحى خطاياكم»[2]. وهكذا كانت الكنيسة في كل الازمنة تطلب التوبة بواسطة رعاتها من المتقدمين الى سرّ المعمودية[3] وقبل تميم السرّ تأمرهم ان يرفضوا الشيطان واعمالهُ علنًا اعني ان يطرحوا جميع الخطايا والشرور ويبتعدوا عنها[4].

٢ اما الاطفال القاصرون عن ان يدركوا الايمان ويعترفوا بهِ ويتوبوا قبل المعمودية فهؤلاء يعمَّدون بنآء على ايمان اشابينهم ووالديهم الذين يتلون عنهم دستور الايمان رافضين للشيطان واعمالهِ ويتكفّلون امام الكنيسة بان يربوهم في الايمان القويم والعبادة الحسنة حينما يبلغون الادراك[5]. وهذه العادة هي حسب تعليم القديس ديونيسيوس الاريوباغي مرعيةٌ في الكنيسة منذ ازمنة الرسل عينها ومسلَّمةٌ منهم «هذا الامر قد افتكر بهِ معلمونا الالهيون (وهم الرسل) ورأوا موافقًا ان تُقبَل الاطفال على هذا الوجه الشريف اعني ان يسلّم الولدَ المتقدّم والداهُ الطبيعيان لمربٍ صالحٍ من المتمرّسين للالهيات وان يبقى الولد فيما بعد تحت ادارتهِ

(١) اع ٢: ٣٨ (٢) اع ٣: ١٩ (٣) اكليمنضس الاسكندري في الرسومات ٥: ١١ وترتليانوس في المعمودية ٢٠ وكيرلس الاورشليمي عظة ١: ٢ و٣ والذهبي الفم في مقالتهِ الاولى على افسس: ٣ (٤) ترتليانوس في الاكليل فصل ٣ واوامر الرسل ٧: ٤١ وكيرلس الاورشليمي عظة ١: ٢ و٣ واغريغوريوس النيصي رسالة ٦: ١٤ وفي شرح متى ٣٥: ٢٦ (٥) اعتراف الراي القويم جواب ١٠٣ والتعليم المسيحي الكبير في المعمودية

كأنهُ تحت عناية ابِ الحقِ وكفيلِ الخلاصِ مقدّسٍ . فتمم السرّ برفعهِ وهو معترفٌ الى الحياة المقدسة طالبًا رفض الشيطان والاقرار الشريف »[١] وترتليانوس ايضاً هكذا يقول في الفصل الثامن عشر من كتابهِ في المعمودية واوغسطينوس يقول «اننا نؤمن ونصدق بتقوى وصواب أن ايمان الوالدين والاشابين يفيد الاطفال وعلى هذا الايمان يُعمَّدون »[٢] . ويوحنا الذهبي الفم يقول «وان كان المعمَّدون اطفالاً او طُرْشًا لايستطيعون استماع التعليم فليجاوب اشابينهم عنهم وهكذا يعمدون حسب العادة »[٣] .

(١) في رئاسة الكهنوت الكنائسيه ٧ : ١١ (٢) في السلطة الذاتية ٣ : ٢٣ : ٦٧ ورسالة ١٩٢ : ٢ (٣) على مزمور ١٤ وجناديوس في العقائد الكنائسية فصل ٥٢



٣
سر المسحة او الميرون المقدس

الفصل الاول

في الرباط الذي بين المعمودية والمسحة وفي رتبتها بين سائر الاسرار واسمائها

١ . ارتباط المسحة بالمعمودية ورتبتها ٢ . تعريف المسحة ٣ . اسماؤها

١ . رأينا في الكلام السابق اننا بسرّ المعمودية المقدّس نولَدُ للحياة الروحية ونتطهر في كل خطيئة ونتبرّر ونتقدّس وهكذا ندخل ملكوت نعمة ربنا يسوع المسيح. ولكن كما ان الانسان في حياتهِ الطبيعية لايعيش بمجرّد ولادتهِ ودخولهِ في العالم بل منذ دخولهِ في الحياة يحتاج الى هواء ونورٍ وقوتٍ وعنايةٍ لحفظ وجودهِ وانتظام حالهِ ونموّهِ بالتدرج ونشأتهِ هكذا في الحياة الروحية ايضاً فانهُ منذ ولادتهِ من فوق بالمعمودية المقدسة ودخولهِ في الحياة الروحية يحتاج بلا بدّ الى قُوَى نعمة الروح القدس التي هي هواؤُه الروحاني ونورهُ . ويحتاج اليها لا لحفظ الحياة الروحية فقط بل لثباتهِ ايضاً فيها ونموهِ في الكمال المسيحي . وكما انهُ بالمعمودية تُعطى للمولود جديداً القوة الالهية التي تمنحهُ ما هو للحياة والتقوى [١]

(١) ٢ بط ١ : ٣

هكذا بالمسحة تُعطَى لهُ تلك القوة نفسها. فتحفظهُ في الحياة وتثبتهُ وتنميهِ في الايمان. ولهذا تتم الكنيسة الارثوذكسية جريًا على عادتها منذ القديم هذا السرّ المقدّس حالاً مع المعمودية كانهُ متحدٌ بها[1]. ومن ثمَّ يتضح ان لهذا السرّ الرتبة الثانية في عدد الاسرار ومنازلها.

٢. فالمسحة اذن هي سرٌّ بهِ تُمنَح قوة الروح للذي قد اعتمد او بعبارة اوضح هي سرٌّ بهِ ينال المسيحي وقد دُهِنَت اعضاؤهُ بالميرون المقدس مع لفظ الاقوال الآتية من متمم السر وهي «ختم موهبة الروح القدس» القوى الضرورية من النعمة الالهية ليتقوى وينمو في الحياة الروحية.

٣. ومن النظر الى طبيعة هذا السرّ كما وصفناها آنفًا قد سُمّي باسماء كثيرة بعضها يدلُّ على فعلهِ الخارجي وبعضها على فعلهِ الداخلي في الانسان وبعضها على كلا الفعلين معًا. فبحسب الدلالة الاولى يُسمى احيانًا «وضع الايدي» اذ كان الرسل في عصر الكنيسة الاوَّل يتممون سرَّ المسحة احيانًا بوضع الايدي على المعتمدين[2] لكنهُ على الغالب يُسمى مسحة[3] ومسحة سريّة[4] وسرّ المسحة او الميرون[5] ومسحة الخلاص[6]

---

(١) ترتليانوس في المعمودية فصل ٧ و٨ وكبريانوس رسالة ٧٠ و٧٢ وامبروسيوس في الاسرار فصل ٧ ويوحنا الدمشقي مقالة ١ في الاعمال ٥ وقانون ٤٨ لمجمع اللاذقية (٢) اع ٨ : ١٤—١٦ (٣) ترتليانوس في المعمودية فصل ٧ ورسالة كبريانوس ٧٠ وكيرلس الاورشليمي عظة ٨ : ١ ثاودوريتوس على اشعيا ٦٦ : ٢ (٤) اوسابيوس في حاشيتهِ على اشعيا ٢٥ : ٧ والبرهان الانجيلي ١٠ : ١ (٥) اوغسطينوس ضد بلاجيانوس ١١ : ١٠٤ كيرلس الاسكندري على اشعيا ٢٦ : ٦ (٦) لاون الكبير خطاب ٢٤ : ٦

لان خدام الله منذ الازمنة الرسولية يتممون هذا السرّ بمسح المعتمدين بالميرون المقدس. وبحسب الدلالة الثانية تسمى المسحة موهبة الروح القدس[1] وسرّ الروح[2] وعلامة الروح[3] وتثبيتًا[4] وكمالاً[5] لان المؤمنين ينالون بهذا السرّ مواهب الروح القدس التي تثبتهم وتنميهم في سيرتهم الروحية وبحسب الدلالة الاخيرة يُسمّى ختمًا[6] وختم الرب[7] وختمًا روحيًا[8] وختم الحياة الابدية[9] لانهُ متى خُتِمَت اعضاء الجسد بالميرون المقدس تُختَم معها جميع قُوى النفس بزيت البهجة[10] اعني بالروح القدس

الفصل الثاني

في تأسيس سرّ المسحة من الله وكونهِ سرًّا مستقلاً بذاتهِ غير المعمودية

استقلال السرّ وتأسيسهُ الالهي ١ . البرهان الانجيلي ٢ . البرهان الرسولي من الاعمال ٣ . شهادات الرسائل ٤ . شهادات الآباء ٥ . شهادات المنشقين والمراطقة

كان ولم يزل سرُّ المسحة بالميرون المقدّس يُتمّ على المؤمنين بعد المعمودية حالاً وهو متحدٌ معها لا ينفكُّ عنها. ولكنَّ اتحادهُ هنا معها

---

(١) ابيدورُس البلوسيوتي كتاب ١ رسالة ٤٥٠ (٢) ترتليانوس في رفض المراطقة فصل ٣٥ وايلاريوس على متى فصل ٤ : ٢٧ (٣) كيرلس الاورشليمي في التعليم السرّي ٣ : ١ (٤) اوامر الرسل ٣ : ١٧ امبروسيوس في الاسرار ٧ ولاون الكبير في رسالتهِ ٧ (٥) اكليمنضُس الاسكندري في المربي ١ : ٦ وامبروسيوس في الاسرار ٣ : ٢ وكبريانوس رسالة ٧٣ . (٦) اكليمنضُس الاسكندري في يديعيانو ٢ : ٢ وكيرلُس الاورشليمي عظة ١٨ : ٣٣ (٧) كبريانوس رسالة ٧٣ (٨) امبروسيوس في الاسرار ٣ : ٢ ، ١ : ٦ ، ٢ : ٨ (٩) لاون الكبير خطاب ٢٤ : ٦ (١٠) مز ٤٥ : ٧

وارتباطهُ بها لا ينفي كونهُ سرًّا مستقلاً بذاتهِ مؤسسًا من الله . ولنا على ذلك براهين كثيرة من الكتاب المقدس والتقليد الشريف .

١ . فالتاريخ الانجيلي يشهد بان يسوع المسيح مخلصنا عزم ووعد صريحًا انهُ يهب المومنين بهِ الروح القدس قائلاً « وفي اليوم الاخير العظيم من العيد وقف يسوع ونادى قائلاً ان عطش احد فليأتِ اليَّ ويشرب . من يؤمن بي كما قال الكتاب تجري من بطنهِ انهار ماءٍ حيٍّ . قال هذا عن الروح الذي كان المؤمنون بهِ مزمعين ان يقبلوهُ . لانهُ لم يكن بعد (أُعطي) الروح القدس لان يسوع لم يكن قد مُجِّد بعد »[1] فمن هذه الآية المقدسة يتضح ان مخلصنا كان يتكلم عن مواهب الروح القدس التي تُمنَح لجميع المومنين بهِ على الاطلاق وهي ضرورية ولا بدَّ منها لهم وليس عن المواهب غير الاعتيادية التي تعطى احيانًا الى بعضٍ من المؤمنين لمقاصد خصوصيةٍ[2] . ولم يشر هنا الى الواسطة المنظورة التي بها تُمنَح لجميع المؤمنين هذه المواهب الضرورية لهم .

٢ . ثم قد ورد في كتاب اعمال الرسل الشريف ان الرسل كانوا بعد ما تمجد الرب يسوع يمنحون الروح القدس للمومنين باسمهِ وذلك بوضع الايدي كما هو مذكورٌ صريحًا حيث يقول « فلما سمع الرسل الذين في اورشليم ان السامرة قبلت كلام الله ارسلوا اليهم بطرس ويوحنا ولما نزلا صلّيا لاجلهم لكي يقبلوا الروح القدس لانهُ لم يكن حلَّ على احدٍ

(١) يو ٧ : ٣٧ (٢) ١ كو ١٢ : ٢٩

منهم لكنهم كانوا معتمدين فقط باسم الرب يسوع . حينئذٍ وضعا الايدي عليهم فقبلوا الروح القدس »[1] . فهنا نرى صريحًا اولاً ان الرسل لم يكونوا يمنحون للمؤمنين الروح القدس بالمعمودية (التي بها كانوا يُولَدون الميلاد الثاني ويتجدَّدُ ابداعهم بالروح القدس حين التعميد فقط ولم يكونوا ينالونهُ دائمًا) بل كانوا يمنحونهُ بوضع الايدي على المعتمدين . ثانيًا انهم بوضع الايدي كانوا يمنحونهم مواهب الروح القدس العمومية والضرورية للجميع التي لا بدَّ منها لكل واحدٍ من المومنين . ولم يمنحوا المواهب الخصوصية الممنوحة لبعض افرادٍ فقط . ثالثًا ان الرسل عندما كانوا يضعون الايدي كانوا يصلُّون الى العليّ ليحلَّ الروح القدس على المعتمدين فكان من ثمَّ هذا العمل اعني وضع الايدي عملاً سرّيًا قائمًا بنفسهِ ومستقلاً ذا صلاةٍ وترتيبٍ خصوصيٍّ منفصلاً عن المعمودية لا ممتزجًا بها رابعًا واخيرًا ان هذا السرّ المنفصل عن المعمودية هو سرٌّ مؤسسٌ من الله نفسهِ بما ان كلام الرسل فيهِ هو كلام الله نفسهِ اذ كان الرسل القديسون في جميع اقوالهم واعمالهم المتعلقة بنشر التعليم الانجيلي يُلهَمون من الروح القدس الذي علمهم الحقَّ كلهُ وذكَّرهم بكل ما اوصاهم يسوع[2] . وقد اخبرنا القديس بولس الرسول في كتاب اعمال الرسل[3] حادثًا يماثل ما تقدم حيث ورد « قال لهم بولس (اي لتلاميذ يوحنا) هل نلتم الروح القدس لما آمنتم ؟ قالوا لهُ لا وما سمعنا بانهُ يوجد روح قدسٌ . قال فباية معمودية اعتمدتم ؟ قالوا بمعمودية يوحنا فقال بولس

(١) اع ٨ : ١٤ — ١٧ (٢) يو ١٤ : ٢٦ و ١٦ : ١٣ . (٤) ١٩ : ٢ — ٦

ان يوحنا عمّد بعمودية التوبة مخاطباً الشعب بان يؤمنوا بالذي يأتي بعدهُ اي بالمسيح يسوع . فلما سمعوا اتعمدوا باسم الرب يسوع ولما وضع بولس يديهِ عليهم حلَّ الروح القدس عليهم » .

٣. ان الرسل القديسين في رسائلهم المتأخرة التي كتبت بعد ما ذُكر في كتاب اعمالهم الشريف من تاريخهم يذكرون المؤمنين بانهم اخذوا مواهب الروح القدس الذي علمهم كل حقيقة الايمان وثبتهم في حصن العبادة ويؤكدون توكيداً صريحاً انهم انما اخذوا تلك المواهب بالمسحة فالقديس يوحنا الرسول يكتب هكذا « اما انتم فان لكم مسحة من القدوس وتعلمون كل شيء . المسحة التي نلتموها منهُ ثابتة فيكم ولا حاجة لكم ان يعلمكم احد بل ما تعلمكم هذه المسحة نفسها عن كل شيء وهي حقٌ وليست كذباً وكما علمتكم تثبتون فيهِ »[1] . والقديس بولس الرسول يقول « والذي يثبتنا معكم في المسيح وقد مسحنا هو الله الذي ختمنا ايضاً وجعل عربون الروح في قلوبنا »[2] . فواضحٌ هنا ان الرسل القديسين يتكلمون بنوعٍ خصوصيٍ عن فعل سرّ المسحة الداخلي وهو نوال المؤمنين مواهب الروح حتى صاروا يعلمون كلَّ شيء وصار عربون الروح في قلوبهم . وهذه المواهب انما نالوها بالمسحة التي من القدوس التي تعلمهم كل شيء وهي حقٌ الخ وامرٌ طبيعيٌ هو ان الرسل القديسين لكي يكونوا مفهومين عند المسيحيين في الكلام عن فعل السرّ الداخلي كانوا يستعملون عباراتٍ مستعارةً من العمل الخارجي المعلوم

(١) ١ يو ٢: ٢٠ — ٢٧ (٢) ٢ كو ١: ٢١ — ٢٢

عند الجميع ليوضحوا باقرب طريقٍ فعلهُ الداخلي . لان العمل الخارجيّ انما هو في وضعهِ العلامة المنظورة للايمان[1] . فنستنتج اذن من هذا ان العمل الخارجيّ في منح مواهب الروح القدس للمؤمنين كان المسحة . وهذا واضحٌ من قولهِ « المسحة التي نلتموها . . . الذي قد مسحنا هو الله وهو الذي ختمنا ايضاً » وهذه النتيجة عينها نؤيدها من تفسير معلمي الكنيسة الاقدمين لهاتين الآيتين مثل ديونيسيوس الاريوباغي[2] وكيرلس الاورشليمي[3] والذهبي الفم[4] وامبروسيوس[5] وثاودوريتوس[6] ونحن نعلم ان مواهب الروح كانت تمنح المؤمنين بوضع اليد ولكن بما ان الكتاب والرسل يذكرون المسحة ووضع اليد في المقام الواحد نفسهِ فينبغي ان يكون احد امرين وهو اما ان الرسل القديسين عند ما كانوا يمنحون المؤمنين الروح القدس بوضع الايادي كانوا يستعملون في وقتٍ واحدٍ العلامة الثانية الظاهرة اي المسحة التي لم يُذكر عنها شيءٌ في كتاب اعمال الرسل واما انهم كانوا قبلاً يتممون السرّ بوضع الايادي

(١) هكذا كان الرسل يصنعون حينما كانوا يعترفون امام المسيحيين بفعل المعمودية الداخلي . فبولس الرسول كتب الى اهل كورنثس هكذا « ولقد كنتم انتم ايضاً على هذه (الرذائل) ولكنكم قد اغتسلتم بل تقدستم الخ » (١ كو ٦: ١١) وفي محل آخر يقول « لكنهُ بحسب رحمتهِ خلصنا بحميم اعادة الولادة وتجديد الروح القدس » (تي ٣: ٥ افس ٥: ٢٦ عب ١٠: ٢٢) (٢) في رئاسة الكهنوت الكنائسية ٧: ٤ — ٧ (٣) مقالاته في الاسرار ٣: ٦ — ٧ (٤) تفسير الرسالة الثانية الى كورنثس فصل ٢ (٥) في الاسرار فصل ٧ (٦) تفسير الرسالة الثانية لكورنثس فصل ٢

ثم بعد زمانٍ قليلٍ استبدلوا من انفسهم تحت قيادة روح الحق تلك العلامة الحقيقية وعوضوها بالعلامة الثانية اعني بمسح المعتمدين . وعلى كلتا الحالتين فاستعمال الميرون المقدس في سر المسحة الالهي مبدأه من الله .

٤ . ثم ان آباء الكنيسة القديسين ومعلميها لا يدعون اقل شبهةٍ في قوة هذا السر الفعالة وفي مبدإِه الالهي . ونحن نذكر منهم بعضاً من الذين اشتهروا في القرون الثلاثة الاولى . فاولاً ديونيسيوس الاريوباغي في كلامهِ عن سر الشركة الالهي يقول صريحاً «لكنهُ توجد تكملة اخرى معادلة لهذه (للشركة) يسميها معلمونا (الرسل تكملة الميرون)» [1] . وبعد ذلك يشرح بتدقيقٍ كيف يجهز الميرون وكيف تتم المسحة على المعتمدين وما هي المواهب التي تمنح لهم . ثم يزيد على كلامهِ هذه الحاشية «ان مسحة التكميل بالميرون المقدس لمن استحق سر الولادة الثانية الكلي قدسهُ تمنحهُ حلول الروح ذي العزة الالهية» [2] . ثانياً القديس ثاوفيلوس بطريرك انطاكية يقول «ان اسم المسيح يدل على الممسوح وهو اسم لائق وعذب من المطربات ومستحق لوقارٍ عظيم جداً . . . فاذن لهذا السبب ندعى مسيحيين لاننا نمسح بزيت الحق» [3] ثالثاً ترتليانوس يقول «بعد خروجنا من حميم المعمودية نمسح بزيتٍ مقدسٍ تبعاً للتكملة القديمة كما كانوا قديماً يدهنون بزيت القرن لنوال

(1) في رئاسة الكهنوت الكنائسية ٤ : ١ (2) في رئاسة الكهنوت الكنائسية ٤ : ١١ و ٢ : ٨ (3) الى انطوليكس ١ : ١٢

الكهنوت . . . ان المسحة تتم علينا جسدياً لكننا نستثمر منها اثماراً روحية كما في المعمودية حيث نعتمد جسدياً بالماء ونستثمر اثماراً روحية اذ ننقى من خطايانا . وبعد ذلك توضع اليد التي مع البركة تستدعي الروح القدس وتحدره» [1] . رابعاً اكليمنضس الاسكندري في كلامهِ عن تلاميذ باسيليدس الهرطوقي وضلالهم يذكر ان «في هذا المذهب الفتالي (اي الذي ينسب كل شيء الى المقدور) ليست معمودية حقيقية ولا ختم مغبوط» [2] . فنرى انهُ يفصل بين المعمودية والختم او المسحة ويعتبرها سرين متباينين واضعاً اياهما في الترتيب نفسهِ . خامساً القديس كبريانوس يقول في احدى رسالاتهِ «من اعتمد ينبغي ان يمسح ايضاً لكي يصير بواسطة المسحة ممسوحاً لله ويأخذ نعمة المسيح» [3] . وفي رسالةٍ أُخرى يبرهن انهُ لا يكفي وضع الايدي وحدهُ على الهراطقة الذين رجعوا الى احضان الكنيسة بل ينبغي ان يُعمَّدوا ايضاً ثم يقول «لانهم لا يستطيعون ان يتقدسوا تماماً ويصيروا ابناء الله من دون اعادة ولادتهم بواسطة السرين» [4] . فهنا يظهر بكل جلاءٍ ان القديس كبريانوس فضلاً عن فصلهِ وضع الايدي او المسحة عن المعمودية يفصل اسماء كلٍ منهما على حدةٍ ويدعوهما بصريح العبارة سرين . وفي محلٍ آخر يقول «كما ان الرسل بطرس ويوحنا بعد صلاةٍ واحدةٍ استحدرا الروح القدس على سكان السامرة بوضع الايدي هكذا في الكنيسة ايضاً من ذلك

(1) في المعمودية فصل ٧ وفي رفض الهراطقة فصل ٣٧ وضد ماركين ٣ : ٢٢
(2) في الذبيحات ١١ : ٣ (3) رسالة ٧٠ (4) رسالة ٧٣ ....

الحين جميع المعمدين ينالون الروح القدس ويختمون بختمهِ عند دعاء الكهنة ووضع ايديهم»[1] سادساً البابا كرنيليوس الذي في كلامهِ عن ناواتيانيوس المرطوقي اذ اعتمد حين مرضهِ بالرش فقط يقول «انهُ (اي ناواتيانوس) اعتمد مرةً واحدةً ولم ينلْ المعمودية كاملةً حسب قواعد الكنيسة لانهُ لم يُختَم بالاسم من الاسقف فكيف اذن يستطيع ان يقبل الروح القدس وهو لم ينَل الختم ؟»[2] وقد ورد في اوامر الرسل القديسين ما نصهُ «بعد هذا فليعمدهُ الكاهن باسم الاب والابن والروح القدس وليمسحهُ بالميرون»[3] هكذا كان في تلك الازمنة يمنح الختم او المسحة لتثبيت المعمودية وكانت المسحة ضرورية جداً للمستنير حديثاً حسب قواعد الكنيسة وبها كانت تمنح قوة شركة الروح القدس.

ويمكننا ان نزيد على هذه الشهادات القديمة في سرّ المسحة شهادات آباء بيعة الكنيسة الذين اشتهروا في القرن الرابع ايضاً. فمنهم القديس كيرلُّس الاورشليمي الذي يقول «وبعد ذلك كيف تطهرتم من الخطايا من الرب بحميم الماءِ بكلمةٍ ؟ وكيف صرتم مشاركي اسم المسيح كهنوتياً ؟[4] وكيف أُعطي لكم ختم شركة الروح القدس والاسرار التي على مذبح العهد الجديد التي من هنا اخذت مبدأها ؟»[5] وفي محلٍ آخر يقول «وقد صرتم مسحاء اذ قبلتم صورة الروح القدس وكل شيءٍ قد صار عليكم بحسب الرسم اذ انكم رسوم المسيح. فذلك لما استحممتم في نهر الاردن ومنح المياه

(١) رسالة ٧٢ (٢) تاريخ اوسابيوس ٤ : ٤٣ (٣) كتاب ٧ : ٤٣
(٤) افسس ٥ : ٢٥ (٥) عظة ١٨ : ٣٣

ألوان الالوهية وصعد منها انحدر الروح القدس عليه جوهرياً واستراح المثل على مثيلهِ. ونحن ايضاً بعد ان صعدنا من جرن الينابيع المقدسة مُنِحت لنا المسحة رسماً لما مُسح بهِ المسيح اعني الروح القدس ... لكن انظر واحترس من ان تظنَّ ذاك الميرون بسيطاً. لانهُ كما ان خبز الشكر بعد استدعاء الروح القدس ليس خبزاً بسيطاً بل هو جسد المسيح هكذا هذا الميرون المقدس ايضاً ليس بعد ميروناً بسيطاً ولا عمومياً بعد الدعاء بل هو موهبة المسيح وحضور الروح القدس فاعلاً فعل الوهيتهِ. فتمسح بهِ على جبهتك وسائر حواسك وذلك المسح هو رسمٌ فان الجسم يُدهن بالميرون الظاهر ولكن النفس تتقدس معاً بالروح القدس المحيي»[1].

والقديس غريغوريوس الثاولوغوس يقول «فاذا سبقت وصنت نفسك بالختم وحصَّنت المستقبل بافضل المساعدات وأثبتها بان تُرسَم نفساً وجسداً بالمسحة والروح مثل اسرائيل قديماً بدم الابكار الليلي الحافظ فماذا يحصل عليك ؟»[2]

وآباء مجمع اللاذقية يقولون «يجب على المستنيرين ان يمسحوا بعد المعمودية بالمسحة السماوية وان تكون لهم شركة بملكوت المسيح»[3]. والقانون السابع يقول «ان الراجعين من الهرطقات اتباع ناواتوس فوتينيين كانوا او ذوي الاربعة عشر موعوظين او من المؤمنين عندهم لا يقبلون قبل

(١) تعليم الاسرار ٣ : ٣ «حاشية». ان كلمة ميرون معناها «طيب» (٢) مقالة في المعمودية المقدسة ١٥ (٣) قانون ٤٨ -

ان يرفضوا كل هرطقة وعلى الخصوص الهرطقة التي كانوا متعبدين لها وعند ذلك يتعلم المدعوون عندهم مؤمنين دستور الايمان وبعد ان يُمَحوا بالمسحة المقدسة يشتركون بالاسرار الطاهرة »

هذا التعليم عينهُ يعلمهُ ايضاً القديس افرام السرياني[1] الذي يسمي الميرون سرّ الخلاص حيث يقول « ان سفينة نوح كانت تبشر بمجيء المزمع ان يسوس كنيستهُ في المياه وان يرشد اعضاءها الى الحرية باسم الثالوث القدوس واما الحمامة فكانت ترمز الى الروح القدس المزمع ان يصنع مسحةً هي سرّ الخلاص » . والقديس امبروسيوس اسقف ميديولانا يقول[2] « المعمودية يتلوها الختم الروحي . . . لانهُ بعد الينبوع يحصل الكمال وبدعاء الكاهن ينسكب الروح القدس « روح حكمةٍ وفهمٍ روح مشورةٍ وقوةٍ روح معرفةٍ وتقوى روح خوف الله »[3] . والقديس يوحنا الذهبي الفم كذلك[4] والقديس كيرلس الاسكندري يقول «[5] ان الميرون يشير حسناً الى مسحة الروح القدس » واوغسطينوس يقول المسحة الروحية هي الروح القدس نفسهُ الذي سرُّهُ في المسحة المنظورة »[6] وفي محلٍ آخر يقول « ان سرّ المسحة هو بحسب نوعية الرسوم المنظورة سرٌ مثل المعمودية[7] وثاودوريتوس[8]

(١) خطاب ١٩ ضد الناحصين (٢) في الاسرار ٢: ٣: ٨ (٣) اشعيا ١١: ٢ (٤) على الرسالة الى اهل فيلبي ٢: ٤ (٥) على حزقيال ٣٥: ٦: ١ وعلى يوئيل ٢: ٢٣ (٦) على ١ يو ٢: ٥ (٧) ضد بلاجيانوس ٢: ٤: ١٠٤ (٨) « المسحة السرية التى نستمنحها » على حزقيال ٤

وو برجيليوس[1] وافتيميوس زيغابينوس[2] وآخرون كثيرون يشهدون مثل ذلك .

٥ . ومما يستحق الذكر ان المسحة تُعدُّ مع الاسرار المؤسَّسة من الله لا في الكنيسة الشرقية الارثوذكسية فقط بل في كنيسة رومية ايضاً التي انفصلت عنها في القرن التاسع وعند سائر المذاهب الدينية التي تركت الارثوذكسية قبل انفصال الكنيستين مثل الارمن[3] واليعاقبة[4] والنساطرة[5] وغيرهم[6]

الفصل الثالث

في القسم المنظور في سرّ المسحة

بماذا يقوم القسم المنظور ١ . الدعاء ٢ . الميرون ٣ . مسح اعضاءٍ معينةٍ ٤ . الاقوال السرية .

ان القسم المنظور في سرّ المسحة يقوم بما يأتي : اولاً ان يتضرَّع الكاهن الى العلي ليمنح روحهُ القدوس بغزارةٍ للذي نال المعمودية المقدسة ثم يمسح بعض اعضاءِ جسد المعتمد بالميرون المقدس برسم صليبٍ قائلاً ختم موهبة الروح القدس . ففي هذا العمل المقدس نميز اربعة اشياء .

١ . اولاً الدعاء المقدَّم للاله العلي الذي بهِ يطلب الكاهن حلول

(١) ضد الانفتيخيين ٣: ٧ (٢) السلاح الروحي ٢: ٢٠ (٣) الانخولوجيون صفحة ٢٦٦ (٤) السمعاني في المكتبة الشرقية جزء ١ : ٢٧٢ وجزء ٢ : ١٢١ و ٢٢٦ و ٣٠٠ (٥) السمعاني جزء ٤ وفي نساطرة سورية صفحة ٢٧٢ ومجل الخدم الكنائسية صفحة ١٢٦ (٦) رينودوت في ابدية الايمان ٥ صفحة ١٤٧

الروح القدس على المعتمدين حديثًا وقبل ذلك على الميرون نفسهِ. وهذه الصلاة كانت منذ الازمنة الرسولية في الكنيسة كما نرى في مثال الرسولين القديسين بطرس ويوحنا عندما أُرسلا الى السامرة لكي يستدعيا الروح القدس على المعتمدين هناك فانهما صليا قبل تتميمهما وضع الايدي الشريف لينال هولاء المؤمنون الروح القدس [1]. والكنيسة القديمة هكذا كانت تفعل حسب شهادات القديس كبريانوس والقديس امبروسيوس [2]. وهكذا نقرأ ايضًا في كتاب اوامر الرسل القديسين حيث يقول «وبعد هذا فليعمدهُ باسم الآب والابن والروح القدس وليمسح بميرونٍ (طيبٍ) قائلاً. ايها الرب الاله غير المولود وغير المسود عليهِ ربُّ الكل. يامن منحت عرف معرفة الانجيل عطرًا في جميع الامم انت الآن اجعل هذا الميرون فعالاً في هذا المعتمد لتلبث فيهِ رائحة مسيحك العطرة ثابتةً ومكينةً ليموت معهُ ويقوم معهُ ويحيا بهِ. هذا الكلام وما بعدهُ فليقلهُ الكاهن. لان قوة وضع اليد على كل واحدٍ كانت هذه» [3].

٢. اما المادة التي نستعملها في هذا العمل المقدس فهي ميرونٌ مقدسٌ نلاحظ فيهِ هنا الملاحظتين الآتيتين: اولاً ان استعمال الميرون اخذ مبدأهُ بلا ريبٍ من الرسل القديسين انفسهم. لان الكتاب المقدس يشهد بذلك تمامًا في الآيات التي ذكرناها آنفًا [4]. وبما ان

(١) اع ٨: ١٥ (٢) انظر شهادتها في الفصل السابق (٣) كتاب ٧ فصل ٤٢ و٤٤ (٤) ١ يو ٢: ٢٠ و٢ كو ١: ٢١ — ٢٢

الصرامة في المحافظة على الوصايا والاوامر الرسولية المكتوبة وغير المكتوبة [1] التي سلمت من الرسل الى خلفائهم عظيمة جدًّا فلا سبيل الى الظن بان خلفاء الرسل احدثوا تغييرًا في سرٍّ من الاسرار ومن ثمَّ في سرّ الميرون المقدس ولانهم ابطلوا وضع الايدي بعلامةٍ جديدةٍ منظورةٍ ليمنحوا المؤمنين مواهب الروح القدس على وجهٍ آخر غير الوجه الذي تسلموهُ من معلميهم الرسل. ولئن افترضنا ان واحدًا من الرعاة الاقدمين اراد ان يُحدِث تغييرًا في هذا السرّ فلا بدّ من ان جسارتهُ هذه كانت ذُكرَت في كلام الرعاة الآخرين الذين هم مؤتمنون على التقاليد الرسولية فضلاً عن ان تلك الجسارة لايمكن ان يتم قبولها الكنيسة المسكونية. وبما اننا نرى المسحة المقدسة مستعملة استعمالاً عموميًّا في الشرق والغرب في قرون الدين المسيحي الاولى ولم يذكر احدٌ من القدماء ان هذا الاستعمال اخذ مبدأ من هذا او ذلك العصر او ادخلهُ هذا او ذاك الشخص فبلا ريبٍ تسلمتها الكنيسة من الرسل القديسين انفسهم ولا خلاف. ثم ان القديس ديونيسيوس الاريوباغي يقول كما رأينا سابقًا ان الرسل القديسين كانوا يدعون هذا السرّ سرّ المسحة [2]. [illegible] من هذا القول بكل [illegible] الرسل القديسين انفسهم [illegible] استعمال المسحة. ولكن [illegible] الرسل او بالاحرى الروح القدس [illegible] يستبدل [illegible] الايدي بالمسحة المقدسة فان الكتاب المقدس لم يصرّح بشيء في هذا الباب كما نستنتج من كتاب الاعمال [illegible]

(١) [illegible] ق ٦، ٢٨ [illegible] (٢) [illegible] (٣) انظر شهادتهم في الفصل السابق

القدس للمتعمدين كان محصورًا بالرسل القديسين وحدهم[1] وحيث ان عدد المتعمدين في بدء اعتماد الدين المسيحي كان قليلاً فلم تكن صعوبة في ان يحضر الرسل بانفسهم ويتمموا هذا السرّ . ولكن عند ما ازداد عدد المؤمنين فيما بعد وتضاعف كثيرًا وامتد الدين المسيحي الى جميع اقطار العالم لم يكن ممكنًا للرسل ولا لخلفائهم الاولين ان يطوفوا في كل مكانٍ لكي يضعوا ايديهم على المتعمدين ويمنحوهم الروح القدس . ولهذا رأى الروح القدس موافقًا وألهم الرسل القديسين ان يعوضوا عن وضع الايدي الرسولية على المستنيرين حديثًا بمسحهم بالميرون رفعًا لتلك الصعوبة . فتقديس المسحة اعني تجهيز الميرون والصلاة عليهِ بقي محفوظًا للرسل ثم للاساقفة خلفائهم بعدهم ولكنّ مسح المتعمدين بالميرون المقدّس من الاساقفة سُمِحَ بهِ لجميع الكهنة على السوآء . وانما فضلوا الميرون على كل مادةٍ غيرهِ لان المسح بالزيت كان في العهد القديم ايضًا العلامة المنظورة التي بها كان الكهنة يستدعون على الناس مواهب الروح القدس[2] . وقد قال في ذلك القديس كيرلس بطريرك اورشليم « من الضرورة ان تعلموا ان رسم هذه المسحة هو في العهد القديم لان موسى لما جآء بامر الله الى اخيهِ[3] وجعله رئيس كهنةٍ بعد ان غسله بالمآء مسحهُ وكان يُدعى مسيحًا من المسحة الرمزية[4] . وهكذا رئيس الكهنة لما

(١) اع ٨: ١٢—١٨ (٢) خر ٢٨: ٤١ * ١ مل ١٦: ٢ * ٣ مل ١: ٣٩ و ١٦: ١٦ (٣) لا ٨: ١—٣ (٤) لا ٨: ٦ و ١٢ و ٤: ٥

اقام سليمان ملكًا مسحهُ بعد غسلهِ في جيحون[1] غير ان هذه الامور جرت على اولئك رمزيًا ولكنها عليكم ليست رمزية[2] بل في حقيقة . لانكم مُسحتم حقيقةً من الروح القدس »[3] . ثانيًا نلاحظ ان استعمال الميرون في هذا العمل المقدس حُسبَ دائمًا امرًا جوهريًا كليّ الضرورة للمعتمد لكنّ وضع الايادي لم يكن كذلك وهو يُفصَل ويميَّز عن المسحة . وهذا مما اكدهُ من ان آبآء المجامع القديمة المسكونية والمكانية عندما يتكلمون في هذا السرّ يذكرون المسح بالميرون فقط من دون ان يذكروا شيئًا عن وضع الايدي . فالمجمع الثاني والسادس المسكونيان حددا قبول بعض الهراطقة في احضان الكنيسة بمسح الميرون[5] . ومجمع اللاذقية المكاني يثبت ضرورة تميم هذا السرّ بالمسحة بعد المعمودية حالاً على المؤمنين[6] وكذلك اكثر آبآء الكنيسة وخصوصًا الشرقيين لا يذكرون وضع الايدي بل يذكرون استعمال الميرون المقدس في هذا السرّ[7] . مثلاً : ان القديس كيرلس الاورشليمي خصص مقالة كاملة يشرح فيها سرّ المسحة للمستنيرين حديثًا[8] من دون ان يذكر كلمةً واحدةً عن وضع الايدي . فيتّضح من ذلك ان سرّ المسحة المقدس انما كان قائمًا في الكنيسة القديمة بمسح المعتمدين بالميرون لا بوضع الايدي وكيفية تميم هذا السرّ يجب ان تكون المسحة بلا بدٍ ولا يكتفى بوضع الايدي . وقد اضافت بعض الكنائس المكانية

(١) ٣ مل ١: ٣٩ و ٤٥ (٢) ١ كو ١: ١١ (٣) كيرلس الاورشليمي في الاسرار ٣: ٦ (٤) المجمع الثاني المسكوني قانون ٧ والمجمع الملتئم المسكوني قانون ٩٥ (٥) قانون ٧ و ٤٨ (٦) انظر شهاداتهم في الفصل السابق (٧) مقالة ٣ في الاسرار

وعلى الخصوص في المغرب كما يتضح من شهادات آبائها السابقة وضع الايدي في تتميم سرّ المسحة وجرت عليه الى عصرٍ ما . واما كنيسة رومية فلم تزل جارية عليه ولا نشك في انهم باضافتهم ذلك الى سرّ المسحة المقدسة لا يقصدون شيئاً آخر سوى اقتفاء عادةٍ كانت جارية عند الرسل ولا يبينون ان ذلك خاصة جوهريةٌ من تتميم سرّ المسحة لا بدّ منها وهذا يتضح من شهادات الآباء الغربيين انفسهم . فان القديس كبريانوس مثلاً الذي يذكر المسحة ويذكر وضع الايدي ايضاً في تتميم هذا السرّ يصرّح بانهُ من الضرورة ان ينال المسحة كل واحدٍ من المستنيرين حديثاً لكي يستحق نعمة يسوع المسيح[1] وباباوات الغرب انفسهم يشهدون صريحاً ان وضع الايادي قد ابدل منذ ازمنة الرسل بالمسحة التي هي قسمٌ جوهريٌ في السرّ . فالبابا اينوشنسيوس الثالث يقول « ان وضع الايدي يشار اليه بمسح الجبهة وهو من وجهٍ آخر يدعى مسحة »[2] . والبابا اوجانيوس الثالث يقول « عوض وضع اليد تُتمَّم المسحة في الكنيسة »[3] . وآباء المجمع الملتئم في مدينة مايتس سنة ١٦٤٠ « يعلّمون الشعب بتدقيقٍ ان هذا السرّ وان كان في الازمنة القديمة الرسولية يتمّ بوضع الايدي فقط أخذ بعد ذلك يتم بالمسحة وهذا الامر من تسليم الرسل ايضاً »[4] فمن هذا يتضح ان المسح بالميرون المقدس كان ولم يزل منذ ازمنة الرسل الى الآن قسماً جوهرياً ضرورياً في سرّ المسحة

(١) انظر شهادته السابقة

(٢) Cap de sacra Unctione (٣) D ret pro unione Armenorum apud Harduin. Act Concil t IX. col 458. (٤) Apud Harduin. ibid. col. 2118.

ولم تتفق آراء علماء الغرب اللاهوتيين في ما يخص اهمية وضع الايدي والمسحة في هذا السرّ . فبعضهم يعتبر ان العمل الجوهري فيه انما هو وضع الايدي وبعضهم يرتأي ان كلاً من هذين العملين اعني وضع اليد والمسح بالميرون ضروريٌ في تتميم سرّ المسحة[1]

اقول : ما دام من المؤكد والثابت ان الرسل القديسين سلموا الكنيسة سر المسحة بالمسح بالميرون لا يكون محلٌ للقول بان الرسل ابدلوا وضع الايدي بالمسحة . لان البحث انما هو في الكيفية التي بها تسلمت الكنيسة الاسرار المقدسة من الرسل لا اكثر . ولا اظن ان الرسل تسلموا وضع اليد ثم بدلوهُ بغيرهِ وابطلوهُ مع ان وضع اليد لم يزل في الكنيسة الى الآن لكنهم كانوا يستعملون وضع اليد لغايةٍ اعلى من الغاية المقصودة من سرّ المسحة اعني انهم كانوا يضعون ايديهم على المؤمنين الحقيقيين لا للتثبيت وحدهُ فقط بل يمنحوهم مع التثبيت مواهب خصوصية ايضاً كموهبة التعليم والنبوة والكهنوت الخ واما التثبيت العمومي فكان محصوراً بالمسحة . وهكذا تفعل الكنيسة الارثوذكسية فانها تمسح جميع المعتمدين بالميرون المقدس وتمنح مواهب خصوصيةً بوضع ايدي الاساقفة للذين يترقون الى درجاتٍ اكمل في خدمة الايمان كالاساقفة والكهنة والشمامسة والمعلمين وخدام البيعة اجمالاً . فالغاية المقصودة اذن من المسح بالميرون ليست هي الغاية المقصودة من وضع اليد نفسها . وما سلمهُ الرسل القديسون هو الواجب التمسك بهِ . وبما ان المسحة مسلَّمةٌ منهم كما وهنا من

(١) Apud Perrone Prael theolog., de Confirmat., c. 3, n. 67; Klee, Kathol Dogmat., 3, 169. Mainz, 1845.

الكتاب المقدس والآباء وجب على كل مسيحي ان يعرف ان المسح بالميرون هو العمل الجوهري الضروري في سر المسحة. وهذا نؤيده ببرهان قوي نزيده عما تقدم من البراهين وهو مأخوذ من اسم السر فقد رأينا ان هذا السر يسمى مسحة وسر المسحة ورمزًا ورسمًا وتثبيتًا وختمًا الخ ومعلوم ان لفظ المسحة والختم لا يدل على وضع اليد بل على الدهن والطابع بريشة الميرون. هذا نبديه رأيًا ما مع قطع النظر عن الرأي العام الذي لا نرفضه اذ نتيجة كلا الرأيين وجوب المسحة.

ومن اللاهوتيين من قصد التوفيق بين الرأيين في المسح ووضع اليد فقال «ان وضع اليد الذي كان الرسل يمنحون به المؤمنين مواهب الروح القدس لم يكن منفصلاً عن المسح في تقديم سر المسحة بل كان ولم يزل متحدًا معه. لان راعي الكنيسة حين يتم السر داهنًا بيده جبهة المعمد وسائر اعضاء جسده يرفع يمينه عليه ليدهنه فبرفعه يمينه يكون قد وضع يده عليه وتم وضع اليد فالرسل القديسون باختيارهم حسب الهام الروح القدس علامة ثانية (المسحة) يمنحون بها مواهبه لم يبطلوا العلامة الاولى (وضع اليد) التي رسمت هي ايضًا بامر الله بل جمعوا العلامتين بحكمة فائقة». وهذا الرأي ذكره «بيدا» احد مؤلفي القرن السابع[1]. و«رابان مور» احد مؤلفي القرن الثامن[2]. غير اننا نلاحظ نحن ان المسحة تتم برفع يمين القسوس على المعتمدين ولكن سلطان وضع اليد محصور بالاساقفة وحدهم دون القسوس

(1) Asin. Alm. 29. (٢) De instit. cleric. lib 1, c. 28.

سر المسحة اذن تسلمته الكنيسة من الرسل القديسين انفسهم بالمسح بالميرون المقدس ولم تزل الى الآن محافظة على هذا التسليم كما في سائر الاسرار والتعليم.

٣. ثالثًا ان عمل السر نفسه ايضًا اعني مسح بعض اعضاء الجسد بالميرون المقدس برسم صليب وهو جارٍ في الكنيسة منذ القدم كما يشهد بذلك القديس امبروسيوس. حيث يقول «مسحك الله وختمك المسيح وكيف ذلك؟ لانك ختمت برسم صليبه وآلامه»[1]. وكذلك اغسطينوس يشهد في مقالته المائة والثامنة عشرة على يوحنا. والقديس كيرلس الاورشليمي[2] يعلم منفصلاً عن مسح الجبهة والاعين والآذان والمناخر والصدر. وآباء المجمعين المسكونيين الثاني والسادس[3] يعترفون صريحًا بمسح الجبهة والاعين والآذان والانف والفم. والقديس افرام السرياني يذكر مسح الحواس كلها واقسام اخرى من الجسد حيث يقول «ان جميع قواكم النفسانية قد خُتمت بختم الروح القدس. وجميع اعضاء جسدكم قد ختمت بالمسحة وقد وضع الملك عليكم رسالة خاتمًا اياها بختم النار[4] لكي لا يقرأها الغرباء ويحرفوها»[5]. فتعليم الكنيسة اذن وعادتها القديمة هي ان تمسح بالميرون المقدس الحصر لاعضاء الجسد اعني آلات جميع القوى النفسانية فينقوى بقوة النعمة الالهية قسما الطبيعة البشرية كلاهما معًا. اما محل الكنيسة الرومانية بمسحها جبهة المعتمدين

(١) في الاسرار ٣ ٦ ٢ ٧ (٢) تعليم في الاسرار ٣ ف ٤ (٣) قانون ٧ وقانون ٩٥ (٤) ... ٣ ... (٥) تعليم الايمان فصل ٥

وحدها فقط»(١) فهو مخالفٌ لهذه العادة القديمة الجارية ليس في الكنيسة الارثوذكسية فقط بل عند الذين خرجوا عن التعليم الارثوذكسي في الازمنة الاولى ايضاً مثل اليعاقبة والارمن الذين كانوا يمسحون المسحة لا على الجبهة وحدها بل على سائر الاقسام»(٢).

٤. رابعاً ان الكلمات السرية الجوهرية في تتميم سرّ المسحة هي هذه «ختم موهبة الروح القدس». وهذه العبارة ذُكِرَت في آية القديس بولس الرسول حيث يقول «والذي يثبتنا معكم في المسيح وقد مسحنا هو الله الذي ختمنا ايضاً وجعل عربون روحهِ في قلوبنا»(٣) ومشهودٌ لها انها كانت هي الكلمات المستعملة في الكنيسة القديمة في تتميم هذا السرّ المقدس وقد اوردنا سابقاً برهاناً في ذلك من اقوال القديس كيرلس الاورشليمي. ونجد شهاداتٍ في استعمالها اكثر صراحةً في مؤلفات استاريوس استقف اماسيا الذي اشتهر في القرن الرابع(٤). وفي القانون السابع من قوانين المجمع الثاني المسكوني الذي انعقد في هذا القرن حيث يقول «اننا نقبل الهراطقة الراجعين الى الكنيسة والى قسم المخلصين حسب الفرض والعادة الجارية ... فيُختَمون اولاً بالميرون المقدس على الجبهة والاعين والانف والفم والآذان وعندما نختمهم نقول «ختم موهبة الروح القدس» فنلاحظ في هذا القانون ان آباء المجمع الثاني القديسين لم يقولوا «نفرض او نأمر او نحتم بان يقال في تتميم المسحة «ختم

(١) التعليم الروماني قسم ٢ فصل ٣: ٢٢ (٢) السمعاني في مجلد الخدم جزء ٣ صفحة ٨٢ — ٨٤ و١١١ — ١١٢ طقس المسحة في الكنيسة الارمنية (٣) ٢ كو ١: ٢١ — ٢٢ (٤) مكتبة فوتيوس مجلد ٢٧١ صفحة ١٤٩٩

موهبة الروح القدس» مكتفين بذكر هذه الكلمات لانها معلومةٌ عند الجميع ومستعملةٌ منذ القديم في تتميم هذا السرّ ومبينين انهم يجرون على العادة المسنونة والمقبولة منذ القديم. وهذا المعنى نفسهُ يكرّرهُ آباءُ المجمع السادس المسكوني ايضاً في القانون الخامس والتسعين من قوانينهِ.

الفصل الرابع

في النتائج غير المنظورة التي من سرّ المسحة وفي عدم اعادة هذا السرّ

١. نوال الروح القدس ٢. تقسيم المواهب ٣. موهبة الاستنارة ٤. موهبة القوة والنمو ٥. المواهب الخصوصية ٦. عدم اعادة السرّ ٧ مسحة الملوك

١. ان النتيجة الاصلية غير المنظورة التي من سرّ المسحة هي نوال المؤمنين الروح القدس بهِ. فاننا بالمعمودية ننقى من كل خطيئةٍ ونولد ثانيةً بقوة الروح القدس ولكنا لسنا بعد مستحقين ان ننال هذا الروح في ذاتنا ونصير هياكل لهُ. فبالمسحة تُمنَح لنا نِعَم الروح القدس كلها التي لا بدَّ لنا منها للحياة الروحية(١). وهذه الحقيقة تؤيدها قطعياً اقوال القديس لوقا هذه «فلما سمع الرسل الذين في اورشليم ان السامرة قد قبلت كلمة الله ارسلوا اليهم بطرس ويوحنا فانحدرا وصلّيا من اجلهم لكي ينالوا الروح القدس لانهُ لم يكن قد حلَّ على احدٍ منهم غير انهم كانوا معتمدين باسم يسوع فحينئذٍ وضعا الايدي عليهم فنالوا الروح القدس»(٢). وهذا التعليم نفسهُ يعلمهُ كما رأينا سابقاً جميع معلمي الكنيسة

(١) اعتراف الراي القويم سؤال ١٠٥ (٢) اع ٨: ١٤ — ١٧

القدماء منهم ديونيسيوس الاريوباغي[1] وترتليانوس[2] وكبريانوس[3] والبابا كرنيليوس وكيرلس الاورشليمي وامبروسيوس وكيرلس الاسكندري وثاوذوريطوس وآخرون كثيرون[4].

٢. اما مواهب الروح القدس التي تُمنح بسرّ المسحة للمؤمنين فهي بوجه الاجمال سبعٌ كما يعدها اشعيا النبي «روح حكمةٍ وفهمٍ روح مشورةٍ وقوةٍ روح معرفةٍ وحسن عبادةٍ واخيراً روح مخافة الله»[5] فالثلاث الاوَل من هذه المنح السبع فعلها انارة عقل الانسان واما الاربع الاخيرة فانها تبني وتقوي ارادة الانسان لعمل الصلاح[6]. وبنوعٍ خصوصيّ نقول:

٣. اولاً ان سرّ المسحة يمنحنا نعمة الروح الذي ينيرنا ويجعلنا قادرين ان نفهم حقائق الايمان كما كتب يوحنا الرسول «اما انتم فلكم مسحةٌ من القدوس وتعلمون كل شيء . . . والمسحة التي اخذتموها ثابتةٌ فيكم ولا حاجة لكم ان يعلمكم احدٌ بل كما تعلمكم المسحة نفسها عن كل شيء وهي حقٌ وليست كذباً فكما علمتكم تثبتون فيه»[7]

والقديس كيرلس الاورشليمي يقول لابناء الكنيسة «هذه (المسحة) احفظوها طاهرةً لانها تعلّم كل شيء اذا لبثت فيكم كما سمعتم قبل برهةٍ

(١) انظر شهادته السابقة وايضاً في الفصل ٢ : ٨ من كتاب رئاسة الكهنوت الكنائسية يقول «مسحة الميرون المكمِّلة» (٢) راجع شهادته السابقة وايضاً يقول «لسنا ننال الروح القدس في المياه بل ننقى بها ونتهيأ لنوال الروح القدس» في المعمودية فصل ٦ (٣) راجع شهادته. (٤) راجع شهاداتهم السابقة (٥) اش ١١ : ٢ و٣ (٦) اعتراف الراي القويم سؤال ٧٣ — ٨٠. (٧) ١ يو ٢ : ٢٠ — ٢٧

يسيرة اقوال يوحنا المغبوط الذي قال اقوالاً حكمية كثيرة في هذه المسحة. لان الروح المقدّس حرزٌ للجسد وخلاصٌ للنفس»[1]

٤. ثانياً ان سرّ المسحة يمنحنا نعمة الروح القدس المقوية التي تنمينا في حسن العبادة. وقد صرّح بذلك بولس الرسول قائلاً «ولكن الذي يثبتنا معكم في المسيح وقد مسحنا هو الله الذي ختمنا ايضاً واعطى عربون الروح في قلوبنا»[2] وهذا الموضوع عينه كان يلقيه القديس كيرلس الاورشليمي ايضاً الى الذين كانوا يسمعون تعاليمه قائلاً[3] «بعد ذلك بمسحكم على صدوركم لكي تلبسوا درع العدل وتثبتوا لدى حيل الشيطان وكما ان المسيح بعد المعمودية وحلول الروح القدس خرج وحارب المعاند هكذا انتم بعد المعمودية المقدّسة والمسحة السرّية تثبتون لدى القوة المضادة لابسين سلاح الروح القدس الكامل وتحاربونها قائلين «اني استطيع كل شيء بالمسيح الذي يقويني»[4]

٥. ثم ان الرسل القديسين كانوا بوضع الايدي يمنحون للمؤمنين مواهب الروح القدس الممتازة كموهبة الالسن والنبوة[5]. وهذه المواهب لم تكن هي المقصودة من سرّ المسحة بل كانت مواهب فوق العادة ممنوحة لافرادٍ[6] بوضع اليد لان سرّ المسحة كان ولم يزل ضرورياً لا بدّ منه لجميع المعتمدين كي يستطيعوا ان ينالوا الروح القدس[7].

٦. ومن حيث ان سرّ المسحة يطبع فينا «ختم موهبة الروح القدس»[8]

(١) في الاسرار عظة ٣ : ٧ (٢) ٢ كو ١ : ٢١ و٢٢. (٣) في الاسرار ٣ : ٤ (٤) في ار ٤ : ١٣ (٥) اع ١٩ : ٨ (٦) ١ كو ١٢ : ٢٩ و٣٠. (٧) اع ٨ : ١٧ (٨) اف ١ : ١٣ و٤ : ٣٠ و٢ كو ١ : ٢١

«الذي يثبتنا وقد مسحنا وختمنا ايضاً واعطى عربون الروح القدس في قلوبنا هو الله»[١] وحيث ان «ذلك امين ولا يمكن ان ينكر نفسه»[٢] قد اعتُبر سر المسحة في كل الازمنة القديمة[٣] حتى الان مثل سرّ المعمودية اي انهُ لا يُتمّ الاّ دفعةً واحدةً على الانسان الواحد فقط[٤] غير ان في ذلك فرقًا بين المعمودية والمسحة وهو ان المعمودية متى تُمِّمت قانونيًّا دفعةً واحدةً لا تعاد كليًّا حتى ولو انكر المعتمد يسوع المسيح ثم رجع ثانية الى احضان الكنيسة الارثوذكسية واما الميرون المقدس فانهُ يعاد على من انكر المسيح اذا رجع الى الديانة المسيحية ثانية[٥]

٧ واما المسحة التي تمنحها الكنيسة الارثوذكسية للملوك المؤمنين حين تتويجهم فهي مأخوذةٌ من عادة كنيسة العهد القديم التي كانت تمسح الملوك بزيتٍ مقدسٍ حسب امر الله[٦] ولذا كان يسمى الملوك مسحاء الله اي ممسوحين[٧]. فهذا العمل المقدس ليس اعادة لسرّ المسحة التي بها تُمنح لجميع المؤمنين مواهبُ الروح القدس الضرورية لحياتهم الروحية بل هو درجة مواهب ساميةٍ ممنوحةٍ من الروح القدس وضروريةٍ جدًّا لاتمام الواجبات الملوكية التي هي واجباتٌ ساميةٌ ذات نوقٍ فائقةٍ ومعروضةٍ من الذات الالهية[٨]. وقد قال الكتاب المقدس

(١) ٢ كو ١: ٢٢. (٢) ٢ تي ٢: ١٣ (٣) اوغسطينوس ١١: ١٣ واوبتاتس في انشقاق الدوناتيين ٢ وغريغوريوس في مشوره الثاني (٤) اعتراف الراي القويم سؤال ١٠٥ (٥) اعتراف الراي القويم سؤال ١٠٥ (٦) مز ٤٨ ٢ و ١ مل ١ و ١٦ ٢ و ١٢ و ١٢ (٧) ١ مل ١٢ : ٢ - ٥ و ٢١ ٧ (٨) د : ٢٢ ٣٩

حيث مسح داود ملكًا «واخذ صموئيل قرن الزيت ومسحهُ في وسط اخوتهِ وحلَّ روح الرب على داود من ذلك اليوم»[١] ولكي يدرك القاري هذا الامر فلينظر في سرّ الكهنوت. فمن المعلوم ان سرّ الكهنوت لا يعاد ومع ذلك ترى ان لهُ درجاتٍ وكلما تقدم فيهِ الانسان الى درجاتٍ عليا يتجدد وضع الايدي عليهِ لينال موهبة تلك الدرجة. وهكذا في مسحة الملوك ايضًا التي هي رتبةٌ عاليةٌ من السرّ الواحد نفسهِ ممتازةٌ ومانحةٌ لمسحاء الرب «روحًا اكثر غزارة»[٢] وهذه المواهب الخصوصية التي تطلبها الكنيسة الارثوذكسية من اجل الملك المنتخب من الله توضحها الصلوات التي تقرأها في هذا الطقس الجليل. فمن جملتها هو ان الشماس الاول يقول «من الرب نطلب ان ينال قوة وحكمة من السماء بمسحة الميرون المقدس لاجل التدبير بعدلٍ» ثم يقدم رئيس الكهنة الذي يتم هذا السرّ الدعاء الآتي «ايها الرب الهنا ملك الملوك ورب الارباب يا من بواسطة نبيك صموئيل انتخبت عبدك داود ومسحتهُ ملكًا على شعبك اسرائيل استمع منا نحن الطالبين اليك غير المستحقين . . . واجعل عبدك هذا المؤمن الملك العظيم . . . ان يكون مستحقًا ليمسح بزيت البهجة واهلًا لان يلبس قوةً من العلا ويجلس على كرسي العدل سلِّحهُ بسلاح روح قدسك الكامل وقوِّ ساعدهُ واوضحهُ حافظًا امينًا لعقائد الكنيسة . . الجامعة»[٣]

(١) ١ مل ١٦ : ١٣ (٢) اغناطيوس رئيس اساقفة فرونج في الاسرار الكنائسية صفحة ١٤٣ طبعة ١٨٤٦ في بطرسبرج. (٣) طقس تتويج الملوك صفحة ٣

الفصل الخامس

في من لهُ الحق ان يتم سرّ المسحة وعلى من يجب ان يتمّ هذا السرّ ومتى يتمّ

١. حق المسح بالميرون للاساقفة والقسوس واختلاف الكنيسة الرومانية مع نقض اعتراضاتها ٢. ملاحظات في اسباب تخصيص المسحة وقتاً ما بالاساقفة والفرق بين الكنيستين واختلاف علماء رومية فيما بينهم ٣. وجوب مسح المسحة حالاً بعد المعمودية وخطأ الباباويين في ذلك.

١. تُعلِّم الكنيسة الارثوذكسية ان حقّ سرّ المسحة لا يختص بالاساقفة وحدهم بل بالقسوس ايضاً. غير ان بينهما فرقاً واحداً وهو ان الاساقفة لهم الحق ان يقدّسوا الميرون المطلوب لهذا السرّ والقسوس يمسحون فقط بالميرون المكرّس من الاساقفة[1].

فتقديس الميرون المطلوب لسرّ المسحة قد خُصِّص منذ القديم بالاساقفة وحدهم وهذا يُستفاد من اوامر مجمع قرطاجنة سنة (٣١٨) حيث نقرأ «لا يصير عمل المسحة من القسوس»[2]. وايضاً من مجامع اخرى عقدت بعدهُ في تلك المدينة ومن معلمي الكنيسة[3]. واما الحق في تتميم سرّ المسحة فقد منح للاساقفة لانهم خلفاء الرسل الذين كانوا متوطين تتميمهُ بلا واسطة[4]. ومُنح للقسوس ايضاً لانهم اخذوهُ حين شرطونيتهم

(١) اعتراف الراي القويم سوال ٥ ١ (٢) قانون ٦ (٣) مجمع قرطاجنة الثاني (سنة ٣٩٠) قانون ٣. ومجمع قرطاجنة الثالث (سنة ٣٩٧) قانون ٣٦ والبابا حيلاسيوس رسالة ٩ ٦ (٤) اع ٨ ١٤ — ١٧ و١٨ ٦

من الاساقفة مع الحق في تتميم سائر الاسرار خلا الكهنوت وهذا لسرٌ قد اثبتتهُ الكنيسة القديمة. فقد ورد في اوامر الرسل ما نصهُ في المعمودية «ايها الاسقف «او القس» قد رتبنا سابقاً والآن ايضاً نقول . . . ينبغي ان تدهن اولاً بزيت ثم تعمد بماء واخيراً تختم بالميرون»[1]. والقديس امبروسيوس يوكد ان مسحة الميرون تتم من القس وانهُ عند ما يصلي يحل الروح القدس. وقد قال ما نصهُ «فعند ما تقدم بعد هذا (اي بعد المعمودية) «الى الكاهن» تأمل ماذا يتم. اليس ما قالهُ داود مثل الدهن على الراس النازل على اللحية لحية هرون؟[2]. هذا هو الميرون (الدهن) الخ»[3]. والقديس يوحنا الذهبي الفم واوغسطينوس المغبوط يتفقان اتفاقاً تامّاً في ان الاسقف في تكميل الاسرار لا يتنازع عن القس الّا في الشرطونية فقط اي في سلطان تتميم سرّ الكهنوت. فالقديس الذهبي الفم يقول «لانهم (الاساقفة) يعلون على القسوس بالشرطونية وحدها فقط وبها وحدها يظهر انهم يسمون عليهم»[4]. وقال ايارونيموس «ما الذي يصنعهُ الاسقف ولا يصنعهُ القس غير الشرطونية؟»[5]. ثم انهُ معلومٌ ان المسحة عند جميع الهيئات المسيحية القديمة غير الارثوذكسية على الاجمال كالارمن واليعاقبة وغيرهم تتمّم من القسوس ايضاً[6]. فالكنيسة الرومانية

(١) كتاب ٧ فصل ٢٢ وفي الفصل ٤٢ و٤٤ من هذا الكتاب عينهِ ذكر الكاهن وحدهُ فقط في تتميم المعمودية والمسحة. (٢) مز ١٣٢: ٢ (٣) في الاسرار فصل ٧ (٤) مقالة ١١ على ١ تي (٥) رسالة ١٤٥: ١

الا لا تعتقد اعتقاداً مستقيماً بتعليمها ان الحق في تتميم سرّ المسحة محصور بالاساقفة وحدهم فقط ولا يشمل القسوس ايضاً [٢] وقد اسندت عقيدتها هذه الى الحادث المذكور في اعمال الرسل وهو ان القديس فيلبس عمّد السامريين ولكنه لم يمنحهم الروح القدس حتى أرسل الرسولان بطرس ويوحنا وتمما ذلك بوضع الايدي [٣] . غير ان اللاتين قد اخطأوا في هذا الاسناد لان القديس فيلبس لم يكن قساً بل كان شماساً فلا ينتج من عدم تتميمه سرّ المسحة على الذين عمدهم ان القسوس ايضاً لم يكونوا يتممون هذا السرّ وان السلطة في تتميمه لم تعطَ لهم وايضاً لكون الرسل تمموا بذاتهم سرّ المسحة مرةً او مرتين كما ورد في الكتاب المقدس [٤] لا ينتج ايضاً انهم كانوا هم وحدهم يتممونه وان القسوس لم يتمموهُ في مكانٍ من الاماكن على الاطلاق . وما ذكرناهُ عن فيلبس الرسول نؤيدهُ بتفسير الذهبي الفم حيث قال « ولماذا لم يكن هولاء السامريون قد نالوا الروح القدس بعد التعميد ? اما لان فيلبس لم يمنحهم اياهُ اعتباراً للرسل على رأي بعضهم واما لانهُ لم تكن لهُ هذه السلطة بما انهُ كان واحداً من الشمامسة السبعة وهذا هو الارجح [٥] » .

ثم ان الكنيسة الرومانية تاتي ايضاً باسنادات اخرى من اقوال

(١) السمعاني في سجل الخدم صفحة ١٢٧ (٢) مجمع تريدنتي جلسة ٧ في المسحة قانون ٣ وجلسة ٢٣ قانون ٧ (٣) اع ٨ : ١٤ — ١٦ (٤) اع ٨ : ١٤ — ١٦ و ١٩ : ٤ — ٦ (٥) مقالة ١٨ : ٣ على الاعمال

القديس كبريانوس والذهبي الفم حيث يقال ان تتميم سرّ المسحة في عصر هذين القديسين كان مختصاً باعلى الخدام او بهامات الكنائس [١] (prœpositis) . فننبهها نحن الى ان العبارة « هامات الكنائس » لا يعنى بها الاساقفة وحدهم بل القسوس ايضاً . لان كل قسٍ هو بلا ريبٍ هامةُ كنيستهِ ومحلتهِ . والبرهان على ذلك ان هذين القديسين قد ذكرا هذا المعنى في صدد مقابلتهما بين اعلى الخدام في الكنيسة وهم الاساقفة والقسوس وبين الشمامسة الذين لم تكن لهم سلطةُ تتميم سرّ المسحة مثل الشماس فيلبس . ومما يؤيد هذا المعنى عبارة القديس يوحنا الذهبي الفم التي ذكرناها سابقاً وهي « ان الاساقفة يعلُون على القسوس بالشرطونية وحدها فقط وبها وحدها يظهر انهم يمتازون عن القسوس [٢] »

وتستند الكنيسة الرومانية ايضاً على شهادة ايارونيمُس حيث يقول ان الاساقفة قد اعتادوا ان يطوفوا مدن ابرشياتهم الصغيرة ليمنحوا مواهب الروح القدس للمعتمدين من الكهنة والشمامسة . فنحن نجيبهم على اعتراضهم هذا من اقوال هذا المعلم نفسهِ حيث يقول ايضاً : ان هذا الامر يجريهِ الاساقفة لاجل شرف الكهنوت فقط لا لداعٍ ناموسيّ شرعيٍ وانهُ لو كان الروح القدس ينحدر بصلاة الاسقف وحدها لكان يحق لجميع المعتمدين من الكهنة والشمامسة والذين يموتون في القيود او في الاقاصي قبل افتقاد الاسقف ان يتذمروا [٣] . وهذا المعلم نفسهُ اي ايارونيموس

(١) انظر شهادة كبريانوس السابقة والذهبي الفم في المقالة نفسها (٢) مقالة ١٠ : ١ على رسالة تيموثاوس الاولى (٣) خطاب لوكيفوروس ٩

المضبوط يسأل في محل آخر السؤال الآتي وهو «ماذا يعمل الاسقف ولا بعمله القس خلا الشرطونية ؟»(١) . فلو كان يعتقد ان حقوق الاسقف تزيد على حقوق القس باكثر من الشرطونية لما سأل هذا السؤال ؟

٢ . وهنا نضيف على ما تقدم الملاحظات الآتية :

اولاً رُبَّ سائلٍ يسأل . هل امتاز الاساقفة في القرون الاولى من الدين المسيحي بتتميم سرّ المسحة ام لم يمتازوا ؟ فنجيبهُ ان الاساقفة لم يمتازوا في تلك الاعصار بتتميم سرّ المسحة فقط بل بغيره ايضاً من الاسرار كالمعمودية والشركة ولم يكن القسوس يتممون هذه الاسرار بدون رخصةٍ من الاساقفة(٢) كما هو عندنا اليوم ذلك لان كل فئةٍ من المؤمنين كان يرأسها في تلك الاوقات اسقفٌ لان المسيحيين كانوا قليلين . حتى ان الابرشية كانت احياناً كثيرةً تنحصر بمدينةٍ واحدةٍ او قريةٍ واحدةٍ لا اكثر . وكيفما كانت الحال من اختصاص تتميم سرّي المعمودية والشركة بالاساقفة وحدهم في القرون الاولى لا يستنتج اللاتينيون ان لا حق للقسوس بتتميم هذين السرين . فلماذا يستنتجون من امتياز الاساقفة بالمسحة ان لا حق للقسوس بتتميم هذا السرّ ؟

ثانياً ان كنيسة رومية نفسها التي تمنح الاساقفة وحدهم حق تتميم المسحة المقدسة قد اقرت اكثر من مرةٍ بوجوب السماح للكهنة ايضاً بتتميم

(١) انظر شهادته السابقة (٢) القديس اغناطيوس الى اهل ازمير فصل ٨ وترتليانوس في الزيجة الواحدة فصل ٢ وفي المعمودية فصل ٧ و١٧

هذا السرّ(١) . وفي وقتنا الحاضر كل الفرق بين الكنيستين هو ان الكنيسة الارثوذكسية تمنح جميع الكهنة حق تتميم المسحة المقدسة مثل سائر الاسرار خلا سرّ الكهنوت وهذا الحق تمنحهُ لهم دفعةً واحدةً حين شرطونيتهم ليكون لهم حقاً دائماً(٢) . واما الكنيسة الرومانية فانها تسمح بالمسحة لبعض الكهنة فقط وذلك لا في وقت الشرطونية بل بعدها حسب الظروف وتسمي بعض الكهنة متممين اعتياديين لهذا السرّ (ministri ordinarii) وآخرين متممين فوق العادة (extra ordinarii) .(٣) فاذن هي تنكر على الكهنة حق تتميم المسحة وهي نفسها تعترف لهم به وتمنحهُ لهم . فتأمل . .

ثالثاً . ان علماء رومية اللاهوتيين يختلفون بعضهم عن بعضٍ في هذه المسألة . فبعضهم يظنُّ أنّ تتميم المسحة يختص بالاساقفة وحدهم بحقٍّ الهيٍّ وآخرون يزعمون ان ذلك مختصٌّ بهم بحقٍّ كنائسيٍّ . وهذا الرأي الاخير ينتحله افضلهم(٤) . ولكنهم يكشفون بهذه الاختلافات اغلاط كنيستهم التي لا تعطي هذا الحق الاَّ للاساقفة فقط .

٣ . أن الكنيسة الارثوذكسية تمنح المسحة حالاً بعد المعمودية لجميع الذين اعتمدوا باسم الثالوث القدوس بلا استثناء(٥) . وبذلك نتفق اتفاقاً تاماً اولاً مع الرسل القديسين . لاننا نقرأ ان القديس بولس الرسول حينما اتى الى افسس وعمّد بعضاً هناك منحهم حالاً الروح القدس بوضع

(١) كتاب الجامع لاردوينُس جزء ٩ صفحة ٤٣٨ (٣) شرطونية الكهنة (٢) بيرون جزء ٦ صفحة ١٤ في المسحة (٤) طروميل في المسحة ٩ : ١ سؤال ٢ : ٦ الخ (٥) اعتراف الراي القويم سؤال ١١٥

الايدي السري(1) . وفي رسالته الى اهل افسس(2) يوصيهم قائلاً «لا تحزنوا روح الله القدوس الذي به ختمتم ليوم الخلاص» اي يوم المعمودية وهكذا سائر الرسل ايضاً حالما سمعوا ان الشماس فيلبس عمد السامريين ولكونه شماساً لم يكن قادراً ان يمنحهم الروح القدس حالاً ارسلوا بطرس ويوحنا الى السامرة لكي يتمما هذا السرّ على اولئك الحديثين(3). ثانياً تتفق الكنيسة الارثوذكسية مع الكنيسة القديمة ايضاً كما يشهد ترتليانوس حيث يقول «بعد خروجنا من حميم المعمودية مُسحنا بميرون مقدس». وكما رأينا سابقاً يشهد بذلك مجمع اللاذقية ايضاً(4) حيث يقول «يجب على المستنيرين ان يُمسحوا بعد المعمودية بمسحة سموية ويشتركوا بملكوت المسيح». والقديس كيرلس الاورشليمي يقول في مقالته الثالثة في الاسرار هكذا «ولنا ايضاً بعد خروجنا من جرن المجاري المقدسة أُعطيت مسحة وهي رسم المسحة التي مُسح بها المسيح. فهذه هي الروح القدس» ومعلمون آخرون كثيرون في الكنيسة يشهدون بذلك. حتى ان المؤلفين الرومانيين ايضاً يقرّون ويشهدون ان المسحة في مدة اثني عشر قرناً كانت تُتمم على المستنيرين حديثاً حالاً بعد المعمودية وذلك ليس في المشرق فقط بل في المغرب ايضاً(5)

فالكنيسة الرومانية اذن من القرن الثالث عشر قد ابتعدت في المسحة عن التعليم المستقيم اذ ابتدأت تفصل المسحة عن المعمودية. وفي وقتنا

(١) اع ١٩: ٥ — ٦ (٣) ٤: ٣١ (٢) اع ٨: ١٤ — ١٧

(٤) قانون ٤٢ (٥) بيرون في مقدماته في اللاهوت جزء ٦ صفحة ١٢٢

الحاضر ايضاً تعلم في كاتيشزمها (اي التعليم المسيحي) ان الاولاد الصغار لا يجب ان يُدهنوا بالميرون المقدس حالاً بعد المعمودية بل بعد تجاوزهم سن الطفولية اي من السنة السابعة من عمرهم الى الثانية عشرة لكي يشتركوا في هذا السرّ بعقل بالغ ومعرفة كافية بالحقائق الاساسية في الديانة(1) غير انها لهذا السبب عينه كان ينبغي ان تؤجل معمودية الاولاد ايضاً حتى يصلوا الى هذا السن. ومع ذلك فهي نفسها تعمد الاولاد الصغار بناءً على ايمان والديهم واشابينهم والمواعد التي ينوبون بها عنهم فلماذا تحرمهم سنين كثيرة من حياتهم سرّ المسحة ومواهب الروح القدس التي هي ضرورية لتقوية حياتهم الروحية ؟

(1) قسم ٢ فصل ٢: ١٧



٣
سر الشكر او الشركة

الفصل الاول
في ماهيتهِ ورتبتهِ بين الاسرار واسمائهِ

١. ارتباطهُ مع ما قبلهُ ٢. تعريفهُ ٣. سموهُ على سائر الاسرار ٤. اسمائهُ

١. بسرّ المعمودية ندخل في ملك نعمة ربنا يسوع المسيح مطهَّرين ومبرَّرين ومولودين ولادةً ثانيةً للحياة الروحية. وبسرّ المسحة ننال مواهب الروح القدس الضرورية لتقويتنا وتقدمنا في الحياة الروحية. واما سرّ الشركة فانهُ لهذه الغاية نفسها يمنحنا ماكلاً ومشرباً خلاصياً جسد ودم ربنا يسوع المسيح ذاتهِ لكي باشتراكنا بهما نتحد عقلياً مع ينبوع الخلاص نفسهِ[1]. ولذا قد تسلّمت الكنيسة الارثوذكسية ان تمنح لابنائها الحديثين سرّ الشركة بعد تعميدها ومسحها اياهم بالميرون المقدس[2] وقد جرت على هذه العادة منذ الازمنة الاولى الى الآن. فنيا هي تدخلهم في ملك

---

(١) مز ٣٦: ٩ (٢) اوامر الرسل كتاب ٧ فصل ١٢ وديونيسيوس الاريوباغي في رئاسة الكهنوت الكنائسية ١: ٢١ وجناديوس في العقائد الكنائسية فصل ٥٢: «وان كان الاولاد المعمدون طرشاً لا يقدرون ان يسمعوا التعليم فليجب عنهم اشابينهم وهكذا فليعمدوا حسب العادة وبعد ان يدركوا وضع اليد والمسحة فليتقدموا الى سرّ الشكر»

النعمة تمنحهم ملء المواهب التي لا بدّ منها لحياتهم الروحية ومن هذا الوقت الى نهاية حياتهم تستدعيهم مع سائر المؤمنين ليشتركوا بهذا السرّ الخلاصي.

٢. فسرّ الشكر او الشركة هو سرّ بهِ ياكل ويشرب المسيحي تحت اعراض الخبز والخمر جسد المسيح نفسهُ ودم المسيح نفسهُ. وهذا السرّ هو اسمى من سائر الاسرار كما ورد في اعتراف الراي المستقيم[1].

فاولاً هو اسمى لغزارة نعمتهِ وسموّهِ عن الادراك. لاننا في سائر الاسرار يمكننا ان ندرك النعمة الالهية تفعل بمجالٍ غير منظورة في الانسان تحت مادةٍ معينةٍ ومنظورةٍ وان تلك المادة في السرّ مثل الماء في المعمودية والميرون المقدس في المسحة تلبث غير متغيرةٍ ولا مستحيلةٍ. واما سرّ الشكر الالهي فالذي يجعلهُ يعلو اكثر من ذلك عن الادراك هو استحالة جوهر المادة ايضاً. لان الخبز والخمر مع حفظهما شكليهما او اعراضهما يستحيلان جوهرياً بوجهٍ عجيبٍ الى جسد المسيح ودم المسيح نفسهِ. ثم عندما يتناولهما المؤمنون تتولد فيهم بهما نتائج النعمة والبركة.

ثانياً هو اسمى لغزارة محبة ربنا لنا ولسموّ المواهب التي اهلنا لها بتناولنا هذا السرّ. لان الربّ يمنح بسائر الاسرار للمؤمنين بهِ بعضاً من مواهب النعمة الخلاصية بحسب طبيعة السرّ المتمّ وتلك المواهب منحها للبشر بموتهِ الصلبي ولكنهُ في سرّ الشركة يقدم لهم غذاءً شخصهُ الالهي اي جسدهُ ودمهُ اللذين بتناولهما يتحد المؤمنون بلا واسطة مع ربهم ومخلصهم الذي

---

(١) سؤال ١٠٦

هو ينبوع النعمة الخلاصية نفسها.

ثالثًا واخيرًا ان سرّ الشركة هو اسمى من سائر الاسرار لان كل سرّ آخر من حيث هو سرٌّ ينحصر في ان يفعل فعلهُ الخلاصيّ في الانسان الذي يتم عليهِ فقط. ولكن سرّ الشكر الالهي فضلاً عن كونهِ اكثر سموًّا عن الادراك واكثر خلاصًا بين جميع الاسرار هو ايضًا ذبيحةٌ حقيقيةٌ نحو الله تقدَّم لهُ كفارةً عن الجميع احياءً وامواتًا[1].

٢. ويسمَّى سرُّ الشكر الالهي منذ القديم باسماءٍ متنوعةٍ. فيُدعَى «شكرًا» وهي لفظةٌ مأخوذةٌ من شكر الرب كما يقول الكتاب «اخذ الخبز وشكرَ الخ»[2] «واخذ الكاس وشكر واعطاهم[3]» ويدعى ايضًا عشاءً ربانيًا[4] سريًّا والهيًّا[5] لانهُ تأسس في عشاءِ الرب السرّي مع تلاميذهِ ويُسمَّى «مائدة الرب[6] ومائدة المسيح ومائدةً مقدسةً وسريّةً[7]» لان جسد الرب يسوع ودمهُ يقدمان بهِ مأكلاً خلاصيًا. ويدعى ايضًا «سرّ المذبح»[8] لانهُ يتم على مذبح الكنيسة (اي على المائدة المقدسة) ويُسمّى «خبز الرب وخبز الله وخبزًا سمويًا وجوهريًا»[9] و«كاسًا

(١) اعتراف الراي القويم سوال ١٠٧ ورسالة بطاركة الشرق (٢) اكو ٣ : ٤٣ (٣) مت ٢٦ : ٢٧ (٤) اكو ١٠ : ١٧ والذهبي الفم مقالة ٢٨ على اكو (٥) ايبوليطوس على الامثال ٩ : ١ (٦) اكو ١١ : ٢٠ (٧) مائدة السيد» ثاودوريطوس على اكو ١١ : ٢٠ «مائدة المسيح» اوسابيوس في كتاب التهيئة للانجيل ١ : ١٠ «مائدة سرية» ايبوليطس على الامثال ٩ : ١ «مائدة مقدسة» الذهبي الفم في داود وشاول مقالة ٣ : ١ (٨) اوغسطينوس في ملك الله ١٠ : ٦ (٩) «خبز الرب» رسالة ثاوفيلس و«خبز الله» اغناطيوس في رسالتهِ الى افسس

مخوفة وسرّ الكاس»[1] من الآية التي نستعمل في هذا السرّ. و«كأس البركة» من البركة التي نبارك في تقديس القرابين المقدسة[2] «وجسد المسيح وجسدًا ربانيًا وخلاصيًا ومقدسًا»[3] و«دم المسيح ودمًا كريمًا»[4] لان جسد المسيح الحقيقي ودم المسيح الحقيقي يقدمان تحت شكل الخبز والخمر. ويسمَّى ايضًا «شركةً والحادًا»[5] لاننا بتناولنا من هذا السرّ نصير جميعنا مع ربنا يسوع المسيح واحدًا. ويُسمَّى «كأس الحياة الخلاصي»[6] من نتائج النعمة المفعولة فينا بواسطة سر الشركة ويسمى «اسرارًا واسرارًا مقدسةً واسرارًا الهيةً مخوفةً سموية»[7] من طبيعتهِ وعلوهِ

٥ «خبز سموي» كيرلس الاورشليمي في الاسرار ٤ : ٥ «خبزٌ جوهري» هو ٥ : ١٠ (١) كبريانوس رسالة ٦٣ والذهبي الفم على يوحنا ٨٥ : ٣ (٢) «كاس البركة» باسيليوس الكبير في الروح القدس فصل ٢٧ (٣) «جسد المسيح» كيرلس الاورشليمي عظة ٥ : ٢٢ «جسد الرب» اوامر الرسل ١١ : ٥٧ «جسد خلاصي» اوسابيوس في تاريخ الكنيسة ٢٥ : ٧ «وجسد مقدس» كبريانوس رسالة ٩ (٤) دم «المسيح» اوامر الرسل ٨ : ١٢ «دم كريم» ايبوليطس على الامثال ٩ : ١ (٥) «شركة» ايسيدورس البيلوسيوتي كتاب ١ رسالة ٢٢٨ يوحنا الدمشقي في الايمان ٤ : ١٣ (٦) «كاس الحياة» اوامر الرسل كتاب ٨ : ١٣ «خلاصي» كيرلس الاورشليمي في الاسرار ٤ : ٥ (٧) «اسرار» ايبوليطس في المواهب ١٩ يوحنا الذهبي الفم في البتولية ٢٤ «مقدسة» اوامر الرسل كتاب ٨ : ١٤ و١٥ «الهية» ثاودوريطس على اكو ١١ : ٢٧ و ٢٩ «مخوفة» يوحنا الذهبي الفم في خيانة يهوذا مقالة ١ : ١

على الادراك وايضاً يُسمى «ذبيحة مقدسة سرية[1]» بما انهُ ذبيحة غفران حقيقية مقدمة لله.

الفصل الثاني

في الوعد الالهي بسرّ الشركة وفي تأسيسهِ

١. ينابيع الموضوع ٢. الوعد بالسرّ ٣. تأسيسهُ

١. شاءَ مخلصنا يسوع المسيح ان يهيّئ الناس لقبول سرّ الشكر السامي الرهيب قبل تأسيسهِ اياهُ بزمنٍ كثيرٍ. فوعدهم بهِ علنًا واوضح لهم طبيعتهُ وقوتهُ وضرورتهُ. ولما حان الزمان اقام في الكنيسة هذا السرّ الخلاصيّ. فمن القديس يوحنا الانجيلي نتعلم بالتدقيق وعد المخلص بسر الشركة واما تاريخ تأسيسهِ فقد تسلمناهُ من الانجيليين الثلاثة الاولين ومن القديس بولس الرسول.

٢. فالقديس يوحنا الانجيلي يذكر اولاً الفرصة التي فيها سرّ الرب ان يعلن الوعد بسرّ جسدهِ ودمهِ وهو هكذا: صنع الرب يومًا ما عجبًا عظيمًا في مكان ليس بعيدًا عن بحيرة طبرية اذ اشبع خمسة آلاف رجلٍ من خمسة ارغفة وسمكتين. فالذين شاهدوا عيانًا هذا العجب اندهشوا دهشة عظيمة وصرخوا «هذا هو بالحقيقة النبي الآتي الى العالم[2]» وبما ان افكارهم الباطلة في المسيح انهُ ملك ارضي كانت تتغلب عليهم كانوا مزمعين «ان يختطفوهُ ليجعلوهُ

(١) «ذبيحة» — (مقدسة) — «سريّة» — «عظيمة» اوساببوس البرهان الانجيلي ١ : ١٠ وثاودوريطوس على العبرانيين ٨ الخ (٢) يو ٦ : ١

ملكًا»[1]. ولكن بما ان الاله الجابر «لم يأتِ الى العالم ليُخدَم بل ليخدُم» «انصرف الى الجبل وحدهُ». ولما كان المساءُ نزل تلاميذهُ الى البحر فدخلوا السفينة وكانوا يذهبون الى عبر البحر الى كفرناحوم» حيث اتى يسوع ايضًا ماشيًا على البحر. اما الجمع فبعد ان اشبعهُ الرب من الخبزات القليلة بنوعٍ عجيبٍ كان يتبعهُ برًا[2] وبحرًا حتى الى كفرناحوم. واذ كان الرب عالمًا ان اليهود لم يتبعوهُ لانهم رأوا الآية بل لانهم اكلوا خبزًا وشبعوا كما قال لهم صريحًا[3] اراد ان يجذب افكارهم وينقل عقولهم من القوت الجسدي الى قوتٍ آخر روحيّ وغير فاسدٍ وهكذا وعدهم بسرّ الشكر[4] قائلاً لهم «اعملوا لا للطعام البائد بل للطعام الباقي للحياة الابدية الذي يعطيكم ابن الانسان لان هذا الله الآب ختمهُ». هذه هي الاقوال التي بها اوضح ربنا امام جمهورٍ غفيرٍ من اليهود وعدهُ بالخبز السماوي. واذ قال لهُ هؤلاءِ «فأية آيةٍ تصنع لنرى ونؤمن بك» وذكّروهُ بان موسى الالهي اعطى آباءهم في البرية خبز السماءِ اي المنّ علامة لارساليهِ

(١) يو ٦ : ١—١٥ (٢) مت ٢٠ : ٢٨ (٣) يو ٦ : ١٥—٥٦

(٤) قال يوحنا الذهبي الفم «وهؤلاءِ (اليهود) اضطربوا قائلين «كيف يستطيع هذا ان يعطينا جسدهُ لنأكلهُ»؟ (يو ٦ : ٥٢). ولكن ان كنت تطلب «كيف ذلك» فلماذا لم تقل في الخبزات الخمس، كيف جعل [illegible] كثيرة [illegible] كانوا محتاجين ليشبعوا فقط [illegible] لا لينظروا العجب. وربما قيل ان الخبرة [illegible] كانت تعلمهم ذلك. فاجيبك: انهُ كان ينبغي ان تكون هذه سهلة القبول عندهم بسبب تلك. لانهُ لهذا السبب سبق وصنع تلك العجيبة العظيمة لكي يتعلموا بها ولا يشكّوا بما يقول فيما بعد» مقالة ٤٦، [illegible]

من قبل الله اجابهم قائلاً « الحق الحق اقول لكم ليس موسى اعطاكم الخبز من السماء بل ابي يعطيكم الخبز الحقيقي من السماء » . واذ سألوهُ قائلين « يارب اعطنا دائمًا هذا الخبز » اوضح لهم باكثر جلاء وعدهُ بسر الشكر قائلاً « انا هو خبز الحياة من يأتي اليّ فلا يجوع ومن يؤمن بي فلا يعطش ابداً[1] » . فاندهش اليهود من هذه الاقوال وجعلوا يتذمرون من قول يسوع « انا هو الخبز الذي نزل من السماء » وكانوا يقولون « أليس هذا يسوع ابن يوسف الذي نحن نعرف اباهُ وامهُ ؟ فكيف يقول هذا اني نزلت من السماء ؟ » لكنّ يسوع زاد كلامهُ تاكيداً لهم وقابلهم بهذه الشهادة قائلاً « الحق الحق اقول لكم من يؤمن بي فلهُ حياة ابدية . انا خبز الحياة . آباؤكم اكلوا المنّ في البرية وماتوا . هذا هو الخبز الذي نزل من السماء لكي لا يموت كل من يأكل منهُ . انا الخبز الحي الذي نزل من السماء إن اكل احدٌ من هذا الخبز يحيا الى الابد والخبز الذي انا اعطيه هو جسدي الذي ساعطيه لحياة العالم » فخاصم اليهود بعضهم بعضاً قائلين « كيف يقدر هذا ان يعطينا جسدهُ لناكلهُ » فكرّر يسوع كلامهُ قائلاً لهم بكل صراحةٍ « الحق الحق اقول لكم ان لم تاكلوا جسد ابن الانسان وتشربوا دمهُ فلا حياة لكم في انفسكم . من يأكل جسدي ويشرب دمي فلهُ حياةٌ ابديةٌ وانا اقيمهُ في اليوم الاخير . لان جسدي هو مأكلٌ حقيقيٌ ودمي هو مشربٌ حقيقيٌ . من يأكل جسدي ويشرب دمي يثبت فيّ وانا فيهِ . كما ارسلني الآب الحيُّ وانا حيٌّ للآب فالذي

(١) يو ٥ : ٢٧ — ٣٥

يأكلني يحيا هو ايضاً بي . هذا هو الخبز الذي نزل من السماء ليس كالمنّ الذي اكلهُ آباؤكم وماتوا . من يأكل هذا الخبز فانهُ يحيا الى الابد »[1] .

فكثيرون من تلاميذهِ عندما سمعوا هذا الوعد العجيب بالسر الرهيب كانوا يصرخون « ان هذا الكلام صعبٌ من يستطيع استماعهُ ؟ » ومن ذلك الوقت « رجع كثيرون من تلاميذهِ الى الوراء ولم يعودوا يمشون معهُ » . لكن تلاميذهُ الحقيقيين الاثني عشر قبلوا بايمانٍ تامٍ تلك الاقوال واعترفوا بفم بطرس قائلين « يارب الى مَن نذهب ؟ ان كلام الحياة الابدية هو عندك وقد آمنا نحن وعرفنا انك انت المسيح ابن الله[2] » . هكذا هيأ الرب تلاميذهُ لقبول سرّ الشكر الرهيب بوعدهِ الاكيد حتى انهم عندما اسّسهُ وسلمهُ لهم لم يُظهر احدٌ منهم اشارةَ الشك في حقيقتهِ ولا سألهُ سؤالاً واحداً عنهُ لانهم كانوا مستعدين ومتأهبين لقبول هذا السرّ العظيم السامي .

٢ . وقد سُرّ الرب ان يؤسّسَ سرّ الشكر الالهي في ظروفٍ مهمةٍ جداً[3] . فكان قد قرب فصح اليهود الذي هو الاكثر اعتباراً في جميع اعياد العهد القديم وكان يوم حمل الخلاص الذي ذُبح حسب مشيئة الله منذ تأسيس العالم[3] . وكانت قد قربت ايضاً البرهة التي فيها

(١) يو ٦ : ٤٧ ـ ٥٩ ارتأى اليهود الاقدمون ولم يزل رأيهم متملكاً في عقول اليهود الى يومنا انهُ كما ان موسى مخلصهم الاول انزل لهم منّاً من السماء هكذا مخلصهم الثاني الذي هو ماسيا سيعمل لهم (انظر التلمود جزء ١ صفحة ٣٥٩) . (٢) يو ٦ : ٦٠ ـ ٦٩ (٣) رؤ ١٣ : ٨

«حمل الله الرافع خطايا العالم»[1] كان مزمعًا ان يقدم نفسهُ ذبيحة حقيقية على الصليب. ففي ذلك الوقت قبل ان يلتئم اليهود ليعيدوا فصحهم بيوم واحدٍ ارسل الرب اثنين من تلاميذهِ الى اورشليم ليعدّوا الفصح» و«في الليلة التي فيها أُسلم»[2] حضر مع تلاميذهِ الاثني عشر في علية صهيون واذ رأى كل شيء معدًّا مثلما كان يريد اتكأ معهم لياكل الفصح. واولاً تمَّم فصح العهد القديم قائلاً «شهوةً اشتهيت ان آكل هذا الفصح معكم قبل ان اتألم»[3]. ثم غسل ارجل تلاميذهِ معلمًا اياهم فضيلة التواضع العجيبة ومحبة بعضهم لبعض[4] وجدَّد النبوة عن آلامهِ العتيدة موضحًا مَن هو المزمع ان يسلمهُ باسمهِ[5] واخيرًا سلمهم سرَّ الشكر.

وكما يقول القديس متى الانجيلي «بينما كانوا هم يا كلون اخذ يسوع الخبز وبارك وكسر واعطى تلاميذهُ وقال خذوا كلوا هذا هو جسدي. واخذ الكاس وشكر واعطاهم قائلاً اشربوا منهُ كلكم هذا هو دمي الذي يُهرَق عن كثيرين لمغفرة الخطايا»[6]. وقد كتب في ذلك بولس الرسول ايضًا الى اهل كورنثوس «لانني اخذت من الرب ما سلمتكم اياهُ ان الرب يسوع في الليلة التي فيها أُسلم اخذ خبزًا وشكر وقال خذوا كلوا هذا هو جسدي الذي يكسَر عنكم هذا اصنعوهُ لذكري»[7].

(١) يو ١: ٢٩ (٢) ١ كو ١١: ٢٣ (٣) لو ٢٢: ١٥ (٤) يو ١٣: ٤—١٥ (٥) مت ٢٦: ٢١ — ٢٥ ولو ٢٢: ١٦— ٢٧. (٦) مت ٢٦: ٢٦ ومر ١٤: ٢٢—٢٤. (٧) ١ كو ١١: ٢٣ —٢٥ ولو ٢٢: ١٩ — ٢٠

هكذا في وقتٍ واحدٍ كمَّل الرب فصح العهد القديم الرمزي وسلم الفصح الحقيقي ذبيحة العهد الجديد غير الدموية التي قد امر ان تصنع بذكره الى منتهى الدهور. ذلك كلهُ تممهُ يسوع في تلك الليلة عينها التي فيها أُسلم فيها لآلام الصلب.

الفصل الثالث

في القسم المنظور من سرّ الشكر الالهي

تقسيم الفصل ١. المادة في السرّ ٢. اوصاف الخبز ومحض التعليم في استعمال الفطير ٣. اوصاف الخمر ٤. نقاوة المادة ومزج الخمر بالماء ٥. خدمة القداس ٦. الكلام الجوهري ٧. تبريك القداسات او الاقداس وشهادات الآباء فيه

لدى فحصنا القسم المنظور او المحسوس في سرّ الشكر نجدهُ مؤلفًا من ثلاثة اشياء: اولاً من المادة المطلوبة لتتميم السرّ وهي الخبز والخمر. ثانيًا من خدمة السرّ بوجه الاجمال. ثالثًا من القسم الجوهري في الخدمة على الخصوص اعني الاقوال التي بها يستحيل الخبز والخمر الى جسد ودم يسوع المسيح.

١. فالمادة او الاشكال المادية المطلوبة لسرّ الشكر هي الخبز والخمر اما الخبز فينبغي ان يكون من القمح النقي وخميرًا. واما الخمر فينبغي ان تكون ايضًا من كرمٍ خالصة وممزوجة بالماء حين الخدمة[1].

٢. فينبغي ان يكون الخبز نقيًا في جوهرهِ واصطناعهِ لان هذا

(١) اعتراف الراي القويم قسم ١ سؤال ١٠٧

تقتضيه عظمة السرّ وقداسته وينبغي ان يكون من قمح لان خبز اليهود كان من قمح في عصر مخلصنا حينما سلم سرّ الشكر . والكنيسة الارثوذكسية هكذا تسلمت واستعملت الخبز في هذا السرّ الى الآن[1] .

وينبغي اخيراً ان يكون مختمراً لا فطيراً خالياً من الخمير كبرشان اللاتين في سرّ الشكر للاسباب الاتية:

اولاً لان ربنا تمم مرةً واحدةً سرّ الشركة وسلمهُ بخبز مختمر لا بفطير لانهُ من المعلومات غير القابلة الرد والخلاف ان الرب اسس هذا السرّ « قبل عيد الفصح » عند اليهود[2] . لان اليهود كانوا بعد يستعدون ليعيدوا الفصح لما حُكم على يسوع في غداة تاسيسهِ السرّ ولما دُفع الى الموت[3] حتى ولما نُزِل عن الصليب[4] . فكان من ثمّ تاسيس سرّ الشكر في وقتٍ كان جميع اليهود في كل صقع يستعملون فيه خبزاً مختمراً لا فطيراً اي في اليوم الثالث عشر من شهر نيسان مساء ذلك اليوم بالتمام وهذه الحقيقة يسلم بها افضل المؤلفين الرومانيين[*] وتتضح من مراجعة الناموس والانجيل . فان الناموس الموسوي يامر الاسرائيليين ان يعيدوا الفصح مساء اليوم الرابع عشر من شهر نيسان وان يبتدئوا من تلك العشية بان ياكلوا خبزاً فطيراً . وهاك نصّ الناموس بحروفهِ « ويكون عندكم محفوظاً الى اليوم الرابع عشر من هذا الشهر فيذبحهُ كل جمهور جماعة

(١) ابريناوس ضد الهرطقات ٥ . ٢ و٣ ومجمع قرطاجنة قانون ٤٤ (٢) يو ١٣ : ١ (٣) يو ١٨ : ٢٨ و١٩ : ١٤ (٤) ٣١

(*) Maldonatus, in Math Cap. XXIV v. 2. Patavius, de doctrina temp XII. c, 15 et sg. Natalis Alex, Diss XI. in Saec. XI et XII.

اسرائيل عند المساء . وياخذون من دمهِ ويجعلون على قائمتي الباب وعتبتهِ على البيوت التي ياكلون فيها وياكلون لحمهُ في تلك الليلة شواء نارٍ وياكلون فطيراً باعشاب مرة . . . وتبتدئون في اليوم الرابع من الشهر الاول بالعشي . سبعة ايام لا يوجد خمير في بيوتكم »[1] انتهى نصّ الناموس . فعلى ذلك يكون اول يوم من اسبوع الفطير[2] (وهو اول يوم الفصح ايضاً الذي فيهِ كان اليهود مامورين ان ينزعوا الخبز من بيوتهم وان ياكلوا فطيراً فقط) هو اليوم الخامس عشر من نيسان الذي يبتدئ من عشية اليوم الرابع عشر على حساب الايام عند اليهود وهذا نؤيدهُ بشهادة الناموس نفسهِ حيث يقول « في الشهر الاول في اليوم الرابع عشر منهُ بين الغروبين فصح للرب وفي اليوم الخامس عشر من هذا الشهر عيد الفطير للرب سبعة ايام تاكلون فطيراً لانكم من اليوم الاوّل تُخلون منازلكم من الخمير . فان كل من اكل خميراً من اليوم الاوّل الى اليوم السابع تنقرض تلك النفس من اسرائيل ويدعى اليوم الاول يوماً مقدساً ويكون اليوم السابع ايضاً لكم يوماً مقدساً »[3] . فاذ قد تقرّر اذن ان اليوم الخامس عشر من نيسان هو اول يوم من الفطير واذ تقرر ايضاً ان يوم الجمعة الذي فيهِ صُلب الرب كان يوماً استعدادياً للعيد نتج ان يوم الجمعة كان واقعاً رابع عشر الشهر وبما ان الرب اكل الفصح وسلّم السرّ يوم الخميس مساء والخميس كان ثالث عشر الشهر نتج انهُ اكل

(١) خروج ١٢ : ٦ — ٨ و١٨ — ١٩ (٢) مت ٢٦ : ١٧ مر ١٤ : ١٢ لو ٢٢ : ٧ (٣) لا ٢٣ : ٥ — ٦ خر ١٢ : ١٥ — ١٦

الفصح مساء اليوم الثالث عشر من الشهر اي قبل ان يأكل اليهود فصحهم بيوم كامل بليله ونهاره واكثر من ذلك ببعض ساعات ايضاً. وهذا يوافق كل الموافقة ما جاء في الانجيل المقدس حيث يقول يوحنا الانجيلي «وقبل عيد الفصح اذ كان يسوع يعلم ان ساعتهُ قد أتت . . قام عن العشاء وخلع ثيابهُ واخذ منديلاً واتزر بهِ ثم صبَّ ماءً في مطهرةٍ واخذ يغسل ارجل التلاميذ الخ»[1].

وقد بقي علينا الان ان نقابل كلام الانجيليين بعضهم مع بعضٍ في هذا المعنى ونحل اعتراضات بعض الغربيين الذين يصعب عليهم ان يسلموا بما تقرَّر سابقاً.

قال القديس متى الانجيلي «وفي اليوم الاول من الفطير دنا التلاميذ الى يسوع قائلين اين تريد ان نعدَّ لك الفصح لتأكل . فقال يسوع اذهبوا الى المدينة الى فلان وقولوا لهُ المعلم يقول ان زماني قد اقترب وعندك اصنع الفصح مع تلاميذي ففعل التلاميذ الخ»[2].

وقال القديس مرقس الانجيلي «وفي اليوم الاول من الفطير الذي فيهِ كانوا يذبحون الفصح قال لهُ التلاميذ اين تريد ان نمضي ونعدَّ لتأكل الفصح الخ»[3]

وقال القديس لوقا الانجيلي «وبلغ يوم الفطير الذي كان ينبغي أن يُذبَح فيهِ الفصح فارسل بطرس ويوحنا قائلاً امضيا فاعدَّا لنا الفصح لنأكل الخ»[4]

(١) يو ١٣ : ١ — ٤ (٢) مت ٢٦ : ١٧ (٣) مر ١٤ : ١٢
(٤) لو ٢٢ : ٧

فقد يظهر لبعضهم من قول متى ومرقس «في اليوم الاول من الفطير» ومن قول لوقا «وبلغ يوم الفطير» ان الرب سلم السر في العيد وتمم الفصح مع اليهود . ولكن هذا الظن بعيدٌ جداً عن الحقيقة

اولاً لانهُ من قول القديس متى الانجيلي نفسهِ يُستفاد ان يسوع طلب ان يأكل الفصح قبل حلول وقتهِ اذ قال حالاً بعد ذلك «زماني قد اقترب وعندك اصنع الفصح»

ثانياً لان القديس متى الانجيلي والقديس مرقس الانجيلي يشهدان ان اليوم الذي كان يسوع معلقاً فيهِ على الصليب كان يوم تهيئةٍ ولم يكن عيداً حيث قال متى «وفي الغد الذي بعد التهيئة»[1]. وكذا مرقس قال «ولما كان المساء اذ كانت التهيئة التي هي قبل السبت جاء يوسف الخ»[2]. ولكي لا يظن احدٌ ان هذه التهيئة التي ذكرها الانجيليان كانت تهيئة للسبت لا للعيد نورد شهادة القديس يوحنا الانجيلي الصريحة حيث قال «ثم جلس بيلاطس على كرسي القضاء في موضع يقال لهُ ليثوسترُوتُس وبالعبرانية جبعتا وكانت «تهيئة الفصح» وكان نحو الساعة السادسة (من يوم الجمعة)[3]» وفي محلٍ آخر يقول «وكان الصبح (من يوم الجمعة) ولم يدخل اليهود دار الولاية لئلاَّ يتنجسوا فيمتنعوا عن اكل الفصح»[4]. وقد رأينا سابقاً ان اكل الفطير يبتدئ بعد اكل الفصح . فاذ كان يوم الجمعة يوم تهيئة الفصح ولم يكن اليهود بعد اكلوا الفصح وأكلُ

(١) مت ٢٧ : ٦٢ (٢) مر ١٥ : ٤٢ (٣) يو ١٩ : ١٣ و ١٤
(٤) يو ١٨ : ٢٨

الفطير يبتدىء بعد أكل الفصح وانسبد أكل الفصح ليلة الجمعة اي عشية الخميس فبلا شك لم ياكل الفصح او الفطير مع اليهود بل عيّد قبلهم باكثر من يوم كامل كما ذكرنا

ثالثاً نتضح حقيقة هذه الاقوال من شهادة القديس يوحنا الانجيلي الصريحة حيث قال بصريح العبارة «وقبل عيد الفصح اذ كان يسوع يعلم ان ساعتهُ قد اتت لينتقل من هذا العالم الى الآب وكان قد احبَّ خاصتهُ الذين في العالم احبهم الى الغاية ففي حين العشآء . . . قام عن العشآء وخلع ثيابهُ واخذ منديلاً واتزر بهِ ثم صبَّ ماءً في مطهرة واخذ يغسل ارجل التلاميذ ويمسحها بالمنديل الذي كان متزراً بهِ»[1] فمن حيث ان العشآء المذكور هنا هو العشآء الاخير (اي الفصح لان الغسل كان في حين هذا العشآء لا في غيره) ومن حيث ان هذا العشآء كان الفصح ينتج ان يسوع اكل الفصح قبل عيد الفصح عند اليهود كما ذكرنا.

رابعاً تأييداً لما ذكرنا نورد شرح القديس يوحنا الذهبي الفم حيث يقول «ان الانجيلي بقوله بلغ يوم الفطير الذي كان ينبغي فيهِ ان يُذبح الفصح» يعني ان اليوم كان قريباً وعلى الابواب لانهُ اتى وبذلك يشير الى تلك الليلة لانهم كانوا يبتدئون من العشيّ»[2] اما السبب الذي حمل الانجيليين ان يسموا يوم الخميس اول يوم من الفطير فلا تصعب علينا معرفتهُ متى عرفنا عوائد اليهود وتاملنا في الحوادث فمن المعلوم ان لليهود عادة ان يعتبروا مسآء كل يوم بدء الليلة الذي يتبعه فعشية

(١) يو١٣: ١ — ٥ (٢) مقالة ٨١ على متى

الاربعاء مثلاً عندهم هي اول الخميس وعشية الخميس هي اول الجمعة وهلم جراً ومن حيث ان الخامس عشر من شهر نيسان وقع وقتئذٍ يوم السبت «الذي كان سبتاً عظيماً» حسب شهادة يوحنا[1] وهذا اليوم اول يوم من الفطير وبدؤُهُ عشية الجمعة الذي فيهِ يؤكل الفصح حسب الناموس فيوم الجمعة يُدعى عندهم يوم الفصح او الفطير لان الفصح أُكِل فيهِ. وبما ان هذا اليوم يبتدئ من مسآء الخميس فبحسب تسمية الكل من الجزء قد سمّى الانجيليون يوم الخميس اول الفطير لان غايتهم لم تكن ان يحددوا اوقاتاً مدققة بل ان يذكروا الحوادث وهي أكل الفصح الناموسي وتسليم العشآء السرّي وامر الغسل وخيانة يهوذا الاسخريوطي الخ ولا يبعد انهم سموا ذلك اليوم اول يوم من الفطير اعتباراً لسيدهم ومعلمهم يسوع المسيح لانهُ اكل الفصح فيهِ فسموهُ باسم اول يوم من العيد غير ملتفتين الى ظل الناموس الذي عبر بورود النعمة . وهكذا نوافق القديس الذهبي الفم في ما تقدم من تفسيره ان كلمة بلغ هي بمعنى القرب ولا يخفى ان الغامض من الكتاب يُفسّر بالواضح وان الدلالة لا عبرة لها في مقابلة التصريح ومن حيث ان يوحنا يشهد صريحاً ان يسوع اجرى الغسل قبل الفصح والغسل كان بعد العشآء ويشهد ايضاً ان اليهود لم يدخلوا دار الولاية لئلا يتنجسوا فيمتنعوا عن اكل الفصح ويشهد ان يوم الجمعة كان استعداداً وتهيئة للفصح ويشهد ايضاً ان يوم السبت كان يوماً عظيماً لي يوم العيد فكل مسيحي مؤمن بآيات الله مجبورٌ ان

(١) يو١٩: ٣١.

بخضع لهذه الشهادات ويسلّم ان يسوع اكل الفصح قبل اليهود باكثر من يوم اي انهُ اكلهُ في عشي اليوم الثالث عشر من شهر نيسان باتمام وهو وقتٌ كان جميع اليهود في كل صقعٍ يستعملون فيهِ خبزًا مختمرًا لا فطيرًا.

ولا ينتج من كون المسيح عيَّد الفصح قبل اليهود واكلهُ قبل الاوان انهُ اكل فطيرًا معهُ اولاً لان اليهود كانوا حسب الناموس ياكلون الفصح اولاً ثم يبتدئون باستعمال الفطير الذي كان يدوم مدة سبعة ايام[1] فكان امرًا طبيعيًا ان ياكل المخلص مع تلاميذهِ الفصح اليهودي او حمل الفصح الذي كان رسمًا لذبيحتهِ الاستغفارية وبالتالي لسرّ الشكر الالهي وان يؤسس حالاً بعدهُ السرّ المسيحيّ سرّ جسدهِ ودمهِ المرموز عنهُ بالفصح. ثانيًا لان المخلص الذي هو ربّ السبت وربّ اعياد العهد القديم جميعها بما انهُ عيَّد الفصح يومًا واحدًا قبل اليوم المعيَّن من الناموس لان يعيّد فيهِ اليهود عيد الفصح ثم يبتدئوا بالفطير[2] كان يمكنهُ ايضًا ان يعيِّد عيد الفصح بخبزٍ مختمرٍ لا بفطيرٍ حتى انا نرى اكثر الذين يدّعون ان يسوع اكل فطيرًا مع حمل الفصح يضطرون ان

(١) خر ١٢ : ٨ لا ٢٣ : ٥ — ٦ (٢) ان الانجيل يذكر السبب الذي لاجلهِ عيد الرب عيد الفصح قبل اليوم المعين حيث قال «وقبل عيد الفصح اذ علم يسوع ان «ساعتهُ قد دنت» لينتقل من هذا العالم الى ابيهِ ارسل تلاميذهُ الى اورشليم الى رجلٍ رب بيتٍ واوصاهم ان يقولوا لهُ «وقتي قريب عندك اصنع الفصح مع تلاميذي» (يو ١٣ : ١ ومت ٢٦ : ١٨) فدنوُّ الساعة وقرب الوقت هو السبب لذلك لان يسوع كان مزمعًا ان يموت على الصليب في اليوم التالي ولم يكن ممكنًا ان يعيد يوم موتهِ عيد الفصح

يسلّمون انهُ لم يسلّم سرّ الشكر بالفطير الذي اكلهُ مع الحمل بل بعد ان عيَّد بفطير الناموس فصح العهد القديم الذي اخذ وقتئذٍ نهايته[1] رسم حالاً «سرّ العهد الجديد» بالخبز الجديد اي بخبزٍ مختمرٍ حقيقيٍ كاملٍ لا بفطيرٍ رمزيٍ ناقصٍ. لان الانجيليين جميعًا قد ذكروا بكل ايضاحٍ ان الرب اخذ «آرطوس» اي خبزًا مختمرًا ومرتفعًا ثم باركهُ واعطاهُ لتلاميذهِ قائلاً «خذوا كلوا هذا هو جسدي»[2]. وكذلك الرسل انفسهم والرب ايضًا يذكرون خبزًا ولم يقل احدٌ منهم انهُ اخذ فطيرًا لان الفطير لهُ اسمٌ خصوصيٌ دائمًا يسمونهُ بهِ ولا يمكن ان تُطلَق لفظة الخبز عليهِ[3] لان العبارة تكون حينئذٍ متناقضة اذ نقول «ارطوس آزيموس» اي خبزًا مرتفعًا (اي مختمرًا) بلا خميرٍ» وكيف يمكن ان يكون الخبز الواحد مختمرًا وبلا خمير؟

وان سأل سائلٌ اين وجد الخبز المختمر وقتئذٍ؟ فنقول لهُ انهُ وُجِد في البيت الذي اكل فيهِ الفصح لان اليهود كانوا ياكلون في ذلك الوقت خبزًا عاديًا في بيوتهم لا فطيرًا وربما اذا سألناهُ نحن اين وُجِدَ الفطير قبل العيد باكثر من يومٍ يصعب عليهِ ان يجيبنا. وقد ذكر القديس مرقس الانجيلي ما يرفع كل شبهةٍ حيث قال «وفيما هم ياكلون اخذ يسوع خبزًا» وكذلك سائر المبشرين[4].

ثانيًا لان الخبز الذي استعملهُ الرسل في سرّ الافخارستيا كان

(١) يوحنا الذهبي الفم مقالة ١٢ : ٣ و ٨٢ : ١ على متى (٢) مت ٢٦ : ٢٦ مر ١٤ : ٢٢ لو ٢٢ : ١٩ (٣) عد ٦ : ١٩ قض ٦ : ٢ (٤) مر ١٤ : ٢٢

خبزاً اعتيادياً لا فطيراً[١] وقد ذكر كتاب اعمال الرسل الشريف ان الذين كانوا يؤمنون من اليهود كانوا يتناولون خبز الشكر[٢] مثل سائر الراجعين حديثاً الى الايمان . ولكن من حيث ان الناموس الموسوي لا يامر باستعمال الفطير اكثر من سبعة ايام في السنة فمن المحال كان قبول المؤمنين من اليهود ان ياكلوا فطيراً كل يوم[٣] في سرّ الشكر اذ لم يحدّد الرسل من ذلك الوقت كيف يجب ان يحسب المسيحيون طقوس شريعة موسى[٤] . وفضلاً عن ذلك نرى ايضاً ان استعمال الفطير كان ماموراً بهِ من شريعة موسى بلا بدٍ وان الرسل لما حددوا بمجمعهم في اورشليم ايُّ قسمٍ من ناموس موسى ينبغي ان يتركهُ المسيحيون وايُّ قسم ان يحفظوهُ لم يوصوا باستعمال الفطير ولا بكلمةٍ واحدةٍ[٥] . فبلا شكٍ من حيث لم يُذكَر قبول الفطير في الكنيسة قد عبر هو ايضاً مثل غيرهِ من ظل الشريعة .

ثالثاً . لان سرّ الشكر يتم في كنيسة يسوع المسيح منذ الازمنة الرسولية الى الان بخبزٍ مختمر لا بفطيرٍ وهذا حقيقيٌ لا ريب فيهِ للاسباب الآتية : اولاً لان الخبز لهذا السرّ كان كما هو معلومٌ يُجمع من تقدمات الشعب اي من بيوت المسيحيين وكانوا يقدمونهُ بكثرةٍ الى الهياكل خبزاً اعتيادياً مختمراً ليصلح لموائد المحبة ولاعانة الفقرآء ايضاً[٦] . ثانياً لان

(١) اع ٢ : ٤٢ و ٤٦ و ٢٠ : ٧ و ١ كو ١٠ : ١٦ و ١٧ و ١١ : ٢٠ (٢) اع ٢ : ٢٢ و ٤١ و ٤٢ و ٤٦ (٣) اع ٢ : ٤٢ و ٤٦ (٤) اع ١٥ (٥) اع ١٥ : ٢٢—٣٠ (٦) ١ كو ١١ : ٢١—٢٢

ليس احدٌ من القدمآء يسمّي خبز الافخارستيا فطيراً بداعي ان جميع المؤلفين يسمونهُ خبزاً اعتيادياً[١] واحياناً خبزاً مختمراً[٢] . ثالثاً لان القديس ابيفانيوس في تكلمهِ عن الابيونيين المراطقة الذين كانوا يتمسكون بالشريعة الموسوية يذكر بالتدقيق انهم كانوا يتممون سرّ الشكر الالهي بفطيرٍ ومآءٍ فقط[٣] موضحاً بذلك ان عادة الكنيسة ليست كذلك . رابعاً لان كثيرين من المؤلفين الغربيين الخالين من الغرض من البروتستانت والبابويين يعترفون ويبرهنون ان الفطير لم يكن مستعملاً في الكنيسة الى القرن العاشر حتى الحادي عشر ايضاً[٤] رغماً عن غيرهم منهم الذين يريدون العكس[٥] .

(١) يوستينوس في احتجاجهِ الاول : ٦٦ ايريناوس ضد المراطقة ٤ : ١٨ : ٤ و ٥ وكيرلس الاورشليمي في الاسرار ٤ : ١—٤ وامبروسيوس في الاسرار ٤ حيث قال « وربما كنت تقول انت : ان خبزي هو اعتيادي » الخ » (٢) قال البابا اينوشنديوس « ان القسوس يأخذون « خبزاً مختمراً » لكي لا يشعروا انهم منفصلون عن ذاك الاله العلي الخ » (رسالة ٢٥ : ٤ : ٨) وقال البابا ملتيادس في ترجمتهِ « هكذا قد صنع ان تقدّم قرابين للكنيسة . . . القرابين التي نسميها « مختمراً » وفي ترجمة البابا سيريكيوس ايضاً « هكذا المران لا احد من القسوس . . . الذي يدعى « مختمراً » (٣) يتممون الاسرار . . . بالفطير والقسم الآخر من السرّ بالمآء فقط (مرطقة ٣٠ : ١٦) (٤) اقرأ سيرمونده في تأليفهِ في الفطير سنة ١٦٥١ وكونيلاريوس في مؤلفهِ في الكنيسة اليونانية المعتقد . ارماكوس في حواشيهِ على تاريخ بارونيوس ٢٣٢ : ١٠ اوبينكام في الكنيسة القديمة ١٥ : ٢ : ٤ وتاريخ الكنيسة لكلايس جزء ٤ صفحة ٦٢ الخ (٥) ان هؤلاء ينقسمون الى قسمين فالقسم الواحد يقول ان الكنيسة الرومانية منذ الازمنة الرسولية استعملت الفطير دائماً (مثل كاميان ومابلون) والآخر يقول انها منذ القدم استعملت بلا تمييز الفطير والخمير (مثل بونا وغيره)

وأعلم ان اللاتين في تعليم عقائدهم يعترفون الآن ان الخمير والفطير يصلحان بالسوية لتتميم سرّ الشكر الالهي[1] لكنهم في خدمة السرّ لا يستعملون غير الفطير وحده فقط فتأمَّل .

وقد بحثنا نحن في هذا الموضوع مفترضين ان الفصح الذي اكله الرب كان الفصح الناموسي . ولكن اكثر اللاهوتيين الارثوذكسيين يبرهنون ببراهين قوية ان ذاك الفصح لم يكن الفصح الناموسي بل فصح العهد الجديد فمن تلك البراهين هو أكْلُ الرب العشاء وهو متكئ وعدم اكلهِ اياهُ مشويًّا كما يتّضح من قولهِ «الذي اغمس اللقمة واعطيهِ» الخ . فعلى هذا تسقط ايضًا جميع تعلّلات البابويين في امر فطيرهم . ونحن انما شرحنا الموضوع موافقين رأي القائلين بالفصح الناموسي لكي تكون براهيننا مسددةً على اصحاب الفطير متلافيةً كل احتجاجٍ لهم ومقبولةً عندهم تمام القبول بلا مراجعة .

٣ . ان المادة الثانية او النوع الثاني المطلوب بعد الخبز المختمر المصنوع من القمح النقي لتتميم سرّ الشكر هو الخمر وهذه حسب اعتقادنا مع عدم التفاتنا الى ما يقولهُ المعلمون الكذبة يجب ان تكون من عصير العنب . لان مخلصنا نفسهُ هكذا تمَّم السرّ المقدس :[2]

فاخذ الكاس واعطى تلاميذهُ وقال «اشربوا منهُ كلكم هذا هو

(١) يدرون في مقدمة اللاهوت في شرح سر الشكر قسم ٢ فصل ٣ قضية ١

(٢) ان الايونيين والانكراتيين كانوا يستعملون ماءً بدلاً عن الخمر (ايريناوس ضد المرطقات ٥ : ١ : ٣ وابيفانيوس هرطقة ١٦ واكليمنضس الاسكندري في المربي ٢ : ٢)

دمي الذي للعهد الجديد» ثم رد على قولهِ «واقول لكم انني لا اشرب من الآن من عصير الكرمة هذا الى ذلك اليوم حتى اشربهُ معكم جديدًا في ملكوت ابي»[1] فالكنيسة المقدسة قد تبعت هذه الاقوال الالهية وهي لم تزل تتمّ سرّ الافخارستيا بخمرٍ من عصير الكرمة كما يتضح من شهادات ايريناوس[2] وكبريانوس[3] ويوحنا الذهبي الفم[4] ومجمع قرطاجنة[5] ومن العادة الجارية منذ القديم في فلسطين بانهم يستعملون خمرًا حمراء.[6] لان الخمر الحمراء هي اقرب صورة يمثل بها دم المسيح .

٤ . ويجب ان تكون الخمر ايضًا في نقاوتها مثل الخبز اي ان تكون غايةً في النقاوة والطهارة كما تقتضي عظمة السرّ وقداستهُ وان تكون ممزوجةً بماء كما يعلّم التعليم الشريف[7] ان الرب عندما سلم سرّ الشكر استعمل خمرًا ممزوجةً بماء كما كان يشربها وقتئذٍ جميع سكان اليهودية[8] وهكذا الكنيسة المقدسة تستعملهُ منذ القديم على مثال الرب ولتذكار الدم والماء اللذين جريا من جنبهِ على الصليب[9] وعندنا في حقيقة

(١) مت ٢٦ : ٢٧ — ٢٩ (٢) ضد المرطقات ٥ : ٢ و٣ (٣) رسالة ٦٣

(٤) قال الذهبي الفم هولماذا لم يشرب ماءً بعد القيامة بل شرب خمرًا ولكي يستأصل هرطقةً اخرى ايضًا من اصولها . لانهُ اذ كان قومٌ يستعملون في الاسرار ماءً لا خمرًا فقد اوضح انهُ عندما سلم الاسرار سلمها بخمرٍ وانهُ عندما وضع مائدةً بسيطةً بعد القيامة من دون الاسرار استعمل الخمر ايضًا وقد قال «من عصير الكرمة» اما الكرمة فلا تعصر ماءً بل خمرًا» على متى (٨٢ ٣) (٥) قانون ٦ , ٣٣ (٦) تك ٤٩ : ١٨ تث ٣٢ : ١٤ (٧) «وقد اخذ الكاس ممزوجة خمرًا وماءً وقدسهُ واعطاهم قائلاً اشربوا منهُ الخ» (اوامر الرسل ٨ ١٢) (٨) امثال سليمان الحكيم ٩ ٥ (٩) يو ١٩ : ٣٤

هذا التعليم وصحته بيانات جليّة وبراهين ثابتة من اقوال القديس يوستينوس[1] وايريناوس[2] وكبريانوس[3] وغريغوريوس النيصي وامبروسيوس ومعلمين آخرين كثيرين قدماء في الكنيسة[4] ومن المجامع القديمة ايضاً كمجمع قرطاجنة[5] وترولّس وخدمات القداس الالهي القديمة المقدسة[6].

٥ . اما القسم الثاني من اقسام السرّ المنظورة الذي بدونه لا يتم سرّ الشكر فهو الخدمة الشريفة او القداس الالهي. وهي مؤلفة من ثلاثة اقسام: الاوّل خدمة الذبيحة او القربان او التقدمة وفي هذا القسم تهيأ المادة المطلوبة للسرّ . وقد سمي تقدمةً من عادة المسيحيين القديمة جداً

---

(١) احتجاج ١ : ٦٦ (٢) قال في كتابه ضد الهرطقات «عندما تنال الكاسُ الممزوجةُ والخبزُ المقدَّمُ كلامَ الله وتصير الافخارستيا جسداً» (٥ : ٢ : ٣) ويسميها ايضاً «مزج الكاس» (٤ : ٣٣ : ٢) (٣) «حالما تمتزج الخمر التي في الكاس بالماء حينئذٍ يتحد الشعب بالمسيح» رسالة ٦٣ (٤) غريغوريوس النيصي في تعليمه فصل ٣٧ وامبروسيوس في الاسرار ٥ : ١ : ٤ وجناديوس في العقائد الكنائسية فصل ٧٨ (٥) «لا يقدم في القداسات اكثر من جسد الرب ودمه كما سلم الرب نفسه اعني الخبز والخمر الممزوجة بالماء» قانون ٤٤ . (٦) قال مجمع ترولّس لانه (اي يوحنا الذهبي الفم) قد سلم لكنيسته التي تسلم رئاستها السامية ان تمزج الخمر بالماء كلما اقتضى ان تتم الذبيحة غير الدموية موضحاً بذلك مزج الدم والماء اللذين جريا من جنب المسيح الاله المنقذ والمخلص لحياة العالم اجمع والخلاص من الخطايا. وجميع الكنائس التي اشرقت فيها الكواكب الروحية فيها هذا الترتيب المسلم من الله. لان يعقوب الذي كان بالجسد اخا بالمسيح الهنا وأُتمن اولاً على كنيسة كرسي اورشليم وباسيليوس اسقف قيصارية الذي مجده امتد الى كل المعمور وقد سلما الينا كتابة خدمة الاسرار المقدسة كتبا ان الكاس المقدسة هكذا تكمل في الخدمة الالهية اي من الماء والخمر (قانون ٣٢)

بان يحضروا من بيوتهم خبزاً وخمراً ويقدموها الى الهيكل لاجل سرّ الشكر. والقسم الثاني هو قداس الموعوظين . وفي هذا يتم بسط المسيحيين للسرّ ويسمح للموعوظين ان يكونوا حاضرين عند تتميمه والقسم الثالث هو قداس للمؤمنين وفيه يتمّ السرّ ويكمَّل ولا يسمح الحضور فيه الاّ للمؤمنين فقط . اما المكان الذي يجب ان يتمّ فيه وكيفية التتميم فتجد تفاصيلها بالتدقيق في تيبيكون الكنيسة والافخولوجي . ونحن نبحث الآن في القسم الاهمّ من الخدمة وهو الكلام الجوهري وقت الاستحالة

٦ . فان الجزء الاهمّ في القسم الثالث من خدمة القداس الالهي هو اولاً الآية التي بها اعطى الربُّ جسدهُ ودمهُ لتلاميذهِ علناً حين تأسيسهِ السرّ فقال «خذوا كلوا هذا هو جسدي . . . . . اشربوا منهُ كلكم لان هذا هو دمي الذي للعهد الجديد . . . . .»[1]. ثانياً استدعاءُ الروح القدس او التضرّع الى الاله العلي لكي يرسل روحهُ القدوس على القرابين المقدسة ويباركها[2]. وهذا العمل العام هو في الكنيسة حسب ترتيب خدمة القداس الالهي ليوحنا الذهبي الفم هكذا

حينما يرتل الخورُس التسبيح الساروفيمي يطلب خادم السرّ (الكاهن او رئيس الكهنة) هذه الطلبات قائلاً بصوتٍ منخفضٍ:

«مع هذه القوات المغبوطة ونحن ايضاً ايها السيد المحب البشر نهتف ونقول قدوسٌ انت وكليّ القدس انت وابنك الوحيد وروحك القدوس . قدوسٌ انت وكليّ القدس ومجدك عظيم البهاء الذي

---

(١) مت ٢٦ : ٢٦ — ٢٨ (٢) التعليم المسيحي الكبير في الافخارستيا

احببت عالمك بهذا المقدار حتى انك اعطيت ابنك الوحيد لكي لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة المؤبدة . الذي لما اتى واكمل كل التدبير الذي من اجلنا في الليلة التي فيها أُسلم بالأولى انه اسلم ذاته من اجل حياة العالم اذ اخذ خبزًا بيديه المقدستين الطاهرتين اللتين لا عيب فيهما وشكر وبارك وقدس وكسر واعطى تلاميذه الرسل القديسين قائلاً »

(ويعلن «خذوا كلوا هذا هو جسدي الذي يُكسر من اجلكم لمغفرة الخطايا» والخوروس يقول «آمين»

بعد ذلك يقول الكاهن سرًّا

«مثل ذلك اعطى الكاس بعد العشاء قائلاً» (ويعلن)

«اشربوا منه كلكم هذا هو دمي الذي للعهد الجديد الذي يُهرق عنكم وعن كثيرين لمغفرة الخطايا» والخوروس يقول «امين»[1]

(ثم يصلي سرًّا) فنحن بما اننا متذكرون هذه الوصية الخلاصية وجميع الامور التي صارت من اجلنا الصليب والقبر والقيامة ذات الثلاثة الايام والصعود الى السموات والجلوس عن الميامن والمجيء الثاني

(1) ورد في بعض النسخ ان الكاهن عند ما يقول «خذوا كلوا هذا هو جسدي» يشير بيديه الى الخبز وكذلك الى الكاس حينما يقول «اشربوا . . . . هذا هو دمي» غير ان اسم الاشارة هنا بقوله «هذا» لا يشير الى القرابين الموضوعة بل الى التي اخذها يسوع بيديه المقدستين حينما سلم السرّ وباركها وقدسها واعطاها التلاميذ اما هنا فتعاد تلك الاقوال الالهية على سبيل التاريخ فقط ولذا فلا محلّ لرفع اليد والاشارة الى القرابين فضلاً عن كونها تخالف راي الكنيسة القويم (راجع الافخولوجي الكبير في قداس يوحنا حيث تجد هذه الملاحظة)

المجيد ايضًا» (ويعلن)

«التي لك مما لك نقدمها لك على كل شيء ومن جهة كل شيء».

وبينما يرتل الخوروس «لك نسبح لك نبارك لك نشكر يا ربنا ومنك نطلب يا الهنا» يقول الكاهن هذا الافشين سرًّا

«ايضًا نقرب لك هذه العبادة الناطقة وغير الدموية ونطلب ونتضرع ونسال فارسل روحك القدوس علينا وعلى هذه القرابين الموضوعة»

ثم يدنو الشماس من الكاهن ويسجدان كلاهما ثلاث سجدات امام المائدة المقدسة قائلين في ذاتهما «يا الله اغفر لي انا الخاطي»[1]

ثم يحني الشماس راسه ويقول سرًّا مشيرًا بالزنار الى الخبز المقدس

(1) ورد في بعض النسخ ان الكاهن قبل تبريكه القدسات يقول «يارب يامن ارسلت روحك الكلي قدسه الخ ثلاث مرات مع الاستيخونات «قلبًا نقيًا اخلق فيّ الخ ولا تصرفني من امام وجهك الخ» على ان اكثر الخدم الخطية وعلى الخصوص الدروج القديمة وكثيرًا من الخدم المطبوعة باليونانية مثل طبعة ١٦٢٤ و ١٧٧٥ وجميع فيلادات (كراريس) رؤساء الكهنة المشتملة على خدمة القداس ليست فيها هذه القطع . فيتضح من هنا انها ليست اقسامًا جوهرية من خدمة القداس بل ادخلها حديثًا احد الكتاب او يدٌ اخرى . اما كون هذه الزيادة ليست من الخدمة وانها دخيلة فيبرهن مما ياتي : اولاً لان الطروبارية «مباركٌ انت ايها المسيح الهنا» والقنداق «عند ما انحدر العلي مبلبلاً للالسن» هما قطعتان من قطع طقس العنصرة المؤلف من قزما الاورشليمي و يوحنا الدمشقي في اواسط القرن الثامن وهذان القديسان كانا بعد يوحنا الذهبي الفم باكثر من ثلاثمائة وخمسين سنة فكيف يمكن ان تكون قطعتان مؤلفتان في القرن الثامن قسماً من خدمته وهو من رجال القرن الرابع ؟ ثم عندنا برهانٌ آخر قوي جدًا يثبت ما ذكرنا وهو ان هذه القطع

بارك يا سيد الخبز المقدس » والكاهن يختم القربان المقدس ثلاث مرات قائلاً : « واصنع اما هذا الخبز فجسد مسيحك المكرّم » والشماس يقول آمين ثم يقول ايضاً « بارك يا سيد الكاس المقدس » والكاهن يباركهُ قائلاً « واما ما في هذا الكاس فدم مسيحك المكرّم » والشماس يقول آمين

بدخولها في هذا المحل نقطع سياق الكلام في الدعاء المقدّم لله ان يرسل روحه القدوس لان معنى الدعاء يقتضي حالاً بعدهُ تبريك القدسات وهذا يشعر بو القارئ بنوعٍ خصوصيّ في قداس القديس باسيليوس حيث دخول عبارةٍ او كلمةٍ واحدةٍ فقط بين الافشين والتبريك يضرّ بالمعنى ويجعل عبارة القديس مضطربةً ويفسد نظام تركيبها اذ ينفصل بين الفعل والمفعول لانهُ يضطرّ ان يختم الافشين بقولهِ « وان يجعل » وبعد ذلك يقطع الكلام بالقِطع المذكورة ثم يأتي بمفعول يجعل وهو (هذا الخبز جسد مسيحك المكرّم الخ) ولا يخفى ما في ذلك من التشويش اذ العبارة هي (وان يجعل هذا الخبز جسد مسيحك المكرّم الخ وهذه الكاس دم مسيحك الخ) ومن فحص معنى الافشين والقِطع الزائدة تتضح ايضاً حقيقة القول : فان الافشين هو دعاءٌ لله الاب ان يرسل روحه القدوس ويحوّل القرابين الى جسد مسيحهِ . فالخطاب إذَن هو للاقنوم الاول من الثالوث الاقدس . واما القطعة (يارب يامن ارسلت روحك الخ) فهي خطاب للاقنوم الثاني من الثالوث الاقدس فلو كانت تلك القطعة اصليةً لما قال في التبريك (واجعل هذا الخبز جسد مسيحك) بل كان ينبغي ان يقول (واجعل هذا الخبز جسدك) وهذا لم يرد هكذا في الخدمة .

فلهذه الاسباب كلها نرى الان اكثر الخدام من رؤساء كهنةٍ وكهنةٍ لا يقولون القطع المشار اليها حين الخدمة بل يتركونها . وحالاً بعد الافشين يباركون القرابين . على اننا لا نعني ان الذي يقولها يستحق الملامة او يخلّ في جوهر الخدمة . حاشا . لانها قطعٌ ابتهالية مؤلفة من آباءٍ قديسين ذات معانٍ خشوعيةٍ وهي من طقس الكنيسة نفسه غير انها ليست من الخدمة ولا ضرورية في الخدمة ولمن شاءَ حرية بان يتركها او يقولها بلا لوم .

ثم يومئ بالزنار الى القدسات كليهما قائلاً « باركهما يا سيد كليهما » والكاهن يبارك القدسات كليهما قائلاً « ناقلاً اياهما بروحك القدوس » والشماس يقول امين امين امين

٧ . فمن هنا يتضح : اولاً ان اقوال المخلص خذوا كلوا . . . اشربوا منهُ كلكم . . . التي يقولها خادم السرّ واستدعاء الروح القدس على القرابين وتبريكها هي كلها عملٌ واحدٌ متصلٌ وغير منقسمٍ . ثانياً ان تلك الاقوال نفسها هي واردة في افشين التضرّع الى الله على وجهٍ تاريخيّ حيث يقول « اتى واكمل وشكر وبارك وقدّس واعطى تلاميذهُ قائلاً خذوا كلوا الخ » فليست اذن سوى ذكر وصية الرب لتلاميذهِ اذ قال لهم اصنعوا هذا لذكري[1] . ثالثاً ان خادم السرّ اعتماداً على هذه الوصية يتجاسر ان يقدم للاله الآب من قِبَل جميع المؤمنين صلاةً وتضرّعاً لكي يرسل الروح القدس على القرابين المقدسة ويحولها الى ذات جسد ودم مسيحهِ . وهذا واضحٌ من نص الافشين عينهِ حيث يقول الكاهن « فنحن بما اننا متذكرون هذه الوصية الخلاصية » . . . ويعني بالوصية اعطاء الرب جسدهُ بقولهِ « خذوا كلوا . . . اشربوا . . . الخ » وهي التي ذكرناها ولم يذكر وصيةً غيرها ليرجع اسم الاشارة اليهِ . فالكنيسة الارثوذكسية اذن تعطي الاقوال الربانية اهميتها بانها وصيةٌ خلاصيةٌ بها وحدها يتجاسر خدام المذبح ان يقدموا سرّ الشكر المعظم بالخوف وتؤمن وتعلم[2] :

(١) ١ كو ١١ : ٢٤ — ٢٥ (٢) قد اخطأ اللاتين في تعليمهم هنا ان قوة تقديس القدسات انما هي محصورة في كلمات الرب « خذوا كلوا . اشربوا

ان استحالة الخبز والخمر جوهريًا في القداس الشريف الى جسد ودم المسيح هي نتيجة انحدار الروح القدس على القرابين المقدَّسة وفعلهِ فيها وذلك باستدعاء رئيس الكهنة او الكاهن الاله الآب بقولو: « اصنع اما هذا الخبز فجسد مسيحك المكرَّم ناقلاً اياها بروحك القدوس[1] » وهذا هو ايمان الكنيسة المسيحية منذ القديم حسب تسليم الرسل انفسهم·

ونتأكد حقيقة ذلك: اولاً من خدمة القداس الالهي القديمة اي من خدمة القديس يعقوب الرسول اخي الرب المُدرَجه في الاوامر الرسولية وخدمة القديس باسيليوس الكبير. وفي هاتين الخدمتين كما في خدمة القديس يوحنا الذهبي الفم تُذكر تلك الاقوال نفسها « خذوا كلوا ·· اشربوا منهُ كلكم » في الافشين او الدعاء المتقدّم لله مع وصية الرب « هذا اصنعوهُ لذكرى »[2] ثم يتبعها حالاً استدعاء الروح القدس على القرابين الموضوعه لكي تُقدَّس وتستحيل الى جسد ودم المسيح · وهاك هذا الموضوع المهم كما ورد في خدمة القديس يعقوب الرسول بحروفهِ: قال « حسب

منهُ كلكم الخ » (يرون في سرّ الشكر قسم ٢ فصل ٢) والحال ان الرب بعد ما سلّم هذا السرّ ما اخذ خبزًا وقال خذوا كلوا بل اخذ وشكر وبارك وقدَّس ثم اعطى تلاميذهُ . فاذن عندما اعطى التلاميذ كان الخبز مباركًا ومقدَّسًا وقوة التقديس لم تكن بالاعطاء او بالقول (هذا هو جسدي) بل بالتبريك والتقديس. وقولهُ (هذا هو جسدي) انما هو ايضاح لماهية ذلك الخبز للتلاميذ فقط . فدعوى اللاتين اذن في هذا ليست اقل ضعفًا من دعواهم في غيره (١) راجع اعتراف الاساقفة في القسطنطينية . واعتراف الراي القويم سؤال ١٠٧ ورسالة البطاركة في الايمان بند ١٧

(٢) لو٢٢: ١٩

وصية الرب « هذا اصنعوهُ لذكري » نحن الخطأة نقدم لك يا رب لتذكار آلامهِ المحيية والصليب الخلاصي هذه الذبيحة المخوفة وغير الدموية ونطلب منك ونتضرع اليك ··· اغفر لنا ايها الاله كعظيم رحمتك وارسل علينا وعلى هذه القرابين الموضوعة روحك القدوس الاله المحيي الجالس معك ايها الاله الآب على الكرسي ومع ابنك الوحيد المالك معك ··· هذا الروح الكلي قدسهُ ارسلهُ علينا وعلى هذه القرابين لكي بانحدارهِ على هذا الخبز وهذه الكاس يقدسها بقداستهِ ·· لكي يجعل هذا الخبز جسد مسيحك وهذه الكاس دم مسيحك[1] ». وفي الاوامر الرسولية نقرأ هكذا « فاذ نحن متذكرون آلامهُ وموتهُ وقيامتهُ من بين الاموات وارتفاعهُ الى السموات ·· نقدم لك حسب امرهِ انت الملك والاله هذا الخبز وهذه الكاس شاكرين لك بهِ لانك اهلتنا ان نقف امامك ونخدمك ونطلب منك ان تنظر بتعطفٍ الى هذه القرابين الموضوعة امامك ايها الاله غير المحتاج الى احدٍ وان تُسرّ بها كرامة مسيحك وترسل روحك القدوس على هذه الذبيحة الشاهدة لآلام الرب يسوع لكي يجعل هذا الخبز جسد مسيحك »[2] وفي خدمة القديس باسيليوس بعد اعلان خادم السرّ على القرابين كلمات الرب « خذوا كلوا ·· اشربوا منهُ كلكم ··· » يسمّي الخبز والخمر رسم جسد المسيح ودمهِ اي صورة تصوّرهما فقط. فلو كانت الاستحالة تمّت بالكلمات الربانية لما سماها صورة ورسم جسد ودم المسيح بل جسدًا حقيقيًا ودمًا حقيقيًا وهاك عبارات خدمة القداس بحروفها

(١) خدمة يعقوب في مكتبة الآباء جزء ٢ صفحة ١٢ (٢) كتاب ٨ فصل ١٢

« ولهذا ايها السيد الكلي قدسهُ نحن الخطاة . . . لا بحسب برّنا . . . بل بحسب مراحمك ورأفتك . . . ندنو بجسارةٍ من مذبحك المقدس وقد وضعنا « رسوم » جسد ودم مسيحك المقدس ونطلب اليك ونسألك يا اقدس القديسين ان يأتي بمسرّة صلاحك روحك القدوس علينا وعلى هذه القرابين الموضوعة ويباركها ويقدسها ويوضح (او يجعل) اما هذا الخبز فجسد ربنا والهنا ومخلصنا يسوع المسيح نفسهُ الخ »

ثانيًا تتأكد حقيقة ذلك من معلمي الكنيسة الشرقية والغربية :

فالقديس ايريناوس يكتب هكذا « كما ان الخبز الارضي ببركة الله يكفُّ عن ان يكون خبزًا بسيطًا لكنهُ يصير افخارستيا مؤلفةً من خبزٍ ارضي وسماويٍ هكذا اجسادنا ايضًا بعد ان تشترك بالافخارستيا الالهية ليست بعدها فاسدةً بل لها رجاء القيامة »[1]

وادريجانس يقول « اننا نصنع مرضاةَ مُبدي الكل فنشكرهُ على احساناته ونتضرع اليه ونأكل خبز التقدمة بعد ان يصير « بالافشين » جسدًا مقدسًا ومقدِّس الذين يأكلونهُ بطويةٍ صالحةٍ »[2].

والقديس كيرلس الاورشليمي يقول « لانهُ كما ان خبز الشكر وخمرهُ قبل استدعاء الثالوث المسجود لهُ المقدس كانا خبزًا وخمرًا بسيطين « وبعد الدعاء » (اي الافشين) اما الخبز فيصير جسد المسيح واما الخمر

(١) ضد المرطقات ٤ : ٣٤ (٢) ضد كيلسُس كتاب ٨ صفحة ٢٩٩ وفي محل آخر يقول « انها تقدس بقول الله والدعاء » على متى ١٥

فدم المسيح[1] » . . . « لانهُ كما ان خبز الشكر بعد استدعاء الروح القدس ليس خبزًا بسيطًا بل جسد المسيح هكذا الخ[2] » « ثم اذ قدسنا انفسنا بهذه التسابيح الروحية نسأل الرب المحب البشر ان يرسل الروح القدس على القرابين الموضوعة لكي يصنع اما الخبز فجسد المسيح واما الخمر فدم المسيح . لانهُ لاشك بان كل ما يلمسهُ الروح القدس فقد تقدس واستحال »[3]

والقديس باسيليوس الكبير يقول « مَن من القديسين خلَّف لنا « كلمات الدعاء » في ايضاح خبز الشكر وكاس البركة بكتابةٍ مكتوبة ؟ لاننا لا نكتفي بما ذكرهُ الرسول والانجيل لكنا نقول قبلها وبعدها اقوالاً اخرى وقد اتخذناها من التعليم غير المكتوب وهي ذات قوةٍ عظيمةٍ في السر[4] »

واوغسطينوس الجليل يقول « هذه التي نسميها جسد ودم المسيح هي جوهرٌ مأخوذٌ من اثمار الارض ولكنها اذ تقدست « بافشين التقديس » فهي تُناوَل لنا لخلاص نفوسنا ولتذكار آلام المخلص وموته الذي احتملهُ من اجلنا[5] » « اننا باقوال الرسول هذه « فاطلب اوّل كل شيء ان تقام طلباتٌ وصلواتٌ وابتهالاتٌ وتشكراتٌ من اجل جميع الناس[6] » نفهم ما تُعيدهُ كل الكنيسة . فالطلبات نقدمها في خدمة القداس قبل

(١) في الاسرار ١ : ٧ (٢) ٣ : ٣ (٣) ٥ : ٧ (٤) في الروح القدس لامفيلوشيوس فصل ٢٧ (٥) في الثالوث ٣ : ٤ [illegible] (٦) ١ تي ٢ : ١

« تبريكها » حينما يفصل الخبز المقدس اجزاء لُيناول للمؤمنين [٢] »

والقديس ابروكلس اسقف القسطنطينية يقول « بعد صعود مخلصنا الى السموات قبل ان يتفرّق الرسل في كل المسكونة كانوا يثابرون معاً على الصلوات كل النهار واذ وجدوا تقديس جسد السيد السري تعزية لم كانوا يرتلونهُ باسهابٍ كليّ . . . فبصلواتٍ كهذه كانوا ينتظرون حلول الروح القدس لكي بحضورهِ الالهي يجعل ويوضح الخبز والخمر الممزوجة بالماء الموضوعين للتقديس جسد مخلصنا يسوع المسيح نفسهُ ودمهُ نفسهُ . هذا الامر هو في وقتنا ايضاً وسيكون حتى انقضاء الدهور [٣] »

والقديس يوحنا الدمشقي يقول « وليس بمستبعدٍ أن نقول هذا ايضاً وهو كما ان الخبز والخمر والماء تستحيل بمقتضى الطبيعة الى جسد من يأكلها ويشربها بالاكل والشرب ولا تصير جسداً آخر غير جسدهِ الاول هكذا خبز التقدمة والخمر والماء تستحيل بحالٍ يفوق الطبع الى جسد يسوع المسيح ودمهِ « بالدعاء وبحلول الروح القدس [٤] » وليسا اثنين بل هما واحد هو هو نفسهُ »

هذا التعليم عينهُ تجدهُ ايضاً في مؤلفات القديس غريغوريوس النيصي [٥] وامارونيموس وامبروسيوس [٦] وثيودورُس اسقف هرقلية

(١) رسالة ١٤٩ الى باولينس ٣ : ١٦ (٢) في تسليم الخدمة الالهية (٣) في الايمان كتاب ٤ راس ١٣ (٤) قال في تعليمهِ فصل ٣٧ « ان الخبز يتقدس بكلام الله والدعاء » (٥) رسالة ٨٥ الى ايفاغريوس حيث قال « ان الارابين بدعائهم (الكهنة) تصير جسد ودم المسيح

وثاوفيلاكطوس [١] وجميع آباء الشرق الارثوذكسيين [٢]

فما تقدم يتضح ان كنيسة رومية قد خطئت خطأً لا يُغفر وخسرت خسارةً لا تعوَّض بحذفها تبريك المقدسات من خدمة القداس الالهي وفتحها سبيلاً للقول الحق فيها ان قداسها لم يبقَ قدّاساً وخدمتها ليست خدمةً وهذا كافٍ للبيب ·

الفصل الرابع
في طبيعة سرّ الافخارستيا غير المنظورة
او
في حضور يسوع المسيح في سرّ الشكر وفي الاستحالة الجوهرية

نؤمن انهُ في البرهة التي فيها يتم خادم العلي حسب وصية الرب سرّ الشكر الالهي ويستدعي الروح القدس على القرابين ويباركها ويقدسها بالطلبة الى الاله العلي قائلاً « واصنع اما هذا الخبز فجسد مسيحك المكرَّم واما ما في هذه الكأس فدم مسيحك المكرَّم ناقلاً اياها بروحك القدوس » يستحيل الخبز والخمر استحالةً حقيقيةً بحلول الروح القدس الى جسد المسيح ذاتهِ ودم المسيح ذاتهِ حتى ان الخبز والخمر اللذين ننظرهما فيما بعد على المائدة المقدسة ليسا خبزاً وخمراً حقيقيين بل هما جسد الرب ذاتهُ ودم المسيح ذاتهُ تحت شكل الخبز والخمر لا غير . وقد قال

(١) انظر شهاداتهم السابقة (٢) مثل سمعان التسالونيكي (في الاسرار) والبطريرك ارميا وكريتو بولس وعند الروسيين ايضاً ابطامكوس مجونده وديمتريوس روستو يس واستفانوس ايابورسكي وغيرهم الذين كتبوا ضد اللاتين في هذا الباب

في ذلك بطاركة الشرق الارثوذكسيين «نؤمن ان ربنا يسوع حاضرٌ في هذه الخدمة السرية لا بوجه الرمز او الاشارة او الرسم او الصورة ولا بفيضان نعمتو كما في سائر الاسرار ولا بنفخةٍ بسيطةٍ كما قال بعض الآباء القديسين في المعمودية ولا بانهُ مستترٌ (per impantionem) بدخول لاهوت الكلمة اقنوميًا في الخبز المقدم في الافخارستيا كما يعتقد تلاميذ لوثيروس بل هو حاضرٌ حضورًا حقيقيًا وفعليًا حتى انهُ بعد البركة لما الخبز فيتغير ويستحيل جوهريًا الى جسد الرب ذاتو الذي وُلِدَ في بيت لحم اليهودية من مريم البتولة واعتمد في الاردن وتألّم وقُبِر وقام وصعد الى السموات وجلس عن ميامن الاله الآب وهو مزمعٌ ان يظهر ثانية يومًا ما على سحاب السماء. واما الخمر فيتغير ويستحيل الى دم الرب ذاتو الذي أُهرق على الصليب في حين آلامهِ الطاهرة من اجل خلاص العالم وايضًا نؤمن ان الخبز والخمر بعد التبريك ليسا خبزًا وخمرًا بل هما جسد الرب ذاتهُ ودمهُ ذاتهُ تحت شكل الخبز والخمر»[1]. ففي هذه الاقوال تعترف الكنيسة الارثوذكسية صريحًا بحضور يسوع المسيح الحقيقي في سرّ الافخارستيا وبكيفية حضورهِ فيهِ

اما حضور الرب في السرّ فقد انكرهُ بعض القدماء[2] والمتاخرين[3] ولا سيما البروتستانت غير اللوثيريين كالكلوينيين وامثالهم الذين

(١) رسالة بطاركة الشرق بند ١٧ (٢) م المسمون فوكيين (الخاطيوس رسالة لاهل ازمير ٧) والانغماه والباولبون والبوغوميل (٣) مثل ويكلف وزوينكليوس وكلوينوس وتلاميذهم السوكنيين والراسيوناليين

ينكرون قطعيًا حضور يسوع المسيح في سرّ الشكر الالهي ويعلّمون ان الخبز والخمر يلبثان بعد التبريك ايضًا خبزًا بسيطًا وخمرًا بسيطة وليسا شيئًا آخر سوى اشاراتٍ وصورٍ ورموزٍ ورسومٍ لجسد ودم يسوع المسيح. ويزعمون ان المسيحي حينما يشترك بهذا الخبز والخمر فحينئذٍ فقط يتناول داخليًا وروحيًا بالايمان جسد ودم يسوع المسيح بمثابة قوتٍ روحيٍ[1]

واما كيفية حضور الرب فهي تغيُّر واستحالة جوهر الخبز والخمر الى جسد يسوع المسيح ذاتو ودمهِ ذاتهِ وهذا التعليم قد انكرهُ اتباع لوثيرُس الذين يخالفون رأي سائر البروتستانت المذكور قبلاً ويعتقدون بحقيقة حضور يسوع المسيح في سرّ الشكر. غير انهم يزعمون ان حضورهُ انما هو بواسطة دخولهِ في الخبز والخمر (per cum sub stantionem) اللذين يلبثان غير متغيرَين ولا مستحيلَين وبواسطة اقتران (per impanationem) جسدهِ ودمهِ الحقيقيَين مع هذَين النوعَين بحالٍ غير منظورٍ[2] لا بتغيُّر او استحالة جوهر الخبز والخمر الى جسد يسوع المسيح ذاتهِ والى دم يسوع المسيح ذاتهِ.

فنقسم اذن هذا الفصل الى قسمين اولاً في ايضاح صحة اعتقاد الكنيسة بحضور الرب فعلاً في سرّ الشكر وعدم صحة رأي الكلوينيين وامثالهم من البروتستانت وثانيًا في ايضاح صحة الاعتقاد بالاستحالة الجوهرية

(1) Kalvlin inst. IV, 17, 10. Confess. Helvet., 1 art. XXI. Confess. Callic. arti. XXXIv,. Confess. Belgic. art xxxv.

(٢) وكما يقول لوثيرُس «ان جسد المسيح هو في الخبز مع الخبز تحت الخبز»

وضلال اتباع لوثيرُس ايضاً .

القسم الاول

في حضور يسوع المسيح حقيقةً وفعلاً في سرّ الشكر

١ . البرهان من وعد الرب بالسرّ ٢ . من تسليمه السرّ ٣ . من رسالة بولس الرسول ٤ . من آباء الكنيسة ٥ . من المجامع

ان تعليم الكنيسة الجامعة حضورَ يسوع المسيح حقيقةً في سرّ الشكر مؤسَّسٌ على صخرة الكتاب المقدَّس والتقليد الشريف .

١ . فان الكتاب المقدَّس في الاقوال التي بها ورَدَ وعد الرب بسرّ الشكر[1] يشهد لصحة اعتقاد الكنيسة شهادةً صريحةً والبروتستانت لا ينكرونها لكنّ الخلاف بين الكنيسة والبروتستانت هو ان الكنيسة تفسّر كلام الرب تفسيرًا حرفيًا والبروتستانت يفسرونهُ تفسيرًا رمزيًا وقد اخطأوا ولا ريب في تفسيرهم للاسباب الآتية .

اولاً لان اليهود انفسهم الذين كان يخاطبهم المخلص بتلك الاقوال قد فهموا كلامهُ فهماً حرفيًا لا رمزيًا لانهم عندما سمعوا يسوع قائلاً « انا هو الخبز الحيُّ الذي نزل من السماء مَن ياكل هذا الخبز يحيا الى الابد والخبز ايضًا الذي ساعطيهِ انا هو جسدي الذي انا ساعطيهِ من اجل حياة العالم » ابتدأوا يتخاصمون فيما بينهم لعدم امكان آيةٍ كهذه قائلين كيف يستطيع هذا ان يعطينا جسدهُ لناكلهُ[2] » . فلو لم يكن اليهود

---

(١) يو ٦: ٢٧ — ٦٨ (٢) يو ٦: ٥١ و٥٢

اتخذوا كلمات الرب بالمعنى الحرفي اي انهم فهموها بمعنى جسدهِ نفسهِ لما كان محلٌ لقيام هذا الخصام بينهم ولا للسؤال .

ثانيًا نرى في الانجيل المقدس ان الرب كلما كان يتكلم في امرٍ ويفهمهُ اليهود على غير المعنى المقصود كان هو يوضح لهم المعنى الحقيقي ويرفع الابهام[1] فلو كان اليهود هنا بفهمهم كلماتهِ فهماً حرفيًا عن جسدهِ الحقيقي اخطأوا لكان الرب اوضح ذلك لهم واظهر انهُ يتكلم رمزيًا لا حرفيًا ولكن ماذا نرى منهُ ؟ نرى انهُ عمل عكس ذلك . اي انهُ اخذ يردف كلامهُ السابق بالمعنى نفسهِ وبعباراتٍ اكثر قوةً وايضاحاً قائلاً « الحقَّ الحقَّ اقول لكم ان لم تاكلوا جسد ابن البشر وتشربوا دمهُ فليست لكم حياةٌ فيكم . من ياكل جسدي ويشرب دمي لهُ حياةٌ ابديةٌ وانا اقيمهُ في اليوم الآخير لان جسدي ماكلٌ حقيقيٌ ودمي مشربٌ حقيقيٌ[2] » فهنا يجب ان نلاحظ على الخصوص اولاً ان الرب ابتدأ في جوابهِ بالعبارة « الحقَّ الحقَّ » التي كان معتادًا ان يستعملها كلما كان يقصد ان يبين ويؤيد تاكيد وحقيقة اقوالهِ بزيادة ايضاحٍ[3] . ثانيًا انهُ يفرض شركة جسدهِ ودمهِ على البشر بوصيةٍ وضيعةٍ ضروريةٍ واجبة الامتثال لا بدَّ منها للحصول على الحياة الابدية قائلاً « ان لم تاكلوا جسد ابن البشر وتشربوا دمهُ فليست لكم حياةٌ في ذاتكم . من ياكل جسدي ويشرب دمي لهُ حياةٌ ابديةٌ[4] »

---

(١) يو ٢: ٢ — ٥ و٤: ٣٣ و٥: ١٢ و٨: ٢١ و٣٣ و٤٠ و١١: ١١ و١٦: ١٨ و٢٥ ومت ١٦: ٦ و١٩: ٢٤ (٢) يو ٦: ٥٣ — ٥٥ (٣) يو ٨: ٥٦ — ٥٨ و١٠: ٢٤ — ٢٦ ومت ٩: ٢ — ٥ (٤) يو ٦: ٥٣ — ٥٤

ونحن حيث ان هذه الوصية هي ذات اهمية عظيمة جداً كان من الواجب ان تُذكَر بعبارةٍ بسيطةٍ مفهومةٍ عند جميع الناس وعبارة كهذه لا تكون رمزية بل حرفية . ثالثاً ان الكلمة « حقيقي » في قول المخلص « جسدي مأكلٌ حقيقيٌ ودمي مشربٌ حقيقيٌ » تشهد من وجهٍ بان موضوع التاكيد اي جسد الرب هو كما هو غير قابل التغيير الى معنى آخر غير معنى الجسد ومن وجهٍ آخر بان اليهود مع كونهم انذهلوا من وعد الرب بانهُ يعطيهم جسدهُ ماكلاً وكانوا سريعي الميل الى تحويل معنى الجسد الى معنى موضوع آخر مع ذلك لم يميلوا عن فهم حقيقة معنى اقوالهِ في جسده بل صدّقوا انهُ كان يَعِدُهم حقيقةً باكل جسدهِ وشرب دمهِ .

ثالثاً هذا المعنى الحرفي نفسهُ فهمهُ الرسل القديسون ايضاً اذا كانوا وقتئذٍ بين اليهود . ولذا فقد ضاق فكرهم عن ان يسع امكان اكلهم جسد معلمهم وشربهم دمهُ وطفق اكثرهم يتذمرون قائلين « صعبٌ هذا الكلام من يستطيع ان يسمعهُ ؟ » [1] . لكنّ المخلص اخذ حينئذٍ يقنعهم في امكان هذه الشركة العجيبة شركة جسدهِ ودمهِ مؤيداً كلامهُ لهم بآيةٍ أخرى عجيبةٍ جداً وهي صعودهُ العتيد الى السماء الذي كان يستشهد به لسامعيهِ في اوقاتٍ نادرةٍ اعني كلما كانت الحال تقتضي ان يأتي ببراهين اكثر قوةً على قدرتهِ الالهية وسموّ تعليمهِ وحقيقة بشارتهِ « فعلم يسوع في نفسهِ ان تلاميذهُ يتذمرون من هذا فقال لهم أهذا يشككم ؟ فكيف لو رأيتم ابن البشر صاعداً الى حيث كان اولاً ؟ » [2] .

(١) يو ٦: ٦١ (٢) يو١: ٥٠ و٥١ مت ٢٦: ١٢ و٦٤ (٣) يو٦: ٦٢ و٦٣

رابعاً ان جميع معلمي الكنيسة الاقدمين مثل اكليمنضس الاسكندري وترتليانوس وكبريانوس واوسابيوس اسقف قيصرية [1] وغريغوريوس النيصي وباسيليوس الكبير ويوحنا الذهبي الفم وابيفانيوس ومكاريوس [2] وامبروسيوس وكيرلس الاسكندري واوغسطينوس وثاودوريطوس ولاون الاورشليمي ويوحنا الدمشقي وآخرين [3] قد فهموا اقوال يسوع المسيح التي فيها وعد بسرّ الشركة فهماً حرفياً . وكذلك المجامع المسكونية ايضاً فسّرت اقوالهُ بهذا المعنى نحو كالمجمع الثالث المسكوني المنعقد في افسس والمجمع الثاني المقدس الذي التأم في القسطنطينية [4] .

خامساً ان العبارة « اكل اللحم » في الكتاب المقدس اذا وردت بمعناها الرمزي تدلّ دائماً كلما وردت فيهِ على « عمل شرٍّ عظيمٍ للقريب والاساءة اليهِ بقساوةٍ » وخصوصاً تدلّ على « المذمة والسعاية بحقهِ » [5]

(١) اكليمنضس الاسكندري في المربي ٦ : ٢ والمتفرقات ٦ : ٢ وترتليانوس في القيامة ٣٧ وكبريانوس في الصلاة الربانية واوسابيوس على حرفيال ١ ويو ٦ : ٤٢

(٢) غريغوريوس النيصي ضد الاونوميين خطاب ١١ وباسيليوس الكبير على مزمور ٤٤ : ٦ ويوحنا الذهبي الفم في الكهنوت ٣ : ٥ وابيفانيوس ضد الهرطقات . ٤ ومكاريوس على لوقا ٢٤ : ٧ (٣) امبروسيوس في الايمان ٤ : ٦ وفي الاسرار ٤ : ٥ وكيرلس الاسكندري على حلزوق ٤٨ واوغسطينوس على المزمور ٩٨ : ٩ وثاودوريطوس في تاريخه الكنائسي ٤ : ١١ ولاون ضد النسطوريين ٢ ويوحنا الدمشقي في الايمان ٤ : ١٤

(٤) مجمع افسس في رسالته الى نسطوريوس (انظر الجزء الاول من اعمال المجامع صفحة ١٢٦) واعمال المجمع الثاني جلسة رابعة صفحة ٤٧ . (٥) مز ٢٦ : ٢ وايوب ١٩ : ٢٢ ومي ٣ : ٣ وغل ٥ : ١٥

ولا تدلُّ في الكتاب على غيرهذا المعنى مطلقاً · فان اراد احد ان يفسر اقوال المخلص التي وعد فيها بسر الافخارستيا بمعنى رمزيّ يسقط ضرورة في ضلالٍ مبين اذ يضطرُّ وفقاً للكتاب ان يفسّر و يقول «من ياكل جسدي» اي من يصنع بي اعظم الشرور «لهُ حياةٌ ابدية» · وكذلك «ان لم تاكلوا جسد ابن الانسان» يعني ان لم تسيئوا اليهِ بقساوةٍ وان لم تذموهُ وتسعوا بهِ «فليست لكم حياة فيكم» فمن يجاسر يا ترى ان يبدي رباط افكارٍ كهذا مضاداً كل المضادة الذوق السليم والعقل القويم ؟

سادساً قرائن الاحوال نفسها في هذا المقام تدحض رأي البروتستانت لانهم يفسرون «اكل الجسد» بمعنى الاتحاد والاشتراك الروحاني مع المسيح بالايمان و بمقتضي هذا التفسير كل الذين لايتحدون روحيّاً مع المسيح بالايمان ليست لهم حياةٌ فيهم . ولكن هذا المعنى مع كونهِ يعبر عن حقيقةٍ ليس هو المعنى الحقيقي لكلام الرب عن جسدهِ لان الرب كان يخاطب وقتئذٍ سامعيهِ ويعدهم بطعامٍ جديدٍ لم يذوقوهُ قط الى ذلك الوقت وقد وعدهم ان يعطيهم اياهُ في المستقبل قائلاً «الخبز الذي انا ساعطيهِ هو جسدي الذي انا ساعطيهِ من اجل حياة العالم» . فلو كان كلامهُ يشير الى الايمان بهِ لا الى جسدهِ لوجب ان نصدّق ان جميع سامعيهِ كانوا غير مؤمنين بهِ وان المسيح لم يكن بعدُ قد اعطى الايمان بهِ . والحال كان بين سامعيهِ وقتئذٍ كثيرون مؤمنون بهِ غير تلاميذهِ ومشتركون معهُ بالايمان وكانت نعمة الايمان بهِ قد مُنحت للجميع ولا محلَّ للوعد بها للمستقبل (1) .

(1) ٦١ — ٦٧

فتفسير البروتستانت اذن هو خطأٌ محضٌ وكلام المخلص لا يشير الى الايمان بهِ بل الى جسدهِ ودمهِ الحقيقيين .

٢ فلناتِ الان بما يشرحهُ الانجيليون الثلثة متى ومرقص ولوقا في تسليم الرب سر الافخارستيا الالهي . وهنا نرى ان الانجيليين الثلثة يشهدون بان الرب يسوع في العشاء الاخير «اخذ خبزاً وبارك وكسر واعطى تلاميذهُ وقال خذوا كلوا هذا هو جسدي الذي يعطى من اجلكم اصنعوا هذا لذكري واخذ الكاس وشكر واعطاهم قائلاً اشربوا منهُ كلكم لان هذا هو دمي الذي للعهد الجديد الذي يهرق عن كثيرين لمغفرة الخطايا» (1) ومعنى هذه الاقوال الالهية واضحٌ لا ريب فيهِ وهو ان الرب اعطى للمؤمنين جسدهُ بذاتهِ ودمهُ بذاتهِ تحت شكل الخبز والخمر ولا سبيل لاحدٍ ان يفسر هذه الاقوال على غير معناها هذا الحرفي لان كل الوجوه تقنعنا بان نفهمها على هذا المعنى نفسهِ فهماً حرفياً .

فالوجه الاوّل من ذلك هو الاعتبار الواجب لمخلصنا . لاننا ان اردنا ان نقبل مع اصحاب كلوينوس ان الرب بقولهِ لتلاميذهِ «هذا هو جسدي هذا هو دمي» عنى عن اشارة اورسم جسدهِ وعن اشارة دمهِ أفلا نضطرُّ حينئذٍ ان نقبل ايضاً ان الرب بعدم تدقيقهِ في العبارة خدع (معاذ الله) تلاميذهُ وبهم خدع الكنيسة كلها التي فسرت منذ البدء هذه الاقوال كما سنرى فيما بعد بمعناها الحرفي المستقيم واعتبرت دائماً الافخارستيا الالهية

(1) متى ٢٦ : ٢٦ ومر ١٤ : ٢٢ ولو ٢٢ : ١٩

جسد مخلصها الحقيقي ولم تعتبرها قط في كل مدة وجودها اشارات او رسومًا او رموزًا لجسده ودمه ؟

ثانيًا ان الظروف التي فيها نطق المخلص بتلك الاقوال تشهد بصحة ما نقوله . فان الرب نطق بها لا لغرباء بل لتلاميذه الذين انتخبهم لذاته واستحقوا ان يسمعوا من فمه الالهي تاكيده « انتم اصدقائي »[1] نطق بها في برهة لم يكن يتكلم مع تلاميذه بامثال بل ظاهرًا وعلنًا حسب شهادتهم[2] نطق بها في ساعاته الاخيرة التي كانت ساعات آلام وموت . ولما كانت الطبيعة عينها تشهد ان الانسان يفتح قلبه لاصدقائه على الخصوص ويتكلم معهم بلسان بسيط وعبارات واضحة في جميع احاديثه او في اغلبها فكم بالحري في البرهة الاخيرة التي يتلوها الموت حيث لا مقام للرمز والاشارة ؟

ثالثًا مما يقنعنا ايضًا بذلك اهمية سر الافخارستيا . لان الرب عندما رتب هذا السر جعله اعظم اسرار العهد الجديد وامرنا ان نتممه مدى الدهور[3] . فاهمية هذا السر الكلي الضرورة للخلاص وصفة ذلك العهد الجديد وتلك الوصية تقتضي ان تكون العبارات التي استعملها المخلص في ترتيبه سر الشكر الالهي معينة وواضحة كل الوضوح ولا يبقى سبيل لدخول اقل ريب او ضلال في موضوع مهم كهذا .

رابعًا اذا قابلنا كلمات المخلص هذه باقوال موسى التي قالها حينما

(١) يو ٥: ١٤—١٥ (٢) يو ١٦: ٢٩ (٣) لو ٢٢: ١٩—٢٠

وضع العهد القديم تحقق ما تقدم تقريره . فان مخلصنا لما رتبه هذا السر العظيم موكدًا به العهد الجديد الذي بين الله وبين اسرائيل النعمة قال لتلاميذه مقدمًا لهم الكاس « هذه الكاس هي العهد الجديد بدمي »[1] وهكذا صنع موسى ايضًا لما اكد العهد القديم الذي بين الله واسرائيل القديم . فانه اخذ من دم حمل الفصح ونضح به الشعب وقال « هذا هو العهد الذي اوصاكم الله به واخذ موسى الدم ورش على الشعب وقال هوذا دم العهد الذي قطعه الرب معكم على جميع هذه الاقوال »[2] . فكان موسى نضح وقتئذ فعلاً لا رمزًا دم العجل الحقيقي[2] الذي كان يصور الدم الاستغفاري الجاري من جنب حمل الله الذي ذبح على مذبح الصليب عن خطايا العالم هكذا يسوع المسيح قدم لتلاميذه في كاس العهد الجديد لا رمزًا ولا اشارة بل حقيقة .

٢ . ونذكر ايضًا تعليم القديس بولس الرسول في سر الشكر كما نجده مكتوبًا في آيتين من رسالته الى اهل كورنثس .

ففي الآية الاولى منها يحث المسيحيين على التحفظ من الاشتراك مع الامم في اعيادهم الوثنية ويقول « لذلك يا احبائي اهربوا من عبادة الاوثان . اقول لكم كما يقال لحكماء احكموا انتم في ما اقول . كاس البركة التي نباركها أليست هي شركة دم المسيح . والخبز الذي نكسره أليس هو شركة جسد المسيح . فاننا نحن الكثيرين خبز واحد جسد واحد لاننا جميعنا نشترك في الخبز الواحد . . . بل ان التي تذبحه الامم انما تذبحه

(١) عب ٩: ٢٠ خر ٢٤: ٨ (٢) خر ٢٤: ٥

للشياطين لا لله. فلا اريد ان تكونوا شركاء الشياطين. انكم لا تستطيعون ان تشربوا كاس الرب وكاس الشياطين ولا تستطيعون ان تشتركوا في مائدة الرب ومائدة الشياطين »[1]. فامرٌ ظاهرٌ هو واوضح من ان يوضح ان الرسول يخاطب المسيحيين هنا بموضوعٍ معلومٍ عندهم جميعاً وغير منكرٍ من احدٍ منهم وهو انهم باشتراكهم في كاس الرب يشتركون في دم المسيح يسوع وبتناولهم من الخبز او باشتراكهم في مائدة الرب يشتركون في جسد يسوع المسيح وهذا يؤيدهُ قولهُ سابقاً « اقول لكم كما يقال للحكماء احكموا انتم فيما اقول »[2].

وفي الآية الثانية يخبر الرسول عن ترتيب سرّ الافخارستيا مستعملاً تلك الالفاظ عينها التي استعملها الانجيليون بمعناها الحرفي نفسهِ حيث يقول « لانني تسلمت من الرب ما قد سلمتهُ اليكم ان الرب يسوع في الليلة التي أُسلم فيها اخذ خبزاً وشكر وكسر وقال خذوا كلوا هذا هو جسدي الذي يكسر لاجلكم اصنعوا هذا لذكري وكذلك الكاس من بعد العشاء قائلاً هذه الكاس هي العهد الجديد بدمي اصنعوا هذا كلما شربتم لذكري »[3] ثم يقول ايضاً « فاذن ايُّ انسانٍ اكل خبز الرب اوشرب كاسهُ وهو على خلاف الاستحقاق فهو مجرمٌ الى جسد الرب ودمهِ. فليختبر الانسان نفسهُ وهكذا فليأكل من هذا الخبز وليشرب من هذه الكاس لان من ياكل ويشرب وهو على خلاف الاستحقاق انما ياكل

(١) ١ كو ١٠ : ١٤ — ١٧ و ٢٠ — ٢١ . (٢) ١٥ (٣) ١ كو ١١ : ٢٣ — ٢٥

ويشرب دينونةً لنفسهِ اذ لم يميز جسد الرب »[1]. فالذي يريد ان يعبر تعليم الله بان المسيحي عندما يتناول الاسرار المقدسة انما يتناول جسد الرب ودمهُ تحت اعراض الخبز والخمر هل لهُ عباراتٌ اوضح وافصح من هذه يعبر بها عن هذا المعنى؟

٤ · وقد قلنا سابقاً ان الكنيسة المقدسة هكذا فهمت عبارات المخلص وهكذا علمت منذ تاسيسها الى الآن في حقيقة حضور الرب في سر الشكر وكون الخبز والخمر المقدسين جسد ودم الرب. وتاكيداً لذلك نأتي بشهادات آباء الكنيسة مبتدئين من الازمنة الرسولية ·

فالقديس اغناطيوس يقول في الهراطقة المتزهدين « انهم يبتعدون عن الافخارستيا والصلاة لعدم اعترافهم بان الافخارستيا هي جسد مخلصنا يسوع المسيح الذي تألم لاجلنا والذي اقامهُ الآب بصلاحهِ »[2].

والقديس يوستينوس الشهيد يقول « لاننا لا نتناولها بمثابة خبزٍ عاديٍ ولا بمثابة مشربٍ عاديٍ لكن كما انهُ بكلمة الله لما تجسد يسوع المسيح مخلصنا قد اتخذ لاجل خلاصنا لحماً ودماً هكذا تعلمنا ان الغذاء الذي شكر عليهِ بدعاء كلامهِ وبهِ يغتذي دمنا ولحمنا بحسب الاستحالة هو لحمُ ودمُ ذاك المتجسد »[3].

والقديس ايريناوس في تكلمهِ عن الهراطقة يقول « كيف يستطيعون ان يزكنوا ان الخبز الذي عليهِ تمَّ الشكر هو جسد الرب وان هذه الكاس

(١) ٢٧ — ٢٩ (٢) في رسالتهِ الى اهل ازمير ٧ (٣) احتجاج ١ : ٦١

هي كاس دمهِ ما لم يفهموا انهُ هو ابن صانع العالم ؟[1] لو كانوا يتناولون الكاس وهي ممزوجة بالماء ويتناولون الخبز وهو معدٌّ ككلمة الله ذاتهِ ولو كانت تصير لهم هكذا شركة الخبز والخمر سرّ شكر جسد المسيح ودمهِ اللذين يغذيان ويثبتان وجود جسدنا فكيف يستطيعون ان يقولوا ان هذا الجسد الذي يغتذي من جسد المسيح ودمهِ لا يشترك بموهبة الله الذي هو الحياة الابدية ؟ »[2].

ومكاريوس الكبير القس الاورشليمي (سنة ٢٦٦) يقول « لانهما (اي الخبز والخمر) ليسا رسم جسدٍ ورسم دمٍ كما لفّق قومٌ عميانٌ بل هما جسد المسيح ودمهُ الحقيقي »[3].

والقديس كيرلُّس الاورشليمي يقول « لكونهِ هو نفسهُ تكلم وقال عن الخبز هذا هو جسدي فمن يجسر بعد ذلك ان يرتاب ؟ ولكونهِ هو نفسهُ ثبت وقال هذا هو دمي فمن يتوهم او يقول انهُ ليس بدمهِ ؟ لان الذي حوّل وقتاً ما الماء الى خمرٍ في قانا الجليل باشارتهِ أفليس مصدَّقاً اذا قال انهُ حوّل الخمر الى دم ؟ وقد دُعي الى عرسٍ جسديٍّ فصنع فيهِ تلك العجيبة الفائقة. فكيف لا نعترف لهُ انهُ بالاحرى منح بني العرس التمتع بجسدهِ ودمهِ ؟ فلنتناولهما اذن باليقين التام انهما جسد المسيح ودمهُ. لانهُ برسم الخبز يُعطَى لك الجسد وبرسم الخمر يُعطَى لك الدم لكي بتناولك من جسد المسيح ودمهِ تصير متحداً معهُ جسداً ودماً. لاننا بهذه الحالة

(١) ضد المراطقة ٤: ١٨: ٤ و ٥ (٢) ضد المراطقة ٥: ٢ و ٤: ١٧: ٥ و ٣٤: ٢ (٣) احتجاج ضد ناوسطايس كتاب ٣: ٢

نصير لابسي المسيح اي بامتزاج جسدهِ ودمهِ في اعضائنا وبهذه الواسطة نصير مشاركي الطبيعة الالهية كما يقول بطرس المغبوط. فلا تنظر اذن الى الخبز والخمر كانهما عاديان اذ هما جسدٌ ودمٌ حسب القول السيدي لانهُ وإن كان الحسّ يظهرهما لك عاديين لكنّ الايمان يحقق لك انهما جسدٌ ودمٌ. فلا تحكم اذن بحسب الذوق الحسيّ بل تحقق من الايمان وتأكد بلا ارتيابٍ انك قد أُهِّلت لجسد المسيح ودمهِ »[1].

والقديس يوحنا الذهبي الفم يقول « كم منكم يقولون الآن ليتني كنتُ ارى هيئة الرب وشكلهُ وملابسهُ وحذاءهُ. فها انت تنظرهُ وتلمسهُ وتأكلهُ هو نفسهُ وانت تشتهي ان ترى ملابس مع انهُ هو يعطيك ذاتهُ لا لتراهُ فقط بل لتلمسهُ ايضاً ولتأكلهُ ولتأخذهُ في داخلك فلا يتقدم احدٌ غافلاً ولا متراخياً بل فلنبادرْ جميعنا بحماسةٍ وحميةٍ ونهضةٍ ... ويجب ان نكون من كل جهةٍ ساهرين لانّ القصاص المعدّ للمشتركين على خلاف الاستحقاق ليس صغيراً. تفطّنْ كم انت تتذمر من الذي خانهُ والذين صلبوهُ. فاحترس اذن من ان تصير انت ايضاً مجرماً لجسد المسيح ودمهِ. فان اولئك قد ذبحوا الجسد الكلي قدسهُ واما انت فتتقبلهُ حينئذٍ بنفس دنسة بعد احسانات كثيرةٍ جداً. لانهُ لم يكتفِ بان يصير انساناً ويُضرَب ويُذبَح عنا بل ان يمزج ذاتهُ فينا لا بالايمان فقط بل بالفعل ايضاً جاعلاً ايانا جسداً لهُ. فايّ شيءٍ ينبغي ان يكون اقل نقاوةً من الذي يتمتع بهذه الذبيحة ؟ وايّ شعاعٍ شمسيّ يجب ان لا يكون اقلّ بهاءً من

(١) في الاسرار ٤: ١ و ٣ و ٣ — ٦

اليد التي تقطع هذا الجسد والفم الذي يمتلي من النار الروحانية واللسان الذي يصطبغ بالدم المخوف ؟ فتأمل الكرامة التي قد كرمتهــا والمائدة التي تمتع بها . ان الذي تنظر اليهِ الملائكة وترتعد ولا تجسر ان تحدق بهِ بلا خوفٍ من البرق الساطع منهُ هذا نفسهُ نحن نغتذي بهِ وبهِ نتعجن وقد صرنا جسداً واحداً للمسيح ولحماً واحداً . من يتكلم بعظائم الرب ويجعل تسابيحهُ مسموعة ؟[1] . اي راعٍ يغذي خرافهُ باعضائهِ ؟ومالي اذكر الراعي؟ كثيراً ما دفعت امهات اولادهن بعد اوجاعهن الى مرضعاتٍ أخر وهو لم يطق ان يفعل ذلك بل شاء هو نفسهُ ان يغذينا بدمهِ ويجعلنا مرتبطين ومتحدين بذاتهِ بكل الوسائط »[2] .

والقديس امبروسيوس يقول « وهذا الجسد الذي نقدمهُ في سرّ الشكر قد ورد من البتول . ولماذا تبحثون هنا وتطلبون العمل الطبيعي والموضوع هو جسد يسوع المسيح ؟ أفلم يولد الرب نفسهُ من البتول بحالٍ تفوق الطبيعة هذه هي بشرة يسوع المسيح المصلوبة والمدفونة . فهذا هو اذن سرّ الجسد بعينهِ بكل الحقيقة »[3] .

والقديس صفرونيوس بطريرك اورشليم يقول « لا ينظرنّ احدٌ الى هذه القرابين المقدسة كانها رسوم جسد المسيح ودمهِ بل فليؤمن ان الخبز والخمر حينما يقدّمان يستحيلان الى جسد المسيح ودمهِ »[4] .

والقديس يوحنا الدمشقي يقول « إلا يستطيع ان يصنع الخبز جسداً

(١) مز ٣ . ١ : ٢ (٢) على متى مقالة ٨٢ : ٤ ود (٣) في الاسرار ٩ : ٥٢ و٨ : ٤٧ و٤٨ وعلى المزامير ٣٢ : ٣٦ (٤) جزء ٤ صفحة ٣٢

لذاتهِ والخمر والماء دماً ؟ فقد قال في البدء « لتخرج الارض نبات حشيش » وهي الى الآن اذ يصيبها المطر تبرز الفروع عينها مسوقةً ومقواةً بالامر الالهي . قال الله « هذا هو جسدي هذا هو دمي وهذا اصنعوهُ لذكري » وبامرهِ القادر على كل شيء يصير الى ان يجيء لانهُ هكذا قال « الى ان يجيء » وبواسطة الدعاء (اي الافخين الذي حذفهُ اللاتين) تحدر قوة الروح القدس المظلِّلة مطراً لهذه الفلاحة الجديدة . وكما ان كلّ ما صنعهُ الله انما صنعهُ بفعل الروح القدس هكذا الان بفعل الروح القدس تتمّ هذه الاسرار الفائقة الطبيعة التي لا يستطيع شيءٌ آخر ان يسعها الاّ الايمان وحدهُ . ولقد قالت البتول القديسة كيف يكون لي هذا وانا لا اعرف رجلاً ؟ فاجابها رئيس الملائكة جبرائيل قائلاً الروح القدس يأتي عليكِ وقوة العلي تظللكِ . افتسأل انت الان كيف يصير الخبز جسد المسيح والخمر والماء دم المسيح ؟ فاقول لك انا ان الروح القدس يحلّ ويصنع هذه الاسرار السامية عن القول والفكر . لكننا نتناول خبزاً وخمراً . نعم . ولكنّ الله الذي يعرف الضعف البشري ويعرف ان طبيعتهُ تنفر غالباً مما ليست معتادةً عليهِ وتستصعبهُ قد تنازل لما كما هو من شان مراحمهِ واعطانا ما يعلو على الطبيعة بما اعتادت الطبيعة . . . واذ قد أَلِفَ الناس ان ياكلوا خبزاً ويشربوا خمراً وماءً قرن بهما لاهوتهُ وجعلهما جسدهُ ودمهُ لنحصل بما هو معتادٌ وموافقٌ للطبيعة على ما فوق الطبيعة . . . فالخبز والخمر ليسا رسماً لجسد المسيح ودمهِ . حاشا . بل هما جسد المسيح نفسهُ متألهاً . لان ربنا نفسهُ لم يقُل هذا رسم جسدي

بل قال «هذا هو جسدي» ولم يَقُل هذا رسم دمي بل قال «هذا هو دمي» . . . وإذا كان بعضٌ دعا الخبز والخمر رسوماً لجسد المسيح ودمهِ كما قال باسيليوس المتوشح بالله فانهُ لم يَدْعُهما بذلك بعد التقديس بل قبل التقديس فكانت تلك التسمية للتقدمة المجردة اعني للخبز البسيط فقط»[1].

هذا التعليم عينهُ نجدهُ في مؤلفات القديس ايبوليطس واكليمنضُس الاسكندري وترتليانوس وكبريانوس وديونيسيوس بطريرك الاسكندرية وايلاريُن وغريغوريوس النيسي[2]. وباسيليوس الكبير وابيفانيوس وابيسيدورُس البيلوسيوتي وايارونيموس واوغسطينُس[3] وثاودوريطوس وكيرلُّس بطريرك الاسكندرية ولاون الكبير[4] وثاوفيلاكطوس[5] وغيرهم[6]

(١) في الايمان كتاب ٤ فصل ١٣ (٢) ايبوليطوس جزء ٢ صفحة ٤٨٨ واكليمنضس الاسكندري في المربي ١ : ٦ و١١ : ٥ وترتليانوس ضد ماركين ٥ : ٨ وفي الاصنام ٧ وكبريانوس رسالة ٥٤ و٦٣ وديونيسيوس الاسكندري في مجموع القوانين ٢ صفحة ٢٥٤ وايلاريُن في الثالوث ٧ : ١٦ وغريغوريوس النيسي تعليم ٣٧ . (٣) باسيليوس رسالة ٩٣ وابيفانيوس في الانكلِرُتوس ٥٧ وابيسيدورُس كتاب ٣ رسالة ٣٦٤ وايارونيموس على ملاخيا ١ : ٧ وحزقيال ٤١ واوغسطينوس في الثالوث ٣ . ١٠ (٤) ثاودوريطوس على نشيد الانشاد ٢ ، ٣ وعلى افسُس ٥ : ٢٦ وكيرلُّس الاسكندري على يوحنا ٣٠ : ٢٧ وضد نسطوريوس ٤ : ٥ ، ٦ ولاون الكبير رسالة ٥٦ : ١١ (٥) قال «ان الرب بقولهِ هذا هو جسدي يوضح ان الخبز بعد تبريكهِ في السر هو جسد الرب حقيقةً وليس رسماً لجسدهِ لانهُ لم يقل هذا رسم جسدي لكنهُ قال : هذا هو جسدي . فهو يتغير بوجهٍ سري وان كان يظهر لنا خبزاً» (على متى ٢٦) (٦) ذيديموس الاسكندري على المزامير ٣٩ ، ٧ وثادوروس المرقلي

٥ . وهذا التعليم نفسهُ قد علمتهُ المجامع المسكونية فمن ذلك اقرار المجمع المسكوني الاول . قال «لا ينبغي ان ننظر على المائدة المقدسة الى الخبز والكاس كأنَّهما مقدَّمان على بسيط الحال بل يجب ان نرفع الروح فوق الحواس ونفهم بالايمان ان حمل الله الرافع خطية العالم يسوع هُنا[1] مذبوحاً من الكهنة وانهم يتناولون جسد الرب نفسهُ ودمهُ الكريم نفسهُ اللذين نؤمن بانهما رسوم لقيامتنا»[2]

والمجمع الثالث المسكوني قد قبل بروحٍ واحدٍ وثبت رسالة القديس كيرلُّس بطريرك الاسكندرية الى نسطوريوس وهذه الرسالة التي كُتِبَت من قِبَل مجمع الاسكندرية المكاني تشتمل في نصها على هذه العبارة وهي : «اننا ننادي بان ابن الله الوحيد ربنا يسوع المسيح مات بالبشرة ونقرّ بقيامتهِ وبصعودهِ الى السموات فنتمّ في الكنائس الذبيحة غير الدموية وهكذا نقترب من الاسرار المباركة ونتقدس اذ نشارك جسد يسوع المسيح مخلصنا المقدس ودمهُ الكريم . . . لكن لا ينبغي ان ننظر الى جسدهِ كما الى جسد انسانٍ يماثلنا من كل الوجوه في اهوائنا بل يجب ان نوقن انهُ بالحقيقة جسد الذي قد صار وسمّي لاجلنا ابن الانسان نفسهُ»[3]

والمجمع السابع المسكوني يشهد ضد الهراطقة : «ان الذبيحة غير الدموية التي تُقام لتذكار آلام المخلص وكل سرّ التجسُّد الخلاصي لم يسمِّها احدٌ

على مز ٢٦ ، ٥ وثاوفيلُس الاسكندري في رسالتهِ الفصحية لسنة ٤٠١ فصل ١١ . بطرس خريسولوغُس خطاب ٣٤ وغيرهم (١) يو ١ : ٢٩ (٢) جيلاسيوس كيزيكينوس في اعمال المجمع الاول المسكوني فصل ٣١ ، ٦ (٣) مجمع افسُس قسم ٣ جلسة ١ وكيرلس الاسكندري حر . ٥ قسم ٢ صفحة ٧٢

من آلاتّ الروح القدس صورة جسد المسيح لا من الرسل القديسين ولا من الآباء المجيدين الذين لم يعلموا من الرب ان يتكلموا او ينادوا هكذا بل سمعوهُ معلنًا وقائلاً «ان لم تاكلوا جسد ابن الانسان وتشربوا دمهُ فليست لكم حياةٌ فيكم» وايضاً «من ياكل جسدي ويشرب دمي يثبت فيَّ وانا فيهِ» ولم يقل صورة جسدي وقد قال آباء هذا المجمع «انهُ لا الرب ولا الرسل ولا الآباء سموا الذبيحة غير الدموية التي تُقدم من الكهنة صورة جسد ودم المسيح بل هي جسد المسيح نفسهُ ودمهُ نفسهُ . والذي سمّى من الآباء الخبز والخمر رسومًا فقد سماها قبل تقديسها وتبريكها وهو يؤمن بانهما بعد التبريك جسد يسوع المسيح ذاتهُ ودمهُ ذاتهُ»[1] .

القسم الثاني
في الاستحالة الجوهرية
او
في كيفية حضور يسوع المسيح في سرّ الافخارستيا ونتيجة ذلك

١ . حضور الرب باستحالة القرابين ٢ . براهين الكتاب ٣ . براهين التعليم الرسولي ٤ . براهين الآباء ٥ . قوة العبارة قولنا الاستحالة الجوهرية ٦ . حضور السيد في السرّ بنفسهِ ولاهوتهِ ٧ . تفصيل التقدسات وعدم انقسامها ٨ . وحدة السرّ في جميع الاماكن ٩ . استمرار الاعراض على حالها بعد الاستحالة . ١٠ تقديم العبادة لها

١ . حيث ان حضور الرب يسوع المسيح في سرّ الشكر الالهي يقتضي

(١) المجمع السابع المسكوني جلسة ٦

كما تقدّم كون القرابين المقدسة بعد تقديسها وتبريكها ليست خبزًا بسيطًا ولا خمرًا بسيطةً بل يتناولها المؤمنون جسد الرب نفسهُ ودمهُ نفسهُ بيد ان حضور يسوع المسيح في السرّ لا يتم بولوجهِ او بنفوذهِ في الخبز والخمر مع بقائهما على حالتهما وتمام جوهرهما بنوع ان ولوجهُ لا يؤثر فيهما شيئًا آخر سوى ان المسيح يوجد بجسدهِ ودمهِ في الخبز اومع الخبز او تحت الخبز كما يعتقد ويزعم اتباع لوثيروس (in, cum, sub pane) بل كيفية حضورهِ في السرّ انما هي تغيرٌ وانتقال واستحالة جوهر الخبز والخمر الى جسد المسيح الحقيقي ودمهِ الحقيقي[1] . وبالحقيقة لا يمكن ان يصير الخبز والخمر جسد يسوع المسيح ذاتهُ ودمهُ ذاتهُ الاَّ بانتقال جوهرهما الى جسد يسوع المسيح ودمهِ اعني بالاستحالة الجوهرية وحدها فقط ونؤيد هذه الحقيقة بالبراهين الآتية :

٢ . اولاً بعبارات الكتاب الالهي عينها التي اوردناها وبحثنا فيها سابقًا . فان الرب عندما كان يَعِدُ بتسليم سرّ الشكر قال في جملة ما قالهُ «انا هو الخبز الحيُّ الذي نزل من السماء ان اكل احدٌ من هذا الخبز يحيا الى الابد «والخبز الذي انا ايضاً ساعطيهِ هو جسدي» الذي انا ساعطيهِ من اجل حياة العالم»[2] وهذا الخبز الذي وعد بهِ وسماهُ جسدهُ اخذهُ حين تسليم السرّ وقال «هذا هو جسدي» واخذ الكاس وقال «هذا هو دمي» . والقديس بولس كتب الى اهل كورنثس «كاس البركة

(١) اعتراف الراي القويم قسم اول سؤال ٥٦ ورسالة البطاركة بند ١٧

(٢) يو ٦ : ٥١

التي نباركها اليست هي شركة دم المسيح ؟ والخبز الذي نكسره اليس هو شركة جسد المسيح ؟[1]. «فاي انسان اكل هذا الخبز وشرب كاس الرب على خلاف الاستحقاق فهو مجرم الى جسد الرب ودمه»[2]. فالحقيقة واضحة من كل هذه الآيات ان الرب والرسول يسميان الخبز جسد المسيح والخمر دم المسيح باصرح العبارة ولم يرد في الكتاب على الاطلاق ان جسد يسوع المسيح يكون مع الخبز او في الخبز او تحت الخبز. ثم ان الرب لم يقل: ان الخبز الذي انا ساعطيه سيكون فيه جسدي بل قال «الخبز الذي انا ساعطيه هو جسدي» ولم يقل ايضاً: خذوا كلوا ان في هذا او مع هذا او تحت هذا يكون جسدي بل قال «هذا هو جسدي وهذا هو دمي» فمع كون الخبز جسد المسيح والخمر دمه لا وجه لانتقالهما الى الجسد والدم سوى استحالة جوهرهما.

٣. ثانياً في جميع طقوس القداس القديمة (وفي مقدمتها خدمة يعقوب الرسول) المستعملة لا في الكنيسة الارثوذكسية فقط بل عند الغرباء عن عقائدها كالنسطوريين والافتيشيين والارمن والسريان واليعاقبة وكنيسة رومية يقرأ التضرع الى الاله الآب قبل تبريك القرابين المقدسة لكي «ينقل بروحه القدوس ويحوّل جوهر الخبز والخمر الى جسد ودم يسوع المسيح المكرّم»[3]. وهذه المطابقة التامة بين

(1) ١ كو ١٠: ١٦ (٢) ١ كو ١١: ٢٧

(3) Bona, Reg. liturg. 1, c. 8 et spu Renaudot, Liturg. Oriental. cellec. Paris 1685. Asseman. Cod. liturg. Eccl. Universal, Roma, 1749. Muratori liturgia Romana vetus, Venet, 1748. Diss. liturg. c. 1.

جميع الطقوس القديمة في القسم الاهم من سر الافخارستيا لشهادة كافية ان هذا هو العمل والتسليم الرسولي في هذا الموضوع وان ايمان الكنيسة الجامعة هو هو بعينه لم يتغير منذ القديم حتى الآن.

٤. ثالثاً ان آباء الكنيسة ومعلميها ايضاً يعتقدون معاً ان الخبز والخمر في سر الشكر «ينتقلان ويتغيران ويستحيلان» الى جسد المسيح ودمه فان القديس كيرلس الاورشليمي مثلاً يقول «ان الرب قد حوّل الماء وقتاً ما الى خمر في قانا الجليل بمشيئته[1] أفليس هو مصدقاً بتحويله الخمر الى دم ؟ فبعد الدعاء يصير الخبز جسد المسيح»[2]. والقديس غريغوريوس النيسي يقول «انني اعتقد واومن بالحقيقة ان الخبز يستحيل اليوم ايضاً اذ يتقدس بالكلمة الالهية الى جسد الاله الكلمة»[3]. والقديس امبروسيوس يقول «كلما تناولنا القرابين المقدسة التي تتحول سرياً بالطلبة المقدسة الى جسد المسيح ودمه نخبر بموت الرب»[4]. وفي محل آخر يقول «اننا نبرهن ان هذا لم تخرجه الطبيعة بل قدسته البركة والبركة اقوى كثيراً من الطبيعة لان الطبيعة عينها بالبركة تتحول»[5]. وثاودورس اسقف هرقلية يقول «ان الرب يسوع قال هذا هو جسدي وهذا هو دمي» لكي تؤمنوا ان هذه ليست صوراً بل الخبز هو جسد الرب نفسه والخمر هو دمه نفسه وانهما يتحولان الى المتجسد بنا وتنعم...

(1) يو ٢: ١ — ١٠ (٢) في الاسرار ٤: ٢ (٣) تلك فصل ٣٧
(٤) في الايمان ٤: ١٠: ١٢٤ (٥) في الاسرار ٩: ... (...)

الروح القدس الذي لا ينطق به »[1].

والقديس يوحنا الدمشقي يقول « ان الخبز والخمر ذاتهما ينتقلان الى جسد الاله ودمه. واذا كنت تسأل عن الطريقة كيف يصير ذلك فيكفيك ان تسمع انه بالروح القدس كما ان الرب بالروح القدس ايضاً اقام لذاته وفي ذاته بشرة من والدة الاله القديسة. ولا نعلم شيئاً اكثر من ذلك بل ان كلمة الله صادقة فعالة وقادرة على كل شيء واما الطريقة فلا ندركها ولا نفحص. وليس مستقبحاً ان نقول هذا ايضاً وهو كما ان الخبز والخمر والماء تنتقل طبعاً بالاكل والشرب الى جسد ودم الذي ياكلها ويشربها ولا تصير جسداً آخر غير جسده الاول هكذا خبز التقدمة ايضاً والخمر والماء تستحيل بالدعاء وحلول الروح القدس بوجه يفوق الطبيعة الى جسد يسوع المسيح ودمه وليسا بعد ذلك جسدين بل هما جسد واحد فقط »[2].

وثاوفيلاكطس يقول « واضح. لان الخبز الذي ناكله نحن حين تناولنا الاسرار ليس رسم جسد المسيح بل هو جسد الرب نفسه. لانه لم يقل ان الخبز الذي انا اعطيه هو رسم جسدي بل « هو جسدي ». وهذا الخبز يستحيل بكلام لا يلفظ به الى جسد الرب بالبركة السرية وحلول الروح القدس »[3] « لان الخبز ليس رسماً للجسد الرباني بل يستحيل الى جسد المسيح ذاته »[4].

(١) على متى ٢٦ : ٢٦ (٢) في الايمان كتاب ٤ فصل ١٣ (٣) على يوحنا ٦ (٤) على مرقس ١٤

وافتيميوس زيغابينوس يقول « ولم يقل هذه اشارات لجسدي ودمي بل قال انها جسدي ودمي. فاذن لا ينبغي ان تنظر الى طبيعة المو[ضوعات] بل الى قوتها. لانه اله البشرة التي تغذيها بحال يعلو على الطبيعة بحال لا ينطق به يحول هذه الى جسده الحيي نفسه ودمه الكريم نفسـ[ـه] بعينها »[1].

ولكي يبرهن رعاة الكنيسة الاقدمون ويفسروا امكان انتقال الخبز الى جسد يسوع المسيح ودمه يذكرون قدرة الله على كل شيء[2] الصادرة كل يوم وخلق العالم من العدم[3] وسر التجسد الالهي والعجائب التي وردت في الكتب المقدسة وعلى الخصوص تحويل الماء خمراً في قانا الجليل[5] وتحويل الخبز والخمر والماء وسائر الاغذية لدم ولحم. وهو امر يحصل فينا كل يوم. لان هذا الانتقال الجوهري يتم فينا بطريقة غامضة كلياً[6].

٥. وقد بقي علينا ان نذكر الآن ملاحظة اخرى وهي ان التعبير قولنا « الاستحالة الجوهرية » لا يفسر الوجه الذي به يتحول الخبز والخمر الى جسد الرب ودمه. لانه ما من احد يستطيع ان يدرك هذا الامر الا الله. وكل ما يبذله الانسان من الجهد في ادراك هذا السر ليس ...

(١) على متى ٢٦ : ٢٨ (٢) يوحنا الذهبي الفم في الهركة والصليب ٣ وامبروسيوس في الاسرار ٤ : ١٦ و ١٧ (٣) امبروسيوس في الاسرار ٤ : ١٥ ويوحنا الدمشقي في الايمان ٤ : ١٣ (٤) امبروسيوس في الاسرار ٩ : ٥٢ والدمشقي في المحل عينه (٥) كيرلس الاورشليمي في الاسرار ٤ : ٢ وامبروسيوس في الاسرار ٩ : ٥٠ (٦) الدمشقي في الايمان ٤ : ١٣

دليل فهم وورع. وما نقصدهُ بهذه العبارة هو الايضاح ان الخبز والخمر يستحيلان بعد تبريكهما الى جسد الرب ودمهِ لا على وجهٍ رمزيٍ او اشاريٍ ولا بحسب غزارة النعمة ولا بمشاركة وبحلول لاهوت الابن الوحيد ولا بأن ذلك بفعل اختلاطٍ او انقلابٍ يحدث في السرّ بل ان الخبز والخمر يصيران حقيقةً وفعلاً وبحسب جوهرها جسد الرب نفسهُ ودمهُ نفسهُ[1]. فوجه حضور الرب في السرّ هو الاستحالة الجوهرية واما وجه الاستحالة الجوهرية فهو غير مُدرَك.

واعلم ان لفظة الاستحالة والانتقال هما الالفاظ القديمة في الكنيسة واما لفظ «استحالة الجوهر» فاستعمالهُ مُحدَثٌ يُقصَد بهِ زيادة الايضاح

٦ . ثم ان ربنا يسوع المسيح هو حاضرٌ في سرّ الشكر ليس بجسدهِ ودمهِ فقط بل ايضاً بنفسهِ المتحدة مع جسدهِ بلا انفصالٍ وبلاهوتهِ المتحد اقنومياً وبلا انقسامٍ ولا اختلاطٍ مع طبيعتهِ البشرية . ولهذا قال ربنا له المجد «من يأكل جسدي ويشرب دمي يثبت فيَّ وانا فيهِ . كما ارسلني الآب الحيُّ وانا حيٌّ للآب فالذي يأكلني يحيا هو ايضاً بي»[2]. والآباء القديسون يعلّمون ايضاً «اننا نأكل الحمل كلهُ»[3]. وكانوا يلاحظون ايضاً ان هذا السرّ يُدعى شركةً لاننا بهِ نشترك بلاهوت يسوع المسيح .

(١) رسالة البطاركة بند ١٧ (٢) يو ٦ : ٥٧ — ٥٨ . (٣) قال ماري افرام السرياني «انكم تشتركون بجسد الرب الكلي قدسه بايمانٍ كاملٍ غير مرتابين بانكم تأكلون الحمل نفسهُ» وفي محل آخر يقول «ان جسد الرب يتحد بجسدنا على وجهٍ لا يلفظ به ودمهُ ايضاً الطاهر يصب في شراييننا وهو كلهُ بصلاحهِ الاقصى يدخل فينا» (جزء ٣ : ٤٢٤)

ويُدعى اتحاداً لاننا بهِ نتحد مع يسوع المسيح مشاركين في جسدهِ ولاهوتهِ[1].

٧ . ثم وان كان جسد الرب ينفصل في سرّ الشكر الالهي ويوزَّع مع دمهِ على المؤمنين تحت شكل الخبز والخمر اللذين بهما يصير الجسد والدم منظورَين وملموسَين لكنهما مع ذلك هما كاملان بذاتهما وغير منقسمَين . لان الجسد الحيّ «اذ قام من الاموات لا يموت ايضاً»[2] وهو جسدٌ ممجّدٌ روحيٌّ»[3] وغير مائتٍ . ولذا نؤمن ان كل جزءٍ من الخبز والخمر في سرّ الافخارستيا حتى اصغر الاجزاء منها ليس هو هذا او ذاك الجزء من جسد يسوع المسيح ودمهِ بل هو كل جسدهِ ودمهِ مع نفسهِ ولاهوتهِ او بقولٍ آخر هو الاله التام والانسان التام[4]. وايمان الكنيسة المسكونية هذا نجدهُ مرقوماً في كتب خدمة القداس الالهي الكنائسية حيث نقرأ هكذا «يُفصَّلُ ويجزَّأُ حمل الله الذي يُفصَّل ولا ينقسم الذي يؤكل دائماً ولا يفرغ ابداً لكنهُ يقدّس المشتركين بهِ» .

٨ . كذلك وان كان يُتمّ سرُّ الشكر في جميع كنائس المسيح المتفرقة في المسكونة فجسد المسيح هو واحدٌ ودمهُ واحدٌ في جميع الامكنة والازمنة والمسيح حاضرٌ فيهِ هو نفسهُ بكليتهِ لاهوتاً وناسوتاً في كل مكانٍ وزمانٍ . وهذه الحقيقة يعترف بها اعترافاً صريحاً اساقفة الشرق المستقيمو الرأي بقولهم «انهُ وان كانت تتمّ في المسكونة خدماتٌ كثيرةٌ في ساعةٍ واحدةٍ يصيل

(١) يوحنا الدمشقي في الايمان ٤ : ١٣ (٢) رو ٦ : ٩ (٣) ١ كو ١٥ : ٤٢ و٤٤ (٤) رسالة بطاركة الشرق بند ١٧

لكن المسيح ليست لهُ اجسادٌ كثيرة بل هو ذاتهُ يحضر وجسدهُ واحدٌ ودمهُ واحدٌ في كنائس المؤمنين المتفرقة جميعها. وليس ذلك بان جسد السيد الذي في السماء ينحدر على المذابح بل خبز التقدمة الموضوع في جميع الكنائس المتفرقة ينتقل بعد التقديس ويستحيل بجوهره ويصير ويلبث الجسد الواحد الذي في السماء نفسهُ. لانَّ جسد المسيح واحدٌ لا كثيرٌ في اماكن كثيرة. ولذا يُسمى هذا السرُّ بنوعٍ خصوصيٍ عجيباً وهو عجيبٌ وبالايمان وحدهُ هو مُدرَكٌ»[1].

٩. ثم ان الخبز والخمر بعد ان يتقدسا ويستحيلا سريًا الى جسد الرب ودمهِ نفسهِ يلبثان دائمًا جسد الرب ودمهُ اي ان حضور الرب في الاسرار بعد التقديس هو ثابتٌ دائمٌ وغير منقطعٍ في وقت الشركة وبعدهُ. وقد ساء اعتقاد اتباع لوثيروس بان حضور الرب محصورٌ في وقت اشتراك المؤمنين بالاسرار وان القرابين بعد الشركة ليست سوى خبزٍ بسيطٍ وخمرٍ ساذجةٍ. فنحن نؤمن الايمان الحقَّ وهو ان القرابين لا يتغير جوهرها الالهي وطبيعتها بل تلبث على الدوام جسد الرب ودمهُ وقت الشركة وبعدهُ[2]. وهذا يتضح من تسليم الرب سرَّ الشركة اذ قال لتلاميذهِ حينما اعطاهم الخبز والخمر «هذا هو جسدي وهذا هو دمي» فكان الخبز جسدهُ والخمر دمهُ قبل ان ياكلها التلاميذ حسب امرهِ. وعلى هذا الايمان تتمم الكنيسة الارثوذكسية في ايام محدودةٍ القداس الالهي بقرابين سابق تقديسها اعني بقرابين تقدست منذ ايامٍ. وهذه العادة

(١) رسالة البطاركة بند ١٧ (٢) رسالة البطاركة بند ١٧

قديمةٌ عندها وهي لا ترتاب في صحتها بل تعتقد وتؤمن ايمانًا وطيدًا بان القدسات التي تقدم تقديسها في الخدمة السابقة تحفظ طبيعتها غير متغيرة في خدمة البرو جيازمانا الثانية وتُناوَل للمؤمنين جسد المسيح ودمهُ نفسهُ[1]. اما حفظ الجوهرة في الاواني المقدسة فهو لمناولة المرضى[2] ونحن نعلم ايضًا ان الكنيسة القديمة كانت لها عادة ان ترسل القدسات مع الشمامسة للمسيحيين الذين لم يحضروا القداس الالهي لاسبابٍ[3] وللاسرى المعترفين بالايمان الذين في الحبوس[4] وللتائبين[5]. وامرٌ معلومٌ ايضًا ان المؤمنين كانوا ياخذون معهم من الهياكل الاسرار المقدسة الى بيوتهم واحيانًا كانوا يحملونها في سفرهم[6] واما النساك فكانوا ياخذونها الى البراري لكي يتناولوا حين الضرورة جسد المخلص ودمهُ[7].

١٠ ومن حيث ان الخبز والخمر في السرّ المقدس هما جسد مخلصنا يسوع المسيح ودمهُ يجب ان تقدم لهما ذات الكرامة وذات العبادة والسجود الذي تقدمهُ للمخلص نفسهِ[8].

وحقًا هكذا يجب. لان الطبيعة البشرية في اتحادها مع اقنوم الرب

(١) مجمع ترولُّس المسكوني قانون ٥٢ ومجمع اللاذقية قانون ٤٩ (٢) اوامر الرسل ٨: ١٣ وتاريخ اوسابيوس ٨: ٤٤ ورسالة الى ابونسيوس ٣ ومجمع نيقية المسكوني الاوّل قانون ١٣ (٣) الاحتجاج يوستينوس ١: ٦٧ وتاريخ اوسابيوس ٥: ٤٤ (٤) كبريانوس رسالة ٥٤ (٥) يوحنا الذهبي الفم في الكهنوت ٦: ٤ (٦) ترتليانوس في الصلاة ١٤ ولامرأتهِ ٢: ٥ وكبريانوس في الساقطين ٢٨١ وامبروسيوس في تابينو طوغسطينوس ٢: ١٥٤ هند بوليانوس (٧) باسيليوس الكبير رسالة ٩٣ لقيصاريوس (٨) اعتراف الراي القويم سؤال ٦٥ و١٠٧

الالهي قد أُخذت بجملتها واتحدت مع الطبيعة الالهية بلا انقسام وصارت ناسوتًا للاله الكلمة واحدًا معهُ . فكان الاله المتأنس بلاهوتهِ وناسوتهِ اقنومًا واحدًا غير منفصلٍ معبودًا بطبيعتيهِ كلتيهما ومسجودًا لطبيعتهِ الانسانية السجود الذي للالهية عينهُ. وهذه الحقيقة التي هي نتيجة الاعتقاد بطبيعتين وباقنوم واحد في يسوع المسيح سائدة في الكنيسة الارثوذكسية منذ القديم كما يستخرج من شهادات معلميها . فالقديس يوحنا الذهبي الفم مثلاً يقول هكذا « هذا الجسد لما كان بعد في المذود خجل منهُ المجوس . ورجال كفرة وبرابرة تركوا اوطانهم وبيوتهم وقطعوا طريقًا طويلة واتوا بخوفٍ وارتجافٍ كثيرٍ وسجدوا لهُ فلنقتدينَّ اذن بالبرابرة على الاقل نحن ابناء السموات . لان اولئك مع انهم رأوهُ في مذودٍ وضمن كوخٍ ولم يروا شيئًا مما تراهُ انت الان تقدموا برعبٍ كثيرٍ . واما انت فلست تراهُ في مذودٍ بل على مذبحٍ ولست ترى امرأة حاملةً اياهُ بل كاهنًا منتصبًا وروحًا طائرًا على الموضوعات ونازلاً عليها بغزارةٍ . لانك لست تنظر الجسد وحدهُ فقط على بسيط الحال مثل اولئك لكنك تعلم ايضًا قدرتهُ وكل التدبير وليس خافيًا عليك شيء مما تمَّ بهِ لانك متعلمٌ جميع الاسرار بتدقيقٍ »[1].

والقديس امبروسيوس في شرحهِ الآية الزبورية القائلة «واسجدوا لموطئ قدميهِ لانهُ قدوس»[2] يقول « انهُ بكلمة « موطئ » يعني الارض وبكلمة « ارض » يعني جسد المسيح الذي نسجد لهُ اليوم في السرّ والذي

(1) على ١ كو ٢٤ : ٥ (٢) مز ٩٦ : ٥

عبدهُ الرسل بشخص يسوع المسيح نفسهِ »[1].

واوغسطينوس الشريف يقول « ما من احدٍ يتناول جسد يسوع المسيح ما لم يتقدم لهُ عبادة الهية »[2].

والقديس يوحنا الدمشقي يقول « فالمسيح اذن واحدٌ الهٌ تامٌّ وانسانٌ تامٌّ نسجد لهُ مع الآب والروح ونسجد لجسدهِ الطاهر بسجودٍ واحدٍ . ولا نقول ان الجسد لا يُسجد لهُ . لانهُ يسجد لهُ في اقنوم الكلمة الواحد الذي صار لهُ اقنومًا . ولسنا بذلك نعبد المخلوق لاننا لا نسجد للجسد من حيث هو جسد بسيط بل لانهُ متحدٌ باللاهوت وان طبيعتيهِ كلتيهما انضمتا الى شخص واحدٍ واقنومٍ واحدٍ للاله الكلمة . فاخاف ان المس الجمرة بسبب النار المتضمنة فيها . فاسجد لطبيعتَي المسيح كلتيهما بسبب اللاهوت المتحد مع الجسد »[3].

الفصل الخامس

في من لهُ ان يتمّ سرّ الشكر ومن يمكنهُ ان يشترك بهِ وبماذا يقوم الاستعداد للشركة الالهية

١ . سلطان تتميم السرّ ٢ . حق الشركة بهِ ٣ . الممنوعون عنهُ ٤ . مناولة الاطفال ٥ . الاستعداد للشركة .

١ . حق تتميم سرّ الشكر محصورٌ حسب تعليم الكنيسة الارثوذكسية بالاساقفة وحدهم لانهم خلفاء الرسل . ومن الاساقفة منح هذا السلطان

(1) في الروح القدس ٣ : ١١ : ٧٨ و ٧٩ (٢) على مز ٩٨ (٣) في الايمان الارثوذكسي ٣ : ٨ : ١٥٩ و ٤ : ٣ : ٥ : ٢٢

للقسوس ايضاً [1]. وقد اعطى مخلصنا يسوع المسيح هذا السلطان للرسل القديسين وبهم لجميع خلفائهم لما قال في تسليمهِ لهم السرّ «هذا اصنعوا لذكري» [2] ومن ازمنة الرسل اخذ الاساقفة والقسوس هذا السلطان في الكنيسة. ويشهد بذلك كثيرون من آباء الكنيسة القديسين كديونيسيوس الاريوباغي [3] ويوستينوس [4] وترتليانوس [5] وباسيليوس الكبير ويوحنا الذهبي الفم وايلاريوس وابيفانيوس وايارونيموس وآخرين [6] وتشهد ايضاً المجامع المسكونية والمكانية كالمجمع الاول النيقاوي [7] ومجمع انقره [8] ومجمع قيسارية الجديدة [9] وقرطاجنة [10] واللاذقية [11]

(١) اعتراف الراي القويم قسم ١ سؤال ١٠٧ ورسالة البطاركة فصل ١٧ (٢) لو ٢٢: ١٩ و ١ كو ١١: ٢٤ و ٢٥ (٣) رئيس الكهنة ... يقدس الاسرار الالهية» في رئاسة الكهنوت الكنائسية ٣: ٢ و ١٠ (٤) قال واذ يشكر المتقدم» احتجاج ١: ٦٥ (٥) «اننا لا نتناول من يدي احدٍ سوى يدي المتقدم» في الاكليل فصل ٣. (٦) باسيليوس رسالة ٩٣ ويوحنا الذهبي الفم في الكهنوت خطاب ٣: ٤ و ٥ وخطاب ٦: ٤ وايلاريوس في شرح متى ١٤: ١٠ وابيفانيوس في هرطقة ٧٩ وايارونيموس في رسالتهِ الى افانجيلوس ورسالة ١٠١: ١١: ٥ وكيرلس الاسكندري على حبقوق: ٤٧ وعلى صوفونيا: ١١ (٧) قال في القانون الثامن عشر «لقد بلغ المجمع الكبير المقدس ان الشمامسة في بعض الاماكن يناولون الافخارستيا للقسوس وهذا لم يسلمهُ القانون ولا العادة اعني ان يناول الذين لا سلطان لهم ان يقدموا جسد المسيح للذين يقدمونهُ. وقد عرف ايضاً ان بعضاً من الشمامسة يلمسون الافخارستيا قبل الاساقفة فلتمنع هذه جميعها وليلبث الشمامسة ضمن حقوقهم وليعلموا انهم خدامٌ للاسقف ومنحطون عن القسوس. وليتناولوا السرّ بحسب الترتيب بعد القسوس وليناولهم الاسقف او القس» (٨) قانون ١ (٩) [illegible] ٩ (١٠) قانون ٤ (١١) قال في القانون الثامن

ولم يعطَ هذا السلطان للشمامسة [1] الذين كانت واجباتهم ان يحضروا ويخدموا الاساقفة والقسوس فقط في تتميم سرّ الشركة المقدس [2]. ولكن كان مسموحاً لهم بعد تتميم السرّ ان يناولوا المؤمنين جسد يسوع المسيح [3] ويقدموا الكاس للاشتراك [4]

واما الشعب فممنوعٌ بصرامةٍ لا عن تتميم السرّ فقط بل عن خدمتهِ الخدمة البسيطة ايضاً عند الاساقفة والقسوس والشمامسة [5].

٢: جميع المسيحيين المستقيمي الراي يمكنهم ان يتقدموا الى مائدة الرب ويشتركوا بجسدهِ ودمهِ. وهؤلاء هم الذين دخلوا الكنيسة من ابواب المعمودية وتبنَّوا لها وصاروا ورثة جميع الخيرات التي منحها الرب للكنيسة قال القديس بولس الرسول «بما ان الخبزة واحدة فنحن الكثيرون جسدٌ واحدٌ لاننا جميعنا نشترك بالخبزة الواحدة» [6]. والقديس يوستينوس الشهيد يقول «وهكذا الغذاء يُدعَى عندنا شكراً ولا يُسمَح لاحدٍ ان يشترك بهِ الا للمؤمن بان ما نعتقدهُ حقيقيٌ وهو الذي استحم بحميم غفران الخطايا واعادة الولادة كما سلَّم المسيح» [7]

والخمسين «انهُ لا يجوز ان يقدم الاساقفة او القسوس التقدمة في اليوم [illegible]
(١) القانون ١٨ من المجمع الاول المسكوني وايارونيموس في رسالتهِ الى افانجيلوس (٢) امبروسيوس في واجبات الخادم ١: ٤١ و ٢١٤ (٣) يوستينوس احتجاج ١: ٦٥ واثناسيوس الكبير على متى ٧: ٦ (٤) اوامر الرسل كتاب ٤: [illegible] وكبريانوس في الساقطين صفحة ٢٨١ واوغسطينوس ٣: ١ (٥) مجمع ترولس قانون ٥٨ (٦) ١ كو ١٠: ١٧ و ١١: ٢٠ و ٣٣ (٧) احتجاج ١: ٦٦

٣· وقد مُنِع منذ القدم عن الشركة الالهيَّة جميع الذين لم يلجُوا الكنيسة من باب المعمودية المقدسة ولم يصيروا بنين لها كالام واليهود والموعوظين وسائر الناس غير المسيحيين وكذلك الذين دخلوا الكنيسة ولكنهم خرجوا منها بانكارهم الايمان او باتحالهم بدعةً او انشقاقًا والذين ايضًا منعتهم الكنيسة عن الشركة المقدسة بسبب جريمةٍ ثقيلةٍ · وهذا الامر تتاكدهُ من قوانين المجامع والآباء المتعددة[1] ومن كتب الخدمة الكنائسية التي نتعلم منها ان جميع الخدم القديمة هي مؤلفةٌ من قسمين فضلاً عن القسم المتعلق بالذبيحة · اولاً من قداس الموعوظين الذي يحضرهُ لاستماع القرآءات الكتابية وتعليم كلام الله الموعوظون والذين تحت قصاص الامتناع او التوبة العلنية ويحضرهُ ايضًا المشاقُّون والكفرة ان وجدوا[2] وثانيًا من قداس المؤمنين الذي يحضرهُ المسيحيون المستقيمو الراي والذي فيهِ يتمّ ويناوَل سرّ الشكر الالهي·

٤· اما بالنظر الى المؤمنين فقد علمنا ان الاشتراك بالاسرار الطاهرة مسموحٌ بحسب القوانين الكنائسية ليس للمسنّين فقط بل للاولاد والاطفال الصغار ايضًا بنآء على ايمان مقدميهم وعلى تقديس نفوسهم واجسادهم الذي نالوهُ بالمعمودية المقدسة والتبني الذي حصلوا عليهِ بنعمة المخلص · وهذه القاعدة المحفوظة عندنا والمرفوضة من الكنيسة الرومانية[3] كانت وقتًا ما عامّةً للكنيسة الجامعة كلها في المشرق

(١) انظر فهرس قوانين المجامع والآباء في الكلمات «الساقطين والمراطقة والمنشقين والام والخطاة الخ» (٢) اوامر الرسل ٧ : ٧ (٣) مجمع تريدنتي جلسة ٢١ قانون ٤

والمغرب كما يشهد كتاب اوامر الرسل[1] وديونيسيوس الاريوباغي وكبريانوس[3] واوغسطينوس[4] والبابا اينوشنتيوس الاول[5] وباسيليوس وافاغريوس[6] ومعلمون آخرون في الكنيسة[7]. وقد حُفِظت هذه القاعدة في كنيسة رومية لا الى القرن التاسع فقط[8] بل الى القرن الثاني عشر ايضًا[9].

٥· ومع كون الكنيسة المقدسة تدعو جميع ابنائها الى مائدة الرب فهي لا تسمح بشركة الاسرار المقدسة الا للذين هيأوا انفسهم لتناولها بالدقَّة وفقًا لوصية الرسول التالية وهي «فليختبر الانسان نفسهُ وهكذا فلياكل من الخبز وليشرب من الكاس · لان من ياكل ويشرب وهو على خلاف الاستحقاق انما ياكل ويشرب دينونةً لنفسهِ اذ لم يميز جسد

(١) كتاب ٨ فصل ٢١ (٢) في رئاسة الكهنوت الكنائسية ٧ : ١١ (٣) في الساقطين وشهادات ضد اليهود ٣ : ٢٥ (٤) قال «وحقًا من يجاسر ويقول ان هذا الراي لا يخص الاطفال وانهم يستطيعون ان تكون لهم حياةٌ فيهم من دون مشاركة الجسد والدم؟» · في الساقطين ١ : ٢٠ (٥) قال «امرٌ خارجٌ عن الواجب ان يكرّم الاطفال بغير الحياة الابدية قبل ان ينالوا نعمة المعمودية . لانهم ان لم يتناولوا دمهُ لا تكون لهم حياةٌ فيهم» رسالة ٤٢ : ٦١ (٦) باسيليوس في مكتبة فوتيوس مجلد ١٠٧ صفحة ٢٨١ وافاغريوس في تاريخ الكنيسة ٤ : ٣٦ (٧) جناديوس في العقائد الكنائسية فصل ٥٢ ومجمع طليطلة ٢ : ١١ (٨) مثلًا القانون الذي سنّتهُ الكنيسة الرومانية في القرن التاسع «ينبغي ان يُعتنى بالاطفال حتى لا يذوقوا غذآء ما او يرضعوا بعد المعمودية قبل ان يشتركوا بسرّ جسد المسيح الا عند الضرورة الاخيرة»
(٩) Biblioth P. P. t. x. p. 84 Paris 1654. Bona, Rer. Liturg II. 6, 19, 2.

الرب [1]. فعلى كل مسيحيٍ حقيقيٍ اذن ان يختبر نفسهُ بتدقيقٍ ويتطهر من خطاياهُ كلها بسرّ التوبة والندامة وبصومٍ وصلاةٍ طبقاً للفرائض الكنائسية [2] لينال جسد الرب ودمهُ لحياةٍ لا لدينونةٍ

الفصل السادس

في ضرورة تناول سرّ الشكر تحت الشكلين و في اثمار السرّ

١. ضرورة تناول الشكلين والبراهين عليها (اولاً من الوعد بالسرّ — ثانيًا من تسليمهِ السرّ — ثالثًا من عمل الرسل — رابعًا من عمل الكنيسة) ٢. ضلال رومية في هذا الموضوع ونقض آرآئها (اولاً من تسليم السرّ — ثانيًا من عمل الرسل — ثالثًا من عمل الكنيسة — رابعًا من التاريخ — خامسًا نقض اعتراضاتهم على البر ويجازماننا ومناولة المرضى والاولاد الصغار)٣. اثمار السرّ الخلاصية (اولاً الارتباط مع المسيح — ثانيًا التغذية والمعونة — ثالثًا عربون الغبطة .) ٤. جريرة الذين يتناولون على خلاف الاستحقاق .

١. ان تناول جسد الرب ودمهِ ضروريٌ مطلقًا وواجبٌ جوهريٌ على كل مسيحيٍ . اما البراهين على ذلك فهي :

اولاً الاقوال التي قالها المخلص حين وعدهِ بسرّ الشكر «الحقَّ الحقَّ اقول لكم ان لم تاكلوا جسد ابن الانسان وتشربوا دمهُ فليست لكم حياة فيكم من ياكل جسدي ويشرب دمي لهُ حياةٌ ابديةٌ وانا اقيمهُ في اليوم الاخير» [3] ويعني بذلك كما ان الانسان مضطرٌ بلاَّ بدٍ لان

---

(١) ١ كو ١١ : ٢٨ و٢٩ (٢) اعتراف الراي القويم قسم اول سوال ١٠٧ وديونيسيوس الاسكندري قانون ٢ و٤ والقديس تيموثاوس الاسكندري قانون ٥ و١٢ (٣) يو ٦ : ٥٣ — ٥٤

يولد من المآء والروح القدس في سرّ المعمودية ليدخل ملك نعمة يسوع المسيح [1] هكذا المسيحي لكي يتقوّى وينمو في حياة النعمة ويكلل بالحياة الابدية محتاجٌ بلا مناصٍ الى ان يغتذي الغذآء السماوي والقوت الحي في سرّ الشكر . واذا وُلد انسانٌ قاصرٌ او راشدٌ من المآء والروح ولم يحصل على الاشتراك بجسد الرب ودمهِ بسبب موتٍ سريع او غير منتظرٍ فيمكنهُ على كلتا الحالتين ان يستحق الدخول في الملكوت نظرًا لنقاوتهِ وبرارتهِ بالمعمودية [2] . ولكن اذا اعتمد احدٌ وبقي حيًا بعد المعمودية بين اعضآء الكنيسة على الارض ولم يغتذِ غذآء الشركة الخلاصيّ اما لاهمالٍ او لعنادٍ منهُ فهذا لا يرث الحياة الابدية حسب شهادة الانجيل [3] .

ثانيًا . البرهان الثاني على ضرورة المناولة هو وصية الرب الصريحة حين تسليمهِ السرّ . فبولس الرسول يحدث المؤمنين هكذا «لانني تسلمت من الرب ما قد سلمتهُ اليكم ان الرب يسوع في الليلة التي فيها أُسلم اخذ خبزًا وكسر وشكر وقال خذوا كلوا هذا هو جسدي الذي يكسر لاجلكم اصنعوا هذا لذكري . وهكذا الكاس من بعد العشآء قائلاً هذه الكاس هي العهد الجديد بدمي اصنعوا هذا كلما شربتم لذكري . لانكم كلما اكلتم هذا الخبز وشربتم هذه الكاس تخبرون بموت الرب الى ان ياتي» [4] . فمن هنا يستنتج ان الوصية التي اعطيت للرسل في شركة جسد

---

(١) ١ بط ٣ : ٥ (٢) مت ١٩ : ١٤ والافخولوجي في جناز الاطفال . (٣) يو ٦ : ٥٤ (٤) ١ كو ١١ : ٢٣ — ٢٦

المسيح ودمه لم تكن خصوصية لهم وحدهم بل هي عامة لجميع المؤمنين

ثالثًا لنا برهان آخر على صورة المناولة وهو عمل الرسل القديسين والمسيحيين الاولين الذين كانوا جميعهم يتممون وصية الرب بكل ورع وتقوى. وقد شهد الكتاب ان المؤمنين «كانوا مواظبين على تعليم الرسل والشركة وكسر الخبز والصلوات»[1].

رابعًا واخيرًا هكذا كان ايضًا تعليم الكنيسة المستقيمة الرأي وعملها. فانها تأمر بنيها ان يتقدموا مرات كثيرة الى مائدة الرب وتفرض عليهم ان يجروا ذلك اربع مرات في السنة في الاصوام الاربعة المفروضة او على الاقل مرة واحدة وان ينقوا ضمائرهم بواسطة الندامة قبل ان يشتركوا بسر الشكر المقدس[2].

٣. ان جميع المؤمنين بلا استثناء سواء كانوا عالميين او اكليروسيين محتاجون ولهم الحق ان يشتركوا بالاسرار الطاهرة تحت الشكلين. اعني تحت شكل الخبز وشكل الخمر[3]. وفي هذا الموضوع قد ضلت كنيسة رومية ضلالًا فظيعًا اذ منعت الشعب عن الاشتراك بكاس الرب[4] وهاك البراهين على ضلالها:

اولًا ان الرب اعطى سر الشكر تحت الشكلين معًا شكل الخبز وشكل الخمر وكما انه عندما اعطى الخبز لتلاميذه امرهم قائلًا «خذوا كلوا هذا هو جسدي» هكذا عندما قدم لهم الخمر امرهم ايضًا بقوله «اشربوا منه كلكم لان هذا هو دمي» فجميع المسيحيين من الاكليروس والشعب هم محتاجون الى ان يشتركوا بسر الشكر. وهذا الامر لا ريب فيه وتعلمه كنيسة رومية عينها. وحيث ان مادة السر مؤلفة من نوعين من الخبز ومن الخمر والرب امر صريحًا بالاشتراك تحت كلا النوعين فليس لها وجه يبرر الجسارة التي ارتكبتها كنيسة رومية بان تحرم الشعب شركة الكاس وتخالف وصية الله مخالفة واضحة واذا تعللت وقالت ان الشعب بتناوله من الخبز وحده يكون قد تناول الخمر ايضًا التي ضمن الخبز وتسفسطت كما اعتادت بان حيث يكون جسد المسيح فهناك دمه ايضًا[1] فتعللها باطل وقولها عبث ولا يحل محل الكلام الحقيقي. لانها ما دامت تعتبر مناولة الخبز مناولة للخبز والخمر معًا كيف لا يكتفي رعاتها بالتناول تحت شكل الخبز وحده مثل الشعب بل هم ياكلون الخبز ويشربون من الكاس مثل سائر المسيحيين؟ على ان الرب لما اعطى سر الشكر لم يعطه تحت شكل واحد فقط اي تحت شكل الخبز وحده (وهو عالم اكثر من اللاتين بوجود الدم في الجسد) بل اعطاه تحت نوعين متباينين احدهما عن الآخر فاعطى جسده تحت شكل الخبز ودمه تحت شكل الخمر لكي ياكل المؤمنون جسده ويشربوا دمه. فضلال البابويين في هذا الموضوع ظاهر لا تبرره حجة ولا تزكيه توبة وحرمانهم الشعب دم المسيح خطأ فظيع

(١) اعمال ٢: ٤٢—٤٦ و ١ كو ١: ١٧ و ١١ (٢) اعتراف الراي القويم قسم ١ سؤال ٩٠ (٣) ميو سؤال ١ ١ ٤ (٤) المجمع التريدنتيني جلسة ٢١ قانون ١ و ٢

(١) بيرون مقدمات اللاهوت في الشكر قسم ١ فصل ٢ قضية ٤

ثم يقولون : ان غاية يسوع المسيح من اعطاء سرّ الشكر لم تكن ان يوسس سرًّا به يتناول المؤمنون جسدهُ ودمهُ فقط بل ان يقيم ذلك السرّ ذبيحةً ولذلك كان من الضرورة تسليمهُ اياهُ تحت شكلين متباينين وهما الخبز والخمر اما الخبز فلجسد المتألم على الصليب واما الخمر فللدم والماء الخارجين من جنبهِ المطعون فلو لم تكن هذه غاية الرب في الذبيحة لما اعطى سوى الخبز وحدهُ الذي هو على زعمهم وافٍ بالغاية في الاشتراك بجسد ودم الرب (٢) . ولكن قول اللاتين هذا أيضًا باطلٌ وبطلانهُ ظاهرٌ . لان التاريخ الانجيلي يعلمنا ان الرب لما اعطى سرّ الشكر الالهي اعطاهُ سرًّا تحت النوعين . فكما اقام الخبز المبارك جسدًا له لاشتراك المؤمنين هكذا اقام الخمر المبارك دمًا له وقال للمؤمنين « اشربوا منهُ كلكم هذا هو دمي » اما دعوى اللاتين بان لفظة كلكم في امر الرب « اشربوا منهُ » موجهة الى الرسل وحدهم والى سلفائهم خدام الكنيسة فقط وانها لا تعمّ جميع المؤمنين (٣) فهي دعوى باطلةٌ . لان المخلص كما قال « اشربوا » قال « كلوا » فالذي يخصص شرب دم الرب بالرسل وخلفائهم يجب عليهِ ضرورةً ان يخصص اكل جسده ببعض الرسل دون خلفائهم اذ لم يقل « كلوا كلكم » كما قال « اشربوا كلكم » . ولا يخفى ان اوامر الرب للكنيسة كانت تُلقَى على مسامع الرسل رأسًا . لان الكنيسة كانت في ذلك الوقت مؤلفة من الرسل وحدهم . ومع ذلك ليس من المؤمنين من يدَّعي ان جميع وصايا الرب واقوالهُ التي كان يلقيها على الرسل كانت

(١) المجمع التريدنتيني جلسة ٢١ (٢) بروس ٩٦١ , ٩٩

مختصةً بهم وحدهم . بل نرى في الاناجيل الشريفة اقوالاً كثيرةً موجهةً في ظاهرها الى الرسل القديسين وهي في الحقيقة تعمُّ جميع المسيحيين بوجه الاجمال (١) . ولكي نزيد البابويين تأكيدًا ان كانوا حقيقةً لم يتأكدوا الى الآن ان وصية الرب بأكل جسدهِ وشرب دمهِ لم تكن مختصةً بالرسل وحدهم بل تشمل جميع المؤمنين بلا استثناء نبحث كيف فهم الرسل انفسهم قول المخلص .

فاننا نرى ان الرسل القديسين بالهامهم من الروح القدس خصصوا لانفسهم ولخلفائهم دون غيرهم وصية الرب حيث تتعلق بتتميم سرّ الشكر وانهم عمّموا لجميع المؤمنين وصية الرب حيث تتعلق بالاشتراك بالسرّ تحت الشكلين . فكانوا يتممون هذا السرّ تحت الشكلين ويامرون جميع المؤمنين ان يشتركوا بهِ تحت الشكلين ايضًا . وهذا واضحٌ من اقوال القديس بولس حيث يقول لكل مسيحيّ على الاطلاق « فليختبر « الانسان » نفسهُ وهكذا فليأكل من الخبز » وليشرب من الكاس » لان من يأكل و « يشرب » وهو على خلاف الاستحقاق انما يأكل ويشرب دينونةً لنفسهِ اذ لم يميز جسد الرب » (٢) . فهنا مع كونهِ قال فليختبر « الانسان » واشار بلفظة « الانسان » الى كل مسيحيّ على الاطلاق لم يقل فليأكل فقط بل « فليأكل من الخبز وليشرب من الكاس » . وفي محلٍ آخر وهو يحذر الكورنثيين من الاعباد الوثنية يقول « اقول لكم كالحكماء واحكموا انتم فيما اقول . كاس البركة التي « نباركها » أليست هي شركة دم المسيح ؟

(١) يو ١٤ : ١ — ٢٤ (٢) ١ كو ١١ : ٢٨ و ٢٠ و ٢١ و ٢٦ و ٢٧

والخبز الذي «نكسره» أليس شركة جسد المسيح هو ؟ . . . لكم لا تستطيعون ان تشربوا كاس الرب وكاس الشياطين »[1]. وهنا ايضاً لما ذكر ما يخص الرسل اعني السلطان في تميم السر قال «التي نباركها والذي نكسره» ولم يقل الذي تكسرونه والتي تباركونها . ولكن لما ذكر شرب الكاس قال «ان تشربوا كاس الرب» ولم يقل «ان نشرب» وهكذا قال في محلٍ آخر «فانكم كلما اكلتم هذا الخبز وشربتم هذه الكاس تخبرون بموت الرب»[2] ولم يقل كلما شربناها . فمن هذه الاقوال يتضح ان الرسل فهموا اقوال الرب بشرب الكاس عامة لجميع المؤمنين خلافاً لدعوى البابويين .

ثالثاً ان عمل الكنيسة المسيحية القديمة التي تبعت بلا ريب تقليدات الرسل انفسهم بلا ريغانٍ يدحض دعوى البابويين . وعندنا على ذلك شهود صادقون يوستينوس[3] وايريناوس[4] وترتليانوس[5] وكبريانوس[6] وكيرلُس الاورشليمي ويوحنا الذهبي الفم وغيرهم[7] . فهم يعترفون صريحاً

(١) اكو ١٠ : ١٥ و١٦ (٢) ١١ : ٢٦ (٣) قال في احتجاجه ١ : ٨٥ «وبعد ان يتمم الخادم الشكر ويقول الشعب «آمين» يناول الشمامسة جميع الحاضرين من الخبز والخمر والماء ويحفظون جزءاً من التقدمة للغائبين » (٤) ضد المراطقة ٤ : ١٨ : ٥ و٥ : ٢ (٥) في قيامة الاموات فصل ٨ (٦) رسالة ٥٤ حيث يقول «اننا نحثهم ونحرضهم على الجهاد ولا نتركهم بلا سلاح بل نحصنهم بالسلاح الكامل وهو جسد «ودم» المسيح . . لاننا كيف نعلمهم او ندعوهم الى الاعتراف باسمه ان يهرقوا دمهم اذا كنا لا نمنح دم المسيح للمجاهدين عنه ؟ » (٧) كيرلُس في الاسرار ٤ : ٣ و٦ ويوحنا الذهبي الفم مقالة ٨٢ : على متى وامبروسيوس في الاسرار ٨ : ٥٨

بان جميع المسيحيين سوآءٌ كانوا اكليروسيين او من الشعب كانوا يتناولون الشكلين . ويشهد في ذلك ايضاً بعض من البابوات انفسهم اذ يقولون ان اشتراك بعض المسيحيين بجسد المسيح دون دمهِ كان يُحسب اهانةً عظيمةً للقرابين المقدسة اذ يجعل انقساماً في السرّ الواحد نفسهِ . ولذا فقد كان ذلك ممنوعاً بكل صرامةٍ . فمن هولآء البابوات البابا لاون الكبير في القرن الخامس . فانه في احدى عظاتهِ في الصوم الكبير قال في هولآء المسيحيين لسامعيهِ «انهم يتناولون بافواهٍ غير مستحقةٍ جسد يسوع المسيح لكنهم يتعدون كلَّ البعد عن دم افتدائنا فنذكر ذلك على علمٍ من قدسكم لكي يصير هولآء معروفين عندنا ويُكشَف رياؤهم الثالم الالهيات ويمنعوا عن الاشتراك بالقدسات »[1]. والبابا جلاسيوس في القرن الخامس ايضاً كتب هكذا « قد اتضح لنا ان بعضاً من المسيحيين يتناولون جسد المسيح الالهي لكنهم يتعدون عن كاس الدم الالهي . ولا نعلم لاي سببٍ يعملون هذا . فنأمر اذن انهُ يجب على الجميع ان يشتركوا بالسرّ المقدس كاملاً والاّ فليكن الذين مثل اولئك غير مقبولين فيه لان قسمة السرّ الواحد غير ممكنة من دون حصول اهانةٍ عظيمةٍ للموضوعات المقدسة والاشيآء الشريفة »[2].

رابعاً المؤلفون الرومانيون انفسهم يؤكدون ان كنيسة الغرب كانت في القرون الاولى الاثني عشر تمنح الشركة لجميع المسيحيين

(١) خطاب ٤

(٢) Apup gratianum Dec.111;.de consecr . 212.

تحت الشكلين مثل كنيسة الشرق [1]. ثم يعتذرون بان الاسباب التي اضطرّت الكنيسة الغربية موخرًا لمنع الكاس عن الشعب لم تكن في تلك الاعصار [2]. ولكن اذا فحصنا هذه الاسباب نرى انها هي عينها كانت في القرون الاولى ايضاً [3]. وبما ان ذاك الاعتذار لا ينجح مع اللاتين يعتذرون بغيرهِ. فيقولون ان الكنيسة الغربية قد منعت استعمال الكاس بقرارٍ قاطعٍ عندما قامت في القرن الخامس عشر ارواحٌ ثائرة عليها ومقلقة لها اخذت ترشقها بنبالٍ قويةٍ وتوبخها على هذا النقص الصغير (على مذهب اللاتين) مصوِّرة اياهُ ضلالاً ثقيلاً جداً ومخالفةً وقحةً لوصية الرب الصريحة فضداً لهولآءِ المعنتين حكمت كنيسة الغرب بمنع الكاس قطعياً [4]. ولكن نحن نرى هذا العذر يفتح باباً لدعوى جديدةٍ على الكنيسة البابوية ويثبت عليها الضلال بدلاً من ان يرفعهُ عنها.

خامساً ان البابويين يستندون ايضاً في دعواهم على الحجتين الآتيتين: الاولى قولهم ان الكنيسة الشرقية والغربية منذ القرون القديمة

(1) Bona, Rer liturg ll: c: 18 l : c: 19 cf: Ru estok, Hist eccles N lll p 225,

(١) المجمع التريدنتيني جلسة ٢١ في الشكر قسم ١ فصل ٢ قضية ٥ قانون ٢ وبيرونيوس في مقدمات اللاهوت (٢) ان اهم الاسباب التي يعتذر بها اللاتين هي اولاً الخوف من ان ينصبّ الدم . ثانياً صعوبة احضارهم اياهُ للمرضى في الاقاليم الحارة والباردة . ثالثاً قلة الخمر في بعض الاماكن . رابعاً اشمئزاز البعض طبعاً من شرب الخمر . فليتامل العاقل الحكيم هذه الاسباب وليقابلها على اهمية الموضوع . . . . . (٤) هذا العذر مذكور في بيرون . في سر الشكر: ٢١٥

تقيمان في ايامٍ معينةٍ من السنة خدمة القرابين السابق تقديسها (البروجيازمانا) تحت شكل الخبز وحده [1] فعلى ذلك نجيبهم ان دعواهم هذه ايضاً باطلة ولا صحة لها لان سرّ الشكر في هذه الخدمة لا يقام تحت شكلٍ واحدٍ بل تحت الشكلين المتحدين . لان الكاهن خادم الاسرار عندما يرفع القدسات السابق تقديسها باخذ من الكاس ويضع في الجسد المكرَّم بحسب ترتيب الكنيسة المقدسة فتكون القدسات تحت الشكلين المتحدين لا تحت شكلٍ واحدٍ حسب دعوى اللاتين.

والثانية قولهم ان الكنيسة توزع على الذين في حال المنازعة شركةً من الذخيرة يتزودون بها في خروجهم من الحياة تحت شكلٍ واحدٍ وهو الخبز وانهُ في قرون الدين المسيحي الاولى كان المومنون يحملون احياناً معهم الى البيوت الاسرار المقدسة وبعضهم ياخذونها في الاسفار والنساك الى البراري فكانوا يشتركون تحت شكل الخبز فقط [2]. فنجيبهم هنا ايضاً بما سبق وهو ان الكنيسة المستقيمة الراي كانت ولم تزل الى اليوم تناول الشركة المقدسة المرضى تحت الشكلين معاً اي تحت شكل الخبز المقدس ممزوجاً بالخمر المقدسة وهي تقدس تلك القدسات يوم الخميس العظيم وتحفظها على مدار السنة كلها . وعلى هذه الصورة كان بعض المسيحيين ياخذون من رعاة الكنيسة الاسرار المقدسة ويحملونها الى بيوتهم وبعضهم في الاسفار والبعض الى البراري للاشتراك بها . وعندنا شهاداتٌ واضحةٌ جداً

(١) بيرون ٤١ : ٢ (٢) انظر المحل السابق نفسهُ

تبرهن ان سرّ الشكر كان يناوَل للمشرفين على الموت تحت الشكلين كما ذكر القديس يوستينوس[1] بل المولفون الغربيون انفسهم يشهدون بصريح العبارة ان المسيحيين كانوا يحملون الاسرار المقدسة معهم في الاسفار والبراري تحت الشكلين كليهما . فالكردينال بارون المورخ يقول « ان غريغوريوس « بابا رومية » قال ان المسافرين يحملون معهم جسد المسيح « ودمهُ »[2] والكردينال بونا يشهد نفس الشهادة في النساك[3] ويذكر مثال مريم البارة المصرية التي كانت تشترك من ايدى القديس زوسيما بجسد المسيح و« دمهِ »[4]

واخيراً يورد البابويون عادةً للكنيسة بانها تناول الاولاد الصغار تحت شكل الدم المقدس فقط[5] لكنهم بذلك يفترون على الكنيسة التي لا تعرف تلك العادة ويظهر انهم يجهلون ان الكنيسة المستقيمة الراي تناول الاولاد الصغار من الكاس المقدسة التي فيها كلا النوعين اي جسد الرب ودمهُ متحدين معاً وهكذا تناول الشعب من الكاس لا دماً فقط بل جسداً ودماً معاً . فجميع اعتراضات البابويين اذن ساقطة ومناولة الشعب جسد الرب ودمهُ واجبة والذي يخالف يسقط في ضلالٍ مبين .

٢ . الذين يتناولون باستحقاق سرّ الشكر الالهي ينالون به

(١) يوستينوس في احتجاجهِ الاول فصل ٨٥ (٢) تاريخهُ خطاب ٣ فصل ٣٦ (٣) في اخذه ٢ : ١٨ : ١١ (٤) راجع السنكسار
(٥) بارون قسم ١ فصل ٣

اثماراً خلاصيةً .

اولاً لان المناولة المقدسة تربط المتناولين باستحقاقٍ مع الرب رباطاً وطيداً كما قال مخلصنا « من ياكل جسدي ويشرب دمي يثبت فيَّ وانا فيهِ »[1] فبتناولنا اذن جسد الرب ودمهُ نصير كما يقول آباء الكنيسة اعضاء جسدهِ وحاملي المسيح ومشاركي طبيعتهِ الالهية[2] .

ثانياً لان الشركة الالهية تغذّي اجسادنا ونفوسنا وتساعدنا على الثبات والتقدُّم والنجاح والكمال في الحياة الروحية . وقد قال المخلص « ان جسدي ماكلٌ حقيقيٌّ ودمي مشربٌ حقيقيٌّ » . وبعد ذلك يقول « كما ارسلني الآب الحيُّ وانا حيٌّ بالآب فالذي ياكلني فذاك يحيا بي ايضاً »[3] فاذا كان القوت العادي يغذي الجسد ويقويهِ طبيعياً ويعيد اليهِ قواهُ المنحلَّة ويمنحهُ دقائق جديدةً حيويةً ويساعدهُ على النموّ وطول الوجود فاحرى بنا ان نرجو هذه الاثمار الخلاصية لاجسادنا وخصوصاً لنفوسنا من الغذاء الالهي السماوي الذي نُناوَلهُ باستحقاق في سرّ الشكر وهذا الغذاء العجيب يجعلنا بنوعٍ غير منظورٍ متحدين مع المسيح الذي هو ينبوع الحياة والنعمة والمعطي كل خيرٍ ماديٍّ وروحيٍّ لنا منهُ حياةٌ وتقوى حسب قول الرسول[4] .

وآباء الكنيسة القديسون بنوعٍ خصوصيٍّ يعلِّمون ان سرّ الشكر

(١) يو ٦ : ٥٧ (٢) كيرلّس الاورشليمي في الاسرار ٤ : ٣ ويوحنا الدمشقي في الايمان ٤ : ١٣ ومكسيموس اعتراف الاسرار فصل ٢١ (٣) يو ٦ : ٥٦ – ٥٨
(٤) ٢ بط ١ : ٣

لكونهِ غذآء خلاصياً يقوي الجسد ويغذيهِ[1] ويغذي النفس ايضاً[2] ويقويها[3] ويحييها[4] ويشفي الضعف الادبي منقياً النفس من الخطايا[5] ويقدس النفس والجسم[6] ويجعلنا غير متزعزعين وغير مغلوبين في جهاداتنا في سبيل التقوى ضد اعدآء خلاصنا[7]

ثالثاً لان الشركة الالهية بمثابة عربونٍ لقيامتنا المستقبلة وللغبطة الابدية كما قال مخلصنا « مَن ياكل جسدي ويشرب دمي لهُ حياةٌ ابديةٌ وانا اقيمهُ في اليوم الاخير . . . مَن ياكل هذا الخبز يحيا الى الابد[8]» وقد قال الآبآء القديسون ايضاً في سرّ الشكر انهُ دوآءٌ لعدم الموت وحرزٌ ضد الموت وتثبيتٌ للحياة الابدية بيسوع المسيح[9] وان اجسادنا بعد اشتراكها بالشكر الالهي لا تبقى فاسدةً بل يكون لها رجآء القيامة للحياة الابدية[10] وقالوا ايضاً ان المقصد الاصلي من الاشتراك

---

(١) يوحنا الذهبي الفم على متى مقالة ٤ : ٩ و يوحنا الدمشقي ٤ : ١٣ (٢) يوستينوس في احتجاجو الاول : ٦٥ و يوحنا الذهبي الفم على يوحنا مقالة ٤٥ : ٢ وكيرلس الاسكندري كتاب ١٢ (٣) كبريانوس رسالة ٥٤ و يوحنا الذهبي الفم مقالة ٤٦ : ٢ وامبروسيوس ٨ : ٥١ (٤) امبروسيوس على مز ٤٢ وكيرلس الاسكندري على يوحنا ٤ : ٢٦ (٥) مجمع ترولس قانون ٣٨ وامبروسيوس في الاسرار ٤ : ٦ : ٢٨ و٥ : ٢ : ١٧ (٦) كبريانوس رسالة ٦٢ وكيرلس الاورشليمي في الاسرار ٤ : ٦ ومجمع ترولس قانون ٣٢ و١٠١ (٧) كبريانوس رسالة ٥٤ و يوحنا الذهبي الفم على ١ كو مقالة ٢٤ (٨) يو٦ : ٥١ – ٥٩ (٩) اغناتيوس رسالة لاهل ازمير : ٣ (١٠) ايريناوس ضد الهرطقات ٤ : ١٨ : ٤ و٥ و يوستينس احتجاج ١ : ٦٦ واكليمنضُس الاسكندري في المربي ١١ : ٢ وغريغوريوس النيسي في تعليمهِ ٢٧

بالاسرار الطاهرة هو الاشتراك بالحياة الابدية[1]

٤ مع ذلك يجب ان لاننسى ايضاً ان سرّ الشكر الالهي ياتينا بثمار الخلاص المشار اليها اذا كنا نتقدم الى مائدة الرب السماوية باستحقاقٍ بعد الاستعداد اللائق . لكننا ان تجاسرنا ان نتقدم اليها على خلاف الاستحقاق فحينئذٍ يقتضي منا اكل جسد الرب وشربنا دمهُ جزآء ثقيلاً جداً . وقد قال « ان كل من ياكل هذا الخبز او يشرب دم الرب وهو على خلاف الاستحقاق فانهُ يكون مجرماً لجسد الرب ودمهِ . . . لان من ياكل ويشرب على خلاف الاستحقاق فانما ياكل ويشرب دينونةً لنفسهِ اذ لم يميز جسد الرب »[2]

هذا هو التعليم الذي حفظتهُ الكنيسة المستقيمة الراي وهذا هو السبب الذي يجعلها ان تطلب من اولادها استعداداً لكي يتناولوا باستحقاقٍ جسد يسوع المسيح ودمهُ وان تمنع عن الشركة الالهية جميع غير المستحقين[3]

الفصل السابع

في سرّ الشكر من حيث هو ذبيحةٌ وفيهِ قسمان

القسم الاول

في ان سرّ الشكر ذبيحةٌ حقيقيةٌ

ايمان الكنيسة ١ . ايضاحهُ من تعليم المخلص ٢ . من تعليم الرسل ٣ . من الملافنة ٤ . من تعليم الكنيسة اليوم اعني من الخدم والمجامع والآبآء .

---

(١) امبروسيوس كتاب ١٠ : ٤٩ (٢) ١ كو١١ : ٢٧ – ٢٩ (٣) رسالة بطاركة الشرق ١٧

ان الكنيسة المستقيمة الراي تومن وتعترف بان سرّ الشكر الالهي ليس سرًّا فقط بل هو ذبيحة ايضًا حقيقةٌ فعليةٌ . يعني ان جسد المخلص ودمهُ يُناوَلان للمومنين في الشكر الالهي غذآءً خلاصيًا ويقدمان لله ضحيةً [1] وهي ترفض رأي البروتستانت المضاد لهذا التعليم الصحيح [2] وتؤيد تعليمها بما يأتي من البراهين الدامغة

١ . فان مخلصنا يسوع المسيح نفسهُ قد علم تلك الحقيقة . لانهُ في اقوالهِ النبوية عن تسليمهِ سرّ الشركة اوضح اولاً ان الشركة سرٌّ وغذآءٌ خلاصيٌّ للانسان حيث قال « ان كل احدٍ من هذا الخبز يحيا الى الابد» ثم قال حالاً « والخبز الذي انا ساعطيهِ هو « جسدي الذي ساعطيهِ انا» من اجل حياة العالم » [3] فهنا قد صرّح الرب بان الخبز هو الجسد نفسهُ الذي سيبذلهُ اعني ان هذا السرّ الخلاصي هو ذبيحة غفرانٍ امام الله . وعند تسليمهِ سرّ الشكر لم يكتفِ بقولهِ « خذوا كلوا هذا هو جسدي» بل اضاف الى ذلك قولهُ « الذي يُعطَى من اجلكم » وكذلك لم يكتفِ بقولهِ « اشربوا منهُ كلكم هذا هو دمي الذي للعهد الجديد » بل اضاف اليهِ قولهُ « الذي « يُهرَق » عنكم وعن كثيرين لمغفرة الخطايا» فمن هنا نتاكد كل التاكيد ان الرب بفصلهِ دمهُ عن جسدهِ في سرّ الشكر الالهي وايضاحهِ بهذه الواسطة آلام جسدهِ على الصليب وانهراق دمهِ من

(١) اعتراف الرى القويم سوال ٧ ١

Luther . Captiv. Babyl. [illegible] fol. 283 Ca[illegible], Instit IV, 18. n 1 Zwingl . de canon . missae epichir [illegible] III p. 100, ed Schul et Schult

[illegible] يو ٦ [illegible]

جنبهِ الطاهر يعلّمنا ان هذا السرّ المُتمّ تذكارًا لذبيحة الاستغفار التي تقدمت على الجلجلة هو عينهُ ذبيحة حقيقية فعلية ايضًا .

٢ . ان الرسل القديسين ايضًا قد علموا هذه الحقيقة على هذا المعنى نفسهِ . فبولس المغبوط كتب الى مسيحيي كورنثس لكي يحفظهم من عبادة الاوثان هكذا « انظروا اسرائيل الجسدي . أليس الذين يأكلون الذبائح هم شركآءَ المذبح ؟ فماذا اقول ؟ أإنّ الوثن شيءٌ اوان ما يُذبَح للوثن شيء بل ان الذي تذبحهُ الامم انما تذبحهُ للشياطين لا لله فلا اريد ان تكونوا شركآءَ الشياطين . انكم لا تستطيعون ان تشربوا كاس الرب وكاس الشياطين ولا تستطيعون ان تشتركوا في مائدة الرب ومائدة الشياطين » [1] . ففي هذه الآية يقابل رسول الامم مائدة الرب اي مذبح المسيحيين بمائدة الشياطين اي مذبح الامم الذي كانت تُقدَّم عليهِ ذبائحُ حقيقية اسمًا وان تكن في حقيقتها رجسة وغير مقبولة وبذلك يؤكد ان ما يُقدَّم على مذبح المسيحيين ايضًا في سرّ الشكر الالهي هو ذبيحة حقيقية امام الله . وهذا الرسول نفسهُ في رسالتهِ الى العبرانيين يمنع المؤمنين عن الذبائح اليهودية التي كانت فقدت اهميتها ورتبتها كلها بعد مجيء المسيح ويكتب اليهم هكذا « لنا مذبحٌ لا سلطانَ للذين يعبدون الخيمة ان يأكلوا منهُ » [2] . فبمقابلتهِ إذن مذبح العهد الجديد بمذبح العهد القديم الذي كان الاسرائيليون يقدمون عليهِ ذبائح حقيقيةً كانوا يأكلون منها يثبت بان المسيحيين يقدمون لله على مذبحهم ذبيحة حقيقية ولهم وحدهم السلطان

(١) ١ كو ١٠: ١٨–٢١ (٢) عب ١٣: ١٠

ان الكنيسة المستقيمة الراي تومن وتعترف بان سرّ الشكر الالهي ليس سرًّا فقط بل هو ذبيحة ايضًا حقيقة فعلية . يعني ان جسد المخلص ودمهُ يتناولان للمومنين في الشكر الالهي غذآءً خلاصيًا ويقدمان لله ضحية [1] وهي ترفض راي البروتستانت المضاد لهذا التعليم الصحيح [2] وتؤيد تعليمها بما يأتي من البراهين الدامغة

١ . فان مخلصنا يسوع المسيح نفسهُ قد علم تلك الحقيقة . لانهُ في اقوالهِ النبوية عن تسليمهِ سرّ الشركة اوضح اولاً ان الشركة سرٌّ وغذآءٌ خلاصيٌّ للانسان حيث قال « ان كل احدٍ من هذا الخبز يحيا الى الابد » ثم قال حالاً « والخبز الذي انا ساعطيهِ هو « جسدي الذي ساعطيهِ انا » من اجل حياة العالم » [3] فهنا قد صرّح الرب بان الخبز هو الجسد نفسهُ الذي سيبذلهُ اعني ان هذا السرّ الخلاصي هو ذبيحة غفرانٍ امام الله . وعند تسليمهِ سرّ الشكر لم يكتفِ بقولهِ « خذوا كلوا هذا هو جسدي » بل اضاف الى ذلك قولهُ « الذي يُعطَى من اجلكم » وكذلك لم يكتفِ بقولهِ « اشربوا منهُ كلكم هذا هو دمي الذي للعهد الجديد » بل اضاف اليهِ قولهُ « الذي « يُهرَق » عنكم وعن كثيرين لمغفرة الخطايا » فمن هنا تاكد كل التاكيد ان الرب بفصلهِ دمهُ عن جسدهِ في سرّ الشكر الالهي وايضاحهِ بهذه الواسطة آلام جسده على الصليب واهراق دمهِ من

(١) اعتراف الراي القويم سوال ٧ ١

Luther . Captiv. Babyl. t. II fol. 283 Calvin, Instit. IV,18, p. 1 Zwingl . de canon . missae epichir vol. III p. 100, ed Schul. et Schult

(٣) يو ٦ : ٥١

جنبهِ الطاهر يعلّمنا ان هذا السرّ المُقام تذكارًا لذبيحة الاستغفار التي تقدمت على الجلجلة هو عينهُ ذبيحة حقيقية فعلية ايضًا .

٢ . ان الرسل القديسين ايضًا قد علموا هذه الحقيقة على هذا المعنى نفسهِ . فبولس المغبوط كتب الى مسيحيي كورنثُس لكي يحفظهم من عبادة الاوثان هكذا « انظروا اسرائيل الجسدي . أليس الذين يأكلون الذبائح هم شركآء المذبح ؟ فماذا اقول ؟ أإنّ الوثن شيءٌ او ان ما يُذبَح للوثن شيءٌ . بل ان الذي تذبحهُ الامم انما تذبحهُ للشياطين لا لله فلا اريد ان تكونوا شركآء الشياطين . انكم لا تستطيعون ان تشربوا كاس الرب وكاس الشياطين ولا تستطيعون ان تشتركوا في مائدة الرب ومائدة الشياطين » [1] . ففي هذه الآية يقابل رسول الامم مائدة الرب اي مذبح المسيحيين بمائدة الشياطين اي مذبح الامم الذي كانت تُقدَّم عليهِ ذبائحُ حقيقية اسمًا وان تكن في حقيقتها رجسةً وغير مقبولةٍ وبذلك يؤكد ان ما يُقدَّم على مذبح المسيحيين ايضًا في سرّ الشكر الالهي هو ذبيحة حقيقية امام الله . وهذا الرسول نفسهُ في رسالتهِ الى العبرانيين يمنع المؤمنين عن الذبائح اليهودية التي كانت فقدت اهميتها وقوتها كلها بعد مجيء المسيح ويكتب اليهم هكذا « لنا مذبحٌ لا سلطانَ للذين يعبدون الخيمة ان يأكلوا منهُ » [2] . فبمقابلتهِ إذن مذبح العهد الجديد بمذبح العهد القديم الذي كان الاسرائيليون يقدمون عليهِ ذبائح حقيقةً كانوا يأكلون منها يثبت ان المسيحيين يقدمون لله على مذبحهم ذبيحة حقيقية ولو وحدها السلطان

(١) ١ كو ١٠ : ١٨ — ٢١ (٢) عب ١٣ : ١٠

ان يأكلوا منها ·

٣٠ ثم ان ذبيحة العهد الجديد كان ملاخيا النبي قد اخبر بها اليهود بواسطة الذبيحة القديمة حيث قال «ليست لي ارادة بكم يقول الرب الضابط الكل ولن ارضى ذبيحة من أيديكم لانهُ من مشرق الشمس الى مغربها اسمي مجدٌ في الامم وفي كل مكانٍ يُقدَّم بخورٌ لاسمي وذبيحةٌ طاهرةٌ لان اسمي عظيمٌ في الامم يقول الرب الضابط الكل»[1]. فواضحٌ هنا ان النبي يتكلم عن ذبيحةٍ جديدةٍ طاهرةٍ ومرضيةٍ لله · ولكن اية هي هذه الذبيحة؟ اننا لا نستطيع ان نقول ذبائح اليهود التي يصفها النبي بانها مرذولةٌ وغير مرضيةٍ امام الله وهي محصورةٌ ضمن تخوم اليهودية الضيقة · ولا يمكننا ايضاً ان نقول ذبائح الامم التي ليس لها اعتبارٌ البتة في الكتب المقدسة لكونها دنسةً ورذالةً عند الله وغير طاهرةٍ · ولا يمكننا ايضاً ان نظن بان النبي يعني الذبيحة الروحية التي يذكرها المرتل الالهي في زبوره[2] بما ان هذه الذبائح قدَّمها لله في اوقاتٍ متعددةٍ رجالٌ صديقون واتقياء منذ تأسيس العالم فالنبي ملاخيا اذن يخبر عن ذبيحةٍ جديدةٍ لم تكن قبلاً وعن ذبيحةٍ منظورةٍ مُدرَكةٍ بالحس ومُقدَّمةٍ لان تبطل الذبائح اليهودية وتحلّ محلها بوجهٍ كاملٍ. ولا يمكننا ايضاً ان نظن ان النبي يعني تلك الذبيحة السامية الكلية النقاوة والمرضية لله التي قدَّمها المخلص عن خطايا العالم على الصليب · لان هذه الذبيحة تقدمت في مكانٍ واحدٍ فقط وهو الجلجلة والنبي يخبر عن ذبيحةٍ طاهرةٍ مزمعةٍ ان تُقدَّم في كل مكانٍ على الارض · فلا يبقى اذن سوى ان نعترف

(١) ملا ١ : ١٠ ـ ١١ (٢) مز ٥٠ : ١٩

مع الآباء القديسين[1] بان النبي يوجه كلامهُ هنا بنوعٍ خصوصيٍ الى سرّ الشكر لانهُ في الحقيقة هو ذبيحةٌ جديدةٌ[2] طاهرةٌ ومرضيةٌ لله لا تُقدَّم في هذا او ذاك المكان فقط بل في كل مكانٍ على الارض ·

٤٠ على ان الكنيسة المقدسة الجامعة ايضاً قد علَّمت دائماً ان سرّ جسد يسوع المسيح هو ذبيحةٌ حقيقيةٌ وفقاً لما تعلَّمتهُ من تلاميذ الكلمة الاطهار الذين رأوا وشهدوا وشهادتهم هي الحق · وتعليمها واضحٌ اولاً في الخِدَم الشريفة كلها التي فيها تعترف الكنيسة امام الله على مسمعٍ من الجميع انها تقدم لهُ على المذبح المقدس الذبيحة الناطقة وغير الدموية من قِبَل جميع الشعب وعن جميعهم حيث تقول «التي لك مما لك نقدمها الك على كل شيء ومن جهة كل شيء» · ثانياً هذا التعليم واضحٌ ايضاً في شهادات المجامع المسكونية · منها القانون الثامن عشر من المجمع الاول المسكوني الذي يصرح هكذا «على المائدة المقدسة يوضع حمل الله الرافع خطايا العالم[3] ويُذبَح من خدام الله ذبيحةً غير دمويةٍ» · والمجمع الثالث المسكوني الملتئم في أفسس يقول هكذا «اننا نقدم في الكنائس الذبيحة غير الدموية وهكذا نلمس الاسرار المقدسة والمباركة ونتقدس باشتراكنا بالجسد المقدس جسد المسيح مخلص العالم كلهِ وبدمهِ الكريم»[4]. ومجمع ترولُس يقول «بما اننا علمنا ان بعضاً من خدام المذبح في كنائس متفرقة

(١) ايريناوس ضد الهراطقة ٤ : ١٧ : ٥ ويوستينوس في خطابه مع تريفُن ١ : ٤١ وايبوليطُس في المواهب : ٢٦ واوسابيوس في البرهان الانجيلي ١ : ١٠ ويوحنا الفم ضد اليهود خطاب ٥ : ١٢ وثاودوريطوس على ملاخيا ١ : ١١ (٢) ا كو ١١ : ٢٥ ـ ٢٦ (٣) يو ١ : ٢٩ (٤) مجمع افسس قسم ٢ جلسة ١

يقدِم الى المذبح عنبًا بحسب عادةٍ تملكت عندهم وان خدام المذبح يمزجون مع ذبيحة القربان غير الدموية عنبًا من العنب الذي جرت العادة عندهم ان يقدموهُ الى المذبح وهكذا يوزعون كليهما معًا على الشعب فقد اجمعنا على ان لا يصنع احدٌ من الكهنة هذا الامر فيما بعد بل يناول الشعب من القربان وحدهُ للحياة ولغفران الخطايا. واما العنب فيجب ان يحسب الكهنة تقدمةً بكور اثمارٍ فيباركونهُ على حدةٍ ويوزعون منهُ على الطالبين»[1] ومجمع تبقية المسكوني الثاني يقول «لا الرب ولا الرسل ولا الآباءُ سموا «الذبيحة غير الدموية» المقدسة من الكهنة «صورةً» بل هم يسمونها دائمًا جسد الرب نفسهُ ودم الرب نفسهُ[2]» واخيرًا يتضح تعليم الكنيسة في شهادات آبائها ومعلميها الكثيرة. فمنها شهادة القديس اغناطيوس المتوشح بالله حيث يقول «ان جسد الرب يسوع واحدٌ هو ودمهُ المهرَق عنا واحدٌ خبزٌ واحدٌ كُسِرَ وكأسٌ واحدةٌ وُزِعت للجميع «ومذبحٌ واحدٌ لكل الكنيسة»[3]

والقديس يوستينوس يقول «نقدم باسمهِ «ذبيحةً» قد أمرَ الرب يسوع ان تُقدَّم وذلك في شكر الخبز والكاس «ذبيحةً» مقدَّمةً من المسيحيين في كل مكانٍ على الارض «ذبيحةً» طاهرةً ومرضيةً لله»[4]

والقديس ايريناوس يقول «ان المسيح علَّمنا «ذبيحةً» جديدةً للعهد

(١) قانون ٢٨ و٣ و٣٢ (٢) اعال المجمع عمل ٦ (٣) رسالة لاهل فيلادلفيا فصل ٤ والى اهل مغنيسا فصل ٨ والى افسس ٥ (٤) ملاخيا ١ : ١٠ ويوستينوس في خطابهِ مع تريفن ١١٧ و١٦

الجديد. فالكنيسة تسلمتها من الرسل وتقدمها في كل المسكونة بموجب نبوة احد الانبياء الاثني عشر وهو ملاخيا حيث يقول «لا ارادة لي بكم الخ»[1] وينادي بان الشعب الاوَّل (اي اليهود) سيكفُّ عن ان يقدم لله ذبائح وانهُ في كل مكانٍ ستقدم ذبيحةٌ طاهرةٌ لاسمهِ المجيد في الامم»[2].

والقديس ايوليطس يقول «اننا من بعد صعود المخلص نقدم بحسب وصيتهِ «ذبيحةً» طاهرةً وغير دمويةٍ»[3].

والقديس كبريانوس يقول «ان دم المسيح لا يقدَّم ما لم يكن شيءٌ في الكأس خمرٌ. وتقديس «ذبيحة الرب» لا يتمُّ قانونيًا ما لم يكن «قربانتنا وذبيحتنا» مطابقين لآلامهِ... لانهُ اذا كان الهنا ومخلصنا يسوع المسيح وهو رئيس الكهنة العظيم للاله الآب قد قدَّم نفسهُ ضحيةً للآب وامرنا ان نصنع ذلك لذكرهِ فلا يتمّ الكاهن على الحقيقة عمل المسيح ما لم يعمل كما عمل يسوع المسيح نفسهُ اعني ان يقدِم في الكنيسة للاله الآب «الذبيحة الحقيقية بتمامها» تابعًا في ذلك مثال المخلص نفسهِ»[4].

والقديس غريغوريوس يقول «لان المدبر كل شيءٍ بحسب سلطانهِ السيدي لم ينتظر الاضطرار الناتج عن الخيانة ولا هجوم اليهود اللصي ولا محاكمة بيلاطس الخارجة عن الشريعة كي لا يكون شر هولاءِ بدء الخلاص الناس العام وعلةً لهُ. لكنهُ بتدبيرهِ قد سبق هجومهم وهو [illegible]

(١) ١ : ١٠ — ١١ (٢) ضد الهراطقة ٤: ١٧: ٦ و٨ و٤ (٣) [illegible] المواهب فصل ٢٦ (٤) رسالة ٤٣

ذاته بعمل التقديس الذي لا يُنطق بهِ وغير المنظور من البشر «قرباناً وذبيحة عنا» اذ هو كاهنٌ معاً وحمل الله الرافع خطية العالم . وان سألت : متى كان هذا ؟ فاجيبك : انهُ كان عندما جعل جسدهُ ماكلاً بصريح العبارة واعطاهُ للاكل وصارت ذبيحة الحمل كاملة . لانهُ لو كان الجسد ذا روحٍ لما كان ضحيةً تصلح للاكل . فلما منح تلاميذهُ ان ياكلوا جسدهُ ويشربوا دمهُ «ضحى جسدهُ» بوجهٍ لا ينطق بهِ وغير منظورٍ مدبراً هذا السرّ كما ارادت سلطتهُ»[1] .

والقديس يوحنا الذهبي الفم يقول : «ألسنا نحن نقدم كل يوم قرابين ؟ نعم نقدم ولكنا نصنع تذكار موتهِ . وهذه «الذبيحة» (التي كل يوم نقدمها) هي واحدةٌ لا اكثر . لانهُ قُدِم مرةً واحدةً مثل الذبيحة التي كانت تقدم الى قدس القديسين . وكما انهُ هو رسمٌ لتلك هكذا «هذه الذبيحة رسمٌ لها . لاننا دائماً نقدم حملاً واحداً نفسهُ ولا نقدم الآن خروفاً وغداً خروفاً آخر بل الحمل نفسهُ دائماً . «فالذبيحة» اذن هي واحدةٌ . او هل المسحاءُ كثيرون لان «الذبيحة» تقدَّم في محلاتٍ كثيرةٍ ؟ حاشا . لان المسيح واحدٌ في كل مكانٍ وهو هنا بكليتهِ جسداً واحداً . وكما انهُ يقدَم في اماكنٍ متعددةٍ ولا يزال جسداً واحداً لا اجساداً كثيرة هكذا «الذبيحة» ايضاً واحدةٌ هي»[2] .

---

(١) على قيامة المسيح خطاب ١ (٢) على العبرانيين مقالة ١٦ : ٣ وعلى كورنش الاولى ٢٤ : ٤ وعلى رسالة افسس ٣ : ٥ وخطاب ٣ : ٤ و ٤ : ٤ في الكهنوت .

وترتليانوس[1] واوسابيوس القيصري[2] وباسيليوس الكبير[3] وذيذيموس نطريرك الاسكندرية[4] وامبروسيوس[5] وايارونيموس[6] واوغسطينوس[7] وثاودوريطوس[8] وكيرلس الاسكندري[9] وآخرون كثيرون[10] يشهدون بكل صراحةٍ في هذا وفقاً لما تقدم وعليك بمراجعة شهاداتهم حسب الاشارات المذكورة هنا .

القسم الثاني

في نسبة هذه الذبيحة الى التي قُدّمت على الصليب وفي صفاتها

١ ان ذبيحة الصليب وذبيحة سرّ الشكر واحدة ٢ . الاوصاف الخصوصية لذبيحة السرّ ٣ . ذبيحة السرّ هي ذبيحة تسبيحٍ وشكر واستغفار ٤ . الغاية من ذكر الابرار والقديسين في الذبيحة ٥ قوة الذبيحة في الشفاعة .

١ . ان الذبيحة التي تقدم لله في سرّ الشكر هي في طبيعتها تلك الذبيحة نفسها التي قُدِمت على الصليب لان الذي يقدّم اليوم على

---

(١) في الصلاة : ١٤ حيث يقول «الاشتراك بالذبيحة» (٢) البرهان الانجيلي ١ : ١٠ و ٥ : ٣ وتاريخ الكنيسة ١ : ٨ (٣) رسالة ٩٨ «لان الكاهن متى تمم «الذبيحة» مرة واحدة الخ» (٤) في الثالوث ١١ : ٧ : ٨ «ان الله يقبل الذبيحة غير الدموية» الخ وعلى مزمور ٣٩ : ٧ (٥) في واجبات الكهنة ١ : ٤٨ : ٢٤٨ (٦) رسالة ١٤ «العجل المسمَّن الذي يذبح» الخامس عشر (٧) «هنا يقدم القس «ذبيحة جسد المسيح» في ملك الله ٢٢ : ٨ : ٦ واعترافات ٩ : ١٢ و ٢٨ (٨) على ملاخيا ١ : ١١ ومز ٩ : ٤ (٩) على حزقيال ... (١٠) اكليمنضس الاسكندري ٤ : ٢٥ طور يحانس على اللاويين ... كبريانوس رسالة لثاوفيلس الانطاكي ٧ واثناسيوس في الاحتجاج ضد الا ريوسيين ...

المذابح المقدسة هو حمل الله نفسهُ الذي قُدِّم في الجلجلة على الصليب لاجل خطايا العالم والجسد الطاهر نفسهُ الذي تألم في ذلك الوقت والدم الكريم نفسهُ الذي أُهرق وقتئذٍ . والذبيحة ايضاً التي تقام اليوم انما هي تلك الذبيحة السرّية نفسها التي قُدِّمت على الصليب ومقدمها انما هو رئيس الكهنة العظيم الابدي نفسهُ ايضاً . وكما ان المسيح كان على الصليب مقدَّماً ومقدِّماً هكذا هو اليوم ايضاً «المقرِّب والمقرَّب» معاً والضحية والمضحّي[1] وهو الفادي والمنقذ ومخلص العالم الوحيد . وقد قال يوحنا الذهبي الفم «ان رئيس كهنتنا العظيم قدَّم الذبيحة التي تطهرنا. ومن ذاك الوقت الى الآن نقدم نحن ايضاً هذه الذبيحة نفسها وهذه الذبيحة غير الفانية وغير النافذة هي نفسها ستُتمّ الى انقضاء الدهر حسب وصية المخلص «هذا اصنعوه لذكري»[2] . . . فبعملنا اذن تذكار تلك الذبيحة على الصليب نتمم الذبيحة التي تممها رئيس الكهنة العظيم نفسها»[3] وهذا التعليم علَّمهُ غريغوريوس النيصي وثاوذوريطوس وغيرهم[4] .

(١) انظر افشين الشار ويعقوب وامبروسيوس في بركة الاجداد : ٩ وعلى مز ٣٨ : ٢٥ واوغسطينوس في مدينة الله ١٠ : ٢٠ «وهو نفسه الكاهن المقدم وهو ايضاً القربان الذي صار سرّاً يومياً في الكنيسة» (٢) على خيانة يهوذا مقالة ١ : ٦ وعلى ٢ تي مقالة ٥ ومجمع ترولُّس قانون ٣ (٣) على عب مقالة ١٧ : ٣ (٤) غريغوريوس النيصي في قيامة المسيح خطاب ١ وثاودوريطوس على عب ٨ : ٥ حيث قال «اننا لا نقدم ذبيحة اخرى بل نتمم تذكار تلك الذبيحة الواحدة الخلاصية» واوغسطينوس رسالة ٩٨ : ٦ حيث قال «ان ذبح المسيح دفعة واحدة ؟

أ . غيران بين ذبيحة سر الشكر المقدس والذبيحة التي قُدِّمت على الصليب فرقاً بالنظر الى ظروفهما وطريقة تقديمها . فان الرب يسوع قدَّم لله على الصليب جسدهُ الكلي الطهر ودمهُ الكريم ذبيحة منظورة محسوسة . لكنهُ في سرّ الشكر لا يقدمهما حسياً بل تحت اشكال الخبز والخمر. هناك هو نفسهُ قدَّم الذبيحة الاستغفارية اذ هو رئيس الكهنة العظيم . وهنا هو ايضاً نفسهُ يقدِّم تلك الذبيحة عينها لكنهُ لا يعمل ذلك بوجه محسوس بل بواسطة رعاة الكنيسة . هناك قُدِّمت ذبيحة حقيقية بذبح الحمل وانهراق دمهِ على الصليب . لان الرب يسوع تألم آلاماً حقيقية واهرق دمه وذاق موتاً جسدياً . ولكن اليوم بما ان المسيح «قام من الاموات ولا يموت بعد ولا يسود عليهِ موت»[1] تقدَّم الذبيحة في سرّ الشركة باستحالة سرية وهي استحالة الخبز والخمر بالروح القدس الى جسد يسوع المسيح ودمه[2] الكريم بلا آلام ولا هرق دم ولا موت . ولذا قد سميت هذه الذبيحة «الذبيحة غير الدموية»[3] وان كانت لتذكار آلام حمل الله وموته . ثم بذبيحة الصليب حصل الخلاص لكل الجنس البشري ووُفِّيَ عدل الله لجهة خطايا العالم باجمعهِ . واما الذبيحة غير الدموية فانها تستعطف الله ليصفح عن خطايا الذين قدِّمت لاجلهم على الخصوص وتأتيهم بالثمار الخلاصية اذا تقدموا الى تناولها باستحقاق . واخيراً نقول ان ذبيحة الصليب قُدِّمت عن الجنس البشري كلهِ مرة واحدة فقط في الجلجلة . ولكن الذبيحة

واحدة . لكنهُ في سر الشكر ليس في جميع اعياد الفصح فقط بل كل يوم ايضاً يذبح الشعب والذي يسأل ويجاوب ان المسيح يذبح لا يكذب البتة» (١) رو ٦ : ٩ (٢) نو ٢٢ : ١٩ — ٢ (٣) انظر الشهادات السالفة

غير الدموية منذ برهة تأسيسها تُقدَّم وستُقدَّم الى حضور يسوع المسيح الثاني[1] في كل العالم وعلى مذابح لا تُعدُّ ولا تُحصى لاجل خلاص البشر. وبالاجمال اذا قابلنا ذبيحة الصليب بالذبيحة غير الدموية نرى الاولى بذاراً واصلاً والثانية شجرة نابتة على ذاك الاصل المتين ومستريحة بجملتها عليهِ ومغتذية منهُ غذاءها الحيوي وآتية باثمار الحياة الخلاصية. فنستنتج مما تقدم ان الذبيحتين كلتيهما متحدتان بلا انفصالٍ وهما ذبيحةٌ واحدة لا اكثر وليس فيهما خاصةٌ جوهريةٌ تقتضي فصل احداهما عن الاخرى. وهما شجرة الحياة المباركة التي غُرِست سابقاً من الله في الجلجلة والآن غطَّت اغصانها السرية كل كنيسة المسيح وتغذّي جميع الذين يطلبون الحياة الابدية باثمارها الخلاصية.

٢. ثم ان الشكر المقدس الذي هو في جوهرهِ ذبيحة حقيقية نحو الله هو بحسب اوصافهِ ذبيحة تسبيحٍ وشكرٍ وذبيحة استغفارٍ ايضاً تُقدَّم عن الجميع احياءً كانوا ام امواتاً[2]. اما كونهُ ذبيحة تسبيحٍ وشكرٍ فيظهر جلياً مما يأتي: وهو ان يسوع المسيح مخلصنا عندما اسس الذبيحة غير الدموية اخذ الخبز «وشكر» وكسرهُ واعطاهُ لتلاميذهِ قائلاً «خذوا كلوا هذا هو جسدي»[3] فبشكرهِ برهن ان الذبيحة ذبيحة شكرٍ. ولهذا من ذلك الوقت الى الآن جرت العادة في الكنيسة المستقيمة الراي ان يذكر خادم الذبيحة غير الدموية في صلاةٍ سريةٍ خصوصيةٍ قبل ان يبارك القربان

(١) ١ كو ١١: ٢٥ و٢٦ (٢) رسالة البطاركة مادة ١٧ (٣) لو ٢٢: ١٩ و٢٠ و١ كو ١١: ٢٣ و٢٤

الذي على الذبيحة المقدسة احسانات الله العظيمة للبشر وهي خلقة الانسان وعناية العائقة الوصف التي حصل عليها منذ سقطتهِ وتدبير تجسد يسوع المسيح لخلاص العالم ولان يمجد ويسبح ويشكر للاله الآب ولابنهِ الوحيد وللروح القدس قارئاً ما نقلهُ وسلّمهُ الينا كتابةً القديس باسيليوس الكبير والقديس يوحنا الذهبي الفم في ترتيب خدمة القداس. وكذلك جميع المسيحيين الحاضرين في الهيكل حينما تُقدَّم لله الذبيحة غير الدموية على المذبح يرسلون تسبيحاً وترتيلاً قائلين «لك نسبح لك نبارك لك نشكر يا ربنا ومنك نطلب يا الهنا»[1]. ومن عصر الرسل القديسين الى الآن تُقدَّم الذبيحة غير الدموية مع هذا التمجيد والشكر كما تتأكد ذلك من خدم القداس القديمة كخدمة يعقوب الرسول والخدمة المدونة في اوامر الرسل ومن الاعتراف الآتي للقديس يوستينوس الشهيد وهو «ومن بعد ان نكف من الصلوات نقبل بعضنا بعضاً بقبلةٍ. وبعد ذلك يقدَّم الى متقدم الاخوة خبزٌ وكاسٌ فيها ماءٌ وممزوجٌ (خمرٌ) فياخذهما ويرسل تمجيداً لابي الكل باسم الابن والروح القدس ويصنع شكراً «وقتاً طويلاً» لكونهِ حُسِب مستحقاً منهُ لهذه. وبعد اتمامهِ الصلوات «والشكر» يقول جميع الشعب الحاضرين «آمين»[2].

واما كون سر الشكر الالهي ذبيحة استغفارٍ ايضاً عن الاحياء والاموات فسنبين مما يأتي

(١) اوامر الرسل كتاب ٨ فصل ١٣ (٢) احتجاج ١: ٦٥ وحديثهُ الثاني [illegible] الذهبي الفم على ١ كو مقالة ٢٤

فاذا رأينا فيما تقدم ان الذبيحة غير الدموية هي الذبيحة التي على الصليب نفسها التي قدمت عن خطايا جميع العالم. فتكون اذن الذبيحة غير الدموية ذبيحة استغفارٍ عن خطايا العالم وخصوصاً الذين قُدّمت لاجلهم . وهذه الصفة التي بها توصف الذبيحة غير الدموية تتضح بكل صراحةٍ من كلام المخلص عند تأسيسه السر . فانهُ عندما اعطى جسدهُ لتلاميذهِ قال « هذا هو جسدي « الذي يُعطى من اجلكم » ولما قدّم لهم دمهُ قال عنهُ « الذي يهرق عنكم وعن كثيرين « لمغفرة الخطايا » . ولهذا نرى ان الكنيسة منذ ابتداء تاريخ الدين المسيحي الى الآن تقدم الذبيحة غير الدموية من اجل خلاص جميع المؤمنين احياءً وامواتاً كما هو واضح في جميع الخِدَم وفي مقدمتها خدمة يعقوب الرسول [1] حيث تُدعى هذه الذبيحة بصريح العبارة « ذبيحة غفرانٍ او ذبيحة استغفارية » [2] ويتضح ذلك ايضاً من شهادات آباء الكنيسة ومعلميها الاقدمين كترتليانوس اذ يقول « ان الذبيحة غير الدموية تُقدّم عن الاحياء [3] والاموات » [4] وكبريانوس اذ يقول « انها تقدّم عن الاموات » [5]

(١) وهذه عبارتهُ : بعد تبريك القدسات يقول الخادم هذا الافشين « نقدم لك يارب هذه الذبيحة الرهيبة وغير الدموية لكي لا تصنع معنا حسب خطايانا ولا تجازينا حسب مآثمنا بل لكي تطهرنا من مآثمنا برحمتك التي لا تحد وحنوك الذي لا يوصف » (٢) ذبيحة غفران وضحية غفران (السمعاني في مجل خدم الكنيسة جزء ٤ ٢٦) (٣) الى امرأتهِ ١١ : ٨ والى سكابولا فصل ١١ (٤) « اننا نصنع تقدمات في ايام معينة من السنة عن الاموات وعن المولودين (في الاكليل ٣ وفي وحدة الزيجة فصل ٩ (٥) رسالة ٦٦

وكيرلس الاورشليمي يدعوها ... « ذبيحة استغفارية » [1] وبهذا التصريح نفسه يعترف لعزاف الايمان الاني قائلاً « مكنية تقدمة المسيح مذبوحاً لاجل خطايانا مستغفرين الاله المحب البشر عنا وعنهم » [2].

واما القديس يوحنا الذهبي الفم فقد كتب عن ذلك في مقالاتهِ متعددةٍ . ومما قالهُ العبارات الآتية « لانهُ لم يرتب هذا الترتيب على سبيل الحال ولا باطلاً تذكر المتوفين على الاسرار الالهية ونأتي متضرعين لاجلهم للحمل الموضوع الرافع خطية العالم بل لكي تحصل من ذلك تعزية لهم . ولا عبثاً يصرخ الواقف على المذبح عند تتميم الاسرار الرهيبة من اجل جميع الراقدين بالمسيح والذين يصنعون التذكار من اجلهم . ولو لم يكن التذكار من اجلهم لما قيلت هذه الكلمات لان اعمالنا ليست حصة مخاتلة بل هي مقامة كلها بحسب ترتيب الروح فلا نكلّن اذن في مساعدتنا الراقدين بتقديمنا الصلوات من اجلهم لان التنقية العامة لكل المسكونة هي حاضرة . ولهذا نتجاسر ان نطلب من اجل المسكونة ونتذكر وندعو الراقدين والشهداء والمعترفين والكهنة » [3]

ويجب ان نضيف الى ما ذكر هاتين الحاشيتين

(١) في الاسرار ٦ : ٨ و ٥ : ٨ (٢) في الاسرار ٥ . ١٠ (٣) عظة ٤١ : ٤ على كورنثس الاولى . وفي محل آخر يشهد ان اقامة التذكارات في بيع الافخارستيا عن الراقدين شريعة رسولية ويقول « لم يُشرع عبثاً من الرسل اقامة تذكار الراقدين حين تتميم الاسرار الرهيبة لان الرسل يعرفون ان للراقدين ربحاً عظيماً ونفعاً جزيلاً من ذلك » مقالة ٣ على الرسالة للفيلبيين.

اولاً . ان الكنيسة المستقيمة الراي عند ما تقدم الذبيحة غير الدموية تذكر القديسين الممجدين من الله الاجداد والانبياء والرسل والشهداء والمعترفين وخاصة والدة الاله الفائقة القداسة والدائمة البتولية مريم وانما تصنع ذلك لا بقصد استعطاف الرب من اجلهم بل لكي يسمع الله بواسطة توسلاتهم وشفاعاتهم الصلوات والتضرعات التي تقدمها الكنيسة حين تتميم السرّ الالهي عن الاحياء والاموات وهذا يتضح من آخر الافشين الذي يذكرون فيهِ حيث يقول «الذين بطلباتهم افتقدنا يا الله واذكر جميع الراقدين على رجاء قيامة الحياة الابدية وارحمهم حيث يفتقد نور وجهك»[١] . والقديس كيرلس الاورشليمي يقول «بعد ذلك نذكر السابق رقادهم اولاً رؤساء الآباء والانبياء والرسل والشهداء لكي يقبل الله طلباتنا بصلواتهم وشفاعاتهم»[٢] .

ثانيا كما ان الذبيحة غير الدموية هي ذات قوة لان تستعطف الله وتستميلهُ الينا هكذا هي ذات قوة ايضاً لان ننال بها من الله كل احسان فالذبيحة الاستغفارية اذن هي ايضاً ذبيحةُ شفاعةٍ ووساطةٍ . ولذلك عند ما تتمم الكنيسة المقدسة فضلاً عن انها تطلب من الله غفران الخطايا والخلاص للاحياء والاموات تطلب ايضاً نوال كل خير روحيّ وجسديّ موافق لعيشة الانسان الحسنة وحياته . وقد كتب القديس كيرلس الاورشليمي هكذا «ثم بعد ان تُتمّم الذبيحة الروحية

(١) انظرهُ في خدمة يوحنا وباسيليوس (٢) في الاسرار ٥ : ٩ واوغسطينوس الجليل يقول «لكي يضرع مولاءه عنا» تفسير يوحنا ٨٤ : ١

والعبادة غير الدموية نضرع الى الله تجاه ذبيحة الاستغفار هذه من اجل سلامة الكنائس عموماً ومن اجل حسن ثبات العالم ومن اجل الملوك ومن اجل الجنود والمحاربين معهم ومن اجل الذين في الامراض ومن اجل المضنوكين وبالاجمال من اجل جميع المحتاجين الى مساعدةٍ . فنطلب نحن جميعاً ونقدم هذه الذبيحة»[١] . والكنيسة المقدسة قد تسلمت ان تصنع في ظروفٍ عموميةٍ او خصوصيةٍ صلواتٍ خصوصية عند تتميم هذا السرّ مثل اوقات الجفاف والقحط وقلة المطر وتسلط الانتقام الالهي بالوباء وهجوم الاعداء وما شاكل ذلك .

(١) في الاسرار ٥ : ١



٤

سر التوبة

الفصل الاوَّل

في ارتباط هذا السرّ مع ما سبقهُ وفي تعريفهِ واسمائهِ

١ . الرباط بين التوبة والاسرار السابق شرحها وضرورتها ٢ . تعريفها واسماؤها

١ . ان الانسان ينال بالاسرار الثلاثة السابق شرحها المواهب الروحية الضرورية لكي يصير مسيحيًّا وينمو في التقوى وينال الحياة الابدية والغبطة. فالمعمودية تطهّر الخاطئ من كل خطيئة جدية كانت او طوعية وتدخلهُ ملكوت نعمة ربنا يسوع المسيح . والمسحة تمنحهُ قوى جديدة لثباتهِ ونجاحهِ في حياة النعمة . وسرُّ الشكر الالهي يغذيهِ غذآء الهيًّا ويجعلهُ متحدًا مع يسوع النعمة والحياة الابدية نفسهِ . ولكن بما ان الانسان بعد تنقيتهِ بالمعمودية من الخطيئة لا يُعتق من نتائج الخطيئة الجدّية والفساد الارثي الذي هو الميل الى الشرّ ولا يتحرّر من الامراض الجسدية والموت وبما ان المسيحي يمكنهُ بعد المعمودية ان يخطأ خطايا كثيرة[1] واحيانًا ان

(١) ١ يو ١ : ٨ و١٠

يمرض امراضًا ثقيلة ربما اتت بهِ الى حافة القبر فقد سرَّ الله بصلاحهِ الذي لا يُحدّ ومحبتهِ للبشر ان يقيم في الكنيسة سرَّين آخرين بمثابة علاجين خلاصيين للاعضآء المتألمة في الكنيسة وهما سرُّ التوبة الذي يشفي الامراض الروحية وسرُّ الزيت المقدس الذي تمتدُّ نتائجهُ الخلاصية وفاعليتهُ الى الامراض الجسدية . فنحن الآن عازمون ان نتكلم عن سرّ التوبة ونأتي بعدهُ الى سرّ الزيت المقدس

٢ . فالتوبة من حيث هي سرٌّ[1] هي عملٌ مقدسٌ بهِ يصفح راعي الكنيسة الروحي بقوة الروح القدس للمسيحي التائب والمعترف عن جميع خطاياه التي فعلها بعد المعمودية واعترف بها فيتجدد تبريرهُ ويتقدس كما كان في الساعة التي خرج فيها من المعمودية. ولذا قد سمَّى آبآء الكنيسة ومعلموها الاقدمون سرَّ التوبة حلاًّ (للخطايا)[2] واعترافًا[3] ومصالحةً[4] ومعمودية ثانيةً[5] ومينآءً ثانيةً بعد الغرق[6] .

الفصل الثاني

في تأسيس سرّ التوبة من الله وفي فعلهِ

١ . وعد الرب بسرّ التوبة ٢ . تأسيسهُ اياه ٣ . استعمالهُ في الكنيسة ٤ . شهادات بهِ الآبآء

(١) قلنا من حيث هي سرٌّ لان التوبة من حيث هي فعلٌ تُعتبر فضيلةً وهنا موضوعنا السرّ لا الفضيلة فقط (٢) ترتليانوس في التوبة ٩ و١٠ (٣) ايريناوس ضد المرطقات ١ : ٤٢ : ٥ و٧ (٤) اوغسطينوس في ملك الله ٢٠ و٢٦ : ٢ (٥) مجمع قرطاجنة قانون ١١ (٦) ترتليانوس في التوبة ٤ وباروتيموس في رسالتهِ ضد اوريجانس ورسالة ٦٧

١ . ان ربنا يسوع المسيح قبل ان يؤسس سرَّ التوبة وعد بهِ مرتين فاولاً عندما اعترف القديس بطرس الرسول عنهُ وعن سائر التلاميذ بان المسيح هو ابن الله الحي قال لهُ الرب « فما تربطهُ على الارض يكون مربوطاً في السموات وما تحلهُ على الارض يكون محلولاً في السموات »(١) ثانياً عندما وعد جميع التلاميذ رؤساء الكنيسة بقولهِ « وان لم يسمع من الكنيسة فليكن عندك كالوثني والعشار . الحقَّ اقول لكم ان ما تربطونهُ على الارض يكون مربوطاً في السماء وما تحلونهُ على الارض يكون محلولاً في السماء »(٢) .

٢ . ووفقاً لوعدهِ الصادق اسَّس ربنا بعد قيامتهِ من الاموات سرَّ التوبة عندما ظهر لتلاميذهِ وقال لهم « السلام لكم ولما قال هذا نفخ فيهم وقال لهم خذوا روحاً قدوساً ان غفرتم لقومٍ خطاياهم تُغفَر لهم وان امسكتم لقومٍ تمسك لهم »(٣) فمن هذه الاقوال يتضح ان الرب اعطى الرسل وخلفاءهم سلطانهُ الالهي ان يحلوا ويربطوا خطايا البشر وان يتركوها ويمسكوها بواسطة الروح القدس اي بقوتهِ وفعلهِ غير المنظور في عملٍ مقدسٍ منظورٍ ظاهرٍ للعيان . فعلى ذلك تكون التوبة سرّاً حقيقياً مستوفياً جميع الاوصاف المطلوبة لكل واحدٍ من اسرار الكنيسة كما رأينا سابقاً(٤) اي هي عملٌ مقدسٌ بهِ ينال المؤمن نعمَ الله غير المنظورة تحت علاماتٍ محسوسةٍ .

(١) مت ١٦ : ١٩ (٢) مت ١٨ : ١٧ و١٨ (٣) يو ٢٠ : ٢١ — ٢٣ (٤) انظر التمهيد

٣ ولم يزل سرُّ التوبة ثابتاً منذ ازمنة الرسل الى الآن في الكنيسة مستعملاً بكل التدقيق ورعاة الكنيسة قد حفظوا دائماً الحقَّ الذي اخذوهُ من الرب في ان يحلوا ويربطوا . ففي قوانين الرسل نقرأ هكذا « كل اسقفٍ او قسيس لا يقبل من يرجع عن خطيئتهِ بل يطردهُ فيُقطَع لانهُ يُحزِن المسيح القائل فرحٌ يصير في السماء بخاطئ واحدٍ يتوب »(١) . واما اوامر الرسل فانها تذكر متقدمي الكنيسة بانهم أُؤتمنوا على سلطان الحل والربط(٢) وتلمح لهم الوجه الذي عليهِ يفحصون الخطاة(٣) ويرشدون التائبين(٤) وتوصي المؤمنين ايضاً ان يكرموا آباءهم الروحيين حيث تقول « فوقروهم واكرموهم وقدموا لهم جميع انواع الكرامة لانهم اخذوا من الله سلطان الحياة والموت بان يحاكموا الخطاة ويحكموا بموت نارٍ ابديٍّ وان يحلوا الراجعين عن خطاياهم »(٥) .

٤ . ومعلمو الكنيسة القدماء يتكلمون في هذا الموضوع بهذه الصراحة عينها . فالقديس كبريانوس كتب « ان هولاء قبل ان يتوبوا عن خطاياهم بانسحاق قلبٍ وبساطةٍ وقبل ان يعترفوا امام كهنة الله العلي ويطهروا ضميرهم ويطلبوا من الكهنة علاجاتٍ خلاصيةً لجراحهم الروحية ويستعطفوا الرب على الاهانة التي اهانوا بها ايمانهُ العديم العيب يتجاسرون بلا حياء ان يشتركوا بجسد الرب ودمهِ . . . فاطلب اليكم ايها الاحباء ان تعترفوا بخطاياكم ما دمتم في الحياة الحاضرة حيث صفح الخطايا الممنوح

(١) قانون ٥٢ (٢) كتاب ٢ : ١١ و١٢ (٣) كتاب ٢ : ١٥ و١٦ (٤) كتاب ٢ : فصل ٢٦ و٤٠ و٤١ و٤٢ و٤٨ (٥) كتاب ٢ فصل ٣٣

من الكهنة مقبولٌ ومرضيٌّ عند الله ايضاً»[1]

والقديس اثناسيوس يقول «كما ان المعمَّد يستنير بنعمة الروح هكذا بواسطة الكاهن ينال التائب الغفران بنعمة المسيح»[2] والقديس باسيليوس الكبير يقول «ان الاعتراف بالخطايا للمؤتمنين على تدبير اسرار الله ضروريٌّ لان الذين كانوا يندمون قديماً نرى انهم هكذا صنعوا نحو القديسين . وقد كُتب في الانجيل انهم كانوا يعترفون بخطاياهم ليوحنا المعمدان . وفي اعمال الرسل انهم كانوا يعترفون للرسل الذين كانوا يعمَّدون منهم»[3] .

والقديس الذهبي الفم يقول «لان ساكني الارض والقاطنين فيها قد سُمح لهم ان يسوسوا ما في السموات واخذوا سلطاناً لم يُعطِهِ الله لا للملائكة ولا لرؤساء الملائكة . لانه لم يقُل لاولئك كل ما تربطونهُ على الارض يكون مربوطاً في السماء وكل ما تحلونهُ على الارض يكون محلولاً في السماء . . . ثم ان للمتسلطين سلطاناً في الارض ان يربطوا ولكنهم يربطون اجساداً فقط واما هذا الرباط فانهُ يمسُّ النفس عينها ويجتاز السموات وما يعملهُ الكهنة تحت يثبتهُ الله فوق ويؤيد السيد رأيَ العبيد»[4]

وهذا التعليم عينهُ في سرّ التوبة يعلمهُ ترتليانوس[5] ولاكتانديوس

(١) في الساقطين ٢٨ و٢٩ (٢) ضد النافتيين (٣) قوانينه المختصرة جواب على السؤال ٢٨٨ (٤) في الكهنوت خطاب ٣ : ٤ و٥ (٥) في التوبة فصل ١٢ حيث يقول «ان الخاطئ يتقوَّم بالاعتراف الذي سنّهُ الرب» .

وغريغوريوس النيصي وامبروسيوس وايارونيموس واوغسطينوس وكيرلس الاسكندري[1] والبابا لاون[2] وآخرون

الفصل الثالث

في من يستطيع ان يتمم سرّ التوبة ومن يستطيع ان يتقدَّم اليهِ

١ حق تتميم السرّ وشهادات الكتاب والآباء في ذلك ٢ حق التقدم للتوبة والشهادات في ذلك

١ - من شهادات الكتاب المقدس والتقليد الشريف المذكورة قبلاً ينتج ان سلطان تتميم سرِّ التوبة مُنح اولاً من الرب للرسل وحدهم[3] ومنهم اتصل لخلفائهم رعاة الكنيسة الاساقفة والقسوس[4] على هذا المعنى وهو ان هؤلاء الخدام هم آلاتٌ منظورةٌ في تتميم السرِّ الذي يكملهُ الله نفسهُ بواسطتهم على وجهٍ غير منظورٍ . لانهُ قيل «ما تربطونهُ على الارض يكون مربوطاً في السماء وما تحلونهُ على الارض يكون محلولاً في السماء»[5][6] وللبرهان على هذه الحقيقة نورد شهاداتٍ غير هذه من المعلمين القدماء ايضاً

(١) لاكتانديوس في التعاليم الالهية ٤ : ٣٠ وغريغوريوس النيصي جزء ٢ صفحة ٢٢٤ وامبروسيوس في التوبة ٢ : ٧ : ١١ وايارونيموس على متى ١٦ : ١٩ واوغسطينوس في الزوجة الزانية ١ : ٢٨ : ١٦ و١٧ وفي ملك الله ٢٠ : ٩ : ٢ وكيرلس الاسكندري على يوحنا ٢٠ : ٢٢ (٢) رسالة ٨٥ : ٢ حيث يقول «انهُ لامرٌ نافعٌ وضروريٌّ ان نمحى ديونة الخطاة قبل اليوم الاخير بصلاة الكهنة» (٤) مت ١٨ : ١٨ ويو ٢٠ : ٢١ و١كو ١٢ : ٢٨ و٢كو ١٠ : ١٨ و٢٠ (٥) تي ١ : ٧ والقانون ٥٢ من قوانين الرسل (٦) مت ١٨ : ١٨

فالقديس فرميليانوس اسقف قيصرية الكبادوك (سنة ٢٢٣) يقول ان سلطان غفران خطايا البشر أُعطي للرسل والكنائس التي هم اسسّوها اذ أُرسلوا من يسوع المسيح ولخلفائهم الاساقفة »[1].

والقديس امبروسيوس يقول « من يستطيع ان يترك خطايا الاّ الله وحدهُ والذين اعطاهم هوهذا السلطان ؟ »[2]. وفي محلٍ آخر يقول « ان هذا الحق اعطي للكهنة وحدهم »[3]. وايضاً يقول « ان البشر يتمّمون سرّ التوبة لغفران الخطايا من دون ان يكون لهم سلطانٌ في ذلك باسمهم وانما يتمّمونهُ بالاسم المجد اسم الآب والابن والروح القدس. فهم يطلبون والله يعطي. وعلى البشر الطاعة هنا ومن الله الهبة العظيمة »[4].

والقديس يوحنا الذهبي الفم يقول « ايُّ سلطانٍ يمكن ان يكون اعظم من هذا السلطان ؟ ان الآب اعطِ الحكم كلهُ للابن[5]. وارى ان هولآء تسلموهُ كلهُ من الابن . . . وقد كان لكهنة اليهود سلطانٌ ان يطهروا برَصَ الجسد وبالاحرى لم يكونوا يطهرونهُ بل يفحصون المعتوقين منهُ وانت تعلم كم كان سلطانهم وقتئذٍ مشتهىً . ولكن هولآء قد نالوا سلطاناً لا على برَصٍ جسدانيٍ بل على الدنس النفسانيّ ولا ان يفحصوهُ بعد التطهير بل ان يطهروهُ تماماً »[6].

وباكيانوس اسقف اسبانيا (سنة ٣٧٠) يقول انكم تقولون ليس

(١) انظر شهادتهُ للقديس كبريانوس (٢) جزء ٥ : ١٢ (٣) في التوبة ١ : ٢ (٤) في الروح القدس ٢ : ٨ (٥) يو ٢٢ (٦) في الكهنوت خطاب ٢ : ٥ و٦

احدٌ غير الله يقدر ان يغفر الخطايا وحسناً تقولون . ولكن الغفران الممنوح من الكهنة هو من سلطان الله وليس من بشرٍ »[1].

والبابا لاون يقول « ان الوسيط بين الله والناس الاله المتأنس يسوع المسيح قد منح رعاة الكنيسة سلطان اعطاء التدبير الذي بالتوبة للتائبين وان يصفحوا عن خطاياهم بعد تطهيرهم قبلاً بحميم اعادة الولادة فيما هم مستعدون للشركة الالهية . وبلا شك ان الرب نفسهُ هو الفاعل الغفران في هذه الشركة المقدسة »[2].

وبالاجمال فجميع معلمي الكنيسة يؤكدون ان يسوع المسيح نفسهُ[3] والروح القدس نفسهُ[4] هو يصفح الخطايا في سرّ التوبة وان الات هذا السلطان المنظورة على الارض هم الرسل والاساقفة[5] والقسوس[6].

٢ . اما الذين لهم الحق بان يتقدموا الى سرّ التوبة فهم المسيحيون وحدهم لانهم اذ تطهروا دفعةً واحدةً بالمعمودية من كل خطيئةٍ وصاروا بنين للكنيسة امتلكوا حق التقدم الى هذا السرّ المقدس كما الى معموديةٍ ثانيةٍ . وهم يتقدمون اليهِ كلما دعتهم الحاجة ان يطهروا ضمائرهم من كل

(١) رسالة ١ : ٦ (٢) رسالة ٨٤ (٣) اوريجانس على اللاويين مقالة ٨ : ١٠ وباكيانوس رسالة ٢ : ٧ (٤) امبروسيوس في التوبة ١ : ٢ واوسابيوس في حل المسائل الانجيلية الى ماريِنُس : ٩ وكيرلس الاسكندري على يوحنا ٢٠ : ٢٢ (٥) اوامر الرسل ١١ و١٢ و٢٠ و٢١ ورسالة فرمليانوس وهي تحت عدد ٧٥ في رسالات كبريانوس واثناسيوس الكبير في التوبة ١١ : ٣أ (٦) اوريجانس على الاعداد مقالة ١٠ : ١ ويعقوب اسقف نصيبين في التوبة خطاب ٧ وايلار ونيمس على متى ١٦ : ١٩ وثاوذوريطُس على الخروج مسئلة ١٥

دنس جسدٍ وروحٍ . لكن غير المسيحيين ليس لهم حقٌ ان يشتركوا بهذا السرّ قبل ان ينالوا السرّ الاول من اسرار الدين المسيحي الذي بهِ يدخلون كنيسة المسيح مطهَّرين من الدنس الجذري ويكون لهم حقٌ ان يشتركوا بسائر اسرارها . وهذا التعليم الذي هو معلومٌ من عمل الكنيسة العمومي نوكدهُ من معلميها ايضاً فكيرلّس الاسكندري يقول «ان المتوشحين بالروح يتركون الخطايا او يمسكونها على نوعين كما ارى : اما بانهم يدعون الى المعمودية الذين اقتضى نوالهم اياها حسن سلوكهم وخبرتهم في الايمان . واما بانهم يمنعون البعض ويحجبونهم عن النعمة الالهية لانهم لم يصيروا بعد مستحقين لها او على وجهٍ آخر ايضاً يتركون الخطايا ويمسكونها وذلك اما بقصاصهم ابناءَ الكنيسة عندما يخطأُون واما بمسامحتهم اياهم عندما يندمون[1]» واوغسطينوس يقول «ان الخطيئة اذا فعلها موعوظٌ تُغسَل بالمعمودية واذا فعلها معتمدٌ تُترَك بالتوبة»[2] .

الفصل الرابع

في ما هو المطلوب من المتقدمين الى سرّ التوبة

شروط المتقدم للتوبة ١ . انسحاق القلب ٢ . العزم على الاصلاح ٣ . الايمان الوطيد ٤ . الاعتراف الشفاهي .

ان المتقدم الى سرّ التوبة لا يستحق غفران خطاياهُ ما لم يتبع تعليم الكنيسة المستقيمة الراي[3] ويقوم بالشروط الآتية وهي : اولاً انسحاق القلب

(١) عن يوحنا ٢٠ : ٢٢ (٢) في زنى الزوجة ١١ : ١٦ : ١٦ وترتليانوس في التوبة ٧ : ١٢ (٣) اعتراف الراي القويم سوال ١١٢ و ١١٣ وواعظ

على الخطايا السالفة . ثانياً عزمٌ ثابتٌ على اصلاح السيرة . ثالثاً ايمانٌ وطيدٌ بيسوع المسيح ورجاءٌ بحنوهِ . ورابعاً اعترافٌ شفاهيٌ بالخطايا امام الاب الروحي .

١ . فان انسحاق القلب على الخطايا السالفة هو خاصةٌ ملازمةٌ جوهر التوبة وطبيعتها . لان الذي يتوب توبةً حقيقةً لا بدَّ لهُ من ان يعترف بثقل خطاياهُ ونتائجها المهلكة . ولا بدَّ لهُ من ان يشعر بجريمتهِ قدام الله وابتعاد الله منهُ بعدلٍ . ولا بدَّ لهُ من ان يحزن من داخل قلبهِ ويخشع وان يستولي عليهِ انسحاقٌ داخليٌ . ولا احد ينكر انهُ حيث يفقد هذا الانسحاق على الخطايا فهناك ليست توبةٌ حقيقيةٌ بل رياءٌ ظاهريٌ . ولهذا عندما كان الله يدعو الاسرائيليين في العهد القديم الى التوبة كان يطلب منهم الانسحاق شرطاً جوهرياً للتوبة «والان يقول الرب ارجعوا اليَّ بكل قلوبكم وبالصوم وبالبكاءِ والانتحاب ومزقوا قلوبكم لا ثيابكم وارجعوا الى الرب الهكم فانهُ رحيمٌ ورأوفٌ طويل الاناة وكثير الرحمة ونادم على الشرور»[1] . ولما اراد مخلصنا يسوع المسيح ان يعلن في العهد الجديد ما هي التوبة الحقيقية ذكر اوصافها بامثالٍ فوية ومنها مثل الابن الشاطر ومثل العشار وخصَّص باحدهما الابن الشاطر حاكماً على نفسهِ حكماً قاسياً وراجعاً الى ابيهِ بانسحاقٍ وتخشعٍ عميقٍ وقائلاً لهُ «يا ابتِ اخطأتُ الى السماءِ وامامك ولست بعد مستحقاً ان أُدعى لك ابناً اجعلني كاحد اجرائك»[2] وبالآخر خصَّص العشار مستغيثاً برحمة

كيرلس في التوبة . (١) يوئيل ٢ : ١٢ و ١٣ ومز ٥٠ : ١٩ (٢) لو ١٥ : ١٨ و ١٩

الله بتواضع قلبي وحزن شديد وتنهدات عميقة وواقفًا من بعيد غير مريد ان يرفع عينيهِ الى السموات وكان يقرع صدره ويقول «اللهم اغفر لي انا الخاطئ»[1] . وقد اعترف آباء الكنيسة ومعلموها جميعهم بلا استثناء بان الانسحاق على الخطايا هو خاصة جوهرية ملازمة للتوبة . فقد كتب القديس كبريانوس هكذا «اخوتي الاحباء ؟ هلموا الى الندامة والتخشع بنفس منسحقة وافحصوا خطاياكم واعرفوا ثقل الاوزار بضمير حسن وافتحوا اعين قلوبكم لتدركوا نقائصكم . . . وبقدر ما نكثر من الخطايا نحن مديونون ان ننوح على الخطايا»[2] والقديس الذهبي الفم يقول «ان كان بكاء بطرس محا خطيئة عظيمة جدًا فانت اذا بكيت كيف لا تمحو خطيئتك ؟ لان انكار ذاك لسيده لم يكن جريمة صغيرة بل عظيمة وقوية ومع ذلك فقد محت الدموع الخطيئة . فابكِ اذن انت ايضًا على خطيئتك ولكن لا يكونن بكاؤك على حسب العادة وفي الظاهر فقط بل ابكِ بمرارة مثل بطرس وقدم ينابيع دموعك من داخل العمق حتى يتحنن عليك السيد ويصفح ذنبك»[3] .

والقديس غريغوريوس يقول «من يعطي لراسي او لجفوني ينبوعًا حية لكي استطيع ان انظر بمجاري الدموع من كل دنس منتحبًا على خطاياي كما يجب ؟ لان البشر الخاطئين والمتدنسي الانفس يجدون افضل علاج في الدموع والرماد ومسح التوبة»[4] .

(١) لو١٨ : ١٣ (٢) في الساقطين ٢٥ (٣) في التوبة ٣ : ٣
(٤) في اشعاره

وكوكب الكنيسة العظيم باسيليوس يقول «يجب على التائبين ان يبكوا بمرارة وان يظهروا من قلوبهم سائر علامات التوبة»[1] وايضًا «ان التوبة تدعو الانسان اولاً ان يصرخ في نفسهِ ويسحق قلبهُ ثم ان يصير قدوة صالحة للآخرين ويجعل طريقة توبتهِ مسموعة ويشهرها»[2] .

اما اوصاف انسحاق القلب الحقيقي على الخطايا فهي ان لا يكون ناتجًا عن مجرد الخوف من العقاب او نابعًا من الفكر العام في نتائج الخطيئة المبيدة في هذا العالم وفي العالم الآتي . لان الانسحاق الناتج عن اصول كهذه هو باطل وغير مفيد . بل ينبغي ان تكون ينبوع انسحاق القلب نفس خُصصت بمحبة الله الذي خالفت ارادتهُ المقدسة وضمير داخلي معترف بانهُ خطئ امام الآب الصالح السماوي وقلب شاعر بعقوقيتهِ وعدم شكرهِ لاحسانات الله المحسن العظيم وانهُ صار بذلك بعيدًا عن اهليتهِ لهُ وحينئذٍ يكون الانسحاق حقيقيًا ومفيدًا[4] ويسمى الانسحاق على الوجه الاول حزنًا عديًا بحسب الانسان لا بنويًا بحسب الله . وبالاخ صادر عن الخوف من الله يمكن ان يكون للخاطئ بداءة اصلاح ورجوع عن الشر الى طريق الفضيلة . ولكن لا يمكن ان يكون ندامة كاملة [illegible]

(١) في ادياتو ١ : ٢ (٢) شرح اشعيا ١٥ (٣) قال [illegible] «تعذ عدما تخطأ لا لانك مزمع ان تعذب لان هذا ليس شيئًا بل لانك [illegible] سيدك الوديع الذي يود ويصبو الى خلاصك حتى انهُ اعطى ابنهُ عنك . فهكذا [illegible] واصنع هكذا دائمًا لان هذا هو اعتراف» مقالة ٧ : ٥ على ٢ كو

وخلاصيةً لنفس التائب"[1]. واما الانسحاق الذي على الوجه الثاني فهو حزنٌ بحسب الله وهو كما يقول بولس الرسول «ينشئ توبةً للخلاص لا ندم عليها»[2]. لان محبة الله وحدها هي التي تولد في الخاطئ غمًا حقيقيًا وانسحاقًا لا رياء فيه وتجذب له رضى الله وتؤكد له الغفران[3].

٣. والعزم الثابت على اصلاح السيرة هو في سرّ التوبة نتيجةٌ ضرورية لانسحاق القلب على الخطايا. وكما ان الخاطئ لا يمكن ان يكون له حزنٌ حقيقيٌ على خطاياهُ ما لم يكن غمهُ ناتجًا ليس عن خوف العقاب فقط بل عن محبة الله ايضًا هكذا لا يمكن ان يكون ذلك الحزن حقيقيًا ما لم يشعر التائب في نفسهِ بشوقٍ صادقٍ وعزمٍ ثابتٍ على اصلاح حياتهِ. وهذا العزم يطلبهُ كلام الله من الخاطئ. فان يوحنا المعمدان المنادي بالتوبة «لما رأى كثيرين من الفريسيين والصدوقيين يأتون الى معموديتهِ قال لهم يا اولاد الافاعي من دلكم على الهرب من السخط الآتي؟ فاصنعوا اثمارًا تليق بالتوبة[4].» وبطرس الرسول كان يقول لليهود «فتوبوا وارجعوا لتمحى خطاياكم[5]» وفي سفر الرؤيا نقرأ هذه الوصية الموجهة الى ملاك افسس «فاذكر من اين سقطت وتب واعمل الاعمال الاولى والا فاني آتيك سريعًا وازيل منارتك من موضعها ان لم تتب»[6].

(١) اوغسطينوس على مز ١٢٧: ٨ وفي رسالة يوحنا ١: ٤ (٢) ٢ كو ٧: ١٠
(٢) لو ٧: ٤٨ وبط ٤: ٨ قال يوحنا الذهبي الفم «وكما ان النار متى دخلت في المادة تنقي كل شيء هكذا حرارة المحبة حيث وقعت تنزع وتقطع كل ما من شأنهِ ان يفسد البذار الالهي وتجعل الارض نقية لقبول البذار» مقالة ٧: ٣ على تيموثاوس.
(٤) مت ٣: ٧—٨ (٥) اع ٣: ١٩ (٦) رؤ ٢: ٥

وهذه الحقيقة عينها علّمها معلمو الكنيسة ايضًا.

فالقديس باسيليوس كتب «لان ليس الذي يقول خطئت وهو باقٍ مصرّ على الخطيئة يعترف. لا. بل الذي يجد خطيئتهُ ويبغضها كما قال الزبور. في الفائدة للضعيف من اجتهاد الطبيب اذا كان هو يجلب ما يفسد حياتهُ؟ هكذا لا فائدة من صفح الظلم لمن لم يكف عن ظلمهِ ولا من [illegible] الرجاسة لمن بقي في رجاستهِ.. فبدون المسامحة من الله لا يمكن [illegible] ان يبتدئ بالحياة الفاضلة. ولهذا قد اراد مدبر حياتنا الحكيم من [illegible] امتحن ببعض الخطايا وعزم السلوك بالسيرة المعافاة ان يضع حدًا [illegible] الماضية بجددها بهِ ويجعل لنفسهِ بدءًا جديدًا بعد الخطايا كأن حياته قد تجددت بالتوبة. واما الذي يعترف بخطاياه مرارًا متواترةً ثم يعود [illegible] بتواترٍ فانهُ يغلق عنهُ باب تعطفهِ ويتركهُ في اليأس»[1]. وفي محل [illegible] يعلّم «انهُ لا يكفي للتائبين غفران الخطايا وحدهُ لحصول على الخلاص [illegible] من الضرورة ان تكون لهم ثمارٌ لائقةٌ بالتوبة»[2].

والقديس امبروسيوس يقول «يجب على التائب ان يغسل [illegible] خطيئتهُ وان يستر الهفوات السابقة باعمالٍ صالحةٍ كي لا تحسب [illegible] عليهِ خطيئة»[3].

٤. ثم انهُ يطلب مع الانسحاق الحقيقي والعزم الثابت الايمان [illegible] المسيح والرجاء بتعطفهِ وقد قال بطرس الرسول «[illegible]

(١) على اشعيا ١: ٥: ١٤ (٢) ادبيات ١: ٤ (٣) [illegible] ٢: ٥: ٢٥

يسوع المسيح) يشهد جميع الانبياء ان كل من يؤمن به ينال باسمه غفران الخطايا»[1] . «وليس بأحد غيره الخلاص . لان ليس اسم آخر تحت السماء قد أُعطيَ بين الناس به ينبغي ان نخلص نحن»[2] «هذا هو الذي سالمنا الله بموته الصلبي»[3] هذا هو رئيس كهنتنا الابدي المعظم «ومن ثم فهو يقدر ان يخلّص الى النهاية الذين يتقدمون به الى الله اذ هو حي في كل حين ليشفع فيهم»[4] فمهما كان حزننا عميقًا ومهما كان عزمنا على اصلاح عيشتنا وتحسينها في المستقبل ثابتًا لا يمكنا ان نستحق غفران الخطايا من الله بدون الايمان والرجاء بربنا يسوع المسيح .

٤ . ان ضرورة الاعتراف الشفاهي بالخطايا امام الأب الروحي[5] هي نتيجة طبيعية تقتضيها وظيفة الكاهن المنوط به حل الخطايا في سر التوبة . فلكي يحلّ الكاهن او يربط خطيئة اية كانت يجب اولاً ان يعرف تلك الخطية . ومن حيث ان ربنا أعطى رعاة الكنيسة سلطان الحل والربط ليصفحوا للمعترفين عن خطاياهم بعد رجوعهم عنها ويربطوا الخطايا التي لا تستحق المغفرة اما لعدم توبة مرتكبيها او لعظمها وبما ان هذا السلطان يقتضي ضرورة اعتراف التائب واظهار خطيئته للاب الروحي لينال عنها

(١) اع ١٠ : ٤٣ (٢) اع ٤ : ١٢ (٣) رو ٥ : ١—٣ و ٨ : ٢٤ — ٢٥ (٤) عب ٧ : ٢٥ (٥) كان الاعتراف في الكنيسة القديمة جاريًا على وجهين احدهما علني والآخر سري . وعلى كلا الوجهين كان غفران الخطايا يُعطَى من راعي الكنيسة وحده الذي له الحق في اعطائه وهكذا في كل من الحالتين حُفظ جوهر سر التوبة في كاله . ومع الزمان تنازلت الكنيسة لابنائها وابطلت الاعتراف العلني وحصرته بالسري من دون ان تغير شيئًا في التوبة البتة .

صفحًا لاجل ذلك الاعتراف بالخطايا لرعاة الكنيسة في سر التوبة يُعتبر وجوبًا انه موسس من الله كما ان سلطان الحل والربط موسس من الله ولا يمكن ان يتم بدون الاعتراف . حتى ان الذي ينكر الاعتراف يضطر ان يعتبر سلطان الحل والربط مبطلاً في الكنيسة وهذا يضاد المصرّح به وعمل الرسل والكنيسة .

وقد حافظت الكنيسة المسيحية منذ القديم على الاعتراف بالخطايا والشهادات في ذلك اكثر من ان تُذكر فالقديس ايريناوس يحدثنا ان بعض النساء من اللواتي كنّ ساقطات في هرطقة [illegible] وكفرهم لما رجعنَ الى الكنيسة اعترفنَ بخطاياهنّ وكيف ان اخريات يردنَ ان يدخلنَ في هذا الامتحان المقدس فسقطنَ في اليأس[1] وترتليانوس يوبخ الذين لا يريدون ان يشهروا خطاياهم ويسمي ذلك مرزولاً ويلاحظ عليهم انهم وان اختفوا عن البشر لا يمكنهم ان [illegible] الله مطلقًا وانهُ خير لهم ان يشتهروا ويُحلّوا من ان يختفوا ويُدانوا و[illegible] لا يعترف بخطاياه ويهلك بها بالمريض الذي يخفي داءهُ عن [illegible] المزمع ان يشفيهُ[2] . والقديس كبريانوس يشكي من ان بعض [illegible] كانوا يقبلون على المائدة المقدسة الساقطين في خطايا ثقيلة [illegible] المعترفين بخطاياهم بتوبة[3] . وفي محلٍ آخر يمدح اخلاص [illegible] والسذاجة التي كانوا بها يكشفون ستار ضميرهم للقسوس ويعترفون امامهم بامراضهم الادبية ويطلبون لها العلاجات المخصوصة

(١) ضد الهرطقات ١ : ٦ : ٣ و ١٣ : ٥ : ٧ (٢) في التوبة فصل [illegible] (٣) رسالة ١٠ (٤) في الساقطين فصل ٢٨

وفي محلٍ آخر ايضاً يحتم على المسيحيين ان يعترفوا بخطاياهم في الحياة الحاضرة التي يستطيعون فيها ان ينالوا الغفران من الكاهن[1] . واوريجانِس في القرن الثالث يتكلم بهذا الايضاح عينهِ عن الاعتراف بالخطايا حيث قال «انهُ يوجد تركٌ آخر للخطايا مكربٌ جداً وصعبٌ وممكنٌ الحصول عليهِ بالتوبة وذلك عندما يبلُّ الخاطىء فراشهُ بدموعهِ[2] وعندما تصير دموعهُ لهُ خبزًا بالنهار والليل[3] وعندما لا يخجل بان يكشف خطيئتهُ امام كاهن الله طالبًا منهُ شفآء» او عندما يقول بعد الخطيئة «قد عرفت خطيئتي ولم اخفِ اثمي قلت اعترف للرب باثمي»[4] . فاذا عملنا هكذا وكشفنا خطايانا ليس لله فقط بل للذين يستطيعون ايضًا ان يشفوا جراحنا وما ثمَّ تُمحَى جها لاننا من الله الذي قال «ها قد محوتُ كغيمةٍ ذنوبك وكسحابةٍ خطاياك ارجع اليَّ فاني انقذك»[5] . والقديس باسيليوس والقديس اثناسيوس في القرن الرابع يعلمان هذا التعليم عينهُ وقد ذكرنا شهادتهما سابقًا[6] . وفي هذا القرن نفسهِ القديس امبروسيوس[7] والقديس يعقوب اسقف نصيبين[8] يشهدان بذلك بصريح العبارة وكذلك القديس غريغوريوس النيصي الذي كان يقول للتائبين «اسكبوا قدامي دموعًا حارّةً وغزيرةً وانا اعمل معكم هذا

(١) فصل ٢٩ (٢) مز ٦ : ٦ (٣) مز ٤٢ : ٣ (٤) مز ٣٢ : ٥ (٥) اشعيا ٤٤ : ٢٢ . (اوريجانس على اللاويين مقالة ١٧ وعلى التكوين مقالة ١٧ : ٣ و ٩ وعلى مز ٣٧ مقالة ٢ و ٦) (٦) انظرها قبلاً (٧) في التوبة ١١ : ٣ حيث قال «ان الرب امر بتعليمٍ صريحٍ ان تُمحَى الخطايا حتى اثقلها متى ندم الخطاة من كل قلوبهم واعترفوا ظاهرًا بها وحينئذٍ تسكب عليهم نعمة هذا السر السماوي» (٨) في التوبة خطاب ٧ فصل ٣ و ٤

العمل بعينهِ . خذوا خادم الكنيسة شريكًا امينًا لكم في حزنكم واباً روحيًا لهُ ولان الخادم يحزن على خطيئة ابنهِ كما حزن يعقوب عندما رأى ثوب ولدهِ الحبيب يوسف . فينبغي اذن ان تعتبروا الذي ولدكم بالله اعلى من الذين ولدوكم بالجسد . فاكشفوا لهُ اسراركم بجسارةٍ اعظم . اكشفوا لهُ اسرار نفوسكم كما يكشف المريض جراحهُ الخفية للطبيب فتنالون شفآء»[1] .

ونحن نكتفي بما تقدم من الشهادات عن تكثيرها بذكر شهادات آباء آخرين من المتأخرين عن القرن الرابع وهم يشهدون بالامر عينهِ ولكن نزيد شيئًا واحدًا وهو ان حقيقة الاعتراف بالخطايا تؤيدها ايضًا شهادات المجامع المسكونية والمكانية التي قد عيَّنت بتدقيقٍ طريقة الاعتراف وزمانهُ ومكانهُ ايضًا . فاننا مثلاً نقرأ في القانون الثاني من مجمع اللاذقية هكذا «ان الخاطئين بهفواتٍ متعددةٍ متى ثابروا على صلاة الاعتراف والتوبة وابتعدوا ابتعادًا تامًا عن الشرور يُعطَى لهم زمن ندامةٍ مناسبٌ للهفوات ثم يُقدَّمون الى الشركة بحسب رأفة الاسقف وصلاحهِ»[2] . والقانون المائة والثاني من قوانين المجمع السادس المسكوني يقول هكذا «ويجب على الذين نالوا من الله سلطان الحل

(١) مقالة ضد الذين يدينون بمرارة خطايا الآخرين (٢) يوحنا الذهبي الفم في الصليب واللص مقالة ٢ : ٣ وعلى عب مقالة ٩ : ٤ و ٥ وثاودوروس هرقلية على مز ١٠٦ : ٢٢ ورسالة اينوشنتيوس فصل ٧ وبولس كاهن ٣ رسالة وغريغوريوس الكبير على ملوك اول كتاب ٥ فصل ٤ : ٥٥ (٣) انظر القوانين ٢ و ٥ و ٧ من مجمع انقرة والقانون ٢ من مجمع قيصرية الجديدة والقانون ١٢ من المجمع الاول المسكوني والقانون ٨٤ من قوانين باسيليوس الكبير

والربط ان يفحصوا ماهية الخطيئة واستعداد الخاطىء الى الرجوع وعلى
هذه الحالة يدعون علاجاً ملائماً للمرض حتى لا يُستعمل الافراط في
كلٍّ من الامرين فيجبون من تخليص المريض . لان سمّ الخطيئة ليس
بسيطاً بل متنوعٌ وكثير الاشكال ولهُ فروعٌ كثيرةٌ مضرةٌ يمتدُّ منها
الشرُّ امتداداً عظيماً ويسري الى قدام حتى انهُ يقاوم قوة المعالج . فاذن
يجب على من يتعاطى صناعة الطب الروحي ان يلاحظ اولاً فكر الخاطىء
وينظر هل هو مائلٌ الى الصحة او بالعكس انهُ يدعو المرض الى نفسهِ
بسوء اخلاقهِ وان يلاحظ سلوكهُ وتصرفهُ مدة معالجتهِ حتى اذا كان
لا يقاوم الطبيب ويزيد قروح النفس التي تُعطَى بالعقاقير لها يعاملهُ
بالرحمة التي يستحقها . لان تمام الكلام عند الله وعند من أُئتُمِن على
الرئاسة الرعائية هو ان يردّ الخروفَ الضالَّ ويشفيهُ من الجرح الذي
جرحهُ اياهُ الثعبان ولا يدفعهُ في مهواة اليأس لئلا يهلك . ولا يرخي لهُ
العنان لئلا يزدري وتسترخي عيشتهُ . وعلى كل حالٍ يجب على الراعي
ان يحارب المرض بلا بغيٍ كيفما كان اما بالادوية الحارّة القابضة واما
بالملينة الملاطفة وان يجاهد في ختم القرح باخبارهِ اثمار التوبة ومداراتهِ
بحكمةٍ ذلك الانسان المدعوّ الى الاستنارة العلوية وكما يعلمنا القديس
باسيليوس « ينبغي ان نعلم الامرين كليهما معاً اعني امر التدقيق وامر
العادة وان نجري على الرسم المسلَّم مع الذين لم يقبلوا الكمال »

الفصل الخامس

في القسم المنظور من سرّ التوبة وفي محو غير المنظورة وفي اية خطايا يشمل [...]
وجه تقدّم التائب ١ . قسم التوبة المنظور (الاعتراف والغفران) ٢ . [...]
غير المنظورة (محو الخطايا والتبرُّر والسلام والخلاص من العقاب) ٣ . الخطايا [...]
يشملها سرُّ التوبة وما هي الخطايا التي لا تُغفَر وشهادات الآباء ٤ . عمل [...]

عندما يتقدم المسيحي التائب الى خادم الكنيسة وهو منقبض [...]
باطنياً ومنسحق القلب وعازمٌ عزماً ثابتاً على اصلاح سيرتهِ في [...]
وملوءٌ ايماناً حياً بمخلصنا يسوع المسيح ورجاءً بهِ ومحبةً لهُ ويعترف [...]
خطاياهُ فحينئذٍ بنعمة الاب الروحي ترك الخطايا باسم الرب و[...]

١ . يكون قسم التوبة المنظور قائماً بهذين العملين الجوهريين
١) اعتراف التائب بالخطايا اعترافاً شفاهياً امام الاب الروحي و[...]
الخطايا الذي يقولهُ الاب الروحي بعد سمعهِ اعتراف التائب. فالتر[...]
بقولهُ خادم السرّ يصير بحسب كتاب الاعتراف الذي في الكنيسة [...]
الراعي هكذا « يا ولدي الروحي الذي انت تعترف لحقارتي لا استطيع [...]
الحقير الخاطىء ان اغفر خطيئةً على الارض لكنَّ الله . بل لاجل [...]
الصوت الالهي الصائر للتلاميذ بعد قيامة ربنا يسوع المسيح من [...]
الاموات والقائل من تركتم خطاياهُ تُرِكَت لهُ ومن امسكتموها
فلتُمسَكِ وعلى هذا اذ نحن واثقون نقول ان كل ما اعترفت بهِ [...]
الدنيئة وكل ما لم تقلهُ اما لجهلٍ بهِ او لنسيانٍ مهما كان فليسامحك [...]
بهِ في الدهر الحاضر والآتي »

٢ • واما نتائج سرّ الاعتراف فهي : اولاً مسامحة الخطايا والحصول على التبرّر منها حالاً [١] . ثانياً المسالمة مع الله [٢] وثالثاً الانعتاق من عقاب الخطيئة الابدي ونوال الرجاء بالحياة الابدية [٣] . وقد راينا في ما تقدم من عبارات الآباء القديسين شهاداتٍ كثيرةً في افعال التوبة هذه ونزيد عليها هنا غيرها ايضاً : فالقديس باسيليوس الكبير يقول « لان من يتمرغ في خطيئةٍ يخلع النقاوة الحاضرة ولكنهُ لا يعدم التطهير المامول من التوبة في المستقبل » [٤] وفي محلٍ آخر يقول « فاذا كنا نعرّي الخطيئة بالاعتراف نصنعها عشباً يابساً يليق ان يؤكل من النار المنقية » [٥] والقديس يوحنا الذهبي الفم يقول « ان الآباء الطبيعيين اذا خالف اولادهم احداً من الرؤساء او ذوي القدرة في هذه الحياة لا يستطيعون ان ينفعوهم شيئاً . واما الكهنة فانهم كثيراً ما استعطفوا وصالحوا الارؤساء وملوكاً فقط بل الله نفسهُ » [٦] وقال ايضاً « أخطئتَ ؟ فادخل الكنيسة وامحُ خطيئتك . وكما انك بقدرما تقع في الشارع تنهض هكذا كلما خطئتَ تُب عن الخطيئة ولا تيأسنّ من ذاتك . وان خطئتَ ثانيةً فتب توبةً ثانيةً ايضاً ولا تسقطنّ من الرجاء بالخيرات الموعود بها سقوطاً كاملاً بسبب اهمالٍ . وان كنت في غاية الشيب وخطئتَ فادخل واندم . لان

(١) يو ٢٠ : ٢٢ لو ١٨ : ١٤ حز ١٨ : ٢١ يو ٢ : ٢١ (٢) لو ١٥ : ١٧ — ٢٤ رو ٥ : ١ و٢ ٢ كو ٥ : ١٩ (٣) لو ١٩ : ٧ — ٩ و٢٣ : ٤٢ — ٤٣ (٥) على اشعيا ١٤ : ٥ : ٢٠ (٥) في الحل عينو ١٩ : ٥ : ١٨ (٦) في الكهنوت ٣ : ٦

هذا المكان هو مستشفىً وليس محكمةً وهو لا يطلب مجازاةً على الخطايا بل يهب صفح الخطايا » [١] واخيراً البابا لاون القديس يقول « هكذا تنازل التعطف الالهي لضعف البشر حتى انهُ لم ينحصر في الصفح الذي يُعطى بالمعمودية بل امتدّ الى ترك الخطايا الذي يُعطى بالتوبة الى الحياة الابدية . وكل الذين لم يحفظوا منحة اعادة الولادة بل سقطوا من النعمة الالهية بسبب خطاياهم يستطيعون ان يحصلوا على تعطف الله ومحبتهِ برجوعهم الى قسوس الكنيسة واعترافهم لهم واستحقاقهم الغفران . . . هذا الامر ينبغي ان يصنعوهُ في كل حياتهم بالخصوص في ساعة الموت » [٢] .

٣ • ثم ان قوة فعل النعمة الالهية غير المنظور وسلطانة السرّ ليسا محصورَين في صفح خطايا البشر عموماً بوجه الاجمال بل كل خطيئة في هذا العالم غير قابلة الغفران والمسامحة متى تقدمها توبة حقيقية واعترافٌ بالخطايا مع ايمانٍ بيسوع المسيح ورجاء بالرحمة غير المتناهي وقد قال مخلصنا « لم آتِ لادعو صديقين بل خطأة الى التوبة » [٣] هكذا ليست مشيئةُ امام ابيكم الذي في السموات ان يهلك واحدٌ من هولاء الصغار » [٤] . وكلٌ يعلم كم كانت خطيئة بطرس الرسول ثقيلةً وعظيمةً وقد غفرها لهُ الرب لما رأى اخلاصهُ توبتهِ وقال ايضاً بطرس الرسول « ان الرب لا يبطئ كما يظنهُ بعض

(١) في التوبة ٣ : ٤ (٢) رسالة ٨٥ فصل ٣ (٣) مت ٩ : ١٣ و ١١ (٤) ١٨ : ١٤

لكنه يطيل أناته علينا لانه لا يريد ان يهلك احدًا بل ان يتقدم الجميع الى التوبة»[1]. ويوحنا الرسول يقول «يا اولادي اني اكتب اليكم لكي لا تخطأوا. وان خطئ احد فلنا شفيعٌ عند الآب يسوعُ المسيحُ البارُّ. وهو كفارةٌ عن خطايانا وليس عن خطايانا فقط بل عن خطايا العالم كله ايضًا[2]» «ان اعترفنا بخطايانا فهو امينٌ عادلٌ فيغفر لنا خطايانا ويطهرنا من كل اثم»[3]. ثم ان بطرس الرسول لما دعا اليهود الذين صلبوا يسوع المسيح انفسهم الى التوبة قال لهم «توبوا وليعتمد كلٌّ منكم باسم يسوع المسيح لغفران الخطايا[4]» ودعا ايضًا الى التوبة سيمون الساحر اوّل جميع الهراطقة وقال له «تُب من شرّك هذا وتضرّع الى الله عسى ان يغفر لك فكر قلبك»[5]. وبولس الرسول قد صفح لكورنثيٍّ ارتكب خطيئةً فظيعةً باختلاطه بالدم ثم تاب وبعد ان وضعهُ تحت قصاصٍ وخزيٍ قال عنه «مثل هذا يكفيه هذا القصاص الذي من الاكثرين»[6]. واذا كنا نرى في كتاب الله ان «كل خطيئةٍ وتجديفٍ يُترَك للناس واما التجديف على الروح فلا يُترَك للناس»[7] وكذلك قوله «ان رأى احدٌ اخاهُ يرتكب خطيئةً ليست للموت فليسأل فيعطيه الحياة التي تعطَى للذين يخطأون لا للموت. من الخطيئة ما هي للموت ولست من اجل هذا اقول ان يُطلَب. لكل اثمٍ خطيئةٌ ومن الخطيئة ما ليست للموت»[8] فينبغي ان نعلم انهُ في الآية الاولَى يعني بالتجديف على الروح القدس

(1) ٢ بط ٣: ٩ (٢) ١ يو ٢: ١-٢ (٣) ١٠: ٩ (٤) اع ٢: ٣٧-٣٨ (٥) ٨: ٢٢ (٦) ٢ كو ٢: ٦-٧ (٧) مت ١٢: ٣١ (٨) ١ يو ٥: ١٦-١٧

للمقاومة المعاندة لحقيقة الله الظاهرة[1] والتشويط في الكفر الشديد[2] وعدم امكان التوبة[3]. وفي الآية الثانية يعني بالخطيئة التي للموت الخطيئة الشديدة والمعاركة القوية ضد التقوى والحقيقة وعدم الاكتراث لاصلاح السيرة الى الدرجة النهائية[4] فعلى ذلك يكون في كلتا الحالتين عدم امكان ترك الخطايا ابديًّا لا من قِبَل الله وعفوه بل من قِبَل الخاطئ غير التائب. اما الله فانه يغفر كل خطيئةٍ من البرهة التي يرجع الخاطئون عن مرتكبوها ويندمون عليها باخلاص نيةٍ كما يشهد القديس يوحنا الذهبي الفم حيث يفسر التجديف على الروح القدس بالتجديف على اللاهوت ويقول ان هذه الخطيئة تُرِكت للتائبين عنها «لان كثيرين من الذين قالوا تلك الاقوال آمنوا فيما بعد وتُرِك كل شيء لهم»[5].

(١) قال القديس يوحنا الذهبي الفم «ما معنى هذا القول؟ معناهُ ان هذه الخطيئة خُصّت بعدم المغفرة خلافًا لسائر الخطايا. ولماذا ذلك؟ لانهم كانوا يجهلون المسيح من هو ولكن الروح القدس كانوا يعرفونه معرفةً كافيةً. لان الانبياء انما به نطقوا ما نطقوا وكل اصحاب العهد القديم كانوا يعرفونه معرفةً عظيمةً جدًّا. فما تراه هذا معناهُ. انتم تقاومونني وتشكون بي نظرًا للبشرة التي انا لابسها ولكن [illegible] تقدرون ان تقولوا في الروح انكم تجهلونه. ولهذا تجديفكم غير مغفور وسوف تعاقبون عنه هنا وهناك» (شرح متى مقالة ٤١: ٢) (٢) اثناسيوس الكبير على [illegible] مقالة ١٣: ٢١ و٢٢ (٣) اوغسطينوس رسالة ١٨٥: ٤٩. (٤) [illegible] السابع المسكوني قانون ٥ (٥) على متى مقالة ٤١: ٣. «قال ان خطيئة التجديف على الروح القدس هو يهوذا الاسخريوطي الذي انقطع منهُ كل رجاء توبة [illegible] توبته سوى زيادة خطيئةٍ على خطيئةٍ فانه ذهب وشنق نفسهُ وارتكب [illegible] فعلى ذلك طالما يُرجَى من الخاطئ ندمٌ لا تكون خطيئته تجديفًا على الروح القدس ولكن متى صمت صوت ضميره وتأصل في قلبه بغضٌ شيطانيٌّ ضد نعمة الله [illegible]

وآباء المجمع السابع المسكوني القديسون يقولون كذلك في امكان ترك الخطايا التي للموت «ان الخطيئة التي للموت هي التي يخطأ ما قوم ويلبثون عليها بلا تقويم · والاشنع من ذلك اذا كانوا ينتفخون وينهضون ضد التقوى والحق ويفضلون المال على طاعة الله ولا يتمسكون بنواميسه القانونية · فليس الرب الاله مع هولاء الا اذا اتضعوا واستيقظوا من غفلتهم لانه يجب بالاحرى عليهم ان يتقدموا الى الله ويطلبوا بقلب منسحق الترك والمسامحة عن هذه الخطيئة لا ان يتباهوا بالعطاء المتجاوز الشريعة «والرب قريبٌ من منسحقي القلوب»[1].

٤ · وقد اوضحت الكنيسة المقدسة المستقيمة الراي اعتقادها بامكان ترك كل خطيئة بسر التوبة. فاولاً لما افرزت المنتانيين الهراطقة الذين كانوا يقولون ان من الخطايا ما لا يمكن الصفح عنها بسر التوبة مثل عبادة الاصنام والقتل وادناس الجسد · ثم لما افرزت النواطيين الذين كانوا يعتقدون عقائد المنتانيين ويزيدون عليها خطية انكار الايمان حين الاضطهادات وسائر الخطايا المميتة[2] والخفيفة ايضاً[3] · واخيراً اذ حدث في مجامعها انه لو سقط رؤساء كهنتها انفسهم في اثقل الخطايا

ثقلها وصارت حالة شبيهة بحالة الشيطان وحالة يهوذا الاسخريوطي ولم يتب لله بتوبة حقيقية تكون خطيئة تجديفاً على الروح القدس ولا يمكن ان يحصل على غفران نظراً لحالة النفسية التي اتصل اليها وقانا الله من مثل هذا الحال التعيس

(١) مز ٣٣:١٨ وقانون ٥ للمجمع السابع المسكوني (٢) تاريخ سوزومينوس الكنائسي ١: ١٠ و٤: ٢٦ و٧: ٢٠ وابيفانيوس في هرطقة ٥٩: ١

(٣) اكليمنضوس الاسكندري ضد النواطيين كتاب ٤

وتقدموا الى التوبة فبعد ان يتمموا القوانين اللازمة يعتبرون بلا ريب مستحقين للصفح عنها[1].

الفصل السادس

في قوانين التائبين ومبدإها واستعمالها في الكنيسة

١ · تعريف القوانين وماهيتها والغرض منها ٢ · مبدأ السلطان في وضع القوانين ٣ · استعمال هذا السلطان في الكنيسة.

١ · ان لفظة «القانون» بالنسبة الى التائبين هي عبارة عن [illegible] او قصاص[2] يفرضه الكاهن بمثابة طبيب روحي على بعض المسيحيين الراجعين بتوبة عن خطاياهم لشفاء امراضهم الادبية وفقاً لما جاء في القوانين الكنائسية[3] · اما القوانين الاكثر شهرة فهي هذه: [illegible] خصوصي يفرض على التائب علاوة على الاصوام المفروضة على جميع المؤمنين · تكليفه لان يحضر يومياً الى الهيكل المقدس وان يسمع كل الطقوس والخدم الشريفة · صلاة في البيت مقرونة بعدد محدود من الركعات · توزيع قسم من ماله رحمة للمساكين · سفر الى الاماكن المقدسة لزيارتها تقوية لحسن العبادة · ابتعاد عن مناولة الاسرار [illegible] مناسباً لثقل خطيئته[4] . هذه هي القوانين الاكثر استعمالاً وهي لا تفرض على جميع التائبين كيفما اتفق لكن بحسب ثقل خطيئتهم وطبيعتها او بحسب اوصاف رجعتهم وكيفيتها · وفي قوانين الكنيسة الشريفة يرى [illegible]

(١) انظر كتاب القوانين في لفظة «توبة» من فهرسته · (٣) [illegible]

(٢) قانون ١٠٢ من قوانين المجمع السادس المسكوني (٤) اعتراف [illegible] المستقيم قسم ١ سؤال ١١٣

القوانين معينة كعقاقير وحية لشفاء كل خطيئة ثقيلة واستئصالها[1].

٢ · اما السلطان في وضع القوانين على بعض الخطاة وحلها على اية صورةٍ ناسبت فقد مُنح للكنيسة من مخلصنا نفسهِ حين اعطى سلطان ترك الخطايا للرسل وخلفائهم لان الرب لم يكتفِ بقولهِ لهم « كلما تحلونهُ على الارض يكون محلولاً في السماء » بل قال ايضاً « وكلما تربطونهُ على الارض يكون مربوطاً في السماء »[2] . وكذلك لم يكتفِ بقولهِ لهم « ان تركتم لقومٍ خطاياهم تُترَك لهم » بل « وان امسكتموها على قومٍ أُمسِكت »[3] وهذا السلطان قد راعى اجراءهُ الرسل القديسون فعليًا · فان القديس بولس الرسول لما عَلِمَ برجلٍ سقط في جريمة الاختلاط بالدم في كورنثُس واراد ان يشفيهُ فرض عليهِ اولاً قانونًا صارمًا جدًا بقولهِ اما انا فقد حكمتُ باسم ربنا يسوع المسيح « بان يُسلَّم مثل هذا الى الشيطان لهلاك الجسد لكي تخلص الروح في يوم الرب يسوع »[4] يعني ان يُفصَل من الكنيسة · ثم لما انتج هذا القانون نتيجةً خلاصيةً ورجع المجرم الى الله بتوبةٍ كتب بولس الى الكورنثيين ان يقبلوهُ في احضان الكنيسة وقال « يكفي هذا الانسان ذلك القصاص الذي من الاكثرين حتى ان الاحرى لكم ان تسامحوهُ وتعزوهُ لئلاً يُبتلَع مثل هذا من الغم المفرط ولذا اطلب اليكم ان تؤكدوا لهُ محبتكم »[5]

٣ · ان الكنيسة المقدسة تسلمت منذ تأسيسها سلطان فرض

---

(١) انظر قانون ٥ من قوانين غريغوريوس النيصي (٢) مت ١٨ : ١٨ (٣) يو ٢٠ : ٢٣ (٤) ١ كو ٥ : ١ — ٥ (٥) ٢ كو ٢ : ٦ — ٨

القوانين على التائبين من الرسل القديسين[2] · وعندنا شهادات كثيرة صريحةٌ على هذه الحقيقة ومنها

اولاً · شهادات القديس ايريناوس وترتليانوس وكبريانوس والاوامر الرسولية[1] ·

ثانيًا · ترتيب القوانين العمومية الذي كانت الكنيسة القديمة عليهِ وبحسب هذا الترتيب كان التائبون ينقسمون الى اربع رتبٍ لكل رتبةٍ منها قانونٌ خصوصيٌّ · فالرتبة الاولى كانت رتبة او صف الباكين الذين لم يكن لهم حقٌّ ان يحضروا الخِدَم الشريفة العمومية بل كانوا يقفون في مدخل الكنيسة متضرعين بدموعٍ الى الداخلين اليها ليطلبوا لاجلهم · والرتبة الثانية رتبة السامعين الذين كان مسموحًا لهم ان يدخلوا نرثيكس الكنيسة وان يسمعوا قراءة كلام الله والتعاليم لاجل الموعوظين والرتبة الثالثة رتبة الراكعين الذين كانوا يدخلون الهيكل ويقيمون في وقت الخدمة مدةً اكثر من الاولين ركوعًا على الركب امام ابواب الهيكل · والرتبة الرابعة رتبة المشتركين الذين كانوا ضمن الهيكل ويشاركون المؤمنين في الصلاة كل مدة الخدمة من دون ان تُناوَل لهم الاسرار المقدسة[3]

ثالثًا · تشهد ايضًا بهذه الحقيقة قوانين كثيرةٌ من المجامع و[illegible]

---

(١) ايريناوس ضد المراطقة ١ : ١٣ ، ٥ و ٣ ، ٤ وترتليانوس في التو[illegible] و ١٠ و ١١ وكبريانوس رسالة ٦ و ٥٣ (٢) الاوامر الرسولية كتاب [illegible] و١٨ و ٤١ (٣) انظر القوانين ١١ و ١٣ من المجمع الاول المسكوني [illegible]

القديسين حيث نرى تفصيل انواع القصاصات المتنوعة واوصافها ودرجاتها واوجه التساهُل فيها [1].

الفصل السابع
في معنى القوانين

١ . القوانين بحسب تعليم الكنيسة الارثوذكسية ٢ . القوانين بحسب رأي الكنيسة البابوية ٣ . البراهين على صحة رأي الكنيسة ٤ . البراهين على عدم صحة رأي الكنيسة البابوية .

١ . تُعتبَر القوانين كما ذكرنا نوعاً من القصاص للتائبين ولكنها في حقيقتها ليست قصاصاتٍ جزائية يُوفَى بها عدلُ الله بل هي قصاصاتٌ مقوِّمةٌ للتائب اي تأديبٌ ابويٌّ يماثل التأديب الذي تكلم عنهُ بولس الرسول بقولهِ «ان الرب يؤدِّب الذي يحبهُ ويجلد كل ابنٍ يتخذهُ ان كنتم تحتملون التأديب فانما يعاملكم الله كالبنين واي ابن لا يؤدبهُ ابوهُ ؟ وفي دينونتنا من الرب انما نؤدَّب لكي لا يحكم علينا مع العالم» [2]

٢ . وقد خالفت الكنيسة البابوية تعليم الكنيسة الرسولية في معنى القوانين . فانها تعتبرها قصاصاتٍ حقيقية غايتها وفآء عدل الله لا وسائل لتأديب الخاطئ فقط فتعتقد ان التائب يتكبد تلك القصاصات لكي يفي عدل الله الذي اهانهُ بخطاياه [3] . غير ان الكنيسة الرسولية

(١) انظر لفظة «توبة» في فهرسة قوانين الجامع والآبآء . (٢) عب ١٢ : ٦—٨ و١ كو ١١ : ٣٢ (٣) مجمع تريدنتي جلسة ١٤ فصل ٨

ترفض هذا المذهب وتعتبر القوانين بمثابة عقاقير تصلح لشفآء الامراض الروحية اي الخطايا ولا تسلّم بانها غرامةٌ ووفآءٌ لعدل الله [1]

٣ . اما البراهين على صحة تعليم الكنيسة المقدسة في القوانين والتأديبات الكنائسية فهي هذه . اولاً قول القديس بولس الرسول حيث يسمي الجزآء الثقيل الذي وُضعَ على المختلط بالدم من اهالي كورنثس كما رأينا توبيخاً لا وفآء لعدل الله . وقد امر الرسول ان يُرفَض هذا الرجل من الكنيسة ومن شركة المومنين وان «يُسلَّم مثل هذا الى الشيطان لهلاك الجسد» والقصد من هذا التسليم لم يكن وفآء عدل الله بل خلاص الخاطئ كما يقول «لكي تخلص الروح» [2] . وبعد ذلك لما رأى الرسول ان التوبيخ اثمر غماً ورجعةً للخاطئ امر حالاً برفع القصاص عنهُ [3] . فعلى ذلك تكون الغاية من التوبيخ لا وفآء عدل الله بل اصلاح سيرة الخاطئ وتجسينها . وقد عمل الرسول ذلك التوبيخ باحتراس تامٍّ وحنوٍّ

(١) ارميا البطريرك القسطنطيني في جوابهِ للاهوتيين البروتستانت كتب باسم الكنيسة الرسولية الارثوذكسية ما يأتي . «اما رفضكم التأديبات القانونية (للتائبين) رفضاً تاماً فنقول فيهِ : اذا كانت تلك التأديبات تفرَض من الرجال الروحيين بلا بيعٍ وشرآءٍ بل مجاناً بمثابة عقاقير للمتكبرين او الطامعين او الشرهين او المنغمسين بالشهوات او الحسودين او النضوبين او الكسالى او الساقطين في خطايا غيرها فانها تنفع وتساعد الراجعين النادمين اذا فرضت كما امر الآبآء الالهيون ان تفرَض واما اذا استعملت لربحٍ وجمع مالٍ للذين يفرضونها لا للغاية المستقيمة النافعة ولا كما فرضت وكتبت لشفاء كل واحدةٍ من الخطايا حينئذٍ نحن ايضاً نرفضها ونقول انها رديئة في ذاتها وفي فعلها وهذا لا شك فيهِ» انظر جواب ١ فصل ١٢ في التوبة (٢) ١ كو ٥ : ١—٥ (٣) ٢ كو ٢ : ٧

بوحيٍ حذراً من ان يكون الافراط فيه سبباً لمرضٍ وموتٍ للخاطيء بدلا من الشفآء والحياة . فكتب الى الكورنثيين قائلاً « لئلا يبتلع من الغم المفرط ولذا اطلب اليكم ان توكدوا له محبتكم »[1] . ثانياً: تحديدات المجامع المقدسة المسكونية والمكانية وقوانين الآبآء القديسين . وفيها نرى بكل وضوحٍ ان الآبآء الاقدمين اولاً كانوا يعتبرون التاديب قصاصاً للتقويم لا وفآء للعدل الالهي وبمعونة علاجاً روحانياً . ثانياً كانوا بوضعهم القوانين على الخطاة لا يقصدون ان يقاصوهم على مقتضى العدالة ويضعوا على بعضهم قصاصاً اعظم وعلى الآخرين قصاصاً اصغر بحسب درجات الذنوب ليوفى بذلك عدل الله وفآء مناسباً لجرم الخطايا بل كانوا يجعلون القوانين بمثابة علاجاتٍ شافيةٍ مناسبةٍ لحالة الامراض الروحانية ودرجتها . ثالثاً ان الغاية الوحيدة من القوانين امام الله والكنيسة هي بحسب تعليم الآبآء شفاء الخطاة وحفظهم من خطايا جديدةٍ لا وفآء للعدل الالهي بسبب خطايا البشر . رابعاً لو كانت الغاية من القوانين والتاديبات الكنائسية وفآء العدل الالهي لكان يجب على التائب ان يتمم قانونه كله بلا نقصٍ . ولكنا نرى ان الآبآء لم يكونوا ينتظرون الخاطيء دائماً الى ان يتم كل القانون المفروض عليه بل كانوا كثيراً ما يختصرون وقت التوبة ويعتقون التائبين من القوانين

(١) ٢ : ٧ قابل الذهبي الفم في مقالة ٤ على ٢ كورنثس ٢ . وقد قال في احد خطبه في التوبة ١ : ٦ « ماذا حصل ؟ الم تسلمه الى الشيطان ؟ نعم قد سلم ولكن لا ليبقى تحت سلطانه بل ليخرج منه » .

عتقاً كاملاً عند ما كانوا يرون انها انتجت النتيجة المطلوبة . خامساً واخيراً لو كان الغرض من القصاصات وفآء عدل الله لكان يجب ان تُفرَض على جميع الخطايا بلا استثنآء بحسب جرم الخطيئة اذ كل خطيئة هي منافيةٌ لرضى الله على ان القوانين لم تكن تُفرَض قديماً ولا تُفرَض على جميع الخطايا بل على اثقلها واعظمها . ونذكر هنا بعض فصول قوانين المجامع تتعلق بهذا الموضوع اتماماً للفائدة فمنها

« يجب على الذين نالوا من الله سلطان الحل والربط ان ... ماهية الخطيئة واستعداد الخاطيء الى الرجوع . وهكذا يقدمون ... ملائماً للمرضى حتى لا يستعمل الافراط في كلٍ من الامرين ... خليص المريض . لان سقم الخطيئة ليس بسيطاً بل متنوعٌ وكثير ... وله فروعٌ كثيرةٌ يمتد منها الشر امتداداً عظيماً ويسري الى ... انه يقاوم قوة المعالج »[1] .

ومنها يجب على الذي يتعاطى الطب الروحي ان يلاحظ ... فكر الخاطي وينظر هل هو مائلٌ الى الصحة او بالعكس انه يدعو ... الى نفسه بسوء اخلاقه وان يلاحظ تصرفه وسلوكه ومدة ... حتى اذا كان لا يقاوم الطبيب ويزيد قروح النفس بالعقاقير ... لها يعامله بالرحمة التي يستحقها »[2]

(١) قانون ٢٠١ من المجمع السادس المسكوني قابل به القانون ١٢ من ... الاول المسكوني والقانون ٥ من مجمع انقرة والقانون ٢٣ من مجمع قرطاجنة ...
(٢) تابع القانون ٢٠١ قابل القانون الثالث من قوانين القديس باسيليوس ...

ومنها «ان تمام الكلام عند الله وعند من ائتُمِن على الرئاسة الرعائية هو ان يردّ الخاروفَ الضالَّ ويشفيهُ من الجرح الذي جرحه اياه الثعبان ولا يدفعه في مهواة اليأس لئلاً يهلك ولا يرخي له العنان لئلاً يزدري وتسترخي عيشتهُ وعلى كل حالٍ يجب على الراعي ان يحارب المرض كيفما كان بلا تهاون اما بالادوية الحارّة والقابضة واما باللينة واللطيفة وان يجاهد في ختم القرح باختبارهِ اثمار التوبة ومداراتهِ بحكمةٍ ذلك الانسان المدعوّ الى الاستنارة العلوية»[1].

وكما ان غاية صناعة الطب في معالجة الجسد واحدةٌ وهي صحة المريض واوجه المعالجة كثيرةٌ ومتنوعه (اذ لكلٍ من انواع الامراض طريقةٌ ملائمةٌ تعالج بها) هكذا بما ان الآلام في المرض النفساني متنوعةٌ فمن الضرورة تتنوع اوجه المعالجة الطبية ايضاً في اشكالها. فتاتي بالشفاء متى جرت على مقتضى الألم . . . ولذا يجب على المزمع ان يعطي العلاج المناسب لقسم النفس المنسقم ان يفحص قبل كل شيء اين الألم ثم يقدم للضعيف علاجاً ملائماً حتى لا يكون الطبيب بجهلهِ منهج الطبيب سبباً لان يصل العلاج الى قسمٍ آخر غير القسم الذي فيهِ المرض»[2].

«في كل نوعٍ من انواع الزلات يجب قبل كل شيء ان يلاحَظ ما هو ميل التائب ولا يظنّ الزمان كافيا للشفاء (اذ ايُّ شفاءٍ يمكن ان يحصل من الزمان ؟) بل النية الحسنة من الذي يعالج نفسهُ بالتوبة»[3].

«اما الذين يندمون ندامةً اكثر حرارةً ويظهرون بسيرتهم رجوعاً

(١) في الحل عينو (٢) غريغوريوس النيصيّ قانون ١ (٣) قانون ٨ منه

الى الصلاح فمسموحٌ للمعلم الروحي ان يختصر لهم زمان الاستماع على ما يوافق التدبير الكنائسي ويجعلهم ان يكونوا باكثر سرعةٍ في مصاف الراجعين ثم مسموحٌ له ان يختصر هذا الزمان ايضاً ويمنحهم الشركة بسرعةٍ اكثر بحسب ما يرى ذلك موافقاً بعد اختبارهِ حالة المتطبب»[1].

«ولتُقتصَرْ مدة القانون بحسب ما تقتضي قوة التوبة حتى تُعوَّض السنوات التسع بثمانٍ او بسبعٍ او بستٍ او بخمسٍ فقط اذا كانت التوبة عظيمةً تغلب الزمان وتجعل التائب في التقويم يسبق الذين يطهرون انفسهم من الاوساخ بتهاونٍ في مدةٍ طويلةٍ . . اعني انهُ ينبغي هنا ايضاً ان يُفحص عزم التائب وميلهُ وان لا يُحافَظ على عدد السنين بالتدقيق متى كانت توبتهُ حقيقيةً بل يؤتى بهِ بالطريق القصيرة الى رتبتهِ في الكنيسة ليشترك بالصلاح الحي بالاسرار المقدسة)»[2].

«لما كانت الافعال المفعولة خطأً من تلقاء التهيّج كثيرةً وكلها رديئةٌ فقد رأى آباؤنا ان لا يدققوا في جميع انواعها تدقيقاً زائداً ولا يعتبروا كل الزلات الحاصلة من الغيظ محتاجةً الى علاجٍ على ان الكتاب ينهي لا عن الضرب البسيط فقط بل عن كل خصامٍ وتجديفٍ ايضاً[3] وعن كل ما ينجم عن الغيظ من امثال ذلك . لكن الآباء جعلوا التحفّظ من فظيعة القتل وحدها بالتأديبات»[4].

(١) قانون ٤ منه (٢) قانون ٥ منه قابل قانون ١٢ من المجمع الاول المسكوني وقانون ٧٤ للقديس باسيليوس (٣) مت ٥ : ٢٢ وكو ٣ : ٨ وافسس ٤ : ٣١ و ٥ : ٦ (٤) قانون ٥ منه

ولكي نفهم جيداً كيف نصلح القوانين ان تكون علاجات ضد امراض النفس نلاحظ ما يأتي

اولاً · من حيث القوانين هي تأديبات كنائسية يمكنها ان تلين عجرفة الخاطئ وتحركهُ الى ان يشعر بزلتهِ عميقاً ويعترف بها امام الله والكنيسة ومن ثم تولد فيه بغضاً للخطيئة وشوقاً للتقويم والاصطلاح · وهكذا تفتح للمسيحيين التائبين ميداناً لممارسة جميع الشعائر التقوية والنيات الصالحة التي بها ينالون تعزية ورجاء في حين توبتهم · وهذه الشعائر والنيات هي مبادئ حسنة لاصلاحهم · وهنا ينبغي ان نذكر رتب التائبين الاربعة التي كانت في الكنيسة القديمة ·

ثانياً · ان القوانين تقوم على الغالب برياضات او فروض غيرها تقوية تُعيَّن بنوعٍ خاصٍ ضد بعض الخطايا والاهواء والسيئات وتساعد على قلعها من الخاطئ فيُفرَض على الشرهِ مثلاً الميال الى اللذات قانوناً وتأديباً الامساك والصوم · وعلى محب الفضة والسارق فعل الرحمة[1] وعلى المترف والعديم الشبع من التمتعات العالمية مواظبة الحضور الى الهياكل الشريفة بتواترٍ وقراءة الكتب المقدسة باتصالٍ والصلاة في البيت وما شاكلها . ومن المعلوم ان الخاطئ بقدر قبولهِ القانون المفروض عليهِ وخضوعهِ لهُ بطويةٍ صالحةٍ يُسرع في استئصال

(١) قال القديس غريغوريوس النيصي «اما الذي يقتني الاشياء الغريبة بسلبٍ خفيٍّ ويظهر بعد ذلك خطيئتهُ للكاهن باعترافٍ فليعالج الكاهن مرضهُ مكلفاً اياهُ الى ما هو ضد الالم . اعني بان يفرّق ما عندهُ للمساكين لكي يتضح بتوزيعهِ ما عندهُ انهُ طهر من مرض الطمع» (قانون ٦)

المرض القديم واقتناء عوائدَ صالحةٍ واخلاقٍ حميدةٍ

واخيراً من حيث ان القوانين هي تأديبات كنائسية لها فضلٌ آخر غير الذي ذكرناهُ قبلاً من تأديب التائبين اعني انها وسائط فعّالة ايضاً تحفظ الآخرين من السقوط في خطايا التائبين وتساعد على اصلاح اخلاق اعضاء الكنيسة بوجه الاجمال وتدافع عن شرائعها وتحديداتها ضد استبداد الضالين والعصاة من ابنائها ·

٤ · قلنا ان الكنيسة الرومانية تؤمن وتعلّم بان القوانين هي قصاصات يجب على التائب ان يحتملها ليقدم بها وفاء لعدل الله [illegible]

ولكنَّ هذا التعليم مضادٌّ للتعليم المسيحي في وفاء العدل الالهي وفي تبرير الخاطئ . لاننا نتعلم من كلام الله ان مخلصنا يسوع المسيح قدم [illegible] وحدهُ مرةً واحدةً فقط وفاء كاملاً للعدل الالهي عن خطايا كل الجنس البشري · وانهُ كابد جميع الاوجاع والآلام التي كان الخطاة كلهم [illegible] طائلتها لاجل خطاياهم كما ينادي اشعيا النبي قائلاً «انهُ قد اخذ [illegible] وحمل اوجاعنا · جُرِحَ لاجل خطايانا وسُحق لاجل آثامنا [illegible] سلامنا عليهِ وبشدخهِ نحن شفينا»[1] وقد صار لنا رئيس كهنة [illegible] ابدياً «قادراً ان يخلّص خلاصاً كاملاً الذين يتقربون بهِ الى [illegible] هو حيٌّ كل حينٍ ليشفع فيهم»[2] والكتاب المقدس يعلمنا ايضاً [illegible] تبرير الخاطئ «ان الانسان لكي ينال التبرير الذي يخلص العالم [illegible]

(١) اش ٥٣ : ٤ — ٥ قابل رو ٣ : ٢٥ و كو ١ : ٢٠ و ١ بط ٢ : ٢٤ و ٣ : ٢ (٢) عب ٧ : ٢٥

يتم شرطين احدهما التوبة والايمان والثاني الاعمال الصالحة . اما الايمان فلانهُ بدونهِ لا يرضى الله «فتوبوا وآمنوا بالانجيل»[1] «ونحن بيسوع المسيح آمنا لكي نتبرَّر من الايمان بالمسيح»[2]. واما الاعمال الصالحة فلانها هي اثمار التوبة والايمان والشهادة بها «ترون اذن ان الانسان بالاعمال يُبرَّر لا بالايمان وحدهُ»[3] «لانهُ في المسيح يسوع لا يقوى الختان ولا القلف على شيء بل الايمان الذي يعمل بالمحبة»[4] «لانهُ ليس السامعون للناموس هم ابرارٌ عند الله بل العاملون بالناموس هم يُبرَّرون»[5].
فعندما يتمّ الخاطئ هذين الشرطين يستطيع ان ينال استحقاق المسيح الخلاصي وهكذا يتعطف الله ويوفى عدلهُ الالهي لالان التوبة والايمان والاعمال الصالحة لها قدام الله قوةُ ذبيحة غفرانٍ واستعطافٍ وهي التي تفي عدل الله وتبرّر الخاطئ بل تحت هذا المعنى فقط وهو ان التائب باتمامهِ تلك الشروط يحصل على استحقاقات منقذنا الالهي الذي وفى عنا بذاتهِ عدل الله وفاءً كاملاً . فالخلاص مُعَدٌّ وعدل الله موفيٌّ ولكن على الانسان ان ينالهُ بالتوبة والايمان والاعمال اما تشبُّث البابويين بان الخطأة التائبين فضلاً عن الايمان والاعمال الصالحة الضرورية للحصول على استحقاقات المخلص واجبٌ عليهم ان يتكبدوا قصاصاتٍ بها يوفون العدل الالهي عن خطاياهم فانهُ يأتي باصحابهِ الى احدى النتيجتين الآتيتين وهما: لما ان

(١) مر ١: ١٥ طع ٢ ٢٨ (٢) غلا ٢: ١٦ ورو ٨: ٢٤ — ٢٥ و١٠ — ٩ (٣) يع ٢. ٢٤ (٤) غلا ٥ ٦ مت ٧: ٢١ (٥) رو ٢: ١٣

آلام المخلص لم تكن كافية لتبرير الخطأة وان الوفاء الذي اعطاهُ فادينا عن خطايا العالم ليس كاملاً ويجب ان تتبعهُ احزان الخطأة التائبين المفروضة عليهم في القصاصات ليكمل بها ولا يلبث ناقصاً . واما ان الايمان والاعمال الصالحة ليست كافيةً لينال الانسان بها استحقاقات المخلص .. وكلتا هاتين النتيجتين رديئةٌ تهدم كل التعليم المسيحي في خلاص الجنس البشري وتبريرهِ من مخلصنا الا لهُ المتأنس وليس مسيحيٌّ يقبل شيئاً منهما.

واذا كان القديس يوحنا المعمدان يطلب من الخطأة التائبين «اثمارَ الائقةَ بالتوبة»[1] فلا يعني باثمار التوبة قصاصاتٍ تُفرَض عليهم بسبب خطاياهم القديمة ليفوا بها عدل الله (كما يعلّم البابويون) بل يعني بها الاعمال الصالحة التي هي شاهدٌ لرجوع الخطأة رجوعاً صادقاً ولحقيقة رغبتهم في تقويمهم واصلاحهم التي بها يستعطف الله . وهذا يظهر من قول يوحنا المعمدان نفسهِ الذي هو شرحٌ لهذه الآية اصدق من كل شرحٍ سواهُ . فان يوحنا عندما كان يدعو الخطأة للتوبة لم يكن يفرض عليهم قصاصاتٍ بل كان يطلب منهم ان يرجعوا عن آثامهم ويغيروا سيرهم الذميمة ،يتمموا الواجبات ويعيشوا عيشةً مرضيةً لله[2] . وكذلك ما ورد في الكتاب المقدس من ان اهل نينوى بعد انذار يونان النبي للتوا

(١) مت ٣: ٨ . ان هذه الآية وما بعدها يعترض بها البابويون لتأييد تعليمهم راجع بيهودن وفيربار وليبرمان وغيرهم في ما كتبوهُ في التوبة والوفاء
(٢) لو ٣: ٨ — ١٥

من الله المسامحة بالصوم القوي والدموع الحارة[1] وان دانيال النبي اشار على نبوخذنصر الملك ان يشتري خطاياه بافعال الرحمة[2] وان «الرحمة تنجي من الموت ولا تترك احدا يدخل الظلمة»[3] لانستنتج منه ان مفاد هذه الآيات الكتابية اي الصوم والدموع والرحمة هو ايفاء حقوق يوفى بها عدل الله الابدي بل انما يستنتج من ذلك ان تلك الدموع وامثالها كانت بعض براهين ظاهرة على رجعة الخطاة وبعض اثمار ناتجة عن ايمانهم بالله ومحبتهم له اذ ان الاوجه التي بها تظهر رجعة الانسان الحقيقية الى الله هي الدموع والتنهدات والصلوات والاصوام وسائر اعمال التقوى - وهذه الحقيقة قد ثبتها الله ذاته حيث قال «ارجعوا اليّ من كل قلوبكم وبالصوم والبكاء والانتحاب ومزقوا قلوبكم لا ثيابكم - وارجعوا الى الرب الهكم فانه رحيم ورؤوف طويل الروح وكثير الرحمة ونادم على الشرور»[4] - فالتوبة اذن المرضية لله هي التي يظهرها الخاطئ بالاصوام والصلوات واعمال الرحمة وهذه كلها ليست ايفاء لعدل الله غير المتناهي وليست ثمنا للصفح الذي ننالهُ منه بل دلائل خارجية تظهر بها رجعتنا اليه فيصفح حينئذٍ غير المتناهي عن خطايانا لانه لم يكن ممكنا لاهل نينوى ان يوفوا عن خطاياهم عدل الله غير المتناهي بثمنٍ حقير كهذا - وقد قال يونان النبي انما الذي نفع اولئك القوم (اهل نينوى) فانهم ضمدوا جراحاتهم بالصوم وكان ذلك الصوم شديدا - وضمدوها بالجلوس على الارض ولبس المسح والرماد والانتحاب وضمدوها ايضا بتغيير سيرتهم

(١) يون ٣: ١٠ (٢) دا ٤: ٢٤ (٣) طو ٤: ١٠ (٤) يوئيل ٢: ١٢ - ١٣

الرديئة . ولننظر الآن اي علاج من هذه العلاجات جعلهم صحا ؟ قد قال الكتاب «ان الله رأى . . . كل واحدٍ منهم رجع عن طريقه الشريرة وندم على الشر الذي نوى ان يصنعهُ بهم» فلم يقل ان ... الصوم والمسح والرماد - وانا لا انفي انه يقصد بذلك ان يلغي الصوم ... بل يحث ان نجعل صومنا افضل بالاجتهاد عن ... »

ثم ان تعليم الكنيسة الرومانية هذا مضاد للتعليم الحقيقي في عدل الله لان مخلصنا يسوع المسيح قدم للعدل الالهي ضحية كاملة ليبتاع من لعنة الشريعة ومن الخطيئة جميع الخطاة[2] . وهذه الحقيقة يؤمن ويقرّ بها البابويون ايضاً . فالذي يقول ان الله لا يرتضي من الخطاة بالايمان بالمخلص فقط الذي به تُمحى الخطايا السابقة[3] وبالاثمار اللائقة بالتوبة بل يطلب منهم ضرورة ان يحتملوا قصاصاتٍ يوفى بها عدله الالهي يضطر ان يسلم بان الله يطلب وفاء مضاعفاً عن خطايا البشر اعني الوفاء الذي هو الوحيد ووفاء آخر ايضاً من الناس وهذا الرأي غير صحيح بل هو تجديف مرفوض ثم لو كان لا بد من طلب الوفاء في محكمة العدل الابدي من الخطاة التائبين لكان هذا الطلب يعم بلا شك جميع الخطاة ويطلب منهم الوفاء على جميع خطاياهم ايةً كانت ولكن البابويون انفسهم يعلمون ان الله لم يطلب من جميع الخطاة وفاء بالقصاصات بل من الذين كانت خطاياهم ثقيلة فقط لانه يغفر لباقي الخطاة خطاياهم ...

(١) مقالة ٤: ٥, ٦ على ٢ كو (٢) غلا ٣: ١٣ (٣) رو ٣: ٢٥

التوبة فتعليمهم اذن لا يستقيم على مبادئهم . وكذلك نقول انهُ لو كان لا بدّ من وفآء الخاطئ التائب عدل الله بالقصاص لكان يجب على الذين يتقدمون الى المعمودية المقدسة ليتطهروا من خطاياهم ما يجب حسب زعم الرومان على الذين يطلبون ان يتطهروا منها فيما بعد بمعمودية التوبة اعني ان يؤدّوا القصاصات الموفية لعدل الله. ولكن البابويون انفسهم يعلمون ايضاً ان الله يصفح للخطأة في سرّ المعمودية جميع خطاياهم ولا يكلفهم لتكبد قصاصٍ ولا يطلب منهم وفآء مطلقاً ويحصرون طلب القصاص والوفآء في سرّ التوبة فقط لا من جميع الخطأة بل من بعضهم ولا على جميع الذنوب بل على بعضها ويدَّعون ان الله لا يصفح عن تلك القصاصات الوقتية الا متى تمت ووفيَ عدلهُ بها [1] . وكلٌّ يرى بلا شكٍ ما الفرق العظيم الذي بين هذه التعاليم الغريبة الغربية والتعليم الصحيح الارثوذكسي بان الخاطئ وان يكن نال بالتوبة الصفح عن خطاياه يجب عليهِ ان يصنع اثماراً لائقةً بتوبتهِ وان ينقي ذاتهُ من كل دنس جسدٍ وروحٍ ويصلح سيرتهُ وان الله يطلب من الخطأة اما راساً او بواسطة رعاة الكنيسة تتميم بعض القوانين للغاية المذكورة فقط لان هذه القوانين بحسب المعنى القويم الارثوذكسي ليست قصاصاتٍ لا بدَّ منها مشروطٌ باتمامها صفح الخطايا حتى انهُ لا يتم بدونها كما يزعم البابويون بل هي وسائط خلاصية غايتها النفع الادبي للذين فُرضت عليهم

وباطلاً يورد اللاتينيون تأييداً لتعليمهم المذكور مثل آدم [1] وموسى وهرون [1] وعلى الخصوص مثل داود [2] الذين قاصهم الله على خطاياهم قصاصاتٍ وقتية ويقولون ان الله يظهر في هذه الحوادث ديان مخيفاً طالباً وفآء لعدلهِ المهان اكثر مما يظهر انهُ آبٌ حنونٌ يصفح عن ذنوب ابنهِ المذنب ويقاصهُ تحت مجرَّد غاية التقويم في الحاضر وحفظهِ من جناياتٍ اخرى في المستقبل او تحت القصد بان يجعلهُ عبرةً لسائر ... ولكنا نجيب على قولهم هذا بان قصاصات الله لآدم وموسى وهرون وداود لم تكن وفآء لعدلهِ السرمدي بل كانت جزآء معاصيهم كما اقتضت معاصي البشر جلب الطوفان وامطار النار والكبريت . وهنا يجب ان نذكر ان الكتاب المقدس يميز تاديبات الله للبشر الى نوعين : الى قصاصات ... يقاص الكفرة والاشرار والى تاديباتٍ بها يؤدب عبيدهُ المؤمنين الراجعين اليهِ من كل قلوبهم . فيصف القصاصات الاولى بانها نتائج غضبٍ ... تثيرهُ على الاشرار شرورهم وتقتضي منهُ المجازاة [3] ويصف التاديبات الثانية بانها تاديباتٌ ادبيةٌ غايتها اصلاح الناس وارجاعهم من الشر الى الخير بواسطة الخوف [4] . وقد قال مخلصنا «ان كل الذين احبهم اوبخهم واؤدّبهم فكُن غيوراً وتُب» [5] . والقديس بولس الرسول ... سليمان ثانٍ [6] ينصح المؤمنين ان لا يهملوا تاديب الله قائلاً « لا تحتقر تاديب الرب ولا تخُرْ اذا وبخك» [7] . ثم ان رايهم ... المذكور مضادٌ لتعليم الكنيسة القديمة لان قوانين كثيرة من ...

(١) انظر بيرون وفابر وايبرمان في الوفاء (٢) حكمة ١٠: ١ وتك ٣: ١٨

(١) عد ٢٠: ١١ و١٢ و١٤و٢٤ تث ٣٢: ٤٩ (٢) ملو ١٢: ١٣... ار ٣٢: ١٩ ورو ١: ١٨ (٤) ١ كو ١١: ٣٢ عب ١٢: ٦ـ٨ وايطا... ٧ يع ١: ١٢ (٥) رؤ ٣: ١٩ (٦) ام ٣: ١٢ (٧) عب ١٢: ٥

المسكونية والمكانية وقوانين الآباء القديسين قد ذكرت التاديبات الكنائسية ولكن ما من واحدٍ منها وصفها بانها وفاء لعدل الله عن الخطايا بل كلها وصفتها بانها قوانين وعقاقير روحية ضد امراض النفس"[1]. وهذا التعليم عينه نجده في مؤلفات الآباء القديسين اجمع الذين نورد هنا بعضاً من اقوال واحدٍ منهم وهو القديس يوحنا الذهبي الفم حيث يتكلم كلاماً مطولاً عن التوبة والتاديبات وينادي بكل تصريح اولاً ان الله تعالى يصفح عن خطايا المسيحيين التائبين المفعولة منهم بعد المعمودية من دون ان يفرض عليهم قصاصات فقال « هذا الابن اذن (اي الابن الشاطر) هو رسمٌ للساقطين بعد المعمودية. اما الدليل على انه يخص الساقطين بعد المعمودية فظاهرٌ من كونه يُدعى ابناً. لان ما احدٌ يستطيع ان يدعى ابناً ما لم يكن معمّداً. وقد كان ساكناً بيت ابيه ومتمتعاً بجميع مالهِ. وقبل المعمودية لا يمكن التمتع بالملك فضلاً عن نوال الميراث. فكل هذه دلالاتٌ ظاهرةٌ على ان الابن الشاطر يخص طغمة المؤمنين... فبعد ان ذهب هذا الشاطر الى ارضٍ غريبةٍ وعلم بالفعل كم هو شرٌّ عظيم سقوطه من بيت ابيهِ عاد اليهِ. ولم يحقد عليه ابوهُ بل قبله باليدين مفتوحةٍ. ولماذا قبله هكذا؟ لانه كان اباً لا حاكماً. ولذا فقد كان رقصٌ وطربٌ واحتفالٌ وكان البيت كله باشاً ومبتهجاً. فماذا تقول اذن؟ أهذه هي

(١) هنا ينبغي ان نذكر ان المجمع المكاني الذي انعقد في القرن الثالث في رومية حدد ضد النوارتيين ما يأتي « واما نوارتس والذين تشايعوا معه والذين اختاروا ان يتبعوا رأيه في بغض الاخوة والقساوة فيجب ان يعتبروا من الخارجين عن الكنيسة والذين اصبحوا بعصبة الاخوة فيجب ان نعالجهم ونطيبهم بعقاقير التوبة. انظر تاريخ اوسابيوس ٦: ٤٣

مجازاة الشر؟ ان هذه المكافأة أيها الانسان ليست جزاء الشر بل مكافأةٌ للرجعة. وليست للخطيئة بل للتحوّل. والامر الاعظم من ان الابن الاكبر تذمّر من هذه المعاملة. واما الاب فاقنعه بوداعة قائلاً انك معي دائماً واما هذا فكان ضالاً فوُجِدَ وكان ميتاً فعاش"[1]. ثم يقول: انه عندما يُطلب تخليص الهالك لا وقت للمحاكمات ولا التدقيق وانما الوقت وقت التعطف والصفح فقط لان الطبيب لا يؤجل تقديم الادوية لعليلهِ ويطلب منه جزاء وقصاصاً على التي نشأ عنها مرضه... فاذ قد علمنا ان الله فضلاً عن انه لا يأبى من الراجعين اليه يقبلهم الى درجةٍ ليست ادنى من درجة القويمين لا يطلب قصاصاً بل هو يأتي ويطلب الضالين ويفرح بوجودهم ايام من المخلّصين فلا نيأسنّ اذا كنا من الاشرار ولا نتهاملنّ واثقين بانفسنا اذا كنا من الابرار. وينبغي ان نخاف من السقوط ان كنا من القويمين ولن نندم ان كنا من الخاطئين. وما قلته في البدء اقوله الآن ايضاً وهو ان الثقة بالذات لمن كان مؤمناً واليأس لمن كان ساقطاً كلاهما يهلكان في امر خلاصنا ولهذا يقول بولس الرسول صيانةً للقويمين « من الظن فيكم انه قائمٌ فلينظر كي لا يسقط"[2] » ثانياً يقول الذهبي الفم اننا انما نبتلي انفسنا نستطيع ان اردنا ان نعتق من القصاصات الابدية. ويصرح بان الله تعالى يؤتينا القصاصات الوقتية عندما نرفض الرجوع اليهِ. وانه انما يأتينا تلك التأديبات للقصد الوحيد بأن يشفينا من الخطيئة وعلة

(١) لو ١٥: ٢١—٣٢ (٢) في التوبة مقالة ١

عبارته «لانه قال: لو كنا ندين انفسنا لما كنا نُدان»[1]. فلم يقُل لو عذّبنا او قاصَصْنا انفسنا بل قال لو كنا ندين انفسنا اي لو اردنا ان نعرف خطايانا وحكمنا على نقائصنا لكنا انعتقنا من القصاص الذي هنا والذي هناك . لان من يدين نفسهُ يستعطف الله استعطافاً مضاعفاً اولاً بكونهِ عرف خطاياهُ وثانياً بكونهِ سيصير في المستقبل مبتعداً عنها . وبما اننا لا نريد ان نصنع الامر الخفيف ايضاً لا يطيق مع ذلك ان يعذبنا نحن والمسكونة كلها معاً بل يشفق علينا في هذه الحالة ايضاً طالباً منا دينونة هنا حيث القصاص وقتيٌّ والتعزية كثيرة والامر عتقٌ من الخطايا والامل الصالح بالمستقبلات يخفف علينا الحالة الحاضرة . وقد قال ذلك معزياً المرضى من جهةٍ ومن جهةٍ اخرى مشدِّداً عزائم الآخرين ولذا يقول «فاذا كنا نُدان نؤدَّب من الرب» فلم يقُل نُعذَّب او نُقاصّ بل قال نؤدَّب لان هذا الامر انما هو نصيحةٌ لا حكمٌ ودواءٌ لا اقتصاصٌ وتقويمٌ لا تعذيبٌ»[2]. ثالثاً يقول «ان واجب الرعاة والآباء الروحيين كلهُ يقوم بشفاء الخطأة من الامراض الادبية بالتأديبات او بوسائط اخرى لا بقصاصهم قصاصاتٍ خصوصية على الخطايا. لان المسيحيين بنوعٍ خصوصيٍّ عن سائر الامم لا يُسمَح لهم ان يصلحوا هفوات الخطأة بالوسائط الاجبارية . ولهذا فان الغرباء عن الديانة المسيحية عندما يمسكون اناساً مجرمين جنوا ضد الشريعة يمكنهم ان يحاكموهم بسلطانٍ عظيمٍ ويمنعوهم عن عوائدهم رغماً عنهم ولكن نحن يجب علينا ان نصلح من كان كذلك لا بالاجبار بل

(1) ١ كو ١١: ٣١ (2) مقالة ٢٨ : ٣ على ١ كو

بالاقناع. لانهُ لم نُعطَ من الشرائع سلطةً اجباريةً لمنع الخطأة من الخطايا ولا وجه لنا ان نستعمل القوة ان سمحت الشريعة ما دام الله لا يمنح الاكليل للذين يبتعدون عن الخطيئة جبراً بل للذين يتركونها من تلقاء ارادتهم . ولهذا يحتاج الامر الى اوجهٍ كثيرةٍ يقتنع بها الضعفاء ان يخضعوا طوعاً للعلاجات المعيَّنة لهم من الكهنة ويعترفوا لهم ايضاً بالمنَّة على المعالجة . لانهُ ان هرب بعد الربط (وهو حرٌّ في ذلك) فيجعل الشر اردأ مما كان. وان اعرض عن الاقوال القاطعة مثل السيف يضيف باحتقاره اياها جرحاً على جراحهِ ويمسي امر المعالجة علةً لعلةٍ اردأ حيث ليس مَن يستطيع ان يجبرهُ او يداويهُ كرهاً . فماذا نعمل اذن؟ لانك اذا اكثرتَ من الوداعة مع مَن يحتاج الى قساوةٍ عظيمةٍ ولم تتعمق في سبر الجرح العميق فتكون قد قطعت جانباً من الجرح وتركت منهُ جانباً . . . فلهذا يجب ان يكون الراعي ذا فطنةٍ عظيمةٍ وان تكون لهُ ربواتٌ من الاعيُن ليلاحظ من كل جهةٍ حالة النفس . لانهُ كما ان كثيرين يتصلون الى درجة قطع الرجاء ويسقطون في اليأس من خلاصهم لعدم امكانهم احتمال العلاجات المرَّة هكذا كثيرون غيرهم اذا لم ينالوا تأديباتٍ توازي خطاياهم يسقطون في الاحتقار ويصيرون شراً مما كانوا ويتجرأون على خطايا اعظم . فيجب اذن على الكاهن ان لا يترك شيئاً بلا فحصٍ بل ان يفحص كل شيء بالتدقيق ويعطي الموافق للعليل حتى لا يكون تعبهُ باطلاً واهتمامهُ فارغاً»[1]. رابعاً واخيراً يقول ان الصلاة

(1) في الكهنوت خطاب ٢ ٥

والرحمة وسائر الاعمال التقوية التي نعرض على الخطأة وتسمى قانونًا او تاديبًا انما هي وسائط متنوعة غايتها بحسب الحاجات الروحية «اننا قبلاً كنا نتكلم عن التوبة وكنا نقول لكم طرق التوبة كثيرة ومتنوعة تجعل الخلاص لنا سهلاً . . أأنت خاطئ ادخل الكنيسة قل خطئتُ فتُحلُّ خطيئتك لاننا ذكرنا داود كيف خطئ وحلَّ خطيئته ثم بينّا طريقًا أخرى وهي النوح على الخطيئة وقلنا بماذا يقوم هذا التعب. فلا يُطلَب منك ان تقدم دراهم ولا ان تمشي طريقًا طويلة ولا ان تعمل شيئًا آخر من ذلك بل ان تحزن على خطيئتك فقط . . . ثم اننا بينّا ايضًا طريقًا ثالثةً للتوبة واتينا بذكر الفريسي والعشار من الكتاب الالهي واوضحنا كيف سقط الفريسي من البرّ بسبب كبريائهِ وعجرفتهِ وكيف ان العشار اثمر تواضعهُ عدلاً ونزل مبرَّرًا وصار فاضلاً وهو لم يتكبد ادنى تعبٍ لانهُ دفع كلماتٍ واخذ اوامر. فلنات الآن الى توابع الكلام ولنقدم لكم طريقًا رابعةً للتوبة . وان سألتم ما هي هذه؟ قلت هي الرحمة ملكة الفضائل التي تُصعِد البشر بسرعةٍ الى قناطر السماء وهي افضل المدافعين عنهم . . . غير ان لك طريقًا اخرى ايضًا للتوبة سهلة جدًّا يمكنك ان سلكتها ان تعتق من الخطايا وهي ان تصلي ولا تستثقل الصلاة ولا تطلب رحمة الله بضجرٍ وهو لا يرفضك اذا داومت ذلك بل يصفح عن خطاياك ويعطيك مطلوبك»[1] فاعرف عدد العقاقير التي تشفي جراحك وضمدها وواظبة . وها هي افرادها . التواضع والاعتراف والشكر

(1) في التوبة مقالة ٢ : ١ و٤

في الضيقات والرحمة بالمال والاعمال والصلاة بجلادةٍ وعدم الجحود . فاية حجة تبرّئنا ما دامت لنا طرقٌ كهذه كثيرة العدد تصعد بنا الى السماء وعلاجاتٌ متنوعةٌ شافيةٌ لجراحنا اذا كنا نبقى بعد الحمية على حالتنا عينها؟ »[2].

وان كان بعضٌ من معلمي الغرب الاقدمين مثل ترتليانوس وكبريانوس وامبروسيوس واوغسطينوس يسمون احيانًا التاديبات الكنائسية ترضية فلا يعنون بذلك انها ذات قوةٍ او قيمةٍ في ذاتها او انها كفارةٌ عن الخطايا تجاه العدل الالهي بل يعنون ان تلك التوبات من كونها تاديباتٍ ابويةً تحرّك الخطأة وتنهضهم الى توبةٍ حقيقيةٍ تجلب عليهم رأفة الآب السماوي وانها من كونها رياضاتٍ تقويةً تدل التائبين على الوجه والواسطة اللذين بهما يجب ان ينطقوا ويقرّوا امام الله بالحق كلهِ ويظهروا عمق توبتهم التي بها وحدها في الحقيقة يرتضي الله[3] فان ترتليانوس مثلاً في كلامهِ عن ضرورة الاعتراف المطابقة الذي كان يُصنع

(1) تفسير الرسالة الثانية الى كورنثس مقالة ٤ : ٦ والقديس باسيليوس يقول الاطباء يامرون المرضى في مرضهم ان يضبطوا ذواتهم ولا يهملوا شيئًا مما يأتي بالشفاء وكذلك الكلمة الطبيبة ينوسا تشفي النفوس المتهمة بالخطايا بهذه المناهج المقررة عنها . فانتبه اذن لذاتك واقبل المساعدة من المعالجة مناسبة لزللك فان كانت الخطيئة عظيمةً وصعبةً فانت في احتياج الى اعترافٍ عظيمٍ ودموعٍ مرّةٍ وسهرٍ طويلٍ وصومٍ مستديم وان كانت الزلة خفيفة ومطاقةً فلتكن التوبة مناسبة لها راقبه لذاتك لكي تعرف ما هي صحة النفس وما هو ضدها» (في خطابه على انتبه لذاتك) (2) وعلى هذا المعنى فقط تعتبر التاديبات في الكنيسة الارثوذكسية

جهاراً في الكنيسة القديمة ووضعوا درجات توبة الخطاة المتنوعة يقول ان الترضية تقام من الاعتراف (بحسب المعنى الذي بيناه) ومن الاعتراف تنتج التوبة وبالتوبة يستعطف الله ... فبالتوبة اذن يُستعطَف الله»[1]. والقديس كبريانوس يحث الخطاة على التوبة قائلاً «فلنرجع الى الله من كل قلبنا ولنطلب من الله المحب البشر ولنقع امامه من تلقاء انفسنا لكي يرضيه حزننا ولكي يُلقى كلّ رجائنا عليه. فهو يعلمنا كيف يجب ان نتوب «والان يقول الرب الهنا ارجعوا اليّ من كل قلبكم بصوم ونحيب وتعويل وشقوا قلوبكم لا اثوابكم»[2]. فلنرجع الى الله من كل قلبنا وهكذا نستعطف رجزه وسخطه» بالصوم والبكاء والعويل» كما علمنا هو ذاته... قدموا له توبة كاملة واظهروا حزن نفوسكم بدموعكم وزفراتكم ... هذه هي التوبة التي ترضي. غير ان الذي يرفض التوبة عن الخطية يغلق دونه باب الرضى ... تلك هي التوبة التي ترضي واما الذين يرفضون التوبة وهم في الخطايا فانهم يغلقون [illegible] الرضى»[1] واوغسطينوس الجليل يقول ايضاً مثل القديس امبروسيوس ان الخاطئ عندما يتوب يرضى الله عن خطاياه وخصوصاً [illegible] التوبة اذ يقدم له قلباً منسحقاً ومتضعاً وهذا نصّ مقاله «الجروح العظيمة تحتاج الى معالجة مهمة وطويلة والخطايا العظيمة تحتاج الى [illegible] عظيمة... ولاجل هذا يجب (على العذارى) ان يحزنّ [illegible] لان خطيئتهنّ عظيمة مثل تلك الخطايا»[2] «لاننا لا نستطيع [illegible] اخلاقنا الى ما هو افضل وننفصل عن الرذائل المفعولة ما لم [illegible] عن خطايانا بحزن التوبة وبدموع الاتضاع وبذبيحة القلب [illegible] وبمساعدة الرحمة»[3].

وسائط لاستغفار الله وترضيته فاننا نمنح الصفح بالتأديبات لاسباب كثيرة مشترعة. اولاً لكي يتحقق التائب بالشقاء الطوعي من القصاص الذي هناك. لانه لا شيء يجتذب تعطف الله مثل الشقاء كما قال غريغوريوس «ان التعطف يبتاع بالدموع». ثانياً لكي يستاصل ميل البشرة الى اللذات لانه كان سبباً للسقطة كما تعلمنا (ان الضد يعالج بضده). ثالثاً لكي يكون التاديب قيداً ولجاماً للنفس حتى لا تسقط ثانية في الشرور التي ندمت عليها او اقبح منها. رابعاً كي يتعوّد التائب على الاتعاب لان الفضيلة ذات اتعاب. خامساً لكي نتحقق ان التائب يبغض الخطيئة بغضاً تاماً» غير اننا نعرض عن كل ذلك ونضرب صفحاً عند ما تاتي ساعة وفاة الدين العمومي وخروج الجسد من العالم فاننا نعتقد ان نية التائب في ساعة الموت وندمه يكفيان لان ينال صفحاً عن خطاياه»(انظر حاكم الحقيقة جواب اول فصل ١٢ (١) في التوبة راس ٩ (٢) يوئيل ٢: ١١—١٢

الفصل الثامن

في ايضاح فساد تعليم كنيسة رومية في اوراق الغفرانات [illegible]

١ . ينبوع هذا التعليم واوصافه ٢ . دحض الراي في وجود [illegible] ٣ . دحض الراي الثاني في وجود كنز من فضائل القديسين [illegible] الراي الثالث بحق اعطاء الغفرانات للاموات وايضاح حقيقة [illegible] الحل والربط ٥ . اعتراضات اللاتين (اولاً من موضع بولس [illegible] القديس كبريانوس. ثالثاً من عمل الكنيسة) وحلها ٦ . [illegible] الغفرانات للآداب المسيحية.

---

(١) في الساقطين راس ٢٩ و٣٢ و٣٤ (٢) [illegible] العذارى الساقطات ٣٧:٨ (٣) اوغسطينوس [illegible]

١ ان ضلال كنيسة رومية في تعليمها ان تاديبات التائبين هي مجازاةٌ وقتيةٌ يوفى بها العدل الالهي يقتضي ضرورةً ضلالها في تعليمها عن اوراق الغفران · اما الاوصاف المهمة في اوصاف هذه الاوراق فهي هذه : اولاً القول بان الله في سرّ التوبة يصفح عن خطايا التائبين و يعتقهم من المجازاة الابدية التي تقتضيها خطاياهم ولكنهُ لايتركهم بلا مجازاةٍ بالكلية بل يطلب منهم وجوبًا ان يتكبدوا مجازاةً وقتيةً لوفاء عدلهِ الالهي اما في هذه الحياة واما بعد الموت في النار المطهرة سوآء فرضت عليهم تلك المجازاة من الكاهن الذي اعترفوا امامهُ بخطاياهم ام لم تفرَض. ثانيًا غير انهُ لما كان الانسان لا يقدر ولا تساعدهُ قواهُ على القيام بالاعمال التي بها يوفى عدل الله فكثيرًا ما يهمل القصاصات الوقتية المفروضة عليهِ و يعرض عنها ولا يتممها كلها او بعضها وحينئذٍ ينبغي ان يعوض العدل الالهي عنها او عما ينقص منها من استحقاق يسوع المسيح غير المحدود ومن فضائل القديسين التي تؤلف كنز الكنيسة. ثالثًا ان الحقّ في عمل التعويض من استحقاق يسوع المسيح ومن فضائل القديسين لوفاء العدل الالهي وعتق الخطاة احياء كانوا ام امواتًا من القصاصات الوقتية يعني الحق في اعطآء الغفران هو منوطٌ وخاصٌ بالكنيسة"[1]

فلنأت الآن الى النظر في كل واحدٍ من هذه الآرآء الثلاثة

٥ · فانّا علمنا في ما سبق فساد الراي الاوّل منها ورأينا انهُ رأيٌ

---

(١) بيرونيوس في المقدمات اللاهوتية جزء ٧ في اوراق الغفران وجه ٥ : ٧

مضادٌ كل المضادة لتعليم ربنا في وفاء عدل الله وتبرير الخطاة ومخالفٌ لتعليم كل الكنيسة على الاطلاق وخصوصاً الرأي المقدس اللائق بعدل الله وغفران الخطايا ولم يبق علينا سوى ان نذكر ما ياتي :

اولاً اذا كانت التاديبات الكنائسية في حقيقة الحال جزاءً واجب الاجرآء من الخاطئ التائب ليوفي بهِ هو بنفسهِ عن ... وبدونهِ لاتمحى خطاياهُ بحسب ذلك الجزآء او بعضهِ او تعويض ... الالهي عنهُ من استحقاق المخلص وفضائل القديسين امرٌ عديم النفع ... لان الخاطئ لا يكون هو بنفسهِ قد تكبد بذلك قصاصاً ولا اوفى ... ومن ثمّ يكون التعليم عن اوراق الغفرانات مؤسساً على الرمل

ثانيًا واذا كان الامر بالعكس اي اذا كانت القصاصات الكنائسية ليست سوى تاديباتٍ ابويةٍ يقصد بها شفآء الامراض النفسانية ... يمكن ان نُترَك او ان تُخفّف او ان تعوّض بعقاقير غيرها اشدّ ... لحالة الخطاة ولا محل اذ ذاك لاوراق الغفران · وهذه الصفة هي الحقيقية التي تصفها بها سنن المجامع المقدسة وعليها تجري الكنيسة ال... القويمة الرأي الى اليوم والى الابد · اما عتق الخطاة من القصاصات ... وجهٍ مناف لحالتهم الادبية واعطاؤهم اوراق غفران مع قطع النظر عن امر اصلاحهم وايجاد وسائط تتكفل بتقويمهم ليس الا سوء استعمال ... الروحية يعود بالضرر والوبال على الخطاة انفسهم

ثالثًا لما كانت التاديبات من حيث هي علاجٌ لشفآء الا...

الروحانية محصورةٌ في الحياة الحاضرة كما تعلم الكنيسة حيث يمكن للخطأة ان يرجعوا ولا تمتد الى ما بعد القبر [(1)] فامرٌ عديم النفع اعطآء اوراق غفرانٍ للمتوفين ليعتقوا بها من نيران المطهر على رأي البابويين

رابعًا ان الخاطئ يستطيع ان ينعتق من القصاصات التي تُفرَض عليهِ في هذه الحياة فقط واما عتقهُ من القصاصات التي لم توضَع عليهِ بعد او من التي سوف توضع عليهِ من الله ذاتهِ في نار المطهر كما يعلم البابويون فهو امرٌ غريبٌ ومضحكٌ ومخيفٌ .

٣ . اما الرأي الثاني من الآرآء الثلاثة المتقدمة فنلاحظ فيهِ

اولاً امرٌ حقيقيٌ هو وغير منكرٍ ان استحقاق مخلصنا يسوع المسيح هو غير محدودٍ وانهُ هو الكنز الذي لا يفرغ لنعمة التبرير المخلصة الخطأة . غير ان هذه النعمة المبرِّرة والمخلصة انما ينالها الناس وتُمنَح لهم تحت شروطٍ واجبة الاجرآء منهم وهي الايمان والتوبة الحقيقية وأثمارها التي هي الاعمال الصالحة او العزم الثابت على اصلاح السيرة وعلى العيشة بالقداسة والبرّ وفقًا لتعليم رعاة الكنيسة في سرّ التوبة كما سبق الايضاح . غير ان منح استحقاقات يسوع المسيح للخطاة قبل ان يتمموا هذه الشروط وعتقهم بنآء على فضائلهِ من القصاصات التي وضعها الله ذاتهُ عليهم بموجب عدلهِ

(١) قوانين الآبآء والمجامع تعلم ان التائبين يرجعون ويصلحون بتاديبات كنائسية لا تتجاوز الحياة الحاضرة ومن ثم فالذين تمنعهم عن المناولة الالهية وقتًا ما ليتقدموا فيهِ نوبتهم تسمح لهم بان يتناولوا الاسرار قبل تتميمهم وقت توبتهم اذا اشرفوا على الموت ولا تطلب منهم قصاصًا بعدهُ . راجع مجمع انقرة قانون ٦ و ٢٢ ومجمع قيصرية الجديدة قانون ٢ والنيقاوي الاول قانون ١ و ١٣ وقرطاجنة قانون ٧ و باسيليوس

بسبب خطاياهم وبالقول الجحد. ان اعطآءهم اوراق غفرانٍ هو تعدٍ ظالمٌ خارجٌ عن الشريعة والحدود ليس الاّ .

ثانيًا ان فضائل القديسين مهما كانت عظيمةً لا يمكن ان تكون زائدةً عما يجب ولن تفضل عنهم كأنها غير مطلوبةٍ منهم بل كلها واجبةٌ عليهم . ولا يمكنها ان تُمنَح لآخرين وتبررهم تجاه العدل الالهي . وهذا واضحٌ اولاً من كون اعمال القديسين الفاضلة لا تصير كاملةً بذاتها بل بقوة النعمة الالهية ولها جائزةٌ امام منبر العدل الالهي باستحقاق يسوع المسيح فقط . ثانيًا من ان الشريعة الانجيلية التي ترشدنا الى الحياة الابدية ليست محدودةً كما يقول داود النبي والملك « لكل تمامٍ رأيت منتهى اما وصيتك فواسعة جدًا » [(1)] فمهما تمَّم الانسان شريعة الله لا يستطيع ان يزيد عليها الى ان يتممها كلها ولا يمكنهُ ان يصل الى الكمال الانجيلي المطلوب بالوصية القائلة « كونوا انتم كاملين كما ان اباكم الذي في السموات هو كامل » [(2)] . وهذا الكمال هو الغاية التي اليها دُعي ويجب ان يسعى دائمًا كل مسيحيٍ ومهما تقدم في طريقها لا يصل الى نهايتها حتى ان الذين ذكرهم بولس الرسول اذ لم يكونوا قادرين ان يُحسَبوا كاملين ما كان لهم سوى ان يقولوا معهُ « اني لا احسب نفسي اني قد ادركت لكني افعل امرًا واحدًا فقط وهو اني انسى ما ورآئي وامتد الى ما امامي فاسعى نحو الامد لاجل جعالة دعوة الله العليا في المسيح يسوع » [(3)] فالذي يعمل اذن عملاً ممتازًا

الكبير قانون ٧٢ وغريغوريوس النيصي قانون ٢ (١) مز ١١٩ : ٩٦ (٢) متى ٥ : ٤٨ (٣) في ٣ : ١٣ — ١٤

من اعمال البرّ فانهُ انما يصل بهِ الى درجةٍ عليا في سُلَّم فضائل الايمان المسيحي . ثالثاً يتضح ذلك ايضاً من قول الرب وهو « ان في بيت ابي منازل كثيرة »[2] فاذا خطف الموت طفلاً بعد المعمودية حالاً وهو في نقاوتهِ وطهارتهِ لا ريب في ان لطفلٍ كهذا منزلةً معينة في الغبطة . واذا كان الميت انساناً كاملاً اظهر في حياتهِ ايمانهُ باعمالهِ الصالحة وكانت لهُ اثمارٌ لائقةٌ بالتوبة فلا شك ايضاً في ان لكاملٍ مثل هذا درجةَ مكافاةٍ غير نائلك . واذا قام امام الله قديسٌ مكافحٌ ومناضلٌ عن الايمان بهِ وقد جاز مدة حياتهِ في الاتعاب والاصوام والصلوات والامساك والفقر الطوعي وانكار الذات فانهُ ينال بلا ريبٍ جائزةً عظمى ومنزلةً في الغبطة اسمى . وهكذا ايا كانت اعمال الانسان واياً كانت فضائلهُ على الارض فانهُ ينال جائزةً مناسبةً لها ولا يمكن ان تزيد اعمالهُ عن واجبهِ او تفضل عنهُ لينتفع بها غيرهُ كأنها غير نافعةٍ لفاعليها . رابعاً اننا نعلم من الكتاب المقدس ان الله شفوقٌ يشفق دائماً على الخطأة وانهُ من اجل محبتهِ للصديقين يشفق عليهم[3] ولا يكفُّ عن ان يشفق عليهم لاجل محبتهِ للصديقين ولكن لم يصرِّح الكتاب ولا يتضمن ان شفقة الله على الخطأة كانت او تكون بسبب غزارة فضائل الصديقين او ان الصديقين يعوضون رذائل الاشرار بفضائلهم الشخصية وبها يقدمون ترضيةً لعدلهِ . حاشا . لان الكتاب يعلّم ان الصديقين هم اصدقاء الله واولادٌ احباء لهُ كما يقول القديس يوحنا اللاهوتي

(١) يو ١٤ : ١٢ (٢) تك ١٨ : ٢٢ خر ٣٢ : ٣٢ و٣٢ (٣) ١٥ : ١٤ و١٥

وكل مخطرفهم في ناموس الرب كما يقول المرنّم[1] وكل شهواتهم صالحة كما يقول سليمان الحكيم[2] وكل صلواتهم مقبولةٌ عند الرب كما يقول [illegible] كاتهُ[3] . ويعلم ايضاً ان الله نظراً لمحبتهِ الصديقين ينظر الى توسطهم [illegible] والطلبات المتصلة التي يقدمونها الى عرشهِ من اجل خلاص الآخرين والتي يصعدونها بحرارةٍ عظيمةٍ حتى انهم يرغبون ان يُحرَموا هم [illegible] ملكوت الله مثل موسى وبولس في سبيل خلاص قريبهم[4] . [illegible] يستعطف اشفاق الله على الخطأة من قِبَل الصديقين . فهو [illegible] اولادهِ الخطأة لاجل الصالحين والابرار المحبوبين منهُ والذين [illegible] حقيقةً وانما يشفق عليهم نظراً لصلاحهِ غير المحدود الشامل [illegible] لان عدلهُ على عصاوة الخطأة قد وُفي بفضائل القديسين الزائدة [illegible] كما يزعم البابويون .

ثالثاً من النظر في امر التأديبات التي تُفرَض على التائبين [illegible] بنوعٍ خصوصيٍّ ما يأتي : وهو اننا ان افترضنا المحال وقلنا ان [illegible] الصديقين تأتي بنتيجةٍ للخطأة وان هذه الفضائل مع استحقاق [illegible] تُعطَى لهم ليُعتَقوا بها من القصاصات المرتبة عليهم من العدل الالهي [illegible] لان القصاصات كما تعلمنا سابقاً ليست جزاءً مفروضاً على الخطأة [illegible] العدل الالهي بل هي وسائط وعلاجٌ لشفاء امراضهم الروحية لا يمكن [illegible] تُستبدَل بفضائلِ الآخرين . وامرٌ مخالفٌ لكل عدلٍ هو اعطاء [illegible]

(١) مز ١ : ٥ (٢) ام ١١ : ٢٤ (٣) ٥ : ٣٩ (٤) ٣٢ : ٣٢ ورو ٩ : ٣

غفرانٍ للخطاة بناءً على هذه الفضائل واسترجاع العقاقبر الروحية التي القصاصات او التأديبات قبل ان تأتي باثمارها الخلاصية.

٤ ثم ان البابويين لكي يثبتوا رأيهم يوردون آية الرب التي قالها لبطرس الرسول وهي «وساعطيك مفاتيح ملكوت السموات فكل ما ربطته على الارض يكون مربوطاً في السموات وكل ما حللته على الارض يكون محلولاً في السموات» [1] ويوردون ايضاً نموذج الكنيسة القديمة على زعمهم [2] فعلى ذلك نجيب بما يأتي:

امرٌ حقيقيٌ هو ان بطرس الرسول وسائر الرسل وجميع رعاة الكنيسة اتخذوا سلطان ربط خطايا البشر وحلها من الرب [3]. غير انهم

اولاً يمكنهم ان يستعملوا هذا السلطان باسم وقوة استحقاق يسوع المسيح وحده فقط كما يظهر من الآيات الآتية «كما ارسلني الآب كذلك انا ارسلكم ... خذوا روحاً قدوساً ان غفرتم لقومٍ خطاياهم تُغفر لهم وان امسكتموها عليهم فقد أُمسكت» [4] فهنا لا نرى ذكراً البتة لاستحقاق القديسين. ولهذا فرعاة الكنيسة ليس لهم حقٌ ولا بوجهٍ من الوجوه ان يحلوا الخطايا بقوة استحقاقات القديسين او فضائلهم.

ثانياً. ان الرعاة لهم ان يستعملوا سلطان الحل والربط في سر التوبة فقط او بواسطة هذا السر الذي يقتضي بعض الشروط من قِبَل التائبين كما ذكرنا لان سر التوبة هو بحسب رأي البابويين انفسهم

(١) مت ١٦: ١٩ (٢) بيرونيوس في اوراق الغفران قضية ١ (٣) مت ١٨: ١٨ يو ٢٠: ٢٢ و٢٣ (٤ يو ٢٠: ٢١—٢٣

مؤسسٌ على قول المخلص «خذوا روحاً قدوساً ان غفرتم لقومٍ خطاياهم غُفرت الخ». ورعاة الكنيسة يمكنهم ان يغفروا للمؤمنين الخطايا والقصاصات المفروضة عليهم بسبب الخطايا بنعمة الروح القدس فقط التي تُمنح لهم بالاسرار وعلى الخصوص بسر التوبة لتبرير التائبين. فرعاة الكنيسة اذن ليس لهم سلطانٌ ان يغفروا الخطايا ويصفحوا عن القصاصات المفروضة بسبب الخطايا للذين لا يتقدمون قطعياً الى سر التوبة او للذين يتقدمون اليه من دون ان يكونوا متممين الشروط المطلوبة منه وبالتالي ليس لهم سلطانٌ في اعطاء اوراق غفرانٍ لمن يلتمسها منهم.

ثالثاً ان الحجج التي تدحض السلطان الموهوم في اعطاء اوراق الغفران للموتى وحلهم من خطاياهم ومن القصاص المفروض عليهم في نار المطهر الوهمية بسبب خطاياهم هي اقوى من السابق ذكرها. لان الموتى لا يمكنهم بعد الموت ان يأتوا الى سر التوبة ولا ان يقوموا بالشروط المطلوبة منه والبابويون انفسهم يقرون اليوم بان الكنيسة لا يمكنها ان تمدّ سلطانها في الغفران الى نفوس المتوفين وان الرب في وصيته «كلما تحلونه على الارض الخ» يشير بقوله على الارض لا الى الراعي الذي يحل الخطايا فقط بل الى التائب الذي يحلّ منها ايضاً على الارض [1]. فلم يبقَ استنادٌ آخر يستند اليه البابا في قطع اوراق الغفران لنفوس موتاهم التي في نار المطهر سوى القياس الضعيف وهو «ان كل الصلوات التي تُقدم

(1) instit. cathol in mod. Cateches. tom. III, 307

عن المتوفين وذبيحة القداس الالهي واعمال الرحمة وسائر الاعمال الخيرية لنفع الراقدين فلماذا لا يمكن أن يعم استحقاق يسوع المسيح ايضاً وفضائل القديسين التي يمكنها ان تمنح علاجاً شافياً بصوت البابا يعني تقدم هذه الفضائل الى الله بواسطة البابا؟؟» (١) فنجيب على هذا السؤال: ان استحقاق ربنا يسوع المسيح يمكن ان يخول نفوس الراقدين خلاصاً بمقتضى صلاح الله الذي لا يحد. وهذا الصلاح تستمده لهم من لدن الحق صلوات الاحياء المقدمة الى السموات من اجل الاموات واعمال الرحمة وعلى الخصوص الذبيحة غير الدموية المتممة عن نفوسهم. فينتج من ذلك ان اسقف رومية وجميع رعاة الكنيسة ايضاً يمكنهم ويجب عليهم ان يطلبوا بقوة استحقاق يسوع المسيح في كل خدمة وعلى الخصوص في الخدمة الالهية من اجل الراقدين مستمدين لهم تعطف الله وتاركين للقوة الالهية ان تجيب هذه الطلبات اولا تجيبها وان تعتق الخطأة من قصاصات خطاياهم اولا تعتقهم. ولا يحق مطلقاً ان للبابا حقاً ان يعطي اوراق غفران كما يشاء لتحرر من نار المطهر نفوس المسيحيين على زعمه.

٥ : ثم ان البابويين يوردون بعض اعتراضات من نموذج الكنيسة لكي يستندوا عليها تعليمهم (٢) فيقولون

اولاً «ان بولس الرسول اعطى الخاطئ الذي كان في كورنثوس ورقة غفران وحلة من قصاص وقتي» فنجيب:

(١) بيرونيوس في اوراق الغفران قضية ٤ (٢) بيرونيوس في اوراق الغفران قضية ١

ان بولس الرسول قد فرض على ذلك الخاطئ كما رأينا قصاصاً قانونياً وروحياً «لخلاص نفسه» لا لاجل ارضاء العدل الالهي كما يعتقد البابويون. ثم انا رأينا ان هذه الواسطة القانونية قد اتت بالنتيجة الصالحة المطلوبة لان الخاطئ تاب توبة حقيقية (١) فغفر له. فنقول ان الرسول الكورنثي لا نسبة بينه وبين اوراق غفران البابويين [illegible]

ثانياً يقولون ايضاً ان الكنيسة في عهد ترتليانوس وكبريانوس [illegible] الكنيسة اعطت غفرانات للخطأة بواسطة الشهداء والمعترفين بالايمان واعفتهم من تأديبات وقوانين كانوا استحقوها. فنجيب

ان رعاة الكنيسة في ذلك العصر كانوا حقيقة يكرمون الشهداء والمجاهدين القديسين اكراماً عظيماً وكانوا احياناً يتنازلون لشفاعتهم وعلامة اكرامهم واحترامهم لوساطة المعترفين غير ان هذا العمل ليس دليلاً على انهم كانوا يسلمون [illegible] على استحقاق الشهداء. لانهم مع ما كانوا عليه من احترامهم لوساطة الشهداء كانوا يطلبون من الخطأة توبة ويفرضون عليهم تأديبات لا [illegible] بدونها. وقد قال القديس كبريانوس ان الخاطئ الذي فحص بتدقيق عظم هذه المسألة يستطيع ان [illegible] منحها حلة الشهداء القديسين كما يدعوهم الكهنة. غير انه لا يمنح الا التائب الذي قام بواجبه (٢) يمنح لمن يطلب الرب من كل قلبه ويسكب امامه دموع توبة حقيقية. فيحتج بسكب الرب عليه رحمة لاجل اعماله الصالحة» (٣). ثم ان هذا الاب القديس يحث الخطأة ان

(١) ٢ كو ٢: ٦-٧ (٢) في الساقطين فصل ٣٦ صفحة ٤٣٣ (٣) [illegible]

لا يستريحوا على وساطة القديسين وحدها بل ان يرجعوا هم الى الله من كل قلوبهم ويتضرعوا اليه ويستعطفوه بواسطة الندامة الحقيقية وتغيير السيرة[1]. ويذكرهم بان الشهدآء لا يمكن أن ينفعوهم شيئًا من دون قيامهم بهذا الشرط لان الشهدآء عبيد ايضًا ولانهم عبيد لا يستطيعون ان يصفحوا عن الخطايا التي اجرِحَت ضد السيد ذاته[2] ولا يمكن ان يقاوموا مشيئة الله والانجيل المقدس ويشفعوا بالعبيد غير المستحقين للشفاعة[3] وان شفاعتهم لا تكون مقبولة اذا لم تكن عادلة وان الكاهن يستطيع ان يشفع لكن وفقًا لارادة الله[4]. ثم انه يرجو الشهدآء والمعترفين ايضًا ان ينظروا الى اعمال توبة الخاطئ وان يلاحظوا باعتناء حالته الادبية وان يضبطوا طبيعة خطاياه وماهيتها وان يشفعوا بالنادمين ندامة حقيقية والمستعطفين الله بانسحاق قلب وحدهم[5]. فينتج من ذلك ان الكنيسة القديمة عندما كانت تصفح للخطأة استنادًا على وساطة الشهدآء والمعترفين كانت تفعل ذلك بناء على الشهادة التي كانوا يقدمونها في حق الخطأة على حقيقة توبتهم ورجوعهم من حيث هم اناس كاملون في سموّ الشهادة. لا بناء على وساطة مطلقة من الشهدآء القديسين ولا بناء على كنز من فضائلهم تعوِّض منه عدل الله كما يزعم البابويون.

ثم انَّا يقولون ايضًا «ان الكنيسة القديمة عندما كانت تفرض على الخطأة قوانين وقصاصات وقتية كانت تخففها عنهم احيانًا بواسطة

(٢-١) فصل ١٧ و٢٤ و٢٥ (٣) فصل ١٧ (٢) فصل ٢٠ (٤) فصل ١٨ (٥) رسالة ٢

الغفرانات كما يمكننا ان نفهم من احد قوانين مجمع انقرة» فنجيب:

انا اذا بحثنا عن السبب الذي لاجله كانت الكنيسة القديمة تفعل ذلك نراه في حالة التائبين الادبية. لان الكنيسة كما انها كانت ترى القوانين والتأديبات علاجات روحية لصالح التائبين هكذا كانت ترى امرًا ضروريًا ونافعًا لصالحهم ان تخفف احيانًا تلك القوانين الشفائية او ان تغيرها او ان تزيدها او ان ترفعها عنهم بالكلية ولم توزع قط على الخطأة كيفما اتفق استحقاقات الصديقين الغزيرة كما يفعل البابا اليوم. ولكي يؤكد هذا القول ببراهين اقوى نورد نص نفس قانون مجمع انقرة المذكور وهو هذا: «اما الاساقفة فبعد ان يفحصوا وجه الرجوع لهم السلطان ان يخففوا او ان يزيدوا وقتًا اكثر. وقبل كل شيء فليُفحَص السلوك السابق وما بعده وهكذا فليكن مقدار التعطف مناسبًا له»[1]. وهذا المعنى يؤيده المجمع المسكوني الاول في قانونه الثاني عشر حيث يقول «علاوة على كل ذلك يجب ان تفحص النية ونوع التوبة» والقديس باسيليوس ايضًا حيث يقول «ولتعيَّن المعالجة لا اعتمادًا على الزمان بل على وجه التوبة» «وهذا كله نكتبه لتفحص اثمار التوبة لاننا كلنا لا نحكم في ما مثل هذا اعتمادًا على الزمان بل ننظر الى وجه التوبة»[2]. والقديس غريغوريوس النيصي يقول «والذين يتقدمون الى التوبة باكثر اهمية ويظهرون بسيرتهم رجوعهم الى الخير مسموح للمدبر ان يختصر لهم زمان الاستماع ويأتي بهم باكثر سرعة الى التوبة لصالح السياسة الكنائسية. ثم ان يختصر هذا

(١) قانون ٥ (٢) رسالة قانونية الى امفيلوخيوس قانون ٢ و٧ وغيرها

الزمان ايضاً ويبعدهم الى الاشتراك بسرعةٍ عُظمى كما يحكم في حالة المطلب حسب خبرته [1]. وهذا الامر يذكره آخرون ايضاً كالبابا ايوشنسيوس [2] وغيره.

واعلم ان الغفران كان يُمنح في الازمنة القديمة للخطأة لا عاجلاً بعد فرض القصاص عليهم بل بعد مدةٍ اي بعد ان يستطيع الخاطئ ان يشعر شعوراً تاماً بعظم جريرته واستحقاقه القصاص ويتوب [3]. ولكن كنيسة رومية قد خالفت ذلك اذ يعطي البابا اوراق الغفران بكل سهولةٍ لا حين الارتكاب فقط بل قبله ايضاً وخصوصاً في السنة اليوبيلية اذ يعتق البابويون من القصاصات قبل ان تُفرض عليهم وتُغفر لهم خطاياهم قبل ان يرتكبوها. وما يجب ذكرهُ هنا ان المجامع المقدسة القديمة والآباء القديسين كانوا يحلون الخطأة المحرومين من الشركة الالهية لاسبابٍ ثقيلةٍ ويرفعون عنهم هذا القصاص الكنائسي ويناولونهم الاسرار المقدسة ولكنهم انما كانوا يفعلون ذلك عند خطر الموت حتى انهم بعد زوال الخطر كانوا يطلبون منهم ان يقوموا بالقصاص الذي كان مفروضاً عليهم [4]. فمن هنا نتاكد ان الكنيسة القديمة لم تعتبر القوانين والتأديبات وفاءً للعدل الالهي يمكنها ان تُعوّض بسهولةٍ من استحقاق المخلص والقديسين بل جعلتها وسائط اصلاحٍ يمكن ان يعتق الخاطئ منها متى اظهر اصلاحاً

(١) رسالة قانونية الى ليتوبوس قانون ٤. (٢) رسالة الى ديكنسيوس فصل ٧ (٣) قانون ٩ من مجمع انقرة و١٢ من المجمع الاول و٢٦ و٢٧ (٤) مجمع لوول قانون ١٣ وغريغوريوس النيصي قانون ٢ وقرطاجنة الرابع قانون ٧٦ و٧٧.

حقيقياً ورجع قلبياً عن خطاه وتأدب

٦ ثم ان اوراق الغفران فضلاً عن كونها في الكنيسة الرومانية عبدة غير مؤسسةٍ على الكتاب المقدس او على التقليد الشريف كما رأينا هي ايضاً مضرةٌ ادبياً وتحرم الخطأة الوسائط الشفائية الضرورية لعلاج امراضهم الروحية. ومن كونها تضل الشعب وتغشه غشاً فظيعاً اذ تصور له سهولة المصالحة مع الله ومع الكنيسة فقد سببت وما زالت تسبب فساداً عظيماً للآداب العمومية كما يشهد التاريخ والمؤرخون الرومانيون انفسهم [1]. ونحن نستغني بهذا الايجاز عن ذكر سوء الاستعمال المتوحش الذي اجراه الاساقفة الرومانيون الى الان والذي ربما يجرونه ايضاً مستقبلاً في توزيع الاندولجنسيا اي اوراق الغفرانات [2] تاركين مطالعته للبيب وذكرهُ للظروف ان دعت الحاجة.

(١) انظر تاريخ فلوري بحث رابع في التاريخ الكنائسي فصل ٢ و١٦ (٢) ...
جزء ٦ كتاب ٤ . ١ فصل ٤٨ طبعة سنة ١٨٤٠

٥

سر الزيت المقدس

الفصل الاول

في علاقة هذا السرّ مع ما قبلهُ وفي تعريفهِ

١ . العلاقة والفرق بين هذا السرّ وسرّ التوبة ٢ . تعريفهُ ٣ . اسماؤُهُ

١ . ان سرّ التوبة الممنوح من النعمة الالهية واسطة شفائية للامراض الروحية هو سرٌّ عموميٌّ لجميع المسيحيين ومحصورٌ في معالجة الامراض الروحية فقط . وأما سرّ الزيت المقدس فهو علاجٌ ايضاً خلاصيٌّ لكنهُ ليس عمومياً بل مخصصٌ للمرضى لتُعالَج بهِ امراضهم الروحية والجسدية .

٢ . وتعريف هذا السرّ في الكنيسة الارثوذكسية هو «ان الزيت المقدس هو سرٌّ بهِ يمسح الكاهن بزيتٍ جسد المريض ويستمد له النعمة الالهية لشفاء امراضهِ الروحية والجسدية» (1)

٣ . ولهذا السرّ في الكنيسة الارثوذكسية الاسماء الآتية : زيتٌ (2)

(1) القسم الاول من التعليم المسيحي الكبير فصل ١ . (2) المارونيموس جوابهُ الاول فصل ٨

وزيتٌ مقدسٌ (1) وصلاة الزيت (2) . ويسمى ايضاً تنديساً بالزيت ومسحة بالزيت المبارك . وبعض الشعوب المسيحية يسمونهُ سرّ احتفالٍ لانهُ يتمّ عادةً من حفلة كهنةٍ . وفي الكنيسة الرومانية يُسمى المسحة الاخيرة وسرّ للنازعين وكلاهما اسمٌ جديدٌ لا يفيد معنى السرّ كما سترى .

الفصل الثاني

في ان سرّ المسحة المقدس مؤسسٌ من الله وفي فعلهِ

١ . تأسيس السرّ وفعلهُ الالهيان ٢ . استعمالهُ في الكنيسة وشهادات الآباء فيهِ ٣ . وجودهُ عند الكنائس المفارقة

١ . ان القديس يعقوب الرسول يتكلم صريحاً في الكتاب الالهي عن سرّ الزيت المقدس محرضاً المسيحيين هكذا «هل فيكم مكروبٌ ؟ فليصلِّ . او مسرورٌ ؟ فليرتّلْ . هل فيكم مريضٌ ؟ فليدعُ قسوس الكنيسة وليصلُّوا عليهِ ويمسحوهُ بزيتٍ باسم الرب . فان صلاة الايمان تخلص المريض وينهضهُ الرب . وان كان قد ارتكب خطايا تُغفَر لهُ» (3) . فهذه الاقوال تدلّ على ان تأسيس هذا السرّ الهيٌّ وفعلهُ سريٌّ .

فاولاً ان تأسيسهُ الهيٌّ لان القديس يعقوب الرسول لا يتكلم هنا عن المسحة بالزيت كأنهُ عن مسحة زيتٍ جديدةٍ وغير معروفةٍ عند مسيحيي

(1) الافخولوجي الكبير في صلاة الزيت ورسالة البطريرك ارميا . (2) الافخولوجي الكبير (3) يع ٥ : ١٤ — ١٥ .

عصرهِ بل يتكلم عنها مشيرًا الى انها واسطةٌ شفائيةٌ معروفةٌ وعامة الاستعمال عندهم ويحثهم فقط على استعمالها حين الضعف . وفضلاً عن ذلك امرٌ مقررٌ هو ان الرسل لم ينذروا بشيء من عندهم⁽¹⁾ بل كل ما كانوا يعلمونهُ كانوا قد تعلموهُ من الرب⁽²⁾ وكانوا ينادون بهِ ملهَمين من الروح القدس⁽³⁾ ومن المعلوم انهم كانوا يُسمَّون خدام المسيح ومدبري او وكلاءَ اسرار الله فقط لا مؤسسيها⁽⁴⁾ . فينتج من ذلك ان الزيت المقدس الذي امر يعقوب الرسول ان يستعملهُ المسيحيون واسطةً سريةً لشفاءِ امراضهم الجسدانية والنفسانية هو وصية الرب يسوع والروح القدس . واذا كنا لا نعيّن من الكتاب المقدس الوقت الذي فيهِ أسس الرب هذا السرّ ووصّى بهِ تلاميذهُ فلا عجب . لان اموراً كثيرةً ايضاً صنعها يسوع ولم تُكتَب واحدةً فواحدةً⁽⁵⁾ . لكنا بالطبع نستنتج ان هذا السرَّ وسرَّ المعمودية والتوبة ايضاً تأسست حالاً بعد قيامة الرب حين قال لتلاميذهِ «قد أُعطي لي كل سلطانٍ في السماءِ وعلى الارض»⁽⁶⁾ و«كان يظهر لهم مدة اربعين يوماً ويكلمهم بما يختص بملكوت الله»⁽⁷⁾ يعني تأسيس كنيستهِ التي لاسرارها الاهمية الكبرى في تعليمها .

ثانياً ان مسحة الزيت المقدس تُعرَف من فاعليتها انها سرٌّ الهيٌّ . فانها فضلاً عن تأسيسها الالهي الذي هو اول علامةٍ ضروريةٍ لكل سرٍّ من اسرار الديانة المسيحية تتضح من اقوال يعقوب الرسول السابقة

(١) غلا ١ : ١ — ١٢ (٢) مت ١٨ : ٢٠ (٣) يو ١٦ : ١٣
(٤) ١ كو ٤ : ١ (٥) يو ٢١ : ٢٥ (٦) مت ٢٨ : ١٨ (٧) اع ١ : ٣

الذكر انها شاملةٌ للعلامتين الأُخريين المطلوبتين في تعريف السرّ وهما العلامة المادية اي مسح المريض من الكاهن بالزيت المصلّى عليهِ والعلامة الفائقة على الطبيعة بفعل النعمة اي غفران الخطايا وشفاء الامراض . فنرفض اذن تعليم الغرباءِ عن الديانة المستقيمة وضلالهم بقولهم ان يعقوب الرسول يذكر هنا مسحة الزيت المقدس لا اكثر من واسطةٍ بسيطةٍ وعاديةٍ شفائيةٍ للامراض . او على راي اخرين انها ليست سوى موهبةٍ شفائيةٍ معطاةٍ للرسل ليشفوا بها المرضى على وجهٍ عجيبٍ كما فعلوا عجائب كثيرةً . فالرأي الاول من هذين الرأيين هو باطلٌ لان قوة الزيت مهما كانت شفائيةً لا يمكنها ان تكون دواءً عمومياً لكل مرضٍ . ونحن نرى ان الرسول يتكلم كلاماً عمومياً يعمّ كل مرضٍ بقولهِ «هل فيكم مريضٌ ؟ الخ» ثم لو كان الزيت بالمسحة دواءً عادياً لكان اصدقاءُ المريض او اهلهُ او احد الاطباءِ الذين يُدعَون لزيارتهِ كما يأمر الكتاب المقدس⁽¹⁾ يستطيعون ان يستعملوا لهُ هذه الواسطة الشفائية . غير ان الرسول يحصر ذلك بالقسوس فقط ويأمر صريحاً بقولهِ «فليدعُ قسوس الكنيسة» وفضلاً عن ذلك لا ينسب القوة الشفائية الى الزيت وحدهُ بل ينسبها بنوعٍ خصوصيٍّ الى صلاة الكهنة بقولهِ «وليصلوا عليهِ ويمسحوهُ بزيتٍ باسم الرب وصلاة الايمان تخلص المريض وينهضهُ الرب» . واخيراً يقول انهُ يُضاف الى شفاءِ المرض غفران الخطايا «وان كان قد ارتكب خطايا تُغفَر لهُ» . وهذا الغفران لا يمكن بوجهٍ من الوجوه ان ينجم عن

(١) حا ٨ : ١ — ٥

الشفاء الجسدي الذي يُمنح بالاطباء والادوية ·

والراي الثاني ايضاً القائل بان فعل مسحة الزيت الذي ذكرهُ يعقوب الرسول هو عجيبةٌ من جملة العجائب فقط هو رأيٌ غير مستقيمٍ مثل الاول · اولاً لان موهبة الشفاء بالعجائب لم ترتبط مطلقاً بعلامةٍ معينةٍ كما تاكد ذلك من تاريخ المخلص والرسل [1] · على ان يعقوب الرسول يذكر هنا مادّة معينة لعمل المسحة وهي الزيت · ثانياً لان الذين ينالون موهبة فعل العجائب الفائقة الطبيعة يستطيعون ان يشفوا الامراض فقط ولكنهم لا يستطيعون ان يغفروا الخطايا · لان هذه القوّة قد منحت من الرب يسوع للرسل ولخلفائهم دون غيرهم · ولكن القديس يعقوب قد ذكر في اقوالهِ غفران الخطايا علاوةً على شفاء الامراض · ثالثاً ان مواهب العجائب وموهبة شفاء الامراض هي من ازمنة الرسل عمومية للمؤمنين من كل صنفٍ ورتبةٍ [2] ولم تحصر في طبقةٍ منهم · فلو كان قول الرسول يشير الى موهبة شفاء الامراض بالعجائب لكان يجب عند الاحتياج لشفاء مريضٍ بواسطةٍ عجيبةٍ أن يلتجئ المريض الى الاشخاص الذين أُعطوا موهبة شفاء الامراض مع قطع النظر عن رتبتهم ومركزهم · ولكن الرسول يأمر صريحاً ان ندعو قسوس الكنيسة لتتميم سرّ الزيت المقدس اي انهُ يخصص ذلك العمل باشخاصٍ معلومين · فيتضح اذن ان الرسول لم يتكلم عن شفاء الامراض بالوجه العجيب بل عن طقسٍ كنائسيٍ معيّنٍ وهو بحسب تعليم الرسل لم يكن يتمّ من عامة

(١) يو ٦: ٨—٩ (٢) ١ كو ١٢: ٧—١٢

المؤمنين [1] بل من رعاة الكنيسة وحدهم [2] وعلى الخصوص من الكهنة [3] · ولا يسوغ لنا ان ننكر استعمال سرّ الزيت المقدس في الكنيسة من ازمنة الرسل عينها · لان الكنيسة لم تترك استعمال شيءٍ مما [illegible] ولم تخالف البتة وصية صريحة في الكتاب الالهي ذكرها يعقوب الرسول وهي خلاصية لجميع المؤمنين · ويؤيد هذه الحقيقة اقوال المعلمين الاقدمين الذين يشهدون بها على انحاء شتّى · فمنهم من يكتفي بان [illegible] سر المسحة بالزيت الى اقوال يعقوب الرسول ومنهم من يسميهِ عملاً [illegible] ومنهم من يسميهِ سرّاً بالكلام الصريح

فمن المعلمين الذين يسندون سرّ المسحة بالزيت المقدس الى اقوال يعقوب الرسول : اولاً اوريجانس فانهُ في تعدادهِ الوسائط الكثيرة للحصول على غفران الخطايا كالمعمودية والاستشهاد والمحبة الحارّة لله الخ يقول [illegible] توجد واسطة سابعة ايضاً لغفران الخطايا كدٌّ قاسيةٌ وصعبةٌ [illegible] الغفران بالتوبة حين يبلّ الخاطئ فرشهُ بدموعهِ وتصير لهُ الدموع [illegible] بالنهار والليل [4] وحين يعترف بخطيئتهِ امام كاهن الله ويطلب [illegible] قائلاً مثل داود قد عرفت خطيئتي ولم اكتم اثمي قلت اعترف للرب [illegible] وانت صفحت عن نفاق قلبي » [5] ثم يقول « وهنا يتمّ ما قيل من يعقوب الرسول « هل فيكم مريض ؟ فليدعُ قسوس الكنيسة فيضعوا عليهِ [illegible]

(١) عب ٥: ٤ (٢) اف ٤: ١١—١٢ (٣) اع ٢٠: [illegible]
(٤) مز ٤٢: ٣ (٥) مز ٣٢: ٥ (٦) ان ابدال اوريجانس عبارة الرسول « وليصلوا عليهِ » بقولهِ « وليضعوا عليهِ الايدي » يشير الى العادة [illegible]

الابدي ويمحوهُ بزيتٍ باسم الرب وصلاة الايمان تخلص المريض وإن كان مرتكبًا خطايا تُغفر له»[1]. فهنا يظهر ان اوريجانس لا يضع فاصلاً بين التوبة وسر المسحة بالزيت لانهُ يتكلم عن الواحد بعد الآخر حالاً وهذا يدلُّ بلا شكٍ على ان سرَّ المسحة بالزيت كان منذ القديم يتمّ بعد التوبة متحدًا بها كما يتمّ اليوم تمامًا

ثانيًا القديس يوحنا الذهبي الفم حيث يقابل بين الكهنة والآباء الروحيين وبين الوالدين الجسديين ويقول «اما اولئك (اي الوالدين) فيلدوننا لهذه الحياة واما هولاء فللتلك . اولئك لا يستطيعون ان ينقذونا من الموت الجسديّ ولا ان يزيلوا مرضًا يتسلط علينا . واما هولاء فكثيرًا ما خلصوا نفسًا مريضةً وقريبةً من الهلاك وجعلوا عذاب البعض خفيفًا جدًا ولم يدَعوا كثيرين ان يسقطوا في عذابٍ او ان يدنوا من عذابٍ ليس بالتعليم والارشاد فقط بل بمساعدتهم بالصلوات ايضًا . لان سلطانهم في غفران الخطايا لا ينحصر في الدرجة التي يلدوننا فيها بالمعمودية بل يمتدُّ الى ما بعدها ايضًا . لانهُ يقول : أمريض احدٌ فيكم فليستدعِ قسوس الكنيسة وليصلُّوا عليهِ ويدهنوهُ بزيتٍ باسم الرب وصلاة الايمان تخلص المريض وينهضهُ الرب وإن كان مرتكبًا خطايا تُغفر له»[2]. ثم ان الوالدين الطبيعيين لا يستطيعان ان ينفعا اولادهما بشيءٍ اذا سقطوا تحت غضب احدٍ من ذوي التقدم والاقتدار في هذه

جرى اليوم في تتميم سر الزيت المقدس وهي وضع الكاهن يدهُ على المريض حين يصلي عليه . (1) يع ٥ : ١٤ و١٥ واوريجانس مقالة ٢ : ٤ (2) يع ٥ : ١٤ — ١٥

الدار لكن الكهنة يسترضون لهم لا رئيسًا ولا ملكًا ارضيًا بل الله ذاته الذي يغضبونهُ مرارًا كثيرة»[1]. فمن النظر الى سياق الكلام والى التدقيقات التي يدققها قبل هذه الاقوال هذا الاب القديس في سرّ التوبة وفي سلطان الكهنة في ربط خطايا البشر وحلها مستندًا على اقوال الانجيل الشريف في انجيل يوحنا[2] ومتى[3] نستنتج بكل تاكيدٍ انهُ يتكلم هنا عن سرّ الزيت الذي يتمّ على المرضى فقط .

ثالثًا القديس كيرلس الاورشليمي وهو يحارب السحر ويحرض قائلاً «اما انت فاذا كنت موجعًا في اجزاء جسدك وآمنت بالحقيقة ان دعاءك باسم رب الصاباوت وسائر انواع الدعاء التي ينسبها الكتاب الالهي لله بحسب طبيعتهِ تحلُّ مصيبتك فصلِّ هذه الكلمات وادعُ بها عن نفسك لانك تعمل عملاً افضل من اولئك المؤمنين بالسحر اذ كنت تقدم المجد لله لا للارواح النجسة واني اتذكرّ الكتاب الالهي حيث يقول «أمريضٌ فيكم احدٌ فليدعُ قسوس الكنيسة وليصلُّوا عليهِ وليدهنوهُ بزيتٍ باسم الرب وصلاة الايمان تخلص المريض وينهضهُ الرب وإن كان قد ارتكب خطايا تُغفر له»[4]

واعلم ان الاب القديس يذكر هنا المسحة لا كواسطةٍ شفائيةٍ للامراض بل يعتبرها عملاً معروفًا ومستعملاً في الكنيسة .

فلنذكر الان بعضًا من شهادات الآباء الذين يسمون المسحة عملاً

(١) في الكهنوت خطاب ٣ : ٦ (٢) ٢٠ : ٢٢ (٣) ١٨ : ١٨
(٤) يع ٥ : ١٤ — ١٥ في العبادة بالروح والحق كتاب ٤

سريًا : قال ويكتورفس كيسة انطاكية في القرن الخامس وهو يفسر العدد الثالث عشر من الفصل السادس من انجيل مرقس الذي نصهُ « وكانوا يُخرجون شياطين كثيرة ويمسحون مرضى كثيرين ويشفونهم » « ان هذا لا يفرق بالكلية عن عبارة يعقوب الرسول في رسالتهِ الجامعة : أمريضٌ احد فيكم ؟ فليدعُ قسوس الكنيسة . . . وليدهنوهُ بزيت الخ . فان الزيت يشفي الامراض ويجلب النور والفرح . والزيت عند ما يُمسح بهِ يوضح لنا صلاح الله ويُنتج شفاء الامراض واستنارة القلب . لان الصلاة هي التي تصنع كلَّ هذا الفعل كما يَعلَم كلُّ واحدٍ وانما الزيت رسمٌ لهُ»[1] وقال قيصاريوس (في القرن الخامس) «كلما حصل مرضٌ . فليتناول المريض جسد ودم يسوع المسيح وليمسح جسدهُ تكمل فيهِ اقوال الكتاب «أمريضٌ احد فيكم الخ» . انظروا ايها الاحباء ان الذي يجيء الى الكنيسة في مرضهِ يحصل على شفاء الجسد وغفران الخطايا»[2]

اخيرًا بالنظر الى الشهادات التي تسمي المسحة سرًّا نورد ما قال اينشنسيوس الاول في القرن الخامس مجيبًا على هذا السؤال : كيف يجب ان نفهم اقوال يعقوب الرسول « أمريضٌ احدٌ فيكم الخ » فانهُ يجيب «ان هذه الاقوال تتعلق بلا شكٍ بالمؤمنين المصابين بمرض من الامراض الذين يُدهَنون اما بالطيب المقدس او بالزيت المقدس » وبعد قليلٍ يبحث في ما اذا كان الاسقف يستطيع ان يقيم هذه المسحة ويقول « انهُ لا شكَّ في ان الاسقف يستطيع ان يعمل ما هو في سلطان

(١) على مرقس ٤ : ١٢ (٢) خطاب ٢٦٥ : ٢ و٢٧٩ : ٢

الكاهن واما اذا كان الرسول تكلم عن الكهنة وحدهم فانما اشار بذلك الى ان الاساقفة نظرًا لاشغالهم الكثيرة لا يستطيعون ان يتوجهوا الى جميع المرضى . . لا ينبغي ان تتم المسحة على الذين هم تحت قصاصٍ كنائسي لانها « سرٌّ » فكيف يستطيع ان يشترك « بهذا السرّ » مَن هو ممنوعٌ عن سائر الاسرار ؟ »[1] والقديس غريغوريوس في كتابهِ في الاسرار يحرر كيفية تتميم سرّ الزيت مع كل افشينهِ وتراتيلهِ الشريفة . وفيهِ يذكر ان الكاهن يمسح المريض بزيتٍ على اسم الآب والابن والروح القدس ويقول لهُ : لا يبقَ فيك الروح النجس مختفيًا . . بل فلتسكن فيك قوة المسيح الاله والروح القدس لكي تُشفى بتتميم هذا « السرّ » وبمسحة الزيت المقدس وبصلواتنا بقوة الثالوث القدوس ونعود الى الصحة التامة »[2]

واعلم ان المسحة تُعَدُّ واحدًا من الاسرار ليس فقط عند اللاتينيين الذين انشقوا عن الكنيسة الارثوذكسية في القرن التاسع بل عند النسطوريين ايضًا واتباع الطبيعة الواحدة[3] الذين افرزهم المجمعان المسكونيان الثالث والرابع في القرن الخامس .

الفصل الثالث

لَمن ومِمَّن يتمّ سرُّ الزيت المقدس

١ . تتميمهُ للمرضى خصوصًا ٢ . حق تتميمهِ للكهنة

(١) رسالة فصل ٨ : ١٢ (٢) جزء ٢ : ٣٢٥ (٣) السمعاني في المكتبة الشرقية جزء ٣ صفحة ٢٧٦

ان الاقوال الرسولية عينها التي تشهد بتأسيس هذا السرّ من الله وتوضح قوتهُ تشير على مَن وممَّن ينبغي أن يُقام هذا السرّ

١ . فان الرسول بقولهِ « أمريضٌ احدٌ فيكم » وبقولهِ بعد ذلك « وصلاة الايمان تخلص المريض » يشير الى ان الاشخاص الذين يتمّ السرّ لهم هم بنوعٍ خصوصيٍّ المرضى من المسيحيين . ويعني بالمريض هنا وفي آيات الانجيليين متى[1] ولوقا[2] ويوحنا[3] المريض عموماً سواءٌ كان مرضهُ ثقيلاً او خفيفاً . وعليهِ فقد ضلّت كنيسة رومية في دعواها بلا استنادٍ بان الآية تشير الى المريض الذي على آخر نسمةٍ من حياتهِ وفي تسميتها سرّ الزيت المقدس extreme onction اي المسحة الاخيرة كما ذكرنا سابقًا . اما هذه البدعة الرومانية فقد ابتدأت عندها من القرن الثاني عشر بحسب شهادات المؤرخين اللاتينيين أنفسهم[4] .

٢ . ثم ان آية يعقوب الرسول السابق ذكرها بقولهِ « فليدعُ قسوس الكنيسة » توضح ان القسوس اي الكهنة هم الذين لهم الحق في تتميم سرّ الزيت المقدس . ولا يُعنى بذلك ان الاساقفة ليس لهم حقٌّ في تتميم هذا السرّ بل العكس . لان الاساقفة هم خلفاء الرسل الاولون واصحاب الامتيازات في توزيع مواهب الروح القدس . وانما ذكر يعقوب الرسول القسوس فقط لان الاساقفة حسب ملاحظة البابا اينوشنتيوس الاول « انظرًا لتثقلهم بمهام كثيرة لا يستطيعون أن يعودوا جميع المرضى »[5] .

(١) ٢٥: ٣٦ (٢) ٤: ٤٠ و٧: ١٠ و٩: ٢ (٣) ٤: ٤٦ و٥: ٢ و١١: ١

(٤) شاردون في تاريخ المسحة الاخيرة وغيرهُ . (٥) الى الساقطين ١١٠٨

وفي الكنيسة الارثوذكسية عادةٌ ونظامٌ ان يكون عدد الكهنة في تتميم هذا السرّ سبعة[1] ولكن بما ان العدد لم يعيَّن من الرسول ولا هو في الكنيسة من الامور الواجبة قطعيًا يمكن ان ينقص عن السبعة حتى الى الثلاثة والواحد فقط بحسب الظروف والتيسير كما يصرح سمعان التسالونيكي وغيرهُ من الذين ذكروا ما ذكرنا .

اما الكنيسة الرومانية فقد حصرت الحق في تبريك الزيت المقدس بالاساقفة وهذه مخالفةٌ لقول الرسول الصريح عن القسوس اجمالاً حيث لا يصرّح بذكر الاساقفة .

الفصل الرابع

في الفعل المنظور من سرّ الزيت المقدس

وفي نتائجهِ الخلاصية غير المنظورة

١ . الفعل المنظور بالدهن بالزيت والصلاة ٢ . النتائج في شفاء الامراض النفسانية والجسدانية ٣ . ذكر بعض آراء الرومانيين والملاحظة عليها

١ . ان الفعل المنظور من سرّ الزيت يوضحهُ يعقوب الرسول بقولهِ « وليصلوا عليهِ ويدهنوهُ بزيتٍ باسم الرب » فعلى ذلك يجب اولاً مسح المريض بالزيت . وقد تسلمنا ان يُقدَّس ويبارك الزيت من الكهنة قبل الدهن بهِ . وبعد تبريكهِ يُمسح بهِ المريض صليبيًا في سبعة محلات من جسدهِ اعني في جبهتهِ وأنفهِ وخدَّيهِ وصدرهِ ويديهِ (داخلاً وخارجًا) .

ثانيًا تجب صلاة الايمان التي يتلوها الكهنة حين يمسحون المريض

(١) سمعان التسالونيكي فصل ٢٨٠ وغيرهُ

بالزيت . وهذه الصلاة قد سُنّت في طقس الكنيسة الارثوذكسية على هذا النص « يا ابتاه القدوس يا طبيب النفوس والاجساد يا من ارسلت ابنك الوحيد ربنا يسوع المسيح شافياً لكل مرض ومنقذاً من الموت اشفِ عبدك هذا (فلان) من الامراض المتخوذة عليهِ النفسانية والجسدانية واحيهِ بنعمة مسيحك . بشفاعات الفائق قدسها سيدتنا والدة الاله الخ »[1].

٢ . اما نتائج هذا السرّ الخلاصية غير المنظورة فهي :

اولاً شفاء الامراض الجسدانية فان سرّ الزيت المقدس أُعطي لفائدة المرضى بالجسد على الخصوص الذين شفاؤهم هو اول نتيجة من نعمة هذا السرّ كما يقول الرسول « أمريضٌ احدٌ فيكم فليدعُ قسوس الكنيسة . . وصلاة الايمان تخلص المريض وينهضهُ الرب »[2] وقد يكون هذا السرُّ لكثيرين تعزيةً في مرضهم تقويهم على احتمال الاوجاع بجلادة كما يفيد فعل « الانهاض » الذي يدلُّ في وضعهِ ليس على الاقامة والتوقيف والإعادة الى الصحة فقط بل على التقوية والتشجيع وانهاض الهمة ايضاً . اما الذين ينالون التقديس بهذا السرّ في مرضهم ولا يحصلون منهُ على نفعٍ البتة فالقول فيهم مثل القول في الذي يشترك بسرّ جسد الرب ودمه ولكنهُ « ياكل ويشرب دينونة لنفسهِ » عوضاً عن ان ينال اثمار الخلاص[3] فيكون اذن عدم انتفاعهم ناشئاً عن عدم استحقاقهم وضعف ايمانهم بيسوع ولا سبيل هنا لدعوى القائلين بان انتهاء الاجل احياناً يلغي فعل السر لان نهاية الأجل لا تمنع تعزية المريض وصبرهُ على احتمال

(١) انظر الافخولوجي في صلاة الزيت (٢) يع ٥: ١٤ و١٥ (٣) ١ كو ١١: ٢٩

الاوجاع الامر الذي هو من نتائج فعل السرّ كما ذكرنا . اما الذين يطلبون الشفاء بلا بدٍ كلما تقدموا الى سرّ الزيت المقدس فيوضحون انهم يبتغون الهرب من الموت وهذا الامر غير مستطاعٍ على الطبيعة البشرية مطلقاً . لان كل انسانٍ يجب ان يموت لياخذ في مجيء المسيح الثاني جسداً عديم الفساد . فعلى المريض اذن ان يبادر الى سرّ الزيت المقدس ويسلم ذاتهُ لمشيئة الرب الذي يعلم اكثر منا كثيراً مَن الذي يوافقهُ الشفاء وطول البقاء ومَن يوافقهُ عكس ذلك[1].

ثانياً ان النتيجة الثانية من سرِّ الزيت المقدس هي شفاء الامراض النفسانية . فان القديس يعقوب الرسول بعد انهُ ذكر النتيجة الاولى من فعل سرّ المسحة في المريض وهي شفاء الامراض الجسدانية ضمَّ اليها شفاء الامراض النفسانية بقولهِ « وان كان قد ارتكب خطايا تُغفَر لهُ » . فبلا شكٍ يفترض القديس يعقوب الرسول ان المريض قبل تقدمهِ الى سرّ الزيت المقدس تقدم الى سرّ التوبة الذي هو سرٌّ آخر منقٍ من الخطايا . لانهُ غير ممكنٍ ان يفترض ذاك المريض عديم الخطايا[2] وعلى ذلك لم تزلِ العادة جاريةً الى الآن في الكنيسة الارثوذكسية الذي يرغب ويتقدم الى سرِّ الزيت المقدس يتقدم اولاً الى سرّ التوبة ويعترف بخطاياهُ امام الاب الروحي[3] ولكن عندما يسقط الان

(١) حكمة سليمان ٤: ١١ (٢) ١ يو ١: ٨ و١٠ (٣) ولهذا ال[illegible] دعي الكاهن لاقامة سرّ الزيت المقدس لاحدٍ من المؤمنين يجب عليهِ ان [illegible] بالتدقيق على عادة الكنيسة القديمة بان يعرّف المريض ويطهرهُ اولاً من [illegible] النفسانية بالتوبة ثم يدهنهُ بالزيت المقدس .

في مرض ثقيلٍ ولا تساعده حالتهُ الضعيفة وانحطاط قواهُ الجسدية والعقلية ان يقدم ندامةً حقيقيةً وكاملةً عن خطاياهُ وان يقوم بجميع الشروط المطلوبة في الاعتراف المقدس للحصول على الصفح والغفران (وفي حالةٍ مثل هذه يتمّ على الغالب سرّ الزيت على المرضى) وربما كانت عليهِ خطايا ثقيلة لا يستطيع النطق بها لشدة ضعف جسمهِ وثقل مرضهِ واحياناً لفقد ذاكرتهِ او ارتباط لسانهِ لاجل هذا كلهِ سرّ الاله الكليّ الصلاح ان يمنح واسطةً شفائيةً جديدةً بسرِّ الزيت المقدس لشفاء هذه الامراض الادبية اذ ينتصب محفل كهنةٍ مستقيمين ويتضرعون بحرارةٍ الى الله ويدعونهُ باسم الكنيسة كلها لينال منهُ ذاك المريض غفران الخطايا وتطهير الضمير من كل شائبةٍ جسدانيةٍ وروحانيةٍ. فمن جملة ما يصلونهُ قولهم «نضرع اليك ونتوسل في هذه الساعة استمع تضرعنا وتقبلهُ كبخورٍ مقدمٍ لك وظلِّل عبدك. وان كان خطئ بقولٍ او بفعلٍ او بذهنٍ او في الليل او في النهار او صار تحت لعنة كاهنٍ او سقط تحت حرمٍ من ذاتهِ او فاهَ بقسمٍ وحنث بهِ نطلب منك ونتضرع اليك اترك واغفر واصفح لهُ يا الله واعرض عن اثامهِ وخطاياهُ وما حصل منهُ بمعرفةٍ او بغير معرفةٍ»[1]. فغفران الخطايا بواسطة سر الزيت المقدس المعيَّن بنوعٍ خصوصيٍ للمثقلين بالامراض هو تكميلٌ لغفران الخطايا بسر التوبة. ولا يعنى بذلك ان سر التوبة يعتبر غير كافٍ لغفران كل خطيئةٍ. بل كما قلنا سابقاً لان ثقل المرض لا يسمح للمريض ان يتمتع النفع التام من قوة

(١) الافشين السابع من صلاة الزيت

الاعتراف الشافية علَى نفسهِ والمخلصة اياهُ.

٣ - اما البابويون فانهم يعتبرون الزيت المقدس مسحةً اخيرةً للمريض وسرّاً يقوّي نفسهُ على خوف الموت[1] فلا يمسحون بهِ المريض الا عند قرب وفاتهِ. غير ان كنيستنا تعتبر هذا العمل رأياً مستبداً لانهُ لا ينطبق على وصية يعقوب الرسول في هذا السر ولا ترتيب الفروض في الكنيسة الشرقية المشروح من البابا غريغوريوس الكبير يشير الى شيء من المسحة الاخيرة التي يتشبثون بها ويسمونها مسحة الخروج او زاد الخروج من الحياة. وانما يُذكَر ان المسحة بالزيت المقدس هي لشفاء المريض فقط وغفران خطاياهُ. والكنيسة المسكونية القديمة اجمالاً لم تعرف رأياً كهذا انتحلتهُ الكنيسة الرومانية موخراً. لكنها علمت على الدوام ان الزاد الوحيد للخارجين من الحياة هو جسد ودم المخلص في سرّ الافخارستيا الذي يتقدمهُ سرُّ التوبة. والبرهان على ذلك نجدهُ مسطراً في قوانين مجامع القديسين[2] وقوانين الاباء[3]. على انهُ لا مانع من من ان نُسمي هذا السرّ مسحةً اخيرةً اذا كان المريض الممسوح بهِ لا ينال الشفاء. فتكون تسميتهُ بهذا الاسم اضافيةً لا مطلقةً ولا بمعنى الزاد الخروج من الحياة. لان السرّ لا يتم في ظروفٍ كهذه ايضاً الا متحداً بسرّي التوبة والشركة. فتكون الشركة هي وحدها للمريض الزاد الاخير الحقيقي للحياة العتيدة والمسحة اخيرةً لان المريض لم يعش لينال غيرها بعدها.

(١) مجمع تريدنتي جلسة ١٤ فصل ٣ (٢) القانون ١٣ للمجمع الاول المسكوني
(٣) القانون ٥ لغريغوريوس النيصي

٦

سر الزيجة

الفصل الاول

في ارتباط هذا السرّ مع ما سبقهُ وفي تأسيسهِ الالهي وغايتهِ
ومعناهُ من حيث هو سرٌّ واسمآئهِ

١ . علاقة سرّ الزيجة مع الاسرار السابقة ٢ . تأسيسهُ من الله ٣ . الغاية منهُ
٤ . تعريفهُ واسمآؤهُ

١ . ان الاسرار الثلاثة الاولى من اسرار الكنيسة اعني المعمودية والميرون والشركة لها غايةٌ عموميةٌ وهي ان يصير المتقدس بها مسيحيًا وينمو في الايمان والتقوى ويحصل على الخلاص الابدي . واما السرّان الآخران اعني التوبة والزيت المقدس فقد أُقيما لجميع المسيحيين علاجاتٍ شفآئيةً وخلاصيةً اما التوبة فلشفآء الامراض الروحية واما الزيت المقدس فللجسدية والروحية معًا كما تقدم . غير انهُ يوجد سرّان آخران ايضًا مرتَّبان من الرب وهما سرُّ الزيجة وسرُّ الكهنوت . وهذان السرّان المقدسان لم يعيَّنا لجميع البشر وليسا ضروريين بلا بدٍّ لكلٍّ من اعضآء الكنيسة لكنهما مع ذلك ضروريان على الاطلاق لمقاصد الكنيسة بوجه

الاجمال اعني حفظ وجودها (بالزيجة) واقامة خدامٍ لاسرارها وطقوسها (بالكهنوت) . فان الزيجة تمنح المؤمن نعمةً لولادة الاولاد بحسب الناموس الطبيعي . والكهنوت يمنحهُ نعمةً لاعادة ولادة ابنآء الكنيسة على وجهٍ يعلو عن الطبيعة وتربيتهم للحياة الابدية .

٢ . فيمكنا ان نعتبر الزيجة على وجهين . احدهما انها ناموسٌ طبيعيٌ مرتَّبٌ من الله . والآخر انها سرٌّ من اسرار كنيسة العهد الجديد التي تقدس هذا الناموس الطبيعي بعد سقطة الانسان . وبما اننا عازمون ان نشرح تعليم الكنيسة في سرّ الزيجة على الوجه الثاني اي من حيث هي سرٌّ فلاجل زيادة التدقيق في هذا التعليم نرى ضروريًا ان نقدم كلماتٍ في الزيجة تتعلق بتأسيسها من الله وغايتها .

فلا ريب في ان الزيجة هي مؤسسةٌ من الله . لانها ناموسٌ [illegible] من الخالق في جهاز الانسان ومصدَّقٌ عليهِ ومشروحٌ عنهُ في الا[illegible] الالهي الفائق الطبيعة . وذلك ان القديس موسى النبي كاتب سفر التكوين المقدس في كلامهِ عن خلقة الاجداد الاول الجبلة يقول «[illegible] الله الانسان على صورتهِ على صورة الله خلقهُ ذكرًا وانثى خلقهم [illegible] الله وقال انموا واكثروا واملأوا الارض»[1] . وبعد ذلك [illegible] عن خلقة المرأة الاولى واظهارها الله آدم يقول «وبنى الرب [illegible] الضلع التي اخذها من آدم امرأةً فاتى بها آدم» وقد استنار من [illegible] فقال[2] «هذه الآن عظمٌ من عظامي ولحمٌ من لحمي هذه تسمى ا[illegible]

(١) تك ١ : ٢٧ و٢٨ (٢) مت ١٩ : ٤ — ٦

من امرئها أُخذت · ولذلك يترك الرجل اباهُ وامهُ ويلزم امرأتهُ فيصير الاثنان جسدًا واحدًا »[1]. فهذا كلهُ كان في بدء الكون اذ كان الانسان ساذجًا قبل ان يفسد. ولما فسد الجنس البشري ايضًا حين الطوفان لم يُبطِل الله هذا الناموس بل اكّدهُ وثبّتهُ بعد الطوفان وجدّدهُ بالبركة عينها التي بارك بها اول الجبلة فقال الكتاب « وبارك الله نوحًا وبنيهِ وقال لهم انموا واكثروا واملأوا الارض وسودوا عليها »[2]. وفي شريعة موسى نقرأ اوامر صارمة في حفظ رباط الزيجة بلا تعدٍّ لانها مؤسسة ومباركة من الله[3]. وفي العهد الجديد ثبّت مخلصنا ذاتهُ هذه الحقيقة لما اجاب على سؤال الفريسيين عما « اذا كان مسموحًا للانسان ان يطلق امرأتهُ لكل علةٍ » فقال « ألم تقرأوا ان الذي خلق منذ البدء ذكرًا وانثى خلقهم وقال لذلك يترك الرجل اباهُ وامهُ ويلزم امرأتهُ فيصيران كلاهما جسدًا واحدًا ؟ فليسا هما اثنين بعد ولكنهما جسدٌ واحدٌ وما جمعهُ الله فلا يفصلنّهُ انسانٌ »[4]. وكان ربنا قد ثبّت قبلاً رباط الزيجة بحضورهِ شخصيًا وتشريفهِ العرس في قانا الجليل حيث صنع اول عجيبةٍ من عجائبهِ[5]. وهذه الحقيقة نفسها اكّدها الرسل القديسون ايضًا . فان بولس الرسول يقول « لان الرجل لم يُخلَق لاجل المرأة بل المرأة لاجل الرجل لذلك ينبغي للمرأة ان يكون لها سلطانٌ

(١) تك ٢ : ٢٢ — ٢٤ (٢) تك ٩ : ١ و٧ (٣) لا ٢٠ : ١٠ وتث ١٤ : ٧ و٢٢ : ٢٢ و٢٨ : ١١ ومت ٢ : ١٤ — ١٦ (٤) مت ١٩ : ٤ — ٦ (٥) يو ٢ : ١ — ١١

على رأسها من اجل الملائكة . الا انهُ ليس الرجل من دون المرأة ولا المرأة من دون الرجل في الرب . لانهُ كما ان المرأة هي من الرجل كذلك الرجل ايضًا هو بالمرأة والجميع من الله »[1]. وفي محلٍ آخر يقول « ان من زوّج عذراءهُ يفعل حسنًا »[2]. وايضًا يشجب بعض الشاردين عن الايمان لاحتقارهم الزواج ومنعهم الناس عن هذا الرباط المقدس[3] ... ان الآباء القديسين ومعلمي الكنيسة جاهروا بعد الرسل بان ... مؤسسة من الله ومقدسة ومنهم ايريناوس واكليمنضس الاسكندري ... ومثوذيوس وترتليانوس ويوحنا الذهبي الفم واوغسطينوس و... كثيرون[4] وحاربوا تلامذة ميتندروس[5] وساطورنينوس وكاربوكراتس وباسيليديس[6] وماركيُن[7] والمدعوين اساكين[8] والمانوية[9] و... غيرهم[10] ممن كانوا يمنعون الزيجة ويسمونها اختراعًا شيطانيًا و... غير لائقة للمسيحي.

(١) ١ كو ١١ : ٩ — ١٢ (٢) ٧ : ٢٨ (٣) الى ... (٤) ايريناوس ضد المرطقات ١ : ٢٨ : ١ واكليمنضس الاسكندري في ... ٣ : ٦ ومثوذيوس في البتولية ٢ : ٢ وترتليانوس ضد ماركين ١ : ٢٩ و... مقالة ٢١ على التكوين واوغسطينوس ضد المانوية فصل ٢٢ . (٥) ... في مرطقة ٢٢ (٦) ايريناوس ضد المرطقات ١ : ٢٤ واكليمنضس ... ٣ : ١ : ٢ وكيرلس الاورشليمي عظة ٤ : ١٧ وابيفانيوس مرطقة ٢٣ : ٢٧ (٧) ... ضد المرطقات ١ : ٢٨ : ١ وترتليانوس ضد ماركين ١ : ٢٩ و٣٠ و٤ : ١١ و... (٨) ايريناوس ضد المرطقات ١ : ٢٢ : ١ واوسابيوس في تاريخهِ ٤ : ٢٩ و... مرطقة ٤٦ و٥٦ : ١ (٩) اوغسطينوس ضد المانوية ٢ : ١٠ : ١٩ (١٠) ... سقراط ٢ : ٤٢ واوغسطينوس مرطقة ٧.

٢ · ثم ان تاسيس سرّ الزيجة من الله له غايتان : الاولى منها هي نموّ الجنس البشري وحفظهُ كما يُستنتج من اقوال الله عينها التي بارك بها الزوج الاول وهي « ذكرًا وانثى صنعهما وباركهما الله قائلاً انموا واكثروا واملأوا الارض »[١] وترتبط بهذه الغاية غايةٌ اخرى وهي نمو وتكثير اعضاء كنيسة الله[٢] المقامة ان تؤلَّف من الجنس البشري بوجه العموم وبلا استثناء . والغاية الثانية من الزيجة هي تعاضد الزوجين ومساعدة كلٍ منهما الآخر مساعدةً متبادلةً في هذه الحياة وفقًا لكلام الله حيث قال « ليس جيدًا ان يكون الانسان وحدهُ فلنصنع لهُ معينًا نظيرهُ »[٣] . وقد خلق الله المرأة الاولى حوا من ضلع آدم لكي يربط الاتحاد الطبيعي ربطًا قويًا بين الزوجين حتى يعيشا كلَّ حياتهما غير منفصلَين[٤] . ثم انها بعد سقوط الانسان اضيفت الى الغايتين المذكورتَين من رباط الزيجة غايةٌ ثالثة وهي ان تكبح الزيجة الناموسية جموح الانسان الى الشهوات المحرمة والاقتران المخالف الناموس الذي تميل اليهِ احيانًا طبيعتهُ البشرية فتخمد بالزيجة ثورة الافكار اللحمية الثائرة عليهِ . وقد قال الكتاب جيدٌ للانسان ان لا يمسّ امرأةً ولكن بسبب الزنى فلتكن لكل واحدٍ امرأتهُ وليكن لكل واحدةٍ زوجها » . وبعد ذلك يقول الرسول « وانني اقول لغير المتزوجين وللارامل ان يبقوا على هذه الحال كما انا وان لم يتعففوا

(١) تك ١ : ٢٧ و٢٨ (٢) اكليمنضُس الاسكندري في البدعيات ٣ : ٣٢ واوغسطينوس خطاب ٦١ : ٢٢ وغريغوريوس اللاهوتي خطاب ٣٧

(٣) تك ٢ : ١٨ ويوحنا الذهبي الفم مقالة ٣١ : ٤ و٥٩ : ٢ على التكوين

فليتزوجوا لان التزوُّج خيرٌ من التحرُّق » . وهذه الغاية عينها اوضحها معلمو الكنيسة الاقدمون .

ولما كان ناموس الزيجة الذي وُضعَ منذ البدء مقدسًا ونقيًا لانهُ مؤسَّسٌ من الله لمقاصد مقدسةٍ قد خضع لسلطان الخطيئة المبيد بسبب فساد الطبيعة البشرية وتنوعت اشكالهُ على انحاء عديدةٍ من اناس لحميين فلكي يقدسهُ ويثبتهُ ويرفع شانهُ ربنا ومخلصنا يسوع المسيح قد سرَّ ان يجعلهُ في كنيستهِ سرًّا جديدًا . فمن هنا يُفهَم تعريف السر وهو : ان سرّ الزيجة هو خدمةٌ شريفةٌ بها يرتبط الشخصان القادمان الى الاشتراك بالزواج ارتباطًا علنيًا قدام الكنيسة بوعد كلٍ منهما للآخر ان يحفظا امانةً زوجيةً متبادلةً فياخذان ببركة الراعي النعمة الالهية من فوق التي تقدّس اتحادهما الزيجيّ وترفعهُ بهما الى سموّ صورة الاتحاد الروحي بين المسيح وكنيستهِ وتساعدهما ان يتمما مقاصد الزيجة المتنوعة . وهذا السرُّ يسمى عندنا اكليلاً بسبب الاكاليل التي توضع عادةً على رؤوس العروسين في خدمة الزيجة . ولهُ ايضًا اسماءٌ اخرى غيرهُ .

الفصل الثاني

في تاسيس سرّ الزيجة وفاعليتهِ

١ · متى وكيف اسس الرب سر الزيجة ٢ · براهين الكتاب ٣ · براهين التقليد الشريف

(١) ١ كو ٧ : ١ — ٩ (٢) اكليمنضُس الاسكندري في البدعيات ٣ : ١٢ والذهبي الفم مقالة ٤٣ : ٢ وفي البتولية فصل ١٩ و٢٥ واوغسطينوس في رسالة ٩ : ٧ و١٢ وفي الزيجة ١ : ١٤

١. ان الانجيليين الاطهار لم يذكروا في الانجيل المقدس متى وكيف اسّس ربنا يسوع المسيح سر الزيجة كما لم يذكروا آياتٍ اخرى كثيرةً صنعها يسوع امام تلاميذه لم تكتب في الانجيل واحدةً فواحدةً »[1]. على ان بعض الآباء والمعلمين قالوا ان ربنا يسوع المسيح قد اسس سرّ الزيجة لما حضر العرس في قانا الجليل وباركه بحضوره الشخصي وملأه نعمةً[2]. وبعضهم قال انهُ اسسهُ بخطابهِ الفريسيين في الزواج الحقيقي بقولهِ « فما جمعهُ الله لا يفصلهُ انسانٌ »[3] ويرجّح عند آخرين ان الرب اسس هذا السرّ بعد قيامتهِ من الاموات مدة ظهورهِ اربعين يومًا لتلاميذهِ وكلامهِ لهم عن ملك الله يعني عن امورٍ تتعلق بتأسيس الكنيسة[4]. وعلى جميع الاحوال نحن نعلم جيدًا من مؤلفات الرسل القديسين ومن التقليد الشريف ان سرّ الزيجة قائمٌ في الكنيسة منذ البدء وانهُ مستلَمٌ من يسوع المسيح ذاتهِ.

٢. فان مؤلفات الرسل تشتمل على براهين واضحةٍ تشهد بوجود هذا السر في الكنيسة الشرقية ومنها:

ان القديس بولس الرسول في رسالتهِ الى اهل افسس يشرح واجبات المرأة المسيحية ويقول ايتها النساء اخضعن لرجالكنَّ كما للرب لان الرجل هو رأس المرأة كما ان المسيح هو رأس الكنيسة وهو مخلص الجسد فكما تخضع الكنيسة للمسيح فكذلك لتخضع النساء لرجالهنَّ في

(١) يو ٢٠: ٣٠ و٢١: ٢٥ (٢) يو ٢: ١ — ١١ (٣) مت ١٩: ١ — ١٢ (٤) اع ١: ٣

كل شيء ». ثم انهُ يعدد واجبات الرجل المسيحي ويقول « ايها الرجال احبوا نساءكم كما احب المسيح الكنيسة وبذل نفسهُ لاجلها ». واخيرًا في تفسيرهِ اساس هذه الواجبات الزوجية يبين طبيعة الرباط الزوجي والاهمية التي للزيجة في الدين المسيحي قائلاً « لذلك يترك الرجل اباه وامهُ ويلزم امرأتهُ فيصير الاثنان جسدًا واحدًا. ان هذا السرّ لعظيم وانا اقول بالنسبة الى المسيح والكنيسة »[1]. فمن هنا نستنتج ان رباط الزيجة يصوّر اتحاد المسيح بالكنيسة ومن ثمَّ على هذا المعنى يكون الزواج سرًا عظيمًا. فان سألنا سائلٌ ما الذي يرفع رباط الزيجة في الدين المسيحي الى درجة السرّ حتى يكون سرًا عظيمًا لا بسيطًا وما الذي يمنح هذا الرباط هذه الاهمية العظيمة ويرفعهُ الى تمثيل اتحاد المسيح بالكنيسة؟ ان هذا السؤال ليس لهُ من جوابٍ عند الذين لا يعتقدون ان في كنيسة العهد الجديد سرًا خصوصيًا او خدمةً دينيةً يتقدس بها الزيجة ويُختَم بنعمة يسوع المسيح. ومن هؤلاء هم البروتستانت الذين لا يعتبرون الزيجة سرًا. ولكن نحن نقول انهُ ما دام رباط الزيجة في الدين المسيحي هو صورةٌ حقيقيةٌ في جوهرهِ تصوّر سريًا اتحاد المسيح بالكنيسة كقول الرسول وهذا الاتحاد هو بلا ريبٍ مقدسٌ وبريءٌ من الدنس فمن الضرورة ان نسلّم بان الزيجة ايضًا قد تقدست في الديانة المسيحية وامتلأت نعمةً بوجهٍ سريٍّ من لدن يسوع المسيح واستوفت شروط السرّ وانها سرٌّ. ونتيجتنا هذه نستنتجها ايضًا من النظر الى الواجبات

(١) اف ٥: ٢٢ — ٣٣ وا و٢٦ (٢) يو ١: ١٤ وافسس ٥:

المبادلة التي وصّى بها بولس الرسول للزوج المسيحي كما رأينا في الآيات السابقة وهي ان تخضع المرأة لرجلها كما تخضع الكنيسة للمسيح وان يحب الرجل امرأتهُ كما احبَّ المسيح الكنيسة . فهذه المقابلة لم يكن لها محلٌ على الاطلاق لو لم يكن المشتركان في الزواج ينالان من العلاء نعمة خصوصية بسرّ الزيجة .

ثم ان هذا الرسول ذاته في رسالتهِ الى اهل كورنثُس حيث يتكلم في البتولية والعيشة الزوجية يقول «ان المرأة مرتبطة بالناموس مدة حياة رجلها وانها متى رقد رجلها حرة بان تتزوج بمن تريد لكن بالرب» فيوضح انهُ من ازمنة الرسل كانت الزيجة المسيحية تُعقَد بالرب او باسم الرب يعني انها كانت عملاً دينيًا وكنائسيًا مقدسًا ومختومًا بخدمةٍ منظورةٍ ومن ثم سرًا مستوفيًا شروطهُ .

٢ . ولا يترك آباء الكنيسة ومعلموها حرّاس التقليد الرسولي اقلّ شكٍّ في صحة هذا التعليم اما شهاداتهم فتنقسم الى نوعين فالنوع الاول منها هي التي تصف الزيجة المسيحية بانها عمل دينيٌ وكنائسيٌ متمٌّ ومقدسٌ ببركة الاساقفة والقسوس والنوع الثاني هي التي تسميها سرًا مانحًا النعمة الالهية .

ونذكر هنا من النوع الاول شهادة القديس اغناطيوس المتوشح بالله حيث يقول «يجب على المتزوجين والمتزوجات ان يجروا الخادم برأي الاسقف لكي يكون الزواج مطابقًا لارادة الله لا بحسب الشهوة»[1]

(١) رسالة الى بوليكربوس فصل ٦

والقديس باسيليوس الكبير يقول «ايها الرجال احبوا نساءكم وان كنتم غرباء بعضكم عن بعضٍ فتشتركون بالزيجة لان الرباط الطبيعي والزواج المقرون بالبركة يجمع المتباعدين»[1]. والقديس غريغوريوس الكبير يقول «ألم تقترن بالجسد بعد ؟ لاتخَفْ من تميم ذلك . فانت طاهرٌ والمسؤولية عليَّ لاني انا عقدتهُ وانا اعطيتك العروس»[2] والقديس امبروسيوس يقول «اذا كان من الواجب ان يُعقَد الزواج بحلةٍ كهنوتيةٍ وبركةٍ فكيف يمكن ان تكون زيجةٌ حيث الايمان مختلفٌ ؟»[3]. والمجمع السادس المسكوني يقول «يجب على العروسين ان يشتركا حالاً بعد الاكليل بالاسرار المقدسة وان يحافظا على البتولية الى الغد لاجل بركة الزيجة والاسرار الالهية»[4]. وترتليانوس يقول «كيف يمكنا ان نعبر عن سعادة الزيجة التي تنصدها الكنيسة ويثبتها القربان وتختمها البركة؟»[5] واكليمنضُس الاسكندري[6] والبابا سيريكيوس[7] واينوشنسيوس الاول يشهدون مثلهم[8]

ومن النوع الثاني نذكر ايضًا شهادة ترتليانوس وهو يعترف بان الزواج سرٌ مثل سائر الاسرار كالمعمودية والميرون والشركة ويقول «ان الشيطان بما انهُ يطلب ان يهدم الحقيقة فيقلِّد الاسرار الالهية نفسها

(١) في شرح ستة ايام الخليقة مقالة ٧ : ٥ (٢) خطاب في المعمودية فصل ١٨ (٣) رسالة الى ويجيليوس فصل ١٦ و٢٢ : ٧ (٤) قانون ١٣ وحواشيه وقانون ٤ من مجمع قرطاجنة (٥) لامرأته ٢ : ٩ (٦) المربي ٢ : ٢ والبديعات ٣ : ٢١ : ١٢ (٧) رسالة الى هيماريوس ٤ (٨) رسالة الى ياتريكيوس ٦٥

عيد الام فيعمّد بعضاً من اتباعهِ ويعدهم بان تُغفر خطاياهم بالمعمودية ويختم جبهة اضدادهِ ويقيم احتفاليًا تقديم الخبز . ويدعو الكاهن ليبارك الزيجة »[1] والقديس يوحنا الذهبي الفم يحارب الاغاني غير اللائقة والاحتفالات الزائدة في الاعراس ويقول « قُل لي لماذا تسمح من بادئ الامر بان تتلوّث اذان ابنتك من الشوائب بالاناشيد القبيحة وبذاك الاحتفال الذي لا محلّ له ؟ او لست تعلم ان الصبوّة سهلة الزلق ؟ لماذا يهتك اسرار الزيجة الموقرة ؟ فانهُ ينبغي ان ترفض كل هذه وتعلّم ابنتك الحياء من البدء وتدعو الكهنة وتعقد اتحاد الازواج بالصلوات والبركات لكي ينمو شوق العريس وتزداد عفّة العروس ويدخل عمل الفضيلة في بيتهما بكل وجهٍ »[2] . والقديس امبروسيوس يقول « اننا نعترف بان الله هو سيد الزواج وحارسهُ ولا يطيق ان يدنّس المضجع فمن يخطأ خطيئة كهذه يخطأ ضد الله اذ يخالف شريعتهُ ويسيء استعمال نعمتهِ ومن خطئ ضد الله لا يقدر ان يشترك بسرّ الالهي »[3] والقديس زينون يقول « ان محبة الزوجين تقرن الشخصين جسداً واحداً بسرّ الزيجة اذا حُفظ بكرامتهِ المستقيمة »[4] . واوغسطينوس المغبوط يقول « ان قداسة السرّ لها في زيجتنا (اي الزيجة المسيحية) قوة اكثر من قوة ثمرة الاولاد في الامّ »[5] . ثم اننا نزيد على ما تقدم امراً مهماً ايضاً وهو ان سرّ الزيجة

(١) في المرطقات فصل ٤٠ (٢) على التكوين مقالة ٤٨ : ٦
(٣) في ابرهيم ١ : ٧ (٤) رسالة ١١ : ٦ (٥) في الزيجة ١٨ : ٢١ و ٢٤ : ٣٢

يُعدُّ سرّاً من الاسرار السبعة ليس في الكنيسة الارثوذكسية والرومانية فقط بل عند سائر المسيحيين الذين في الازمنة القديمة انفصلوا عن الكنيسة كالقبط والارمن والموارنة والحبش والنساطرة[1] . ومن هنا نستنتج بكل تاكيدٍ ان الكنيسة القديمة الجامعة تعتبر الزيجة سرّاً .

الفصل الثالث

في القسم المنظور من سرّ الزيجة وفي افعالهِ غير المنظورة

١ . العمل المنظور في تتميم سرّ الزيجة ٢ . فعلهُ غير المنظور

١ . ان القسم المنظور من سرّ الزيجة يقوم بعملَين جوهريَين اولهما اقرار العريس والعروس علنًا قدام الكنيسة بانهما قابلان الزواج بحريتهما التامة ورضاهما المتبادل وانهما يحفظان احدهما للآخر امانة زوجية الى آخر نسمةٍ من حياتهما . والثاني هو بركة رباط الزيجة من الكاهن بان يضع الاكليل على رأس العريس ويقول « يكلّل عبد الله (فلان) على أمة الله (فلانة) باسم الآب والابن والروح القدس » ثم يضع الاكليل على رأس العروس ويقول « تكلّل أمة الله (فلانة) على عبد الله (فلان) باسم الآب والابن والروح القدس » ثم يتجه الى الله ويقول هذه الطلبة « ايها الرب الهنا بالمجد والكرامة كلّلهما »[2] ويباركهما ثلاثاً

(١) رينودوت في الابدية جزء ٥ : ٦ : ١ السمعاني جزء ٣ قسم ٢
(٢) ان ملخص الصلاة التي يصليها الكاهن على العروسين يحوي هذا الانشاد الرب الهنا . . . انت الان احفظ عبدَيك (فلان وفلانة) اللذين سيرون يقترنا احدهما بالآخر حرسهما بالسلامة والاتفاق اظهر عرسهما مكرماً

٢ · اما فعل النعمة الالهية غير المنظور الذي ينالهُ العروسان بهذا السرّ فيترسم اجمالاً بان النعمة الالهية حسب تعليم بولس الرسول تحوّل الزيجة الطبيعية الى سرّ عظيم يصوّر اتحاد المسيح بالكنيسة اتحاداً سرّيًا كما قال «ان هذا السرّ لعظيمٌ جدًا وانا اقول بالنسبة الى المسيح والكنيسة»[1] ولكي نزيد ما ذكرناهُ ايضاحًا نقول:

اولاً ان النعمة الالهية تقدس رباط الزيجة وتحولهُ الى رباطٍ روحيّ لان اتحاد المسيح بالكنيسة هو اتحادٌ مقدسٌ روحيٌّ. ولذلك يقول الرسول «ليكن الزواج مكرمًا في كل شيء والمضجع طاهرًا»[2] ويوصي الزوجين قائلاً «لان مشيئة الله هي تقديسكم بان تمتنعوا من الزنى وان يعرف كل واحدٍ منكم كيف يصون اناءهُ في القداسة والكرامة[3]» وكذلك يوحنا الذهبي الفم في شرحهِ آية القديس بولس الرسول القائلة «ولكن انتم ايضًا فليحب كل واحدٍ منكم امرأتهُ كنفسهِ ولتهب المرأة رجلها»[4] يقول «لان كل واحدٍ اخذ مالهُ · فهذا الزواج اذن هو زواجٌ بحسب المسيح. هو زواجٌ روحيٌّ وولادةٌ روحيةٌ لا من دمٍ ولا من امخاضٍ كما ان ولادة اسحق هكذا كانت · واسمع ماذا قال الكتاب المقدس «وقد امتنع ان تكون لسارة عادة النساء»[5] فلم يكن الزواج عن هوًى ولا كان زواجًا جسديا بل كان كلهُ روحيًا زواج نفسٍ المحدث بالله اتحادًا يفوق

مضجعهما بريئًا من الدنس · سرّ وارتضِ ان يدوما بعيشةٍ نقيةٍ بلا دنسٍ واهلهما لشيخوخةٍ مخصبةٍ عاملين بوصاياك بقلوبٍ نقيةٍ الخ» انظر ترتيب الاكليل ·

(١) اف ٥: ٣٢ (٢) عب ١٣: ٤ (٣) ١ تس ٤: ٣—٤
(٤) اف ٥: ٣٣ (٥) تك ١٨: ١١

الوصف كما يعلم هو وحدهُ · ولهذا يقول ان من يلتصق بالرب يكون روحًا واحدًا وانظر انت كيف يجتهد في ان يقرن الجسد بالجسد ويجمع بين الروح والروح»[1].

ثانيًا ان النعمة الالهية تساعد على ان يدوم الزواج غير منفصلٍ في كلا الشخصين كما ان اتحاد المسيح بالكنيسة هو ابديٌّ وغير منفصلٍ[2]. وهذا الامر عينهُ يُفهم من اقوال المخلص الآتية «ان ما جمعهُ الله لا يفصلهُ انسانٌ»[3]. وقد جمع الله بين الزوجين اولاً بناموس الزيجة الذي اعطاه منذ بدء العالم باعلان العهد القديم ثم بنعمتهِ ايضًا التي منحها للمتحدين بالشركة الزوجية في سرّ العهد الجديد ·

ثالثًا ان النعمة الالهية ذاتها تساعد العروسين مدة حياتهما لان يتمما الواجبات المفروضة على كلٍّ منهما نحو الآخر طبقًا للنموذج السامي في اتحاد يسوع المسيح بالكنيسة بحسب وصية بولس الرسول الآتية «ايها الرجال احبوا نساءكم كما احب المسيح الكنيسة وبذل نفسهُ لاجلها وكما تخضع الكنيسة للمسيح فكذلك لتخضع النساء لرجالهنَّ في كل شيء»[4] فلو لم تتأيد القوى البشرية بالنعمة الالهية لكان اقتداؤُها بهذا النموذج السامي يفوق حدودها · فبقوة النعمة الالهية اذن وبمعاضدتها يتمم الزوج المسيحي واجباتها كلٌّ منهما نحو الآخر مدة حياتهما ويتمان ايضًا كل مقاصد اتحادهما بالزواج اعني انهما يلدان اولادًا ببركة الله لازديادهم

(١) على اف مقالة ٢٠: ٥ (٢) مت ٢٨: ٢٠ (٣) مت ١٩: ٦
(٤) اف ٥: ٢٥ و٢٤

اعضاء الكنيسة ويتعاضدان في كل عملٍ صالحٍ ويعين احدهما الآخر ويحفظان نفسهما من الرُبُط الدنسة والشهوة الشريرة .

الفصل الرابع

في من لهُ ان يتمم سرّ الزيجة وما يُطلب من العازمين ان يتحدا بشركة الزواج

١ . لمن السلطان في تتميم سرّ الزيجة ٢ . المطلوب من الزوجين

١ . ان السلطان في اقامة سرّ الزواج وسائر الاسرار المسيحية هو مختصٌ دائمًا منذ ابتداء الديانة المسيحية الى الآن برعاة الكنيسة وهم الاساقفة والقسوس . فان القديس اغناطيوس وترتليانوس[١] والقديس باسيليوس وغريغوريوس الثاولوغوس ويوحنا الذهبي الفم[٢] وامبروسيوس[٣] والبابا سيريكيوس وإينوشنسيوس[٤] وكل محفل رعاة مجمع قرطاجنة المقدس[٥] يشهدون بذلك وزد عليهم ايضًا شهادات القديسين تيموثاوس بطريرك انطاكية[٦] وثاودورس الاسطوذيني ونيكيفورس وفوتيوس بطريركي القسطنطينية[٧] وآخرين كثيرين .

اما الاشخاص الذين يتقدمون الى الاقتران الزوجي فينبغي بحسب قوانين الكنيسة الارثوذكسية

(١) انظر شهاداتهما سابقًا (٢) باسيليوس في شرح الايام الستة مقالة ٧ وغريغوريوس رسالة ٥٧ والذهبي الفم في الزنى ٣ : (٣) رسالة ٩ : ٧ (٤) سيريكيوس رسالة ١ : ٥ و١٢ ورسالة اينوشنسيوس ٦ : ١٠ و١٠ : ١٢ (٥) انظر الشهادات السابقة (٦) جواب على السؤال الثاني (٧) الاسطوذيني رسالة ١ ونيكيفورُس فصل ٢٤ ومجموع القوانين لفوتيوس جزء ٢ فصل ٢

اولاً ان يكونوا مسيحيين لان الانسان بدون الايمان بالمسيح لا يستحق النعمة الالهية المعطاة بهذا السرّ او بغيره وبالاجمال لا يستطيع احدٌ ان يشارك المواهب الروحية الممنوحة في مُلك نعمة يسوع المسيح ان لم يدخل في هذا الملك من باب المعودية[١] . فعلى ذلك تكون الزيجة مع غير المؤمنين ممنوعةً بالكلية عن المسيحيين[٢] .

ثانيًا ان يكون كلا العروسين او على الاقل احدهما اما العريس او العروس ارثوذكسيًّا لانهُ لا وجه لنوال غير الارثوذكسيين بركة الله والنعمة الممنوحة في سرّ الزيجة من اسقفٍ او كاهنٍ ارثوذكسيّ قبل ان يعترفا بالايمان الارثوذكسي ايمان الكاهن الذي يعقد زواجهما . على انهُ اذا كان احد العروسين ارثوذكسيًا اي مستقيم الراي فنظرًا لاستقامة رأيهِ تنحدر النعمة الالهية وبركة الله عليهما في الاكليل ليصير بحسب قول الله «الاثنان جسدًا واحدًا»[٣] . ولكن يُشترط في ظرفٍ كهذا ان يُستوثق من العضو غير الارثوذكسي بوعدٍ ثابتٍ اولاً انهُ لا يمسّ ايمان العضو الارثوذكسي واولادهما وثانيًا ان يتربّى الاولاد المولودون منهما تربيةً ارثوذكسيةً ويكونوا ارثوذكسيين[٤] .

ثالثًا . ان يكون كلا الزوجين بعيدين عن القرابة الجسدية والروحية المعيَّنة درجاتها من قوانين الكنيسة الارثوذكسية[٥] .

(١) يو ٣ : ٥ (٢) راجع القانون ١٤ من المجمع الرابع المسكوني والقانون ٧٢ من المجمع السادس (٣) مت ١٩ : ٥ (٤) راجع القانون ١٠ و٣١ من مجمع اللاذقية والقانون ١٤ من المجمع الرابع والقانون ٧٢ من المجمع السادس (٥) انظر القانون ٥٣ و٥٤ من المجمع السادس المسكوني والقانون ٢ من مجمع

رابعاً · أن يكون كلا الشخصين راضيين وقابلين بتمام الحرية والارادة المطلقة الارتباط بالزواج · وهذا الامر يُستنتَج من طبيعة رباط الزيجة نفسها وهي ان «يترك الانسان اباهُ وامهُ ويلزم امرأتهُ ويصير الاثنان جسداً واحداً»[1]. فاتحادٌ كهذا بين شخصين لا يمكن اتمامهُ من دون الارادة الحرَّة والمحبة الواضحة واجراؤهُ بالاغتصاب امرٌ غير مقبول · ولذلك تسأل الكنيسة دائماً العروسين قبل الزواج ليعترفا علناً هل هما قابلان بارادتهما وبلا اكراهٍ الارتباط بالزواج ؟ ولا تكللهما ما لم تأخذ منهما جواباً وضعياً ايجابياً عن هذا السؤال بانهما راضيين[2].

الفصل الخامس

في اوصاف الزيجة المسيحية المقدسة بالسرّ

١ - منع كثرة الزوجات ٢ . اجازة الزيجة الثانية والرأي في الثالثة ٣ . عدم انفكاك الزيجة المسيحية .

١ · أن الصفة الاولى من اوصاف الزيجة عندنا هي ان ديانتنا المسيحية تمنع منعاً قطعياً كثرة النساء ولا تسمح الاقتران بزوجةٍ ثانيةٍ لمن كانت زوجتهُ حيَّة . وهذا الناموس هو الذي وضعهُ الله منذ البدء في الطبيعة البشرية بالنسبة الى الزيجة . وقد قال الكتاب المقدس «وخلق

قيصرية الجديدة والقانون ٢٦ و٧٨ و٨٠ من قوانين القديس باسيليوس الكبير والاصحاح ٢ من رسالة الى تيموثاوس . (1) مت ١٩: ٥ (2) انظر ترتيب الاكليل في الافخولوجي

الله الانسان ذكراً وانثى خلقهما»[1] ثم قال «وبنى الله الضلع التي اخذها من آدم امرأةً واحضرها الى آدم وقال آدم» الخ · وقد ثبت ربنا يسوع المسيح هذا الناموس وشرحهُ حيث قال «ان الذي خلقهُ منذ البدء ذكراً وانثى خلقهما وقال : لاجل هذا يترك الانسان اباهُ وامهُ ويلزم امرأتهُ فيكون الاثنان جسداً واحداً»[2]. والقديس بولس الرسول يعلّم هذا التعليم عينهُ حيث يقول «كلٌّ واحدٍ فلتكن له امرأتهُ فالمرأة لا تتسلط على جسدها بل الرجل ومثلها الرجل ايضاً لا يتسلط على جسده بل المرأة»[3]. وقد شخص هذا الرسول اتحاد الزوجين المسيحيين بصورة اتحاد المسيح والكنيسة وقال «لان الرجل هو رأس للمرأة كما ان المسيح رأس الكنيسة وهو مخلص الجسد»[4]. وهذا التعليم في شريعة الزواج هو تعليم الآباء القديسين ومعلمي الكنيسة عموماً[5].

٢ · ثم ان ديانتنا المقدسة مع منعها كثرة الزوجات لا تمنع اعادة الزيجة عن الذين يريدون ان يحصلوا بزيجةٍ ثانية رجالاً كانوا او نساءً بعد وفاة احد الزوجين . لان الموت يفك الرباط بين الزوج والزوجة على ان بولس الرسول يفضل عدم زيجة الارامل حيث يقول «واقول

(1) تك ١: ٢٧ (2) تك ٢: ٢٢-٢٤ مت ١٩: ٤-٦ (3) مت ١٩: ٤-٥ (4) ١ كو ٧: ٢-٤ (5) اف ٥: ٢٣ (6) هرماس في الراعي كتاب الوصية ٤: ٤ وثيوفيلوس في المقولة خطاب ٣: ٢ او الشمس الثالث في عدم لحلة الزواج ١ و١٣ وفي المقالة الاولى على رسالة تيطس وابيفانيوس في هرطقة ٤٨: ٩

لغير المتزوجين وللارامل انهُ حسنٌ لهم ان يبقوا على هذه الحال كما انا فان لم يتعففوا فليتزوجوا فان الزيجة خيرٌ من التحرّق» وبعد ذلك يقول «ان المرأة مقيدةٌ بالناموس ما دام رجلها حيًّا فان رقد رجلها فهي حرّةٌ ان تتزوج لمن تشاء لكن في الرب فقط . غير انها تكون اكثر غبطةً ان بقيت على ما هي عليهِ بحسب مشورتي واظن اني انا ايضًا فيَّ روح الله»[1] والآباء القديسون ايضًا لا يمنعون الزيجة الثانية[2] ولكنهم استنادًا على اقوال بولس الرسول السابق ذكرها يسمحون بالزيجة الثانية تساهلاً للضعف البشري معتبرين هذا الامر نقصًا في الكمال المسيحي[3]. وعلى ذلك قد حددوا في قوانينهم ان الذين يطلبون الاشتراك بالزيجة الثانية ينبغي ان يوضعوا تحت قانونٍ كنائسي لانهم لم يحفظوا العفاف للامور المسيحية[4] وان يُختصر في طقس اكاليلهم على بعض القطع والافاشين التي في طقس الاكليل الاول[5]. وقد تسلمنا من الرسل القديسين ان الذي يتزوج زيجةً ثانيةً ممنوعٌ من الكهنوت[6]. واما الزيجة الثالثة

(1) ١كو ٧: ٨ و٣٩—٤٠ (2) كيرلس الاورشليمي عظة ٤: ٢٦ وباسيليوس الكبير رسالة ١٦١: ٤ وابيفانيوس في هرطقة ٥٩: ٤ و٦ (3) اثيناغوراس فصل ٣٣ واكليمنضس الاسكندري في الديباجات ٣: ٢ وغريغوريوس النيصي في ترجمة القديسة ماكرينة وامبروسيوس في الارامل فصل ٢ ويوحنا الذهبي الفم في عدم اعادة الزواج فصل ٢ (4) قانون ١ من مجمع اللاذقية وقانون ٤ و٨٧ من قوانين القديس باسيليوس (5) يوحنا الذهبي الفم في عدم اعادة الزيجة فصل ٣ وامبروسيوس في المقالة ٧ على ١كو فصل ٥ . وثاودوروس الاستوديتي رسالة ٥٠ . وقانون ١ لنيكيفورس (6) ١تي ٣: ٢ و١٢ وتي ١: ٦ راجع ترتليانوس

فقد اعتُبرت في قوانين الآباء [illegible] جسدية ولا تسمح بها الكنيسة الا بعد قانونٍ كنائسيٍّ أثقل من قانون الزيجة الثانية. وما فوق ذلك من زيجةٍ رابعةٍ لا فرق بينهُ وبين تكثير الزوجات ولهذا قد منعت الزيجة الرابعة منعًا قطعيًا[1].

٢. ان الصفة الثانية للزيجة المسيحية هي عدم الانفكاك وهذه الصفة هي ايضًا نتيجةٌ طبيعيةٌ من الشريعة الاولى التي اشترعها الخالق في امر الزواج وسطرها في الطبيعة البشرية. وقد شرحها مخلصنا له المجد لما جاءه الفريسيون وسألوهُ «هل يُسمح للانسان ان يطلق امرأتهُ لاجل كل علةٍ» فاجابهم قائلاً «أما قرأتم ان الذي خلق الانسان في البدء ذكرًا وانثى خلقهما وقال لهذا يترك الانسان اباهُ وامهُ ويلزم امرأتهُ فيصير الاثنان جسدًا واحدًا فليسا هما اثنين بعد بل جسدٌ واحدٌ فما زوجهُ الله لا يفرقهُ انسان». ولما قال لهُ الفريسيون «فلماذا موسى اوصى ان يُعطى لها كتاب طلاقٍ وتُطلق» قال لهم «ان موسى لقساوة قلوبكم سمح لكم ان تطلقوا نساءكم ولكن من البدء لم يكن هكذا»[2]. ولما سألهُ تلاميذهُ في هذا الموضوع عينهِ قال لهم «ان كل من طلق امرأتهُ وتزوج باخرى يزني عليها وان طلقت امرأةٌ رجلها وتزوجت باخرى تزني»[3].

في تفسيره على التلاوة فصل ٧ - واوريجانس مقالة ١٧ على لوقا - وسيريكوس فصل ٨—١٢ والذهبي الفم مقالة ٣ على تيطس وابيفانيوس في شرح الايمان التام فصل ٢١ وهرطقة ٥٩: ٤ - وثاودوروس رسالة ٨٢ - (1) باسيليوس الكبير قانون ٤ و٥٠ و٨٠ (2) متى ١٩: ٣—٨ ومرقس ١٠: ٢—٩ (3) مر ١٠: ١١—١٢ ولوقا ١٦: ١٨

ثم ان تعليم مخلصنا يسوع المسيح في عدم فسخ الزواج نادى به الرسل القديسون ايضاً . فان بولس الرسول يكتب هكذا «اما المتزوجون فاوصيهم لا انا بل الرب بان لا تنفصل المرأة عن رجلها وان فارقته فلتبقَ غير متزوجةٍ او فلتصالح رجلها وان لا يترك الرجل امرأته »[1] وفي محلٍ آخر يقول « لان المرأة المتزوجة هي مرتبطة بالناموس برجلها ما دام حيًّا فان مات الرجل بُرئت من الرجل فمن ثم ما دام رجلها حيًّا تدعى زانيةً ان صارت لرجلٍ آخر وان مات رجلها محررة من الناموس حتى انها ان صارت لرجلٍ آخر فليست بزانية»[2] فما دام ربنا يسوع المسيح نفسهُ ورسولهُ ايضاً يعلمان ان لا ينفصل رباط الزيجة فامرٌ طبيعيٌّ هو ان يعلم جميع الآباء ومعلمي الكنيسة هذا التعليم نفسهُ . نعدُّ منهم القديس يوستينوس الفيلسوف والشهيد واكليمنضس الاسكندري وباسيليوس الكبير ويوحنا الذهبي الفم وابيفانيوس وكيرلُّس الاسكندري وثاودوريطوس ولاكتانديوس[3]

وقد اوضح ربنا علةً واحدةً فقط تقتضي فك رباط الزيجة وهي علة الزنى حيث قال ان من طلّق امرأته الا لسبب الزنى وتزوج باخرى

(١) ١ كو ٧: ١٠ و ١١ (٢) رو ٧: ٢-٣ . (٣) يوستينوس في احتجاجه فصل ٣١: ٦ . واكليمنضس الاسكندري في الديباجات ٢: ٢٣ وكو ٣: ١١ وباسيليوس الكبير في شرح ستة ايام الخليقة مقالة ٧: ٥ ويوحنا الذهبي الفم رسالة ١٣ وابيفانيوس في شرح الايمان العام فصل ٣١ وهرطقة ٥٩ الى ٤ و٦ وكيرلس الاسكندري على ملاخيا فصل ٢٨ وثاودوريطوس على ١ كو ٧: ١١ ولاكتانديوس في التعاليم الالهية كتاب ٦: ٢٣

يزني»[1] و «من طلّق امرأته لغير علة الزنى يجعلها تزني»[2] وكذلك قوانين المجامع المقدسة الرسولية والمكانية وقوانين الآباء القديسين [illegible] لا تذكر غير هذه العلة لفك الزيجة ونلاحظ ايضاً انه عد [illegible] مثل هذا حسن ولكن حظر حل الزواج بصالحة [illegible] فيكون الزواج غير منحل[3] .

(١) مت ١٩: ٩ (٢) [illegible] ٣٢ (٣) قانون [illegible] الجديدة وقانون ١١٥ لمجمع قرطجنة وقانون ٩ و ٢ و ٢٦ [illegible] وقانون ٨٧ للمجمع السادس المسكوني .

٧

سر الكهنوت

تمهيدٌ

في ايضاح ارتباط هذا السرّ مع ما سبقهُ وفي قسمتهِ

١ · الاسباب الموجبة اقامة سر الكهنوت ٢ · قسمة البحث في الكهنوت الى قسمين بحسب معنييهِ

١ · بما شرحناهُ الى الآن في التعليم عن الاسرار يتضح ان كل سرّ منها يقام للمؤمنين من رعاة الكنيسة وحدهم وهم الاساقفة والقسوس · ولكن لكي يصير البشر رعاةً في الكنيسة المسيحية وينالوا حقوقاً في تتميم الاسرار المقدسة قد اقام الرب سرّ الكهنوت ·

٢ · غير ان الكهنوت يفهم على معنيين احدهما رتبةٌ ممتازةٌ مختصةٌ بافراد معلومين او وظيفةٌ وخدمةٌ خصوصيةٌ في الكنيسة معروفةٌ باسم رئاسة الكهنوت والثاني انهُ طقسٌ وترتيبٌ خصوصيٌ عليهِ يتقدّس بشرطه الاشخاص اللائقون لهذه الخدمة الخصوصية · فعلى ذلك تقسم البحث في الكهنوت الى قسمين وفي القسم الاول نبحث فيهِ من حيث هو

رتبةٌ قائمةٌ بذاتها مختصةٌ بافراد معلومين في الكنيسة وفي القسم الثاني نبحث فيهِ من حيث هو سرٌّ · ولنلقي كلامنا عن القسم الاول ثلاثة فصول · الفصل الاول في ان الرب اقام رجال الكهنوت وعينهم في الكنيسة هم وحدهم دون غيرهم معلمين ورعاةً ومرشدين روحيين وخداماً ومنع سائر الشعب عن معاطاة مهام هذه الوظيفة ان لم يشرطوا شرطونيةً قانونيةً · والفصل الثاني في ان درجات الكهنوت الاصلية المرتبة من الله ثلاثة وهي درجة الاسقف او رئيس الكهنة ودرجة الكاهن ودرجة الشماس · والفصل الثالث في ان الدرجات الثلاث لها حدودٌ وعلاقاتٌ معينةٌ لا تتجاوزها سواءٌ كان حسب بعضها الى بعض او بالنسبة الى الرعية وان لكل واحدة منها رجالاً خصوصيين لهم اقسامٌ معينةٌ من الخدمة العمومية في الكنيسة

القسم الاول

في الكهنوت من حيث هو رتبةٌ قائمةٌ بذاتها مختصةٌ بافراد معلومين في الكنيسة

الفصل الاول

في الرعية والكهنوت المؤسّس من الله وفي علاقاتهم المتبادلة

١ · انكر البعض رتبة الكهنوت الخصوصية في الكنيسة ٢ · دحض رأيهم (اولاً) من كلام الخلص ثانياً من عمل الرسل القديسين ثالثاً · من تاريخ الكنيسة وعمل الآباء واقوالهم) ٤ · العلاقة بين الرعية والرعاة في الكنيسة

١ · كثيرون من المبتدعين عن العقائد القويمة وخصوصاً

البروتستانت لا يعترفون بان يسوع المسيح اقام في الكنيسة وظيفة خصوصية اعني وظيفة الكهنوت ويزعمون ان جميع المؤمنين هم بالسوية كهنة للاله العلي بصبغة المعمودية ويقولون ان المؤمنين بما انهم لا يستطيعون ان يتمموا جميع الواجبات الكهنوتية ينتخبون من بينهم اناساً ادباء فيجيزونهم بنيابة تواصو عنهم ليتقلدوا الوظائف الكنائسية ·

٢· غير ان الامر سهل جداً ان نبرهن دحضاً لهذا الرأي الوخيم ان قسمة اعضاء الكنيسة الى قسمين صادرة من مخلصنا نفسه · لان يسوع المسيح قد اقام هو نفسه في كنيسته صفاً خصوصياً للكهنوت ووضع الرجال الذين يتألف منهم هذا الصف وحدهم قوة عمل الوسائط المتوحة منه للكنيسة لتحصل على الغاية المطلوبة التي انه اقامهم فيها معلمين وخداماً ورعاة روحيين ولم يسمح بهذه الوظائف لاحد من سائر المؤمنين غيرهم بل بالعكس امر الرعية ان تخضع لرعاتها ولا اكثر⁽¹⁾ ·

ففي الانجيل المقدس المتضمن تاريخ حياة مخلصنا يسوع المسيح واعماله نرى اولاً ان الرب قد اختار هو نفسه من بين جميع تلاميذه اثني عشر تلميذاً معروفين باسمائهم وسماهم رسلاً · وقد قال في ذلك القديس لوقا الانجيلي «ولما كان النهار دعا تلاميذه واختار منهم اثني عشر وسماهم رسلاً»⁽²⁾ وقال لهم «ليس انتم اخترتموني بل انا اخترتكم»⁽³⁾ · ثانياً انه اعطاهم وحدهم الحقوق والقوة في تعليم جميع الشعوب وتتميم الاسرار

(١) اختلاف الرأي القويم قسم اول جزء ٢ . اورسالات البطاركة بند ١٠ والفصل التاسع من التعليم المسيحي (٢) لو ٦: ١٢ (٣) يو ١٥: ١٦

المقدسة وارشاد المؤمنين الى الخلاص حيث قال لهم «اذهبوا الآن وتلمذوا كل الامم معمدين اياهم باسم الآب والابن والروح القدس» وايضاً «اخذ خبزاً وشكر وكسر واعطاهم قائلاً هذا هو جسدي . . . اصنعوا هذا لذكري» وايضاً قال لهم «كل ما ربطتموه على الارض يكون مربوطاً في السماء وكل ما حللتموه على الارض يكون محلولاً في السماء» ثالثاً انه اعطى هذه القوة للرسل القديسين كما اخذها من الآب اذ قال بفمه الطاهر «اني قد أعطيتُ كل سلطانٍ في السماء والارض فاذهبوا الآن وتلمذوا كل الامم وعمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس» كما ارسلني الآب كذلك انا ارسلكم · ولما قال هذا نفخ فيهم وقال لهم خذوا الروح القدس ان غفرتم لقوم خطاياهم غُفِرَت لهم وان امسكتموها على قوم أُمسكت» · رابعاً انه قد اضاف هو نفسه الى الاثني عشر تلميذاً سبعين لتخرجهم وارسلهم بالسوية الى هذا العمل العظيم عينه · خامساً نرى انه لم يرد رسالة الاثني عشر هذه الرسالة السماوية قصد ان تنتقل منهم الى خلفائهم ومن خلفائهم الى الذين بعدهم وان تحفظ بهذا الانتقال من جيل الى جيل في العالم الى انتهائه · فبعد انه قال للرسل «امضوا الى العالم اجمع واكرزوا بالانجيل للخليقة كلها» قال لهم «وها انا معكم كل الايام والى منتهى الدهر» · فيتضح من قوله «الى منتهى الدهر» ان الرب

(١) مت ٢٨: ١٩ ولو ٢٢: ١٩ ومت ١٨: ١٨ (٢) مت ٢٨: ١٨ و١٩ (٣) يو ٢٠: ٢١—٢٣ (٤) لو ١٠: ١ الخ (٥) مر ١٦: ١٥ (٦) مت ٢٨: ٢٠

قد ارسل بشخص الرسل الى عمل رسالتهم عينوجميع خلفائهم الآتين بعدهم وأكد لهم حضورهُ معهم كل الايام واقام هو نفسهُ في الكنيسة اقامة حقيقية وضعية ثابتة كل الايام والى منتهى الدهر لا رسلاً وانبياء ومبشرين فقط بل «رعاة ومعلمين» ايضاً[1]. سادساً نرى ان الرب بعد توشيحهِ تلاميذهُ بهذه القوة الالهية امر امراً صريحاً واجب الطاعة ومقروناً بتهديدات مخيفة ضد من عصاهُ ان يقبل جميع المسيحيين تعاليم الرسل التي يعلمونها والاسرار التي يقيمونها وان يكونوا خاضعين لصوتهم خضوع الرعية للراعي اذ قال «مَن سمع منكم فقد سمع مني ومن احتقركم فقد احتقرني ومن احتقرني فقد احتقر الذي ارسلني»[2] وايضاً قال لهم «اذهبوا الى العالم اجمع ونادوا بالانجيل للخليقة كلها فمن آمن واعتمد يخلص ومن لم يؤمن يُدَن»[3] وايضاً قال لهم «ومن لا يقبلكم ولا يسمع كلامكم فاذا خرجتم من البيت او من المدينة فانفضوا غبار ارجلكم - الحقَّ اقول لكم ان ارض سدوم وعمورة ستكونان اخف حالةً من تلك المدينة في يوم الدين»[4]. ثم انهُ بعد صعود ربنا الى السماء قد انتُخِبَ متياس الرسول لا بحسب استحسان المؤمنين بل بالهام الرب فقط كما يظهر من الكتاب حيث قال «وصلَّى الرسل قائلين ايها الرب العارف قلوب الجميع أظهر انت من هذين الاثنين ايًا اخترتهُ لكي يأخذ قرعة هذه الخدمة والرسالة التي سقط عنها يهوذا ليذهب الى موضعهِ ثم القوا القرعة بينهما فوقعت

(١) اف ٤: ١١ (٢) لو ١٠: ١٦ (٣) مر ١٦: ١٥ و١٦
(٤) مت ١٠: ١٤ و١٥ راجع مص ١٨: ١٥ — ١٩

القرعة على متياس فأُحصِيَ مع الرسل الاحد عشر»[1]. وهكذا برنابا وشاول أُفرِزا بصوت الروح القدس «للعمل الذي ارسلهما اليهِ مخلصنا»[2] فدعوى البروتستانت ساقطة لانها لا تستند على كتاب ولا على تسليم رسولي.

ثانياً ان غاية خلفاء هؤلاء تظهر باكثر جلاء من عمل الرسل القديسين الذين كانوا حاضرين في العالم بروحهِ القدوس:

فانهم اولاً حفظوا لانفسهم دائماً الحقوق الرعائية وتمموا دائماً الواجبات التي ورثوها من يسوع المسيح[3] رغماً عن المساعي المتعددة التي كان مقاوموهم يطلبون بها ان يحرموهم هذا الحق الذي نالوهُ من الله[4]. ثانياً عندما كانوا يبشرون بالانجيل ويؤسسون في اماكن كثيرة كنائس عديدة «اقاموا في تلك الكنائس كهنة واساقفة كما كانت الضرورة تدعو»[5] وقد منحوا بسر وضع اليد المقدس للاشخاص الذين اقاموهم نواباً وخلفاء لهم[6] القوة الالهية عينها التي اخذوها من يسوع المسيح ونقلوها لهم مثبتين انهم قد أُقيموا في الكنيسة من الروح القدس نفسهِ[7]. وقد خصصوا هؤلاء الخلفاء وحدهم دون غيرهم بالحقوق الرسولية في تعليم

(١) اع ١: ٢٦ الخ (٢) اع ١٣: ٢و٣: ١٥ (٣) اع ٥: ٤٢ و٦: ١ — ٥ و١كو ٤: ١و٥ و٤ — مر ٩: ٣٦ (٤) اع ٤: ١٩ و٥: ٢٨ — ٣٦
(٥) اع ١٤: ٢٣ و٢٠: ٢٨ الى غير ذلك مما في الرسائل بولس وبرنابا بحسب شرح المعلمين القدماء للرسل الآخرين ايضاً - انظر اقوال القديس ايريناوس واكليمنضس الاسكندري في تاريخ اوسابيوس الكنائسي ٣: ٢٣ وترتليانوس وغيرهم
(٦) تي ١: ٥ (٧) اع ٢٠: ٢٨

المؤمنين[1] وإقامة الخدمة الالهية[2] ورعاية خراف قطيع يسوع المسيح[3]. ثالثًا واخيرًا ان الرسل انفسهم قد وصوا الاساقفة الذين انتخبوهم وساموهم بايديهم ان يمنحوا بسر الشرطونية المقدس القوة الالهية التي نالوها الى اناسٍ آخرين يُختارون من ذوي اللياقة والاستعداد للقيام بخدمة سامية مثل هذه[4]. وقد ابانوا بالتدقيق الاوصاف الخاصة التي يجب ان تميز المدعوين الى هذه الرتبة المهمة[5] ووضعوا قوانين خصوصية لمحاكمتهم[6] وامروا بالمكافاة للكهنة الذين يحسنون التدبير في وظائفهم[7].

ثم ان الرسل قد ابانوا حقيقة ما نحن بصدده باعمالهم على وجه آخر ايضًا. فانهم اولاً منعوا جميع الذين لم يتوشحوا ناموسيًا بقوة اقامة الخدمة الالهية منعًا صارمًا عن اغتصابها. وقال القديس بولس الرسول سائلاً «كيف يبشرون ان لم يرسلوا؟[8] العلَّ الجميع رسلٌ؟ العلَّ الجميع معلمون؟»[9] وهو نفسهُ قد اجاب في رسالةٍ اخرى قائلاً «وليس احدٌ ياخذ لنفسهِ هذه الكرامة الا من دعاهُ الله كما دعا هارون فكذلك المسيح لم يتمجد حتى يجعل نفسهُ رئيس كهنةٍ بل انما جعلهُ الذي قال لهُ انت ابني وانا اليوم ولدتك»[10]. وثانيًا قد وجهوا النصائح

(1) اتي ٦: ٢٠ و٢ تي ١: ١٦ و٤: ٢ وتي ١: ١ و١٣ (٢) ١ كو ٢: ١٣ و١٦ و١ تي ٢: ١ و٢ (٣) اع ٢٠: ٢٨ و١ بط ٥: ١٣ (٤) ٢ تي ٢: ٢ وتي ١: ١٥ (٥) ١ تي ٣: ١ — ١٠ وتي ١: ٦ وما بعدهُ (٦) ١ تي ٥: ٦ (٧) ١ تي ٥: ١٧ و٢٢ وتي ١: ٥ (٨) رو ١٠: ١٥ (٩) ١ كو ١٢: ٢٩ (١٠) عب ٥: ٤ و٥

للمؤمنين عمومًا ان «اخضعوا لمدبريكم واطيعوهم فانهم يسهرون على نفوسكم»[1] «ونلتمس منكم ايها الاخوة ان تعتبروا الذين يتعبون بينكم ويدبرونكم في الرب ويعظونكم وان تحبوهم غاية المحبة من اجل عملهم وسالموا بعضكم بعضًا»[2].

ثالثًا نزيد على ما ذكرنا من اعمال واقوال الرسل القديسين شيئًا مما ورد في تاريخ اعمال الكنيسة ايضًا. فانا اذا نظرنا في تاريخ الازمنة التي وليت حالاً عصر الرسل الاطهار نرى انها كانت دائمًا في كنيسة المسيح رتبة خصوصية معروفة برتبة الرعاة وكان سائر المؤمنين مجبورين ان يخضعوا لها. وهذا الامر واضح جدًا مما انتهى الينا من اقوال تلاميذ الرسل انفسهم الذين كانوا يعلمون بلا شكٍ تعاليم وافكار معلميهم الرسل حق العلم نعدُّ منهم القديس اكليمنضس اسقف رومية[3] والقديس اغناتيوس[4] ومن الذين بعدهم ايريناوس[5] وكبريانوس[6] واوسابيوس[7] وغريغوريوس

(1) عب ١٣: ١٧ (٢) ١ تس ٥: ١٢ و١٣ (٣) في رسالته الاولى الى كورنثوس: ٤٢ و٤٤ (٤) في رسالته الى اهل مغنيسيا ٣ و٦ و٧ (٥) قال القديس ايريناوس «يجب الخضوع للكهنة الذين اقيموا في الكنيسة متسلسلين بحسب الخلافة من الرسل واخذوا المواهب الحقيقية بمسرة الآب مع الخلافة الاسقفية - واما الباقون الذين لم يقبلوا الكهنوت بخلافة رسولية وهم يجتمعون خارج الكنيسة حيث اتفق فيجب ان نحسبهم اناسًا مشوهين وهراطقة واردياء وعصاة متجرفين ومتكبرين ومرائين وانهم لا يعاملون تلك الاعتبة بالربح والمجد الفارغ» ضد الهراطقة ٤: ٢٦ (٦) في رسالة ٢٥ و٢٧ (٧) في تاريخ الكنيسة ٣: ٤ وعلى مز ٨٨: ٣٥ وعلى اش ١: ٢٧ و٩: ١٤ و١١: ٦ و٧.

الثاولوغوس[1] ويوحنا الذهبي الفم[2] وامبروسيوس[3] وايارونيموس[4] واوغسطينوس[5] وغيرهم . ثانيًا نرى ان الرعاة الذين كانوا يؤلفون هذه الرتبة الخصوصية كانوا ينسبون القوة الممنوحة لهم الى يسوع المسيح نفسهِ وانهم لهذا سمُّوا خلفاء الرسل وكانوا يختصون المخلص نفسهُ في الكنيسة . وهاك ما قالهُ احدهم القديس اكليمنضُس اسقف رومية . «اذ قد اخذ الرسل معرفةً كاملةً بما سيكون بعدهم اقاموا الذين سبق ذكرهم (يعني الاساقفة والشمامسة) وبالوقت نفسهِ حددوا امر الخلافة حتى كلما رقد احد منهم يخلفهُ في الخدمة رجالٌ آخرون مختبرون»[6] . والقديس اغناتيوس المتوشح بالله يقول «ان الاساقفة قد أُقيموا في جميع اماكن الارض بحسب مشيئة يسوع المسيح»[7] والقديس ايريناوس يقول «انهُ يمكنا ان نذكر الذين اقامهم الرسل اساقفةً في الكنائس وخلفاءهم ايضًا باسمائهم الى ايامنا الذين لم يعلموا شيئًا البتة ولم يروا شيئًا مما يتصورهُ المراطقة لانهُ اذ عرف الرسل الاسرار المكتومة كانوا يظهرونها للكاملين وحدهم دون جميع الآخرين فبحقٍ اقوى اذن قد باحوا بها وسلموها للرجال الذين ائتمنوهم على الكنائس نفسها اذ كانوا يرغبون ان يكون خلفاؤهم المقامون في رتبتهم الخاصة كاملين في التعليم وبلا لوم من كل الاوجه»[8] والقديس كبريانوس يقول «نحن خلفاء الرسل ومدبرو

(١) جزء ٢ صفحة ١٤٣ ــ ١٤٥ (٢) على رسالة ٢ تي مقالة ٢ : ٢ وعلى ٢ كو مقالة ١٥ : ٤ و١٨ : ٢ (٣) في واجبات الخدام ٢ ، ٢٤ : ١٣٢ . (٤) ضد لوكيفرراس ٤ (٥) ضد رسالة بارمنيان ١ ، ٣ : ٥ (٦) رسالة ١ ، ٤٤ (٨) رسالة لاقمس ٣ « ٨ » ضد الهراطقة ٣ ، ٣ و ٢ ، ٤ ، ٥

كنيسة الله يقودهم عينها» وفي محلٍ آخر يقول «ان سلطان حل الخطأة أُعطيَ للرسل وللكنائس التي هم ارسلوها اذ ارسلوا من الله وللاساقفة الذين خلفوهم بحسب ترتيب النيابة»[1] والقديس امبروسيوس يقول «ان الاسقف يشخص يسوع المسيح وهو نائب الرب»[2] وايارونيموس يقول «ان الاساقفة يقومون عندنا مقام الرسل»[3] .

٦ . فما تقدم يتضح جليًا ما هي العلاقة التي يجب ان تكون بين الرعاة والرعية اللذين هما القسمان المؤلفة منهما كنيسة يسوع المسيح . فان الرعاة يجب عليهم ان يعلموا رعيتهم[5] ويقيموا لها الخدم الالهية[6] ويسوسوا امورها الروحية[7] . واما الرعية او الشعب فعليهِ وجوبًا ان يمتثل تعاليم رعاتهِ[8] وان يباركوه ويتقدس منهم[9] وان يخضع لرئاستهم الروحية . على اننا نجد احيانًا في كلام الله اسم الكنيسة مشيرًا الى الرعية فقط دون الرعاة حيث ان الرعاة يسمون امناء على الكنيسة التي يعني بها الشعب وحده[10] ونجد احيانًا بعكس ذلك اي نجد لفظة الكنيسة اسمًا خاصًا بالرعاة وحدهم دون الرعية كما في قول المخلص «ان خطئ اليك اخوك فاذهب وعاتبه بينك وبينه على انفرادٍ فان سمع لك فقد ربحت اخاك ولكن ان لم يسمع لك . . . فقل للكنيسة» وان لم يسمع من

(١) انظر اعمال مجمع قرطاجنة (٢) رسالة ٢٥ (٣) في شرح الرسالة الاولى الى كورنثس (٤) رسالة ٢٧ (٥) الي ٦ ، ٢٠ : ٢ تي ٢ : ١ و ١٣ (٦) ١ كو ٣ ، ٤٣ ــ ٣٦ و ١ تي ٢ : ١ و ٢ (٧) اع ٢٠ : ٢٨ . بط ١ ، ٥ : ١ ــ ٣ (٨) لو ١٠ : ١٦ الو ١ تي ٥ : ١٢ و ١٣ (٩) مر ١٦ : ١٥ و ١٦ (١٠) اع ٢٠ : ٢٨ و ١ تي ٣ : ٥

الكنيسة فليكن عندك كوثني وعشار . الحق اقول لكم ان كل ما ربطتموهُ على الارض يكون مربوطاً في السماء وكل ما حللتموهُ على الارض يكون محلولاً في السماء »[١] فها بقولهِ « الحق اقول لكم ان كل ما ربطتموهُ الخ » يشير الى انهُ عنى بالكنيسة الاشخاص المعطى لهم سلطان الحل والربط اي الرعاة كما شرح يوحنا الذهبي الفم[٢] وكبريانوس واوغسطينوس وثاوفيلاكطس وغيرهم . غير ان تخصيص اسم الكنيسة تارةً بالرعاة وحدهم وتارةً بالرعية وحدها لا يفيد المعنى الكامل الذي يدل عليهِ الاسم وانما كمال معنى اسم الكنيسة يقوم بدلالتهِ على الرعاة والرعية معاً وحينئذٍ يشمل الكنيسة ذات السلطان الكهنوتي اي الرعاة والكنيسة المرؤوسة منهم اي الرعية . وحيث تكون الرعية اي الشعب المؤمن وحدهُ من دون كهنوتٍ منتظمٍ بالامر الالهي او يكون الكهنوت مرفوضاً هناك ليست كنيسةٌ[٣] لان الرب الذي سرَّ ان يخص المؤمنون بهِ كنيستهُ هو نفسهُ اقام الكهنوت في كنيستهِ وبحسب ارادتهِ نال الرعاة وحدهم لحق ان يعلموا الناس الديانة ويقدسوهم بالاسرار ويحفظوهم في دائرة السلام . وعليهِ فان الشعب بدون الرعاة المقامين فيهم قانونيًا يكونون بلا تقديسٍ . . . وهذا الامر قد اجتهد آباء الكنيسة القدماء بان يعلموهُ للمؤمنين بعنايةٍ خصوصيةٍ . فان القديس اغناطيوس المتوشح بالله يقول : « بدونهم (اي بدون الاساقفة والقسوس والشمامسة) ليست كنيسة وقد اقتنعتم بذلك مثلي »[٤] .

(١) متى ١٨ : ١٥ - ١٩ (٢) على متى مقالة ٢ (٣) رسالة بطاركة الشرق بند ١ (٤) في رسالتهِ الى الترالين عدد ٢

وترتليانوس يقول : « بدون الاسقف ليست كنيسة »[١] والقديس ايبوليطوس يقول « فلا يتكبر الاسقف امام الكهنة والشمامسة ولا الكهنة امام الشعب لان جسد الكنيسة مركَّبٌ من الاولين والآخرين »[٢] والقديس كبريانوس يقول « ان الشعب المتحد مع الكاهن والقطيع الخاضع لراعيهِ يشخص الكنيسة . ولهذا يجب ان تعلموا ان الاسقف بالكنيسة والكنيسة بالاسقف ومن لم يكن مشتركاً مع الاسقف ليس في الكنيسة البتة »[٣] والقديس غريغوريوس اللاهوتي يقول « ان في الجسد قسمين قسمٌ يسوس ويرأس وقسمٌ يُساس وينقاد . وهكذا في الكنائس ايضاً . . . فان الله قد رتب ان يكون هؤلاء المحتاجون لاولئك ملازمين واجباتهم التي عرفوها بالقول والمثال وبانها رعية مرؤوسة واما الآخرون فلانهم اعلى رتبةً بفضائلهم وموهوبون من الله كثر منهم فقد رتب ان يكونوا رعاة ومعلمين لكمال الكنيسة وان يحفظوا نحو اولئك التناسب الذي بين النفس والجسد وبين العقل والروح حتى يكون كلا الامرين اعني نقص الرعية وفضل الرعاة شبيهين بالاعضاء في الجسد ومتحدين كواحدٍ ومنضمين ومرتبطين برباط الروح فيؤلفان جسماً واحداً فقط كاملاً ولائقاً حق اللياقة بالمسيح رئيسنا »[٤] ولهذا كانت كل جماعةٍ من المسيحيين رفضت الطاعة لاساقفتها وكهنتها واقامت الخدم الالهية بدونهم تُعتبر من الآباء القدماء غير مستحقةٍ اسم الكنيسة وتُلقب بهرطوقية

(١) ضد ماركيون ٤ : ٥ ضد المراطقة فصل ٤٢ (٢) في المخ : ١ (٣) رسالة ٦٩ . ٨ (٤) خطاب ٢

وجماعة مشاقين ورديئة النية وخبيثةٍ الخ.[1]

الفصل الثاني

في ان درجات الكهنوت هي مرسومة من الله وانها ثلاث وفي الفرق الذي بينها

١ . تقسيم الموضوع ٢ . في الدرجة الاسقفية والبراهين على حقيقتها (اولاً من **الكتاب** . ثانياً من تلاميذ الرسل ثالثاً من الآباء . رابعاً من اعمال المجامع . خامساً من **عمل الاساقفة**) ٣ درجة القسوس ٤ درجة الشمامسة ٥ ان الدرجات الكهنوتية ثلاث لا اقل ولا اكثر

١ . رُسم الكهنوت في كنيسة المسيح من الله نفسهِ ومنذ قدمتهِ قُسم الى ثلاث درجاتٍ . الاولى درجة الاسقف وهي العليا . والثانية درجة القس وتخضع للاولى . والثالثة درجة الشماس وهي الاخيرة[1] .

٢ . اما المصادر التي تثبت اقامة الدرجة الاسقفية في الكنيسة وامتيازها ليس عن درجة الشموسية فقط (الامر الذي لا يرتاب فيهِ **احدٌ**) بل عن درجة القسوسية ايضاً او الكهنة (وهذا يخالفنا فيهِ بعض المبتدعين وخصوصاً البروتستانت) فهي كثيرةٌ فمنها :

اولاً الكتاب المقدس حيث نجد امتيازاً صريحاً لرتبة الاسقفية عن **رتبة القسوسية** . على ان استعمال الاسماء احياناً بناءً على مجرد معناها الحرفي ومع قطع النظر عن الرتبة التي سميت بها كاستعمال اسم الاساقفة للقسوس من حيث هم ايضاً رقباء ومحافظون على الشعب[3] ليس من

(١) ايلروسموس ضد الهرطقات ٤ : ٢٢ و٢٤ ترتليانوس في المراطقة فصل ٣٧ .
(٢) نظر التعليم المسيحي في الكهنوت (٣) ان كلمة اسقف وهي باليونانية «ابيسكوبوس» معناها الرقيب او الناظر او الحافظ . وكلمة قس باليونانية

شأنهِ ان يُلغي الامتياز الجوهري بين الرتبتين . لان الرسل انفسهم يسمون ذاتهم بتلك الاسماء[1] ومع ذلك هم ذاتهم اعطوا الاساقفة امتيازاً خصوصياً عن القسوس او الكهنة وسلطةً عليهم . فاعطوهم حق اقامة الكهنة والشرطونية كما قال بولس لتيطس «اني قد تركتك في كريت لترتب الناقص وتقيم قسوساً في كل مدينةٍ كما عينتُ لك» ولتيموثاوس «لا تبادر الى وضع يدك على احدٍ»[2] واعطوهم حق محاكمتهم وتوبيخهم كما قال بولس ايضاً لتيموثاوس «لا تقبل الشكوى على قسٍ الا بشهادة اثنين او ثلاثة والذين يخطأون وبخهم امام الجميع حتى يخاف الجميع»[3] واعطوهم حق مكافاة اتعابهم كما قال له ايضاً «وليحسب القسوس الذين يحسنون التدبير اهلاً لكرامةٍ مضاعفةٍ»[4] . فهذه كلها وما شابهها من الحقوق نالها الاساقفة وسمحوا بها وامتازوا بقوةٍ خصوصيةٍ رفعتهم بلا ريبٍ على الكهنة الذين لم يحصلوا عليها كما شهد التاريخ وقد قال القديس ابيفانيوس «انهُ لا يمكن ان يكون الكاهن والاسقف متساويين وقد علم الكتاب الالهي ما هو الاسقف وما هو الكاهن بقولهِ لتيموثاوس «لا تنزع شيخاً» وفي محلٍ آخر «لا تقبل الشكوى على قسٍ الا بشهادة اثنين او ثلاثة»[5] . فما الدليل على ان الرسل القديسين هكذا علموا بتلك الآيات وان المعنى الذي نحن نفهمهُ من اقوالهم هو المعنى المصيب ولا محل لتفسيرها على وجهٍ آخر فهم الرجال الرسوليون اعني تلاميذ

«بريسبيتروس» معناها الشيخ وراجع اع ٢٠ : ٢٧ وتي ١ : ٧ و٥ وفي ١ : ١ و١ تي ٣ .
(١) ١ بط ٥ : ١ و٢ يو ١ و٣ يو ١ (٢) تي ١ : ٥ و١ تي ٥ : ٢٢ (٣) ١ تي ٥ : ١٩ (٤) ٥ : ١٧ (٥) ضد الهراطقة كتاب ٣ هرطقة ٧٥ : ٥

الرسل نفسهم الذين هم اجدر من كل من سواهم في ايضاح حقيقة معنى اقوال معلميهم كما ترى حالاً .

ثانياً . تلاميذ الرسل الذين لا يتركون ما شبهة البتة في قوامة الرتبة الاسقفية في الكنيسة من الله وفي تعيينها الرفيعة . فان احدهم القديس اكليمنضس اسقف رومية يقول « انه يجب علينا ان نعمل كل ما امرنا به سيدنا في اوقاته المعينة بالترتيب وان أمر القرابين والخدم التي امر ان تصير كيفما اتفق وبلا ترتيب بل في اوقات وساعات معينة وقد حدّد بنفسه بمشيئته السامية ... ونحن نريد ان تتم لكي يكون كل ما يصير ببرّ مقبولاً لدى مشيئته حاصلاً على لطفه . فالذين يقدمون قرابينهم في اوقاتها المعينة هم مقبولون عنده ومغبوطون ... شرائع الرب لا يخطأون لان « رئيس الكهنة » اعطيت له خدم خصوصية و« الكهنة » تعين مكان خصوصي « واللاويون » اي الشمامسة لهم خدم خصوصية . واما العامي فانه مرتبط بالاوامر المتعلقة بالعوام »(1) .

والقديس اغناطيوس المتوشح بالله يوضح هذا الامر باكثر صراحة : ١ . في رسالته الى الافسسيين حيث يقول « ان الاساقفة قد تعينوا الى اقاصي الارض بحسب مشيئة يسوع المسيح »(2) ـــ ٢ . « في رسالته الى اهل ازمير حيث يقول « اتبعوا الاسقف كلكم كما يتبع يسوع المسيح اباه واتبعوا الكهنة كالرسل واكرموا الشمامسة حسب وصية الله »(3) ـــ ٣ . في رسالته

(١) رسالة اولى الى اهل كورنثوس فصل ٤٠ (٢) فصل ٣
(٣) فصل ٨

الى اهل مغنيسيا حيث يقول « توسل اليكم ان تعملوا كل شيء بسلام الله تحت رئاسة الاسقف حيث مكان الله ذاته والكهنة حيث مكان مصاف الرسل والشمامسة المحبوبين مني جداً الذين ائتمنوا على خدمة يسوع المسيح »(1) ـــ ٤ . في رسالته الى الترالين حيث يقول « امرٌ مفيد لكلٍ منكم وعلى الاخص للكهنة ان تريحوا رئيس الكهنة راحة عذبة لمجد الآب ويسوع المسيح والرسل »(2) .

ثالثاً . رعاة الكنيسة في القرون الاولى الثاني والثالث من تاريخها منهم القديس ايريناوس حيث يقول « جميع المخالفين لتعليم الكنيسة قد ظهروا متأخرين كثيراً عن هؤلاء الاساقفة الذين ائتمنوا من الرسل على الكنائس »(3) وترتليانوس حيث يقول « قد تخصص حق التعميد بالكهنة الاعظمين (اي الاساقفة) ثم اعطي للكهنة والشمامسة فقط ولكن لا من دون اذن الاسقف »(4) واوريجانس يقول « يطلب مني انا القس اكثر مما يطلب من الشماس ومن الشماس اكثر من العامي ولكن الذي يضبط بيده السلطة الكنائسية يُطلب منه اكثر منا كلنا »(5) .

رابعاً واخيراً المجامع المسكونية والمكانية كالمجمع الاول المسكوني(6) ومجمع اللاذقية(7) . وفي القرن الرابع اذ شرع آريوس يعلم ان لا رئاسة

(١) فصل ٦ (٢) فصل ١٢ (٣) ضد الهراطقة ٥ : ٢٠
(٤) في المعمودية فصل ١٧ (٥) مقالة ١١ على ارميا فصل ٣
(٦) قانون ١٨ حيث يقول « وليلبث الشمامسة ضمن حدودهم عالمين انهم خدام للاسقف ومنحطون عن القسوس » الخ . (٧) قانون ٥٦ و٥٧ حيث يذكر عدم جواز تقدم القسوس على اسقفهم ويطلب وجوب اتحادهم له .

للاسقف على الكاهن فبحسب شهادة ابيفانيوس واوغسطينوس لم تعرفه الكنيسة كلها الأمرطوقيا"[١].

خامسًا نزيد على ما تقدم برهانًا آخر قويًا يثبت ان الدرجة الاسقفية هي مقامةٌ من الله وذات رئاسةٍ وسلطةٍ في الكنيسة . وهذا البرهان هو القوائم القديمة لاسماء الاساقفة الاولين في كنائس رسوليةٍ عديدةٍ كانت قديمًا سلاحًا منيعًا للمدافعين عن الارثوذكسية ضد المراطقة. فمن ذلك ما قاله القديس ايريناوس وهو «يمكننا ان نعد الاساقفة الذين حكموا في الكنائس من عصر الرسل وان نحصي خلفاءهم ايضًا حتى ايامنا هذه» ثم انه يعد اساقفة رومية على التتابع واحدًا فواحدًا الى نهاية القرن الثاني تقريبًا[٢]. وقال مؤلفٌ آخر وهو يتكلم عن المراطقة فليرونا مبدأ كنائسهم وليظهروا لنا سلسلةً لاساقفتهم متصلةً مثل السلسلة التي نقدمها لهم ومتتابعةً لتبين ان الاول في عدد اساقفتهم كان خليفةً لرسول او لواحدٍ من تلاميذ الرسل الذين عاشوا زمنًا طويلاً معهم . فان الكنائس الرسولية تحفظ عندها قوائم للاساقفة فكنيسة ازمير مثلاً تبين بوليكربوس مقامًا من يوحنا وكنيسة رومية اكليمنضس مقامًا من بطرس . والكنائس الأخر تبين ايضًا رجالاً ارتقوا الى درجة الاسقفية من الرسل ثم صاروا خلفاء لهم»[٣]. واوسابيوس صاحب التاريخ الكنائسي حفظ سلاسل قديمة اخذها عن هجيسبوس

(١) ابيفانيوس في هرطقة ٧٥ : ٣ واوغسطينوس في الهرطقات فصل ٥٣
(٢) ضد المراطقة ٣ : ٣ (٣) في المراطقة فصل ٣٢

منها سلسلة الخلافة لاساقفة كنيسة كورنثوس ورومية واورشليم وهو ايضًا بناءً على آثار غيرها بيّن فهرس اساقفة الكنائس الاكثر قدمية[١] فيتضح من هذه الشهادات كلها ان القدماء لم يميزوا بين الاساقفة والكهنة فقط بل كانوا يعترفون لهم بالرئاسة عليهم .

٣ . واما مبدأ السلطة الكهنوتية من الله في الكنيسة فيظهر من ان الرسل انفسهم «اقاموا كهنة في كل كنيسةٍ»[٢] ووصوا الاساقفة «ان يقيموا كهنةً في كل مدينةٍ»[٣]. ويظهر ايضًا ذلك من شهادات الآباء الاقدمين . فان القديس اغناتيوس المتوشح بالله يقول «ان الكهنة مقامون من يسوع المسيح»[٤] والقديس ايريناوس يقول «بمسرة الآب نال الكهنة بوساطة الخلافة الاسقفية المنحة غير المتغيرة منحة الحقيقة»[٥]. وايارونيموس يقول «ان الرسل اقاموا في كل الاقاليم كهنةً واساقفةً»[٦].

وما اوردناه الى الآن كافٍ لتبيان الفرق بين درجة الكاهن ودرجة الاسقف وهو يشهد بسمو الاساقفة عن الكهنة ولا نرى جزافًا ان نزيد عليها اولاً القانون الخامس عشر من قوانين الرسل القائل «كل قسٍ او شماسٍ او احد المعدودين في فهرس الاكليروسيين عمومًا ترك مركزه وذهب الى غيره وانتقل منه انتقالاً تامًا واقام في غيره من دون معرفة اسقفه نأمر ان لا يخدم الخدم الالهية في تلك الحالة . ثم ان دعاه اسقفه

(١) كتاب ٤ فصل ٥ و٢٢ (٢) اع ١٤ : ١٢ (٣) تي ١ : ٥
(٤) رسالة الى فيلادلفيا فصل ١ (٥) ضد المراطقة فصل ٤٢ (٦) على متى ٢٥ : ٢٦

ليرجع ولم يطع واصرّ على طياشتهِ فلينتاول الاسرار حيث هو مثل العوام» والقانون الحادي والثلاثين القائل «كلّ قسّ احتقر اسقفهُ واقام الصلاة منفصلاً عنهُ وبنى مذبحًا آخر من دون ان يثبت على الاسقف شيئًا لا يوافق الايمان والبرّ فليُقطَع اذ هو محبّ الرئاسة». والقانون التاسع والثلاثين حيث يقول «لا يتمّمنّ القسوس والشمامسة خدمةً من دون معرفة الاسقف لانهُ هو المسلَّم شعب الرب وهو الذي يطلب منهُ الجواب عن نفوسهم» — ثانيًا ما ورد في القانون السادس والخمسين لمجمع اللاذقية حيث يقول «لا يجوز للقسوس ان يدخلوا قبل دخول الاسقف ويجلسوا في الهيكل بل يدخلون مع الاسقف. ما لم يكن مريضًا او غائبًا» والقانون السابع والخمسين القائل «وايضًا لا يجوز للقسوس ان يعملوا شيئًا من دون رأي الاسقف»[1].

٤ · اما اقامة رتبة الشموسية في الكنيسة من الله فواضحةٌ في رسائل القديس بولس الرسول حيث يخاطب كنيسة الفيلبيين وخدامها ويقول «الى جميع القديسين في المسيح يسوع الذين في فيلبي مع الاساقفة والشمامسة النعمة لكم والسلام من الله ابينا والرب يسوع المسيح»[2] فواضحٌ هنا ان الرسول يضع في مصاف خدام الكنيسة الاساقفة والشمامسة · وفي رسالتهِ الاولى الى تيموثاوس يذكر صفات الاشخاص الذين ينتدبون للرتب الكنائسية الكهنوتية ويتكلم عن الاساقفة والشمامسة ·[3] وخلفاء الرسل الاولون يثبتون هذا الدعام ايضًا · فمنهم اكليمنضُس اسقف رومية

(١) راجع قانون ١٢ و ٥٠ (٢) في ١ : ١ و٢ (٣) في ٣ : ٢ و٨

حيث يقول «ان الخدام المذكورين اعلاهُ (اعني الاساقفة والشمامسة) تثبتوا من الرسل»[1]. والقديس اغناطيوس المتوشح بالله حيث يقول «يجب اظهار كل نوعٍ من اللطف للشمامسة الذين هم خدمة اسرار الله فهم ليسوا خدامًا للمآكل والمشارب بل لكنيسة الله»[2]. والقديس بوليكربوس حيث يقول «يجب ان يكون الشمامسة انقياء بمقتضى عدلهِ (الله) بما انهم خدامة يسوع المسيح وليسوا خدام بشرٍ وبعد ذلك يقول «يجب الخضوع للكهنة والشمامسة كالله وليسوع المسيح»[3]. واخيرًا آباء الكنيسة يشهدون لحقيقة كلامنا في الشموسية · نعدُّ منهم يوستينوس الشهيد[4] وترتليانوس[5] واكليمنضُس الاسكندري[6] وكبريانوس[7] · وامبروسيوس[8] وآخرين[9] · اما وظيفة الشماس فهي منحطةٌ عن وظيفة الاسقف ووظيفة الكاهن ايضًا · ويظهر هذا الفرق اولاً من اقوال بولس الرسول في رسائلهِ التي بها يوضح بجلاء الفرق بين الشمامسة والاساقفة (وتحت اسم الاسقف كان يعني القسوس ايضًا كما رأينا) ويسميهم دائمًا بعد الاساقفة[10]. ثانيًا من شهادات خلفاء الرسل وشهادات كل الكنيسة القديمة · فان القديس اغناطيوس مثلاً يقول «ان الشماس مرؤوسٌ من الاسقف ومن الكهنة بنعمة يسوع المسيح

(١) انظر شهاداته السابقة (٢) رسالة الى الترالين فصل ٢ (٣) رسالة الى الفيلبيين فصل ٥ (٤) احتجاج ١ : ٦٥ (٥) في المراهقة ٤١ وفي المعمودية ١٧ (٦) البديعات ٦ : ١٣ (٧) رسالة ٦٥ (٨) في الواجبات ١ : ٥٠ · ٢٢٥ (٩) غريغوريوس الثريتري رسالة ٥ · ٢ وايرونيموس على حزقيال ٤٦ وثاودوريطوس على ١ تي ٣ : ٨ (١٠) ١ تي ٣ : ٣ و٨ — في ١ : ١ و٢

وشريعتهِ »[1] واوبتانوس يضع الشمامسة في الدرجة الثالثة والكهنة في الدرجة الثانية[2]. وفي القانون الثامن عشر للمجمع المسكوني الاول موضح ان « الشمامسة هم خدام الاساقفة ومنحطون عن الكهنة وانهُ لا يُسمح لهم الجلوس بين الكهنة بل تحتهم » وفي القانون العشرين لمجمع اللاذقية نقرأ انهُ « لا يجب ان يجلس الشماس امام الكاهن الا بامره ».

٥. فما تقدم الى الآن في اقامة الدرجات الكهنوتية الثلاث من الله والفرق بينها يتضح انها ليست في الكنيسة درجات كهنوتية اقل من ثلاث وهي رئاسة الكهنوت والكهنوت والشموسية. على ان هذه الدرجات ليست اكثر من ثلاث ايضًا. لان الكتاب المقدس لا يذكر سوى هذه الدرجات الثلاث وحدها. والمؤلفون المسيحيون القدماء لم يعدُّوا سوى هذه الدرجات الثلاث. فالقديس اغناتيوس المتوشح بالله يقول « ضعوا في قلوبكم يا احبائي الطاعة للاساقفة والكهنة والشمامسة. لان من خضع لهم فقد خضع ليسوع المسيح الذي اقامهم ومن عصاهم فقد عصى يسوع المسيح ومن عصى ابن الله لا يرى الحياة بل يحلّ عليهِ غضب الله »[3] واكليمنضس الاسكندري يقول « ان درجات الاسقف والكهنوت والشماس الكنائسية تشبه بحسب رأيي المجد الملائكي »[4] واوريجانس يقول « ان بولس يتكلم عن رؤساء الكنيسة ومدبريها يعني الذين

(١) رسالة الى مغنيسا فصل ٢ (٢) يقول « لماذا الشمامسة اقيموا في الدرجة الكهنوتية الثالثة ؟ وهذا القسوس في الثانية ؟ فان الاساقفة هم عامات الجميع ورؤساؤهم » في انشقاق دوناتوس ١ : ١٣ ومثلهُ ترتليانوس واوريجانس في ما تقدم (٣) رسالة الى فلادلفيه (٤) البديعيات ٦ : ١٣

يحكمون في الكنيسة وهم الاساقفة والكهنة والشمامسة »[1] واوسابيوس اسقف قيصرية يقول « الدرجات ثلاثٌ اولاها طغمة الرؤساء والثانية طغمة القسوس والثالثة طغمة الشمامسة »[2] وهذا الامر عينهُ يوضحهُ ترتليانوس[3] وهيبوليطوس واوبتاتوس[4] واوريجانس[5] وايرونيموس[6] وآخرون.

الفصل الثالث

في العلاقة التي بين درجات الكهنوت الكنائسية الثلاث بنسبة بعضها الى بعض والى الرعية

١. العلاقة بين الدرجات الكهنوتية عمومًا ٢. وظيفة الاسقف ٣. وظيفة الكاهن ٤. وظيفة الشماس ٥. حقوق الاسقف ٦. حقوق الكاهن ٧. حقوق الشماس ٨. سلطان الاسقف ٩. سلطان الكهنة ١٠. عدم السلطة للشماس ١١. اهمية الاسقف

١. ان علاقة الدرجات الكهنوتية الثلاث سوآءٌ كانت فيما بينها او بينها وبين الرعية تتضح في ان الاسقف هو في كنيستهِ او رعيتهِ نائب يسوع المسيح ومن ثم هو الرئيس الاول على الاكليروس الذي تحت ادارتهِ وعلى الرعية[7] وقد اخذ من الرسل الحق ان يقيم في كنيستهِ كل الرعاة الخصوصيين كما سنرى. فهو يمنحهم الحقوق والسلطة الروحية

(١) كتاب ٢ على رسالة رومية (٢) على بش ١٩ : ١٨ (٣) في الهرب حين الاضطهادات فصل ٣١ (٤) انظر شهاداتهما السابقة (٥) على مت ١٥ : ٢٦ (٦) على بش ٣٠ (٧) الاعتراف القويم قسم ١ جواب ٨٥.

على الرعية ويقدس بواسطتهم كل الرعية الحاصلة على عنايتهم.[١]

٢. فالاسقف هو الرئيس الاوّل في كنيستهِ على الشعب وعلى رعاتهِ[٢] كما يتضح من رسالة القديس بولس الى الاسقف تيموثاوس حيث يقول له «لاحظ نفسك والتعليم»[٣] «اكرز بالكلمة واعكف على ذلك في وقتهِ وفي غير وقتهِ وحاجج ووبخ وعظ بكل اناةٍ وتعليمٍ»[٤]. ويأمرهُ ايضاً ان يهذب ويعلم امور الايمان المعلمين الذين بعده[٥] وان يلاحظهم في تعليمهم وتدبيرهم ويكرم النشيطين منهم في البشارة اكراماً مضاعفاً[٦] وهذا التعليم تعلمهُ القوانين الرسولية ايضاً منها القانون ٥٨ القائل «ان الاسقف والقس الذي يهمل الاكليروس والشعب ولا يعلمهم الايمان يتوقف. وان لبث في الاهمال والتواني يُقطَع». وكذلك الاوامر الرسولية حيث تأمر الاسقف ان يسهر على ما يحفظ التقاوة والحقيقة في الكنيسة[٧] وقوانين المجمع التي بعدها الآمرة «ان يعلّم رؤساء الكنيسة الاكليروس وبين الشعب كلمات التقوى كل يومٍ وعلى الخصوص في ايام الآحاد»[٨] ولهذا كان المدافعون قديماً عن الدين المسيحي يثبتون ضد المراطقة ان

ان تسمية الاساقفة بنواب المسيح هي قديمة جداً[٣] في الكنيسة. نقرأها في رسائل القديس اغناطيوس الى الترالين فصل ٢ و٣ والى الازميريين ٩ والرومانيين ٩ واهل افسس ٤ وفي اوامر الرسل ٢ ٢٦[٣] (١) رسائل البطاركة بند ١٠. وهذه التسمية ايضاً في قديمة جداً[٣] انظر راعي هرماس ٣ وامثاله ٩ ٢٧ واوريجانس على لوقا ٣٤ وكبريانوس في وحدة الكنيسة (٢) رسالة البطاركة بند ١٠ (٣) ١ تي ٤: ١٦ و٦: ١٢—٢١ (٤) ٢ تي ٤: ٢—٥ (٥) ٢ تي ٢: ٢ (٦) ١ تي ٥: ١٧ (٧) كتاب ٢ فصل ... ٨ ... (٨) المجمع ... السادس قانون ١٩

التسليم الحقيقي وتعليم المسيح قد حُفِظا بنوعٍ خصوصيٍ في الكنيسة من عصر الرسل اتفهم بخلافة الاساقفة غير المنقطعة[١]

٣. واما الكهنة فحيثما ينالون سلطانهم الكنائسي من الاسقف بسرّ وضع الايدي ينالون معهُ مع السلطان حق التعليم ايضاً في رعيتهم[٢] وقد حصلوا على هذا الحق ليستعملوهُ بالاعتناء والغيرة الممكنة[٣]. على انهم عندما يعلّمون يكونون دائماً تحت ملاحظة وحكم الاسقف رئيس رعاتهم كما يتضح من اقوال الرسول عينها[٤] ومن القانون ٣٢ للرسل. ويحق للاسقف ان يمنع الكاهن عن التعليم حين الاقتضاء كما فعل اسقف اسكندرية في زمن هرطقة آريوس حسب شهادة سقراط وسوزومينوس[٥]

٤. واما الشمامسة فمسموحٌ لهم ويمكنهم ايضاً ان يعلموا الشعب ويقوموا خطباء في الكنيسة ومبشرين برضى ورخصة الاسقف كما كان في اوائل التاريخ المسيحي وان يقضوا فيها كما فعل الشمامسة الاولون مثل استفانوس وفيلبس[٦] واخصّ واجباتهم التعليمية ان يعلموا الموعوظين[٧]

٥. فالاسقف اذن هو بنعمة الروح القدس المتمّ الاول والمدبر الاول للاسرار المقدسة في كنيستهِ الخصوصية[٨]. وقد خصّ بهِ بعض

---

(١) ايريناوس ضد الهرطقات ٣: ٣ وترتليانوس في المراطقة ٣٢ (٢) تحاوير البطاركة بند ١٠ (٣) ١ تي ٥: ١٧ والقانون ٥٨ للرسل (٤) ١ تي ٥: ١٧ (٥) تاريخ سقراط ٥: ٢٢ وسوزومينوس ٧: ١٩ (٦) اع ٦: ٨ و٨: ٥ و٣٥ (٧) رسالة اغناطيوس الى فيلادلفيا ٣ وكبريانوس في رسالة ٢٩ واوريجانس مقالة ٢٧ على المزامير (٨) رسالة البطاركة بند ١٠

الخِدَم من دون ان نتعدى الى غيره كما كان منذ القديم . فلهُ وحدهُ الحق مثلاً ان يقيم كهنة ويمنح سائر الوظائف الكنائسية بناءً على القول الالهي[1] وقوانين الرسل القديسين[2] واوامر المجامع[3] وتعليم آباء الكنيسة كلهم وهم يعتبرون هذا الحق امتيازاً للاسقف على الكهنة[4] ويقولون «ان رتبة الاساقفة هي مقامة بنوعٍ خصوصيٍّ لولادة الآباء (الكهنة) لان هذا الامر منوطٌ بالاساقفة اعني تكثير الآباء (الروحيين) وتوجد رتبةٌ ثانية (وهي رتبة الكهنة) . وهذه لا يمكنها ان تلد آباء . فهي تلد بجميم اعادة الولادة اولاداً للكنيسة ولكنها لا تلد آباء او معلمين . وكيف ممكن ان يقيم كاهنٌ كاهناً آخر من دون ان يكون له حق الشرطونية لاقامته؟ وكيف يمكن ان يسمى الكاهن مساوياً للاسقف ؟»[5] كذلك للاسقف وحدهُ حق تقديس الميرون المقدس وتكريس المذابح والانديمنسي كما توضح قوانين الرسل[6] وتعاليم الكنيسة الارثوذكسية اجمالاً[7] . اما بقية الاسرار وان كانت حقوق تتميمها ليست محصورةً بالاسقف وحدهُ مع ذلك لا يُسمَح لغيره ان يقيمها ويوزعها في كنيسته من دون معرفته ورخصته[8] .

(١) في ١ : ٥ و١ تي ٥ : ٢٢ (٢) قانون واوامر الرسل ٢ : ٣ (٣) القانون ٩ لمجمع انطاكية (٤) الذهبي الفم على ١ تي مقالة ١١ : ١ حيث يميز الاساقفة عن الكهنة بالشرطونية فقط . وايارونيموس رسالة ٨٥ حيث يقول «ماذا يعمل الاسقف ولا يعمله القس خلا الشرطونية ؟» (٥) ابيفانيوس في هرطقة ٧٥ (٦) مجمع قرطاجنة قانون ٦ (٧) الاعتراف القويم قسم اجواب ١١٥ ورسالة البطاركة بند ١٠ (٨) رسالة اغناطيوس الى ازمير ٨ ورسالة ٢٨ لكبريانوس الخ

٦ . وللكاهن ايضاً حق ان يتمم الاسرار والخِدَم الالهية اجمالاً (ما عدا المختصة بالاسقف وحدهُ)[1] ولكنَّ رئيس رعاته يقلدهُ هذا الحق عندما يمنحهُ الرتبة الكنائسية[2] حتى انه بعدما يناله ايضاً انما يجري استعماله تحت ملاحظة ورضى وسلطة رئيس رعاته[3] . وفي اقامة بعض الاسرار هو لا يمكنهُ ان يستقل عن الاسقف فانهُ لا يستطيع مثلاً ان يتمم سر الميرون المقدس ويوزعهُ من دون الميرون الذي يقدسه الاسقف وحدهُ ايضاً .

٧ . على ان الشماس لا حق له في اقامة الاسرار المقدسة والخدم الالهية اجمالاً[4] وانما وظيفته هي كما يوضح ديونيسيوس الاريوباغي المساعدة فقط لا التتميم[5] وليس الشمامسة سوى خدام اسرار المسيح وخدام الاساقفة[6] وبالاجمال هم مساعدو الكهنة[7] .

٨ . اخيراً الاسقف هو المدبر الاول لكنيسته الخصوصية[8] وله كل من سواهُ السلطة على السلطة على الكهنوت الذي يرأسه الاكليروس . وجميع الكهنة والشمامسة وخدام الكنيسة ... تتبعهُ برتبةٍ وان لا يعملوا عملاً في كنيسته من دون رضاه

(١) ع ٥ : ١٤ قانون ٣١ و٤٧ و٤٩ للرسل و١٨ للمجمع الاول ... البطاركة بند ١٠ (٣) قانون ٣٩ للرسل (٤) ... (٥) في رئاسة الكهنوت ٥ (٦) رسالة اغناطيوس الى مغنيسيا ٦ ... (٧) كبريانوس رسالة ٦٥ (٨) يوستينوس في ... (٩) اع ٢٠ : ٢٨ ورسالة البطاركة بند ١ (١٠) قانون ٣٦ للرسل ... المجمع اللاذقية ... و٤٢ و٥٢ لمجمع قرطاجنة و٢٥ للانطاكي و١٤ للمجمع ...

عليهم الخضوع والانقياد لحكمهِ[١]. وله ان يجري عليهم قصاصاتٍ متنوعةً عند الحاجة[٢]. ثم ان الرعية كلها ايضاً هي تحت سلطة الاسقف الروحية فيجب عليه ان يلاحظ في دائرة ابرشيتهِ اجرآء الشرائع الالهية واوامر الكنيسة[٣] «وهو بنوعٍ اخص له فيها حقّ الحل والربط»[٤] وفقاً لقوانين الرسل واحكام المجامع[٥] وشهادات آبآء الكنيسة القدمآء جميعاً[٦]. ولهذا السبب كان تلاميذ الرسل يحثون المؤمنين كثيراً على الطاعة للاسقف[٧]

٩. والكهنة لهم حقّ الحل والربط وبالاجمال ان يرعوا رعية الله التي أئتمنهم عليها[٨] غير انهم ينالون هذه السلطة من الاساقفة بوضع الايدي[٩] وبعض من المنتخبين يُقامون احياناً بارادة الاسقف ليجملوا معهُ حمل السياسة الكنائسية[١٠] وهكذا يؤلّفون جمعيةً ثابتةً[١١] فيكونون بمثابة اعين للاسقف[١٢] ولا يصنعون شيئاً من دون موافقتهِ.

١٠. لكنَّ الشمامسة لم يأخذوا حقّ الحل والربط من الرب

(١) ١ تي ٥: ١٩ (٢) قانون ١٥ و٣٢ و٥٥ للرسل و١٨ لمجمع قرطاجنة و٣٤ للسادس المسكوني (٣) أكليمنضُس اسقف رومية رسالة ١: ٥١ و٥٦ وكبريانوس رسالة ٦٤ (٤) رسائل البطاركة بند ١٠ (٥) قانون ٣١ للرسل و٦ لمجمع قرطاجنة (٦) كبريانوس رسالة ٧٥ وترتليانوس في التوبة ٤ و٧ وغريغوريوس الكبير كتاب ٢ مقالة ٢٦: ٥ (٧) اغناطيوس الى المغنيسيا ٤ والى الافسس ٤ والى الترالين ٢ (٨) ١ بط ٥: ١—٣ (٩) رسالة البطاركة بند ١٠ (١٠) كبريانوس رسالة ١٣ (١١) كبريانوس رسالة ٣ و٨ و٣٥ وترتليانوس في احتجاجه ٣٩ وايارونيموس على بش ٣ (١٣) اوريجانس على مت ٥

وبالاجمال ليست لهم سلطةٌ روحيةٌ على المؤمنين ويكن يمكنهم ان يكونوا بمثابة «عينٍ واذنٍ للاسقف»[١] و«أيدٍ لرؤسآء الكنيسة» يقيموا معهم وبرضاهم الخِدَم الالهية[٣].

١١. فيفهَم من كل ما تقدم ما هي الاسمآء والحقوق السامية التي تُعطى عادةً للاساقفة وهي «انهم هم وحدهم خلفآء الرسل»[٣] وعليهم تستند الكنيسة كما على اعمدتها»[٤] وان «الاسقف هو صورة الله الحيَّة على الارض وبنعمة الروح القدس هو النبع المفيض كل اسرار الكنيسة المسكونية التي بها نحصل على السلام وبالاجمال ان ضرورة الاسقف للكنيسة هي كضرورة الاستنشاق للانسان والشمس للعالم»[٥] وانهم مركز للمؤمنين الذين منهم تتألف ابرشيتهُ[٦] وانهُ هو الرئيس الخاص لها الروحية[٧] واخيراً كما يقول القديس كبريانوس «ان الاسقف هو في الكنيسة (التي تحت ادارتهِ) والكنيسة هي في الاسقف ومن لا يشترك مع الاسقف فليس من الكنيسة»[٨].

(١) اوامر الرسل ٢: ٤٤ و١٦ (٢) اوريجانس على مت ٥ وكبريانوس رسالة ... وابيفانيوس هرطقة ٧٤ (٣) ايريناوس ضد الهراطقة ٤: ٣٣: ٨ واكليمنضس الاسكندري في البديعيات ٦: ١٣ وترتليانوس في الهراطقة ٣٢ وكبريانوس ... و٤٣ واوسابيوس ١: ١ وايارونيموس رسالة ١٤٤ و٨٥ واوغسطينوس على ... ٤٤: ٨٢ ورسالة ٦٣ (٤) كبريانوس رسالة ٢٧ و٢٤ وباسيليوس ... (٥) رسالة البطاركة بند ١٠ (٦) اغناطيوس الى افسس ٢ والى ... والى الترالين ٧ (٧) الاعتراف القويم قسم اجابة ٨٥ (٨) رسالة ...

القسم الثاني

في الكهنوت من حيث هو سرٌّ

١ · تعريفهُ ٢ · اسماؤهُ

١ · ان الكهنوت من حيث هو سرٌّ يُعرَف بانهُ عملٌ مقدسٌ بهِ يضع الاسقف يديهِ على راس الشخص المنتخب للخدم الكنائسية ويطلب من اجلهِ فتنسكب عليهِ النعمة الالهية التي تقدسهُ وترفعهُ الى احدى درجات الكهنوت الكنائسي وتساعدهُ على اتمام واجباتهِ الكهنوتية ·

٢ · ويُسمّى هذا السرُّ شرطونيةً (وضع اليد)[1] وشرطونيةً سريةً[2] وترقيةً الى الكهنوت[3] وبركةَ الكهنوت[4] وسرّاً اسقفياً[5] ·

الفصل الاول

في اقامة سرّ الكهنوت من الله وفعلهِ الالهي

١ · شهادات الكتاب انه من الله وانهُ سرٌّ ٢ · شهادات الآباء والمعلمين ·

١ · يتضح تأسيس سرّ الكهنوت من الله في اعمال الرسل القديسين · فان رسل المسيح الذين كان الروح القدس يرشدهم مذكراً اياهم كل ما قالهُ لهم يسوع[6] كانوا يتممون هذا السرّ ويرقون كثيرين بوضع الايدي الى درجات الكهنوت المتنوعة · من ذلك ما ورد في رسائل القديس بولس عن ترقية بعضٍ الى درجة الاسقف · فانهُ يكتب الى تلميذهِ

(١) اغناطيوس في رسالتهِ الى فيلادلفية ١٠ (٢) اعمال الرسل ٨ : ١٦ و١٧ ويوحنا الذهبي الفم (٣) رسالة مجمع رومية في تاريخ ثاودوريطس ١ : ٩ (٣) رسالة ٣٢ و٦٨ لكبريانوس (٤) مجمع ٥٤٠ فصل ٤ (٥) في المعمودية ٦ (٦) يو ١٤ : ٢٦

تيموثاوس اسقف افسس قائلاً «لا تهمل الموهبة التي هي فيك التي أُوتيتها عن نبوةٍ بوضع ايدي الكهنة عليك»[1] وفي رسالتهِ الثانية يقول «فلهذا السبب اذكرك ان تُذكّي موهبة الله التي فيك بوضع يديَّ»[2]. وفي كتاب اعمال الرسل نرى شرطونيات قسوسٍ حيث بولس وبرنابا بينما كانا يجولان في مدن آسيا الصغرى ليسترة وايقونية وانطاكية ويبشران فيها «كانا يشرطنان قسوساً في كل كنيسةٍ»[3]. وفي هذا الكتاب عينهِ نجد شرطونية الشمامسة السبعة الاولين «الذين اقاموهم امام الرسل وصلّوا ووضعوا عليهم الايدي»[4] وبولس الرسول يؤكد ان رسالة المجد قد «جعل بعضاً رسلاً وبعضاً انبياء وبعضاً مبشرين وبعضاً رعاةً ومعلمين لاجل تكميل القديسين ولعمل الخدمة وبنيان جسد المسيح» واذ كان يودّع رعاة كنيسة افسس اوصاهم قائلاً لهم «فاحذروا لانفسكم ولجميع القطيع الذي اقامكم فيهِ الروح القدس اساقفة لترعوا كنيسة الله التي اقتناها بدمهِ»[5] - فاذا جمعنا وقابلنا جميع هذه الآيات الكتابية نحصل على الحقيقة الثانية الآتية وهي: ان الكهنوت هو سرٌّ حقيقي فضلاً عن كونهِ مؤسساً من الله رأساً له علامة منظورةٌ ايضاً وهي وضع الايدي الذي بهِ ينال المتكهنون لهُ نعمةً خصوصيةً وموهبةً سامية من الله حتى انهم يعملون في خدمتهم من الروح القدس فتكون قد اجتمعت بذلك جميع اوصاف السرّ في الكهنوت اي انهُ سرٌّ حقيقي

(١) ١ تي ٤ : ١٤ (٢) تي ١ : ٦ (٣) اع ١٤ : ٢٢ (٤) اع ٦ : ٦ (٥) افسس ٤ : ١١ و١٢ (٦) اع ٢٠ : ٢٨

الاسرار المقدسة:

٢٠ اما الشهود الصادقون لهذا التسليم الرسولي فهم آباء الكنيسة القديسون ومعلموها الذين تارةً يصفون الشرطونية كأنها سرٌ وتارةً يسمونها سرًّا بعبارةٍ صريحةٍ. فما ورد منهم مثلاً قول القديس باسيليوس وهو «اما الذين خرجوا عن الكنيسة فان ينالوا بعد ذلك نعمة الروح القدس عليهم لان منح النعمة قد زال لانقطاع الخلافة. لان الذين خرجوا اولاً كانوا قد نالوا الشرطونيات من الآباء وبوضع ايديهم حصلوا على الموهبة الروحانية»[1]

والقديس يوحنا الذهبي الفم يقول «انظر كيف ان المؤلف لايذكر شيئًا عبثًا. لانهُ لم يقُل كيف شُرطِنِ بل قال قولاً بسيطًا انهُ شُرطِنِ بالصلاة. وهذه هي الشرطونية كلها. اذ توضع اليد على راس الرجل والله يفعل كل شيء ويدهُ هي التي تمسُّ راس المُشرطَن اذا شُرطِن كما يجب. وانظر كيف كان بين السبعة (الشمامسة) واحدٌ مميزًا ونال الاولية فان الشرطونية وإن كانت عامةً لكن هذا نال نعمةً اكثر. وقبل الآن لم يكن يفعل آياتٍ بل بعد ان نُوديَ بِهِ لكي يتضح ان النعمة وحدها لا تكفي ولكن الشرطونية هي ضروريةٌ معها. فقد زادت عليهم نعمة الروح القدس وإن كانوا قبل الآن مملوئين من الروح غير ان ذلك يشير الى نعمة الجسم فقط»[2].

والقديس لاون الكبير يقول «انهُ فضلاً عن المسحة الرسمية التي

(١) ...القانونية اولى قانون ١ (٢) مقالة ١٤ : ٣ و١٥ : ١ على الاعمال

وصلت الينا كما نعلم على طريق التسليم الرسولي يعلمنا الكتاب المقدس ان الرسل لما ارسلوا بامر الروح القدس بولس وبرنابا ليبشرا بالانجيل في الامم «حينئذٍ صاموا وصلوا ثم وضعوا عليهما الايدي واطلقوهما»[1] لكي نتعلم باي وقارٍ يجب ان نكرم الشرطونية ونيلها وكم يهمنا ان لايتم سرٌ ذو بركةٍ كهذه على بسيط الحال. فأظهروا الان خضوعًا تقويًا ومدوحًا للاوامر الرسولية محافظين على هذا الترتيب في شرطونية الكهنة على الكنائس التي اقامكم الرب روساء عليها»[2].

والمجمع الرابع المسكوني يحدد هكذا «كل اسقف يضع شرطونية مباعة بدراهم ويضع النعمة التي لاتباع تحت البيع ويشرطن بالدراهم اسقفًا او خوريًا او قسًا او شماسًا او واحدًا غيرهم من الذين يحصون مع الاكليروس او يقيم بالدراهم ايكونوموسًا او مدافعًا كنائسيًا او مواظبًا[3] او واحدًا من صفهم ايًا كان لربح شخصيٍ قبيحٍ فبعد ان يفحص امرهُ ويثبت ذنبهُ يقطع من درجتهِ والذي شُرطن منهُ لاتنفعهُ شرطونيتهُ وسيامتهُ التجارية. وليكن غريبًا عن الموهبة او الوظيفة التي نالها بالدراهم وان ظهر احد متوسطًا لهذه الدراهم القبيحة والمحرمة بهذه الصورة فان

(١) اع١٣ : ٣ (٢) رسالة الى ديوسقورس ٨١ : ١ (٣) الايكونوموس معناهُ المدبر ووظيفتهُ ان يعتني ويدير امتعة الكنيسة براي الاسقف — والمدافع يسمى باليونانية «إكذِكوس» وباللاتينية «دِفنسور» ووظيفتهُ مساعدة المظلومين والفقراء المقدورين والمدافعة عن الملتجئين الى الكنيسة هربًا من النكبات — والمواظب يسمى باليونانية واللاتينية معًا «بارامونارويس» كانت وظيفتهُ ملازمة كهنوتا لاستقبال الزائرين فيها

كان اكليروسيًا فليُقطع من درجتهِ وان كان عاميًا او راهبًا فليُفرز هو ايضًا »[١] .

واوغسطينوس يقول حيث يدافع عن عدم اعادة الشرطونية ضد الدوناتيين « انهُ ليس من سببٍ لا يفقد بهِ الانسان المعمودية يمكن ان يفقد بهِ حقَّ تتميمها . لانهما كليهما « سرٌّ » وكلاهما يُعطَيان للانسان بالتقديس احدهما عندما يُعمَّد والآخر عندما يُشرطَن . فهم يفسرون كيف لا يمكن ان يكون سرُّ المعمودية حتميًا وان يكون « سرُّ الشرطونية محتومًا » فما دام كلاهما « سرًّا » ولا احد يرتاب بذلك لماذا ذاك لا يُرفَض وهذا يُرفَض من دون ان يُظلَم احدهما ؟[٢] »

واعلم ان جميع الهرطقات المسيحية القديمة الباقية في المشرق والمنفصلة من ازمنة التاريخ الاولى عن الارثوذكسية تعترف بلا خلافٍ ان الكهنوت هو سرٌّ من اسرار الكنيسة المقدسة[٣] وهذا ايضًا برهانٌ دامغٌ على قدمية التعليم الارثوذكسي الرسولي .

الفصل الثاني

في القسم المنظور من سرّ الكهنوت وفعلهِ غير المنظور وعدم اعادتهِ

١ . القسم المنظور (اولاً وضع الايدي . ثانيًا الصلاة) ٢ . نتيجة السر غير المنظورة ٣ . عدم اعادتهِ

(١) قانون ٢ وقانون ٥ للمجمع السابع المسكوني (٢) كتاب ٢ :١٢: ٢٨
(٣) السمعاني في مجل خدم الكنيسة الجامعة جزء ٨ صفحة ١٥٩ والمكتبة الشرقية جزء ٢ قسم ٣ صفحه ٢٢١ وغيرها .

١ . ان القسم المنظور من سرّ الكهنوت يتألف من وضع الايدي ومن الصلاة

فاولاً يشهد الكتاب المقدس ان الشرطونية كانت منذ القديم تتم بوضع الايدي سواءٌ كانت للدرجة الاسقفية[١] او القسوسية[٢] او الشموسية[٣] وكذلك القوانين الرسولية تقول « كل اسقفٍ او قسٍّ او شماسٍ يقبل شرطونيةً ثانيةً من احدٍ يُقطَع هو والذي شرطنهُ ما لم يبين انهُ نال الشرطونية من هراطقةٍ . لان المعمَّدين او المشرطَنين من هؤلاء (اي الهراطقة) لا يمكن ان يكونوا مؤمنين او اكليروسيين »[٤] والاوامر الرسولية تقول « ايها الاسقف عندما تشرطن فضع يديك على رأسهِ »[٥] والمجامع المسكونية والمكانية تعلم كذلك[٦] وهذا التعليم نفسهُ نادى بهِ ايضًا آباءُ الكنيسة القديسون ومعلموها وبهِ يصرحون ان شرطونية الاساقفة[٧] والقسوس[٨] والشمامسة[٩] تتم بوضع الايدي .

ثانيًا ان وضع اليد كانت ترافقهُ الصلاة كما نقرأُ في كتاب اعمال

(١) ١ تي ٤:١٤ و٢ تي ١:٥ (٢) ١ تي ٥:٢٢ و٢ تي ١:٥ (٣) اع ٦:٦ (٤) قانون ٦٨ (٥) كتاب ٨:١٦ و١٧ (٦) قانون ٤ و١٩ للمسكوني الاول و١٣ لمجمع انقرة و٤٠ للانطاكي و٦ للخلكيدوني و٢٦ و٥٩ و١٠٠ للقرطاجني (٧) ديونيسيوس الاريوباغي في رئاسة الكهنوت الكنائسية فصل ٤: ٣ وافرام في الكهنوت جزء ٢ صفحة ٣ وايرونيموس رسالة ٢: ٦ (٨) ايبوليطوس في الخ فصل ٢ والبابا كرنيليوس في تاريخ اوسابيوس ٦: ٤٣ (٩) ديونيسيوس الاريوباغي في رئاسة الكهنوت ٥: ٨ و١١ وايبوليطوس في الخ فصل ٢ و ٥

الرسل « انهم اوقفوهم امام الرسل ثم صلوا ووضعوا عليهم الايدي »[١] وان بولس وبرنابا « شرطنا لهم (للمؤمنين) قسوساً في كل كنيسةٍ وصلّيا باصوامٍ واستودعاهم الرب الذي آمنوا بهِ »[٢] .

وقد ذكر معلمو الكنيسة القدماء صلاةً الشرطونية التي بها يُستدعَى الروح القدس على المرسوم بوضع الايدي[٣] وهذه الصلاة لم تزل مستعملةً في الكنيسة الارثوذكسية الى يومنا وهي هذه : النعمة الالهية التي في كل حين تشفي المرضى وتكمل الناقصين تنتدب الايودياكون الكلي الورع شماساً (او الشماس الكلي الورع قساً) فلنصلِّ اذن من اجله لكي تأتي عليهِ نعمة الروح الكلي قدسهُ »[٤]

٣ . اما نتيجة سر الكهنوت غير المنظورة في المشرطن فهي انه ينال بالشرطونية نعمةً الهيةً حقيقيةً مناسبةً لخدمتهِ المُنتَدب لها وهي نعمة الكهنوت . وقد رأينا ان القديس بولس الرسول يتكلم عن هذه النعمة في رسالتهِ الى تيموثاوس المُشرطَن منهُ اسقفاً على افسس حيث يقول « لا تهمل النعمة التي هي فيك التي اوتيتها عن نبوةٍ بوضع ايدي الكهنة عليك »[٥] . وايضاً « لهذا السبب اذكّرك ان تذكي موهبة الله التي فيك بوضع يديَّ »[٦] ورأينا ايضاً ان آباء المجمع الرابع المسكوني الخلكيدوني يصفونها بانها « نعمةٌ لاتُباع »[٧] وان القديس باسيليوس الكبير يسميها

(١) اع ٦ : ٦ (٢) اع ١٤ : ٢٣ (٣) ثاودوريطوس على ١ تي مقالة ٥ : ٢٢ وكليمنضوس رسالة ٢٢ : ٢ للمجمع الافسسي حيث يقول « وقد صلينا على راسه انفسنا (صلاةً) سريةً » . (٤) انظر الافخولوجي في الشرطونيات (٥) ١ تي ٤ : ١٤ (٦) ٢ تي ١ : ٦ (٧) قانون ٢

« نعمةً روحانيةً » والقديس يوحنا الذهبي الفم يسميها « نعمةً زائدةً واضافة روحٍ (قدس) »[١] فلننظر الان شهاداتٍ غير السابق ذكرها في هذا الموضوع من آباء الكنيسة .

قال القديس يوحنا الذهبي الفم « اني اذكِّرك ان تُذكّي موهبة الله التي فيك بوضع يديَّ . يعني هنا نعمة الروح التي نالها لرئاسة الكنيسة وللآيات ولكل العبادة فانها في يدكم ان تطفئوها او تُذكوها »[٢] « فانهُ لو افتكر احد بان يستطيع الدنو من تلك الطبيعة المغبوطة النقية لكان يرى جيداً لاية كرامةٍ نعمة الروح اهلت الكهنة . لانهُ بهم تتم هذه وغيرها مما ليس دونها في امر وظيفتنا وخلاصنا . فان رجالاً ساكني الارض وسالكين فيها توطوا ان يتوسطوا ما في السموات ونالوا سلطاناً لم يعطهِ الله للملائكة ولا لرؤساء الملائكة »[٣] .

والقديس غريغوريوس النيصي يقول « ان قوة الكلمة عينها تجعل الكاهن وقوراً ومكرماً بالبركة الجديدة اذ ينفصل عن الجماعة الكثيرة (الشعب) . لانهُ امسِ وقبل كان واحداً من الكثيرين ومن الشعب فصار حالاً دفعةً واحدةً متقدماً ورئيساً ومعلماً للايمان وكاهناً للاسرار الخفية . وهذا كلهُ يصنعهُ من دون ان يتغير شيءٌ في جسدهِ او هيئتهِ بل وهو لم يزل في الظاهر كما كان تتغير نفسهُ غير المنظورة فيها هو افضل بقوةٍ ونعمةٍ غير منظورتين »[٤] .

(١) في شهادتيهما السابقة (٢) على ٢ تي مقالة ١ : ٢ (٣) في الكهنوت ٣ . (٤) على معمودية المسيح .

والقديس امبروسيوس يقول «مَن يمنح نعمة الاسقفية ؟ أالله ام الانسان ؟ انكم بلا شكٍ تجيبونني : الله . لكن الله يمنح النعمة بخدمةٍ بشريةٍ . فالانسان يضع الايدي والله يسكب النعمة . الكاهن يضع يده الدنيئة والله يبارك بيده القادرة على كل شيء»[1] .

واعلم ان نعمة الكهنوت وان كانت واحدةً لكنها تمنح على درجاتٍ متنوعةٍ للمرسومين بالسرّ . فالشماس ينالها بدرجةٍ واطئةٍ والكاهن بدرجةٍ ارفع منها والاسقف بالدرجة الأولى . وكل واحدٍ منهم ينالها بدرجةٍ مناسبةٍ الى خدمته في الكنيسة وهكذا يكون الاسقف المعلم الاول والخادم الاول للاسرار المقدسة ورئيس الرعاة الاول في كنيسته المكانية . اما الكاهن فاذ ينال الرتبة الكهنوتية من الاسقف ينال معها حقَّ التعليم وخدمة الاسرار في الابرشية المختصة بالاسقف الذي شرطنهُ ويخضع لهُ . واما الشمامسة فانهم يساعدون الاساقفة والكهنة في الخِدَم وليس لهم حقٌّ ان يعلّموا ويخدموا وحدهم .

٣ . ثم ان سرَّ الكهنوت حينما يناله الاساقفة والكهنة والشمامسة بحسب درجاتهم يرسم في نفس كل واحدٍ منهم رسماً من النعمة الالهية لا يُمحى اثرهُ ومن ثمَّ لا ينال احدٌ منهم شرطونيةً ثانيةً للرتبة الكهنوتية الواحدة اي ان سرَّ الكهنوت لا يُعاد . فالحقيقة الاولى من هاتين الحقيقتين قد علّمها بولس الرسول حيث ذكر مرتين لتلميذه الاسقف تيموثاوس عن النعمة التي اوتيها بوضع الايدي[2] . واما الحقيقة الثانية

(١) في الرتبة الكهنوتية فصل ٥ (٢) ١ تي ٤: ١٤ و٢ تي ١: ٦

فمذكورةٌ في القانون الثامن والستين للرسل القائل «كل اسقفٍ او كاهنٍ او شماسٍ ينال شرطونيةً ثانيةً من احدٍ يُقطَع هو والذي شرطنهُ» وفي القانون الخامس والثلاثين لمجمع قرطاجنة والقانون السابع والخمسين لهُ ايضاً القائل «لا تسمح اعادة المعمودية واعادة الشرطونية او نقل الاساقفة» . وبالاجمال ان الكنيسة قد اعتبرت عدم اعادة المعمودية والشرطونية قانوناً لا يُخالَف في ظرفٍ من الظروف . غير انهُ يُشترَط فيهما ان تكونا قد تمّتا قانونياً . وهكذا تفعل اليوم فانها لا تعيد شرطونية الراجعين الى الارثوذكسية من الاكليروس اذا كانت قانونيةً . وقد حكم قديماً مجمعٌ في رومية على دوناتوس لاعادتهِ شرطونية الذين سقطوا حين الاضطهادات من الاساقفة والكهنة اذ خالف نواميس الكنيسة الجامعة . والقديس باسيليوس الكبير وبّخ اوسطاثيوس اسقف سبسطية لاعادتهِ الشرطونية[1] . اما الشرطونيات غير القانونية وغير المشروعة المقامة من الهراطقة فلم تعرفها الكنيسة الارثوذكسية الجامعة . فكانت تشرطن الاكليروسيين الذين كانوا يأتون اليها منهم بعد ان تفحصهم وتجدهم اهلاً للكهنوت[2] . وهكذا سلكت مع اتباع آريوس وباوليكيوس[3] وبالاجمال مع جميع الذين سيموا من اساقفةٍ كذبةٍ ولم يُقاموا في الكنيسة اقامةً قانونية[4] . وهي لم تزل على هذا السلوك الى الآن مع اكثر الخارجين عنها وعلى الخصوص مع البروتستانت . وهنا نقول ما قلناه عن تعميد المراطقة

(١) رسالة ١٢٠ (٢) قانون ١٩ للمجمع الاول المسكوني و٤ [illegible] و٥ للثالث و٨ لمجمع اللاذقية و١ لباسيليوس (٣) قانون ١٩ للمجمع الاول المسكوني ورسالة ١٨ للبابا اينوشنسيوس (٤) قانون ٤ للمجمع الثاني المسكوني

ايضاً وهو ان شرطونية اكليرسهم ليست اعادة شرطونية بل هي الشرطونية الحقيقية اذ ان الشرطونية التي كانوا نالوها ليست فعلية ولا حقيقية بل هي بالاسم شرطونيةٌ ليس الاَّ

الفصل الثالث

في مَن له ان يتمّ سرّ الكهنوت وما هو المطلوب من المشرطَنين

١ . حق الشرطونية للاساقفة والبراهين (اولاً من الكتاب . ثانياً من القوانين ثالثاً من الآباء) ٢ . اوصاف المشرطنين (اولاً من حيث الديانة ثانياً من حيث السلوك ثالثاً من حيث الزيجة) ٣ . بدعة رومية بمنعها الكهنة والشمامسة عن الزواج

١ . تعلِّم الكنيسة الارثوذكسية ان حقّ الشرطونية هو خاصٌّ بخلفاء الرسل اي الاساقفة[1] وهذا التعليم تؤيّده :

اولاً من الكتب المقدسة حيث يتضح ان الرسل وحدهم كانوا يشرطنون بايديهم رجال الكهنوت في الدرجات المتنوعة وانهم اعطوا هذا السلطان للاساقفة وحدهم . فقد شرطنوا اساقفةً[2] وكهنةً[3] وشمامسةً[4] وبولس الرسول كتب الى تيطُس اسقف كريت هكذا « اني لهذا تركتك في كريت لترتب الناقص وتقيم قسوساً (كهنةً) في كل مدينةٍ كما عينتُ لك »[5] وكتب الى تيموثاوس اسقف افسُس يوصيه هذه الوصية « لا تبادر سريعاً الى وضع يديك على احدٍ ولا تشترك في خطايا غيرك »[6] . ولم يذكر الكتاب ان سرّ الكهنوت أُقيم من اكليروسيين غير الاساقفة بل

---

(١) رسالة البطاركة بند ١٠ (٢) ٢ تي ١ : ٦ (٣) اع ١٤ : ٢٣ و ٢٢ (٤) اع ٦ : ٤ (٥) تي ١ : ٥ (٦) ١ تي ٥ : ٢٢

حيث ورد فيها ذكر الشرطونية يُقال انها أُقيمت من الاساقفة وحدهم . اما قول بولس لتيموثاوس انه لا تهمل النعمة الاسقفية بايدي القسوس الخ[1] فقد شرحهُ القديس الذهبي الفم بقوله « ان كلمة بريسفيتيريون » (التي أُصطلح على ترجمتها بالقسوس والمشيخة) فتدلُّ على جمعية رعاة الكنيسة الذين كان احدهم بولس الرسول[2] لا على القسوس فقط ! و الكهنة . « فلم يقُل عن القسوس بل عن الاساقفة . لان القسوس لم يكونوا يشرطنون الاسقف »[3] وهذا التفسير هو الحق كله لان بولس نفسهُ يشهد انهُ هو شرطن تيموثاوس بيديه حيث يقول له « لهذا السبب اذكرك ان تُذكي موهبة الله التي فيك بوضع يديَّ » .

ثانياً . هذه الحقيقة تتضح من القوانين الرسولية والمجمعية ايضاً فان القانونين الرسوليين الاولين يأمران ان يُشرطَن الاسقف من اسقفين او ثلاثة وان يُشرطن القس والشماس وسائر الاكليروسيين من اسقف[4] والقانون ١٩ للمجمع الاول المسكوني يقول من جملة ما يقول « انهُ ان كان بعضٌ (من الذين يتبعون راي باوليكيانوس) قد فحصوا في الماضي للكهنوت فان كانوا بلا عيبٍ ولا نقصٍ فليُعَدْ تعميدهم وليُشرَطنوا من اسقف الكنيسة الجامعة ولكن ان وُجدوا بعد الفحص غير موافقين فيجب ان يُحَطّوا » . والقانون التاسع للمجمع الانطاكي يقول « كل اسقفٍ له سلطانٌ على ابرشيتهِ ان يسوسها بحسب ما يفرض التقوى على كل واحدٍ وان يعتني في كل المقاطعة التي تحت ادارة مدينتهِ وان يشرطن

---

(١) ١ تي ٤ : ١٤ (٢) ٢ تي ١ : ٦ (٣) مقالة ١٣ : ١ على ١ تي

(٤) راجع ايضاً القانون ٦ لمجمع قرطاجنة

قسوساً وشمامسةً ويبحث في كل شيءٍ بحكمٍ »[1] .

ثالثًا · هذا التعليم نفسهُ نجدهُ في الاوامر الرسولية ومؤلفات الآباء القديسين ومعلمي الكنيسة . فقد ورد في الاوامر الرسولية ما نصهُ « نأمر ان يشرطن الاسقف من ثلاثة اساقفة او على الاقل من اثنين . . . واما الكاهن والشماس فمن واحدٍ وكذلك سائر الاكليروسيين . ولكن لا يجسرنَّ كاهنٌ او شماسٌ على شرطونية العوام »[2] . وفي محلٍ آخر « لا يجوز للكاهن ان يشرطن اكليروسيين »[3] وايضاً « ان القس يضع يدهُ ولكن لا يشرطن »[4] وقال يوحنا الذهبي الفم « ان الاساقفة يسمون عن القسوس بالشرطونية فقط وبها وحدها يظهر انهم يمتازون عنهم »[5] والقديس ابيفانيوس يقول « ان درجة الاسقفة تمتاز بنوعٍ خصوصيٍ بانهم يلدون آباء لان تكثير الآباء في كنيسة المسيح يختصُّ بالاساقفة . واما الرتبة الثانية (الكهنة) فلا يمكنها ان تلد آباء او معلمين وكيف يمكن ان يشرطن كاهنٌ كاهناً آخر وليس لهُ سلطان الشرطونية ؟ »[6] وايار ونيموس ايضاً يقول « ماذا يعمل الاسقف ولا يعملهُ القسُّ خلا الشرطونية ؟ »[7] ومن التاريخ نعلم ان القديس اثناسيوس شرع يبرهن ان خصمهُ لم يكن لهُ حقٌ بان يشتكي عليهِ لانهُ كان كاهناً لا اسقفاً »[8] .

٢ · اما الاوصاف التي يجب ان يحويها المتقدمون لسرِ الكهنوت فهي

(١) راجع القانون ١ للمجمع الخلكيدوني (٢) كتاب ٣ : ٢٠ (٣) كتاب ٨ فصل ٤٦ (٤) فصل ٢٨ (٥) على ٢ تي مقالة ١٠ : ١ (٦) هرطقة ٧٥ : ٤ (٧) رسالة ٨٥ وامبروسيوس رسالة ٢ : ٦ و١٢ : ١ وثاودورس بطرس على العدد سؤال ١٨ (٨) احتجاجة ضد الاريوسيين عدد ١٢

اولاً ان يكونوا ارثوذكسيين لانهم مقاومون ليكونوا رعاةً في الكنيسة الارثوذكسية . ولذا قد حدد المجمع الاول المسكوني ان يُعاد ولاً بلا بدٍ تعميد الباوليين الذين التجأوا الى الكنيسة الجامعة وبعد اعادة تعميدهم ان ينظر في امر الذين كانوا منهم قبلاً اكليروسيين فان وجدوا بلا لوم ولا نقصٍ يُشرطنون (ق ١٩) وفي مجمع قرطاجنة حُذِر في المقدّمين الى سرّ الكهنوت ان لا يكونوا هم وحدهم ارثوذكسيين بل ان يرجعوا جميع ابناءبيتهم الى الديانة القويمة قبل ان ينالوا الشرطونية .

ثانياً ان يكونوا بلا لومٍ في الايمان والسلوك كوكلاء لله[1] ومدعوين ليكونوا « مثالاً للمؤمنين في الكلام والتصرُّف والمحبة والروح والايمان والنقاوة »[2] ويجب ان يعرفوا ايضاً الكتب المقدسة والقوانين الكنائسية وان يسلكوا هم بحسب الاوامر الالهية ويعلموا الشعب المؤتمنين عليه السلوك بها[3] . ثم يجب ان لا يُشرطن رجالٌ حديثون في الايمان اساقفةً او كهنةً كما يقول الرسول[4] وكل رجلٍ آخر « اعتنق الايمان وكان اميًّا وذا تصرفٍ رديءٍ لا يحقُّ لهُ ان يتدبب اسقفاً قبل ان يظهر اختبارٌ حالتهُ »[5] كما لا يجب ان يُرقّى مثل هؤلاء الى وظيفة رئاسة الكهنوت السامية قبل ان يفحصوا اولاً بالتدقيق في درجات الكهنوت الواطئة[6] .

ثالثاً يجب ان يكون المزمعون ان يُرقّوا الى درجة الاسقفية احراراً

(١) تي ١ : ٧ وقانون ١٢ لمجمع اللاذقية (٢) ١ تي ٣ : ٢ و٤ : ١٢ (٣) قانون ٢ للمجمع السابع المسكوني (٤) ١ تي ٣ : ٦ (٥) قانون ٨٠ للرسل و٢ و٦ للمجمع الاول و٢ لمجمع اللاذقية (٦) قانون ١٧ للمجمع الخامس و١٠ لمجمع سارديكي

من رباط الزيجة غير ان هذا الشرط ليس ضروريًا للذين ينتخبون للكهنوت او الشموسية . اما القانون الذي يطلب حرية الاساقفة من الزيجة فمبداهُ من التسليم الرسولي . على انهُ لاريب في ان رجالاً شرطنوا اساقفةً في ازمنة الدين المسيحي القديمة وكانوا مزوَّجين [1] غير انّا نرى في القوانين الرسولية انهُ كان مسموحًا للاساقفة وسائر رجال الكنيسة ان يبتعدوا عن زوجاتهم تحت شرط العفاف فقط لالانهم يحتقرون الزواج [2] الذي كان يحتقرهُ بعضٌ من ارباب الضلال والتعاليم الشيطانية [3] ولهذا قد حُدِّد في الكنيسة ان يشرطن في الدرجة الاسقفية رجالٌ احرارٌ من الزواج ممتازون بسيرةٍ عفيفةٍ ونقيةٍ [4] وان كان المنتخبون للاسقفية من الكهنة المزوجين فكانوا على الغالب مكلَّفين ان يتركوا زوجاتهم بعد ترقيتهم الى الدرجة الاسقفية . على ان هذه العادة الى القرن الرابع والخامس ما كانت شريعةً واجبة الاجرآء [5] . وفي القرن السادس لما ثبت الملك يوستينيانوس قوانين الخِدَم الكنائسية جعل تلك « العادة القديمة عادة الآبآء القديسين » مرعيةً وبموجبها كان يُشرطنون اساقفةً المتوحدون وغير المتزوجين او الاكليروسيون العفيفون ليتمكنوا بسهولةٍ من ترك زوجاتهم بعد الشرطونية [6] . وفي القرن السابع اذ لم تُحفظ هذه العادة القديمة حدد

(١) اني ٣ : ٢ و٤ وقانون ٣ و٤ لمجمع قرطاجنة وقانون ٣ للمجمع السادس المسكوني (٢) قانون ٥١ (٣) ١ تي ٤ : ١ — ٣ وايريناوس ضد الهرطقات ١ و٢٧ و١ و٢ واكليمنضس الاسكندري في ستروماتيس ٧ و١٢ (٤) كما كان كواكب الكنيسة القديمة العظام باسيليوس الكبير وغريغوريوس الثاولوغوس ويوحنا الذهبي الفم وآخرون (٥) سقراط في تاريخه الكنائسي ٥ : ٢٢ وراجع القوانين ٤ و٢٤ و٨١ للمجمع القرطاجني (٦) بارا يوستينيانوس ٦ : ١

المجمع السادس المسكوني هذا القانون « قد صار معروفًا عندنا ان رؤساء الابرشيات الموقرين في افريقية وليبية واماكن اخرى لايتركون مساكنة زوجاتهم بعد شرطونيتهم فيصيرون عثرة وشكًّا للآخرين . فبما ان نهتم كثيرًا في ان يكون كل شيءٍ من الرعاة لصالح الرعية رأينا ان لايجرى فيما بعد هذا الامر . ولا نقول ذلك غاية ابطال الشرائع الرسولية والغائها بل لنحصل على خلاص الشعوب ونجاحهم في ما هو افضل ولا ندع لومًا ما على حالة الكهنوت . فان الرسول الالهي يقول « كل شيءٍ اصنعوهُ لمجد الله . كونوا بلا معثرة لليهود ولليونانيين ولكنيسة الله كما انا ايضًا ارضي الجميع في كل شيءٍ غير طالبٍ ما يوافقني بل ما يوافق الكثيرين لكي يخلصوا . فتدوا بي كما انا بالمسيح » [1] فان ظهر احد بعد الآن يخالف ما ذكر فليقطع » [2] ومن ذلك العصر الى الآن صارت هذه العادة شريعةً لاتخالف في الكنيسة الارثوذكسية بان ينتخب لدرجة الاسقفية اكليروسيون غير متزوجين .

٣ اما الكهنة والشمامسة فلم تمنعهم الكنيسة ان يكونوا من صف المتزوجين وفقًا لكلام الله على فم بولس الرسول [3] غير انها تطلب ان يكون زواجهم قبل شرطونيتهم [4] ولم تطلب منهم مطلقًا ان ينذروا البتولية كأنها واجب تقتضيهِ خدمتهم بل بالعكس . فانها استنادًا على التسليم

(١) ١ كو ١٠ : ٣١ — ٣٣ و١١ : ١ (٢) قانون ١٢ (٣) ١ تي ٣ : ٢ و٤ و١٢ (٤) قانون ٢٦ للرسل والمجمع قيصرية الجديدة و٣ و٦ للمجمع الاول المسكوني

الرسولي منعتهم عن ترك نسائهم ولم تسمح به لعلة الورع والتعفف ايضاً[١] وقد اقررت العوام الذين لم يريدوا ان يتناولوا الاسرار المقدسة من ايدي الكهنة المزوجين[٢]. ولما طلب بعضٌ في المجمع الاول المسكوني ادخال شريعةٍ جديدةٍ في عدم زواج جميع خدام الكنيسة على الاطلاق قام القديس بفنوتيوس وهو واحدٌ من أجلاء آباء المجمع بتولٌ ومكافحٌ صارمٌ ومنع سائر الاباء في المجمع عن أن يضعوا على عاتق خدام الكنيسة حملاً ثقيلاً كهذا لايمكنهم ان يقوموا به بسهولة . ثم قال انهُ يكفي ان نقرّر « تسليم الكنيسة القديم » وهو ان يُمنع الزواج عن المشرطَنين فقط وان لايترك المتزوجون زوجاتهم بعد الشرطونية[٣] . وقد حافظت كنيسة رومية عينها على هذا التسليم العام في الكنيسة الجامعة الى آخر القرن الرابع . غير انها في اواخر القرن الرابع واوائل الخامس[٤] وعلى الخصوص في اواسط القرن الخامس[٥] وفي القرن السادس[٦] اصدرت اوامر تحتم فيها بالبتولية التامة وترك الزوجات لاعلى الكهنة والشمامسة فقط بل على الايبودياكونين ايضاً . فكانت هذه الاوامر استبداداً يخالف على خطٍ مستقيمٍ روح الشرائع الكنائسية القديمة وسبباً يحمل بصرامته جميع الاكليروس الضعفاء يعيشون عيشةً ذات شكوكٍ . ولذا حدد

(١) قانون ٤ (٢) مجمع غنغره قانون ٤ (٣) تاريخ سقراط ١: ٢
(٤) الباباسيريكوس سنة (٣٨٥ قانون ٣ وايينوشنسيوس الاول (سنة ٤٠٤) قانون ٣
(٥) البابا لاون (سنة ٤٤٣) قانون ٢ ومجمع اورليانس الثاني (سنة ٤٥٣) قانون ٧
(٦) مجمع طليطلة (سنة ٥٢١) قانون ١ ومجمع طور (سنة ٥٦٧) قانون ١٩ وغيرها

المجمع السادس المسكوني هذا القانون « بما اننا عرفنا انهُ قد سُلِّم في كنيسة الرومانيين وجُعِلَ في رتبة قانونٍ اعتراف المزمعين ان يؤهَّلوا للشرطونية في رتبة الشماسية او القسوسية بانهم لا يقربون فيما بعد من زوجاتهم فنحن تبعاً للقانون القديم المسلَّم من التدقيق والترتيب الرسولي نريد ان تثبت من الآن الزيجات الناموسية للرجال المتكهنين ولانحل رباطهم مع زوجاتهم ولانمنعهم من الاقتراب منهنّ في الاوقات اللائقة . فان وُجِدَ رجلٌ مستحقاً لان يُشرطَن ايبودياكوناً او شماساً او قساً لا يُمنَع البتة عن نوالهِ هذه الدرجة لساكنيهِ زوجةً شرعيةً . ولا يُطلَب منهُ حين الشرطونية ان يبتعد عن الاقتران الناموسي بزوجتهِ لكي لا نُجبَر بهذه الواسطة ان نهين الزيجة المشترعة والمباركة من الله بحضورهِ . وصوت الانجيل يصرخ قائلاً « ما جمعهُ الله لا يفصلنَّهُ انسانٌ »[١] والرسول يعلم « ان الزواجَ مكرَّمٌ والمضجع طاهرٌ »[٢] وايضاً « أأنتَ مقيدٌ بامرأةٍ فلا تطلب الاطلاق »[٣] . وقد علمنا ان الذين اجتمعوا في قرطاجنة واعتنوا بحرمة الخدام في سيرتهم قالوا ان الايبودياكونين الذين يلمسون الاسرار المقدسة والشمامسة والقسوس يتعففون في اوقاتهم (اي حين نوبتهم) عن زوجاتهم لكي نحفظ نحن ايضاً ما سُلِّم من الرسل وجرى منذ القديم جاعلين لكل شيءٍ وقتاً خصوصياً للصوم والصلاة . فانهُ يجب على الذين يدنون من المذبح ان يكونوا حين استعمال المقدسات اعفّاء في كل شيءٍ ليستطيعوا ان يحصلوا على ما يطلبونهُ من الله ببساطةٍ . فان تجاسر

(١) مت ١٩: ٦ (٢) عب ١٣: ٤ (٣) ١ كو ٧: ٢٧

احدٌ ان يخالف القوانين الرسولية ويحرك بعضاً من ذوي الكهنوت نعني الكهنة والشمامسة والايبوذياكونين ويمنعهم عن الاقتران والاتحاد بزوجاتهم الشرعيات فليُقطَع . وايضاً كل كاهنٍ اوشماسٍ يترك زوجتهُ متعللاً بالتقوى فليُفرَز وان اصرّ على ذلك فليُقطَع »[1] . غير ان بابوات رومية بعد ذلك لم يعتبروا هذا القانون المسكوني بل تجاسروا على مخالفته وسنوا عكسهُ وتشبثوا في القرون المتأخرة بان يؤيدوا اوامرهم بمنع الزيجة عن اكليروسهم[2] وفي القرن الثاني عشر عمموا تلك الاوامر على درجات الخدَم الواطئة ايضاً[3] وهكذا باتوا مجرمين جرماً ثقيلاً لمخالفتهم شريعة عامّة قديمة معاصرةً تاريخ الكنيسة كلّهِ .

(١) قانون ١٢ (٢) مجمع رومية (سنة ٧٤٣) قانون ١ و٣ ومجمع وغسطي (سنة ٩٥٣) قانون ١ و١١ و١٦ و١١ و١٩ (٣) المجمع اللاتراني الاول (سنة ١١٢٣) قانون ٢١ وغيرهُ .

الخاتمة

تشتمل على ملاحظاتٍ عمومية في الاسرار

بناءً على تعليم الكنيسة الارثوذكسية في كل واحدٍ من اسرارها المقدسة على حدةٍ كما شرحنا سابقاً نذكر بعض ملاحظاتٍ عمومية تنتج من تعليمها القويم نفسهِ ونقسمها الى ثلاثة فصولٍ : الاول في طبيعة الاسرار وجوهرها والثاني في عددها والثالث في الشروط المطلوبة لتتميمها واقامتها ونردف هذه الفصول الثلاثة بفصلٍ رابع يشتمل على تعليمٍ ادبيّ ينتج من الاعتقاد في الاسرار

الفصل الاول

في طبيعة الاسرار وجوهرها

١ . آراء الخارجين والراي القويم ٢ . حقيقة الراي القويم من الكتب المقدسة ٣ . من تعاليم الآباء ٤ . قوة الله الفاعلة بالاسرار .

١ . زعم بعض البعيدين عن الكنيسة الارثوذكسية ان الاسرار هي علاماتٌ للمواعيد الالهية فقط غايتها انهاض الايمان في النفوس او هي طقوسٌ بسيطة يتميّز بها المسيحيون عن غير المسيحيين او شاراتٌ ورموزٌ للحياة الروحية فقط . وقد ذكرنا آراءهم هذه في تمهيد الكتاب[1] . غير ان كل هذه الآراء فاسدةٌ والراي الحقيقي في طبيعة الاسرار هو انها بحسب جوهرها اعمالٌ مقدسة تُمنح المؤمنين نعمة الله غير المنظورة تحت علاماتٍ

(١) راجع صفحة ٢٢ و٢٤

منظورة او هي آلات تفعل ضرورة فعلاً حقيقياً بواسطة النعمة الالهية في المشتركين بها [1] » وهذا الراي تؤيده الكتب المقدسة وتعاليم الآباء.

٢ · فما تؤكده اما الكتب المقدسة تعلم ما هي افعال كل واحدٍ من الاسرار · فقد قيل في المعمودية مثلاً ما نصهُ « ان لم يولد احدٌ من الماء والروح فلا يقدر ان يدخل ملكوت الله [2] » وايضاً « كما احبَّ المسيح الكنيسة وبذل نفسهُ لاجلها ليقدسها مطهراً اياها بحميم الماء بالكلمة [3] » وفي محلٍ آخر « ولقد كان بعضكم كهؤلاء ولكنكم قد اغتسلتم بل تقدستم بل برَّرتم باسم الرب يسوع وبروح الهنا [4] » · وفي سرّ الميرون المقدس قيل « فوضعا حينئذٍ الايدي عليهم فنالوا الروح القدس · فلما رأى سيمون انهُ بوضع ايدي الرسل يُعطى الروح القدس عرض عليهما نقوداً قائلاً اعطياني انا ايضاً هذا السلطان حتى ينال الروح القدس كل من وضعت انا يديّ عليه » [5] وفي سرّ الشكر الالهي قيل « الحقّ الحقّ اقول لكم ان لم تاكلوا جسد ابن البشر وتشربوا دمهُ فلا حياة لكم في انفسكم · من ياكل جسدي ويشرب دمي فلهُ الحياة الابدية وانا اقيمهُ في اليوم الاخير لان جسدي هو ماكلٌ حقيقيٌ ودمي هو مشربٌ حقيقيٌ » [6] وفي سرّ الكهنوت قيل « لا تهمل الموهبة التي هي فيك التي أوتيتها عن نبوةٍ بوضع ايدي القسوس الخ » [7] فما تقدم من النصوص الالهية يظهر جلياً ان الاسرار

(١) رسالة البطاركة بند ١٥ (٢) يو ٣: ٥ (٣) افسس ٥: ٢٥ — ٢٦ (٤) اكو ٦: ١١ (٥) اع ٨: ١٧ — ١٩ (٦) يو ٦: ٥٤ و٥٥
(٧) ١ تي ٤: ١٤ و٢ تي ١: ٦

تفعل فعلاً حقيقياً في المؤمن المشترك بها لان الماء في سر المعمودية يولد الانسان ويقدسهُ وينقيهِ من كل خطيئةٍ بحلول الروح القدس حلولاً غير منظورٍ · ووضع الايدي او المسحة في سر الميرون يمنح موهبة النعمة للممسوح بهِ · وجسد المسيح ودمهُ في سرّ الشكر يهب عدم الموت للمشترك · ووضع الايدي في الكهنوت يمنح المتقدم اليهِ نعمةً خصوصيةً لخدمة هذه الوظيفة السامية وبالاجمال كل واحدٍ من الاسرار بحسب طبيعتهِ وجوهرهِ يفعل بنوعٍ غير منظور ويمنح النعمة الالهية لكل واحدٍ من المتقدمين اليهِ

٣ · وهذا التعليم نفسهُ في نتائج الاسرار الالهية وفعلها قد علّمهُ ودوّنهُ باتفاق آباء الكنيسة ومعلموها · وقد ذكرنا شهاداتهم في محلاتها ونذكر هنا ايضاً شيئاً منهـا · فالقديس كيرلّس الاورشليمي يقول « تقدموا الى المعمودية لا كما الى ماءٍ بسيطٍ بل الى ماءٍ تُمنَح بهِ النعمة الروحية » [1] وفي محلٍ آخر يقول « لكن احترس من ان تظن ذلك الميرون مادةً بسيطةً · لانهُ كما ان خبز الشكر بعد استدعاء الروح القدس ليس خبزاً بسيطاً بل جسد المسيح هكذا هذا الميرون المقدس ليس بعد الدعاء (دهناً) بسيطاً ولا يمكن ان يسمى عمومياً (عادياً) لكنهُ موهبة المسيح والروح القدس اذ يصير فعالاً بحضور لاهوتهِ · فهو تمسَح رمزياً على جبهتك وكل حواسك وحينئذٍ اما الجسد فيُدهَن بالميرون الظاهر واما النفس فتتقدّس بالروح القدس المحيي » [2]

والقديس غريغوريوس النيصي يقول « وان كان الماء ليس شيئاً

(١) عظة ٣: ٣ (٢) في الاسرار تعليم ٣: ٣

[illegible] ... النعمة ذ يتقدس مرفوق بالنعمة « تجدد الانسان » بالتجديد الروحاني . وان ارتاب احد وسألني بلا فتورٍ مخاصماً اياي كيف للماء يعيد الولادة ... فاقول له بايمانٍ حسنٍ : فسّر لي انت كيف تدرك الولادة الجسدية وحينئذٍ اقول لك انا ايضاً كيف تصير الولادة الروحية »

والقديس [illegible] يقول « كما ان الانسان اذ يعمّد من الانسان اعني الكاهن » [illegible] نعمة الروح القدس » كذلك المعترف بخطاياه في التوبة « ينال الصفح » بنعمة يسوع المسيح وبوساطة الكاهن » (١)

والقديس [illegible] لم يقل « هكذا في المعمودية ايضاً اما بالشيء الحسي فتحصل منحة الماء و[illegible] اعني « الولادة والتجديد » (٢)

والقديس [illegible] الكبير يقول « ان [illegible] كل يوم ونتناول جسد ودم المسيح متقدسين جيد ومعيد لانه هو (اي المسيح) يقول صريحاً « من يأكل جسدي ويشرب دمي فله حياة ابدية » فمن يرتاب في ان الاشتراك بالحياة على وجهٍ متواصلٍ ليس الا حياة متنوعة ؟ » (٤)

والقديس [illegible] يقول « من يمنح نعمة الدرجة الاسقفية ؟ الله ام الانسان ؟ فانكم تجيبون ان الله يمنحها . نعم . ولكن الله يمنح النعمة بواسطة الانسان . فان الانسان يضع الايدي والله يسكب النعمة . الكاهن يضع يمينه الحقيرة والله يبارك بيمينه القادرة على كل شيء . الاسقف يشرطن الخادم للخدمة واما الله فانه يمنحه الكفاية » (٥)

(١) مقالة ... بعد ... من القوانين (٢) خطاب في معمودية المسيح
(٣) على متى مقالة ٨٣ ... (٤) رسالة ٩٢ (٥) في الوظائف الكهنوتية فصل ٥

ونحن نضيف ايضاً على ما تقدم ان الكنيسة الارثوذكسية منذ القديم الى الآن تمنح الاطفال اسرار المعمودية والمسحة والشركة فلو كانت الاسرار اشاراتٍ فقط مقصودٌ بها انهاض الايمان في النفوس وبعث الآثار فعالة في البشر بنعمة الله الخلاصية فاية منفعةٍ تحصل للاطفال من الاسرار الثلاثة المشار اليها وهم لا يدركون ما الايمان ولاية غايةٍ تمنحهم الكنيسة هذه الاسرار ؟

٤ - اما سؤال السائلين : لماذا الاسرار هي ذات قوةٍ عظيمةٍ الى هذا الحد فليس عليه جوابٌ آخر سوى ان الله هكذا سرّ وهكذا ارتضى اذ لم يكن ممكناً ان ينال البشر الحسيون مواهبه السامية الا بالاشياء الحسية مثلهم . فهو قد رتب هذه الاعمال المقدسة لتكون آلاتٍ منظورة بها يشترك البشر بنعمة الروح القدس غير المنظورة . وهو علم ايضاً كيف يجب ان تقام هذه الاعمال المقدسة لينال البشر بها النعمة فارادته لم تزل متممة وما دامت الاسرار تقام بحسب ترتيب المخلص واوامره لا تزال تفعل ضرورةً في البشر بالنعمة الالهية الافعال الخلاصية

الفصل الثاني

في ان الاسرار سبعة

١ - الاسرار السبعة واسماؤها ورأي البروتستانت في عددها ودحضه ٢ . ثبوت عددها من اتفاق جميع الكنائس ٣ . من التاريخ ٤ . سبب عدم تعدادها من الآباء القدماء دفعة واحدة وذكرها منهم وشهاداتهم فيه ٥ . لماذا ليست الاسرار اكثر من سبعة ولا اقل .

١. ان الاسرار في الكنيسة المقدسة سبعة لا اكثر ولا اقل وهي المعمودية والمسحة والشكر والتوبة والكهنوت والزيجة والزيت المقدس[1].

وكل واحد من الاسرار السبعة هو مبني كما رأينا على الكتب المقدسة التي يستوفي منها كل اوصاف السر الحقيقية وهي تأسيسه الالهي واقامته بعلامات منظورة او محسوسة وفعل النعمة الالهية به غير المنظور في الانسان. اما انكار البروتستانت اكثر الاسرار وعدم تسليمهم بانها سبعة لان الكتاب المقدس لم يصرح بهذا العدد فلا اعتبار له لان الكتب المقدسة لم تذكر عددًا للاسرار صريحًا ولا قالت انها اثنان او ثلاثة او واحد والبروتستانت يقولون ان عندهم سرّان وهما المعمودية والشكر. فيجب عليهم اذن ان ينكروا الاثنين كما انكروا الخمسة لعدم ذكر الكتاب عددًا لها. على ان عدد الاسرار عندنا بانها سبعة معلوم من مصدر الهي آخر مساوٍ للكتب المقدسة في قوة الشهادة وهو التقليد الشريف المحفوظ في الكنيسة من عهد الرب والرسل.

٢. وليست الكنيسة الارثوذكسية فقط تعلم ان الاسرار سبعة بل كنيسة رومية ايضًا التي تم انشقاقها عن استقامة الرأي من القرن الحادي عشر وقد بدأ في القرن التاسع وكذلك تعلم سائر الكنائس التي انشقت قبلها ككنيسة النسطوريين ~~~ بين بنات القرن الخامس والبعقوبيين ~~~ وتعترف باتفاق في كتبها بسبعة اسرار وتقبلها الى يومنا هذا[2] فكيف يمكن

(١) رسالة البطاركة بند ١٥ (٢) رنودوت في ابدية الايمان جزء ٥ كتاب ١ فصل ٢ و٣ و٩ راجع ايضًا تاريخ الارمن والبعقوبيين

ان نفسر هذا الاتفاق بين مسيحيين مختلفين في المذهب من دون ان نقول ان اساس اتفاقهم هو التقليد الرسولي؟[1] وامر طبيعي هو انه لا يمكن ان يأخذ بعضهم من بعض هذه الاعمال المقدسة او بعضها نظرًا لاختلافهم ومضادتهم في المذهب. ومما يزيد ذلك تأكيدًا الفروق التي عندهم في كل واحد من الاسرار السبعة كما اتضح

٣. ان القول السابق بان المسيحيين عمومًا عندهم منذ القديم سبعة اسرار اينما كانوا يستند على التاريخ ايضًا الذي نتعلم منه ان هذا الايمان هو ايمان الكنيسة كلها في كل قرونها.

ففي القرن السادس عشر لما ظهرت الشيعة المسماة بالاصلاح الديني ورفض البروتستانت خمسة اسرار من السبعة ولم يقبلوا الا المعمودية والشكر فقط كتب ارميا بطريرك القسطنطينية اعتقاد الكنيسة بسبعة اسرار في رسالاته الى علماء اللاهوت في ويتمبرج[2] وكتب ايضًا غبرئيل مطران فيلادلفيا نبذة خصوصية في الاسرار السبعة[3] وكتب كثيرون في المذهب مؤلفات مطولة في ذلك وفضلاً عنهم صدّق عليه مجمع كامل وهو مجمع تريدنتي[4]

(١) نورد هنا ما قاله ترتليانوس منذ قرون كثيرة «ان كل ما كان واحدًا عند الاكثرين هو عندهم لا عن ضلال بل عن تسليم» في الموافقة فصل ٢٨. وقال اوغسطينوس «ان كل ما تسلمه الكنيسة الجامعة .... فبكل اصابة نصدق انه سُلم من مصدر رسولي» في المعمودية ٤: ٢٤: ٣١ (٢) انظر اعمال ويتمبرج اللاهوتية جواب اول لارميا على الاعتراف الاوغسطي فصل ٧ (٣) في الاسرار السبعة فصل ٥ (٤) جلسة ٧ قانون ١

وفي اوائل القرن الخامس عشر ألَّف القديس سمعان التسالونيكي في الاسرار السبعة[4] والبابا اوجانيوس الرابع كتب ايضاً من مجمع فلورنسا (سنة ١٤٣٨ — ١٤٤٠) الى الارمن في الاسرار السبعة[2].

وفي القرن الرابع عشر يشهد ذلك اعتراف الايمان من يوحنا باليولوغوس امبراطور القسطنطينية (سنة ١٣٥٥)

وفي القرن الثالث عشر كانت تُعَدُّ الاسرار سبعة كما يصرح كتاب ايوب كاهن القسطنطينية المتوحد سنة ١٢٧٢ ومدرسيوا (سخولاستيك) بلاد المغرب كتوما الاكويني[3] وبوناونتورا[4] واسكندر هلس[5] والمجمع الذي انعقد في لندن سنة ١٢٣٧[6]

وفي القرن الثاني عشر نقرأ ذلك في مقالات اوتون الذي نادى بالديانة المسيحية سنة ١١٢٤[7] وفي كتب المدرسيين كويكتور اوغو[8] وبطرس لومبارد[9] فانهم يعلمون ان الاسرار سبعة.

وقبل القرن الحادي عشر بل في القرن التاسع نفسه ايضاً نجد كتباً طقسية في اللغة اليونانية واللغة اللاتينية تشرح الاسرار السبعة وهي اقدم من القرن الحادي عشر. وبطاركة القسطنطينية ميخائيل كيرولاريوس والقديس فوتيوس اللذين طعنا في اللاتين زيغانهم في تتميم الاسرار لم

(1) في كتابه المعروف قسم ٢ في اسرار الكنيسة (٢) تقرير للارمن في فلورنسا.
(٣) كتاب اللاهوت قسم ٣ سؤال ٦٣ بند ١ (٤) شرح على الكتب الاربعة ٦: ٢: ٤٧: ٣. (٥) في اللاهوت قسم ٤ سؤال ٨: ٢: ١ (٦) في كتاب الجامع (٧) كتاب ٣ فصل ٢ (٨) آراء في الاسرار كتاب ١ قسم ٩ فصل ٢ صفحة ٦٣ (٩) كتاب ٤ ٢

يوبخام على زيادةٍ او نقصانٍ في عددها

وكذلك قبل القرن الخامس يشهد التاريخ ان الكنيسة كانت تعترف بسبعة أسرار. فانّا نرى اتباع نسطوريوس واصحاب الاعتقاد بالطبيعة الواحدة الذين انفصلوا عنا في القرن الخامس يحافظون مثلنا الى يومنا هذا على سبعة اسرارٍ كما ذكرنا

٤. هذا وان يكن الآباء القديسون ومعلمو الكنيسة القديمة لم يذكروا ذكراً صريحاً عدداً للاسرار السبعة محدوداً ولم تصل الى ايدينا مؤلفاتٌ منهم تبحث في الاسرار السبعة كلها معاً لكن ينبغي ان نتذكر العادة التي كانت سائدةً في الكنيسة بحفظ التعليم السري مكتوماً وتسليمه الى اهله فقط كما يؤكد القديس باسيليوس الكبير في رسالاته القانونية الى امفيلوشيوس حيث يقول: ان الكنيسة فضلاً عن عقائدها وتعاليمها المكتوبة تحفظ ما تسلّمته من تقليد الرسل سرّاً. وبعد انه ذكر صريحاً بعض الترتيب من يتعلق بسر المعمودية والمسحة والشكر ابدى هذا السؤال «من اية كتابةٍ اخذنا هذه كلها أليس من هذا التعليم السري غير المشاع الذي حفظه اباؤنا بصمتٍ خالٍ من البحث والاستقصاء اذ تعلموا حسناً ان يحفظوا الاسرار الموقرة بصمتٍ؟ لانه كيف يليق ان يُباح بالكتابة تعليم الاشياء التي لا يُسمح لغير كاملها ان ينظروا اليها؟»[1] ثم وان يكن الآباء ومعلمو الكنيسة تبعاً لهذه العادة التقوية لم يبحثوا في جميع الاسرار معاً لكنهم قد بحثوا وذكروا كثيراً في مؤلفاتهم تارةً سرّاً واحداً

(١) قانون ٩١

فقط وتارةً اثنين وتارةً ثلاثةً كما كانت تقتضي الظروف والعاية . مقالاتهم . فاذا جمعنا كلّ ما ورد عنهم من الشهادات في الاسرار نجد العدد عندهم كاملاً اي انهم كانوا يعترفون بالاسرار السبعة التي حفظتها الكنيسة الى يومنا هذا . ونذكر هنا ما يأتي من ذلك :

اولاً في المعمودية قد شهد الرسول برنابا والقديس يوستينوس الفيلسوف والشهيد وترتليانوس والقديس كيرلس الاورشليمي والقديس باسيلوس الكبير والقديس غريغوريوس والقديس الذهبي الفم وكثيرون غيرهم [1] .

ثانيًا في الميرون قد شهد القديس ديونسيوس الاريوباغي وثاوفيلس الانطاكي وترتليانوس واكليمنضس الاسكندري وكبريانوس والبابا كرنيليوس والقديس افرام السرياني ومجمع اللاذقية والقديس كيرلس الاورشليمي وغيرهم [2]

ثالثًا في سر الشكر الالهي قد شهد القديس اغناتيوس ويوستينوس وايريناوس وايبوليطس وديونيسيوس الاسكندري ومعلمون آخرون غيرهم في الكنيسة والمجامع المسكونية والمكانية [3] .

رابعًا في سرّ التوبة قد شهدت بعض فصولٍ من اوامر الرسل وفضلاً عنها ترتليانوس وكبريانوس واثناسيوس الكبير والذهبي الفم

(١) انظر شهاداتهم في بحثنا السابق في سر المعمودية (٢) انظر شهاداتهم في بحثنا السابق في سر الميرون المقدس (٣) انظر شهاداتهم في بحثنا السابق في سر الشكر

وامبروسيوس وغريغوريوس النيسي وايارونيموس وكيرلس الاسكندري والمجامع نفسها [1]

خامسًا في سر الزيت المقدس قد شهد اوريجانس وويكتور الانطاكي وقيصاريوس والبابا اينوشنسيوس الاول وكيرلس الاسكندري وغيرهم [2]

سادسًا في الزيجة قد شهد القديس اغناتيوس وترتليانوس والذهبي الفم وباسيليوس الكبير وغريغوريوس النزينزي وامبروسيوس واوغسطينوس الجليل وآخرون [3]

سابعًا في الكهنوت قد شهدت القوانين الرسولية والقديس باسيليوس الكبير ويوحنا الذهبي الفم وغريغوريوس النيسي وامبروسيوس وآباء المجمع الرابع المسكوني الخلكيدوني والبابا لاون وغيرهم [4]

فبعد كل هذه الشهادات الكثيرة القوية في كل سرٍ من الاسرار على حدةٍ لا محل للسؤال. فلئن بعض المعلمين الاقدمين اما ضرورةً او لمقاصد خصوصيةٍ او لاسبابٍ اخرى غيرها لم يتكلموا في مؤلفاتهم عن جميع الاسرار دفعةً واحدةً بل تكلم بعضهم عن اثنين [5] وبعضهم عن

(١) انظر شهاداتهم في بحثنا السابق في سر التوبة (٢) انظر شهاداتهم في بحثنا السابق في سر الزيت المقدس (٣) انظر شهاداتهم في بحثنا السابق في سرّ الزيجة (٤) انظر شهاداتهم في بحثنا السابق في سر الكهنوت (٥) مثل القديس يوستينوس في احتجاجه الاول واوغسطينوس في شرح مز ١٠٨ والقديس يوحنا الدمشقي ٤: ٩ الذين يتكلمون في المعمودية والميرون والشكر

ثلاثة [1] او اربعة [2] من دون ان يذكروها كلها ولا محل لادعاء البروتستانت على الكنيسة القديمة انها لم تعترف الا بسرّين فقط وهما المعمودية والشركة وهي بريئة من هذه التهمة. وما يستحق ان نستغربه منهم في هذه الدعوى الباطلة انهم يرون لبعض الآباء بحثًا في سرّين ولغيرهم في ثلاثة ولغيرهم في اربعة ولا يقولون ان الكنيسة اعترفت بثلاثة او اربعة اسرار بل بسرين فقط. على انهُ ليس من عصرٍ في اعصار الكنيسة ذُكر فيهِ هذان السرّان ولم تُذكَر سائر الاسرار من معلمين قديسين قد اوردنا اسماء بعضهم. ثم انهُ امر اكيدٌ وواضحٌ ان الآباء الذين تكلموا في سرّي الشركة والمعمودية هم انفسهم يذكرون الاسرار الباقية كلها [3] او يتكلمون عنها في مؤلفاتهم الخصوصية في الاسرار [4]

واعلم ان كلمة «سرّ» كان بعض المؤلفين المسيحيين الاقدمين يستعملونها احيانًا بمعنى اوسع من المعنى الذي يُعنَى بها عادةً. فقد سمي

(١) مثل القديس امبروسيوس في الاسرار كتاب ٦ والقديس كيرلس الاورشليمي في الاسرار ١ - ٤ اللذان يتكلمان في المعمودية والميرون والشكر (٢) مثل اوغسطينوس حيث يقول «اذا كان الله لا يسمع للخطاة (يو ٩: ٣١) فلكي تقام الاسرار عن الخطاة كيف يسمع الله للقاتل اذا طلب من اجل ماء المعمودية او من اجل مسحة الزيت او من اجل الشكر او من اجل الذين يضع عليهم يدهُ » في المعمودية ٥ : ٢٠ : ٢٨ والقديس غريغوريوس الكبير يتكلم في الاسرار الاربعة معًا وهي المعمودية والمسحة والشكر والزيت المقدس . (٣) يقول اوغسطينوس الجليل نفسهُ : انظر مواهب هذه الكنيسة ونقدس الاسرار في المعمودية والشركة وسائر الاسرار الشريفة » (المحل ذاته) (٤) ان اوغسطينوس الجليل نفسهُ فضلاً عن المعمودية والشركة يحصي بين الاسرار «سرّ الميرون وسرّ التوبة المقدس والزيجة في الزيجة ١٨ : ١ : ٢ وفي

بعضهم طقس قصّ شعر الراهب مثلاً سرًّا والصلوات عن نفوس الموتى اسرارًا. غير ان الكنيسة لم تعتبر هذه الطقوس والصلوات اسرارًا بحسب المعنى الحقيقي الذي بهِ تدعو الاسرار السبعة اسرارًا ولا الذين ذكروها اعتبروها قسماً من الاسرار.

٥ · لما جوابنا على السؤال: لماذا الاسرار ليست اكثر ولا اقل من سبعة؟ فهو واحدٌ على الحالتين وهو لان ربنا يسوع المسيح الذي رتب الاسرار السبعة هكذا سرّ. ونضيف عليهِ جوابًا آخر ثانويًا قالهُ لاهوتيون آخرون [1]: وهو لاننا نجد الاسرار السبعة في الكنيسة مقابلة ومساويةً في العدد لسبعة مواهب الروح القدس [2] التي تُمنَح المؤمنين باسرار الكنيسة السبعة ومقابلةً ايضًا للخبزات السبع التي اشبع الرب بها الوفًا من البشر [3] وللمنارات الذهبية السبع التي رأى يوحنا مشاهد الاسرار ابن الانسان في وسطها [4] وللكواكب السبعة التي كان مخلصنا وقتئذٍ ضابطًا اياها بيدهِ [5] وللاختام السبعة التي كان مختومًا بها الكتاب الذي رآه النبي في يمين الله [6] وللابواق السبعة التي اعطيَت بعد فتح ذلك الكتاب السري للملائكة السبعة الواقفين قدام الله [7]. وواضح هو ان الاسرار السبعة التي بها تُمنَح نعمة الروح القدس تكفي لجميع

الولادة ٩ : ٧ وفي الخطيئة الجدية ٣٤ : ٣٩) والكهنوت حيث يقول ان المعمودية والكهنوت كليهما سران منحا للانسان بالتقديس الخ » رسالة ٢ : ١٣ : ٨ : ٩
(١) غبرائيل مطران فيلادلفيا في الاسرار السبعة فصل « البطريرك ارميا جواب ١ : ٢ والاعتراف القويم جواب ٩٨ (٢) اش ١١ : ٢ و ٣ (٣) مت ١٥ : ٢٦ — ٣٨ (٤) رؤ ١ : ١٢ و ١٣ (٥) ١٦ (٦) ٥ : ١ (٧) ٨ : ١ و ٢

احتياجات حياة الانسان المسيحية وتقوم بجميع احتياجات الكنيسة. فان الانسان يُولَد بالمعمودية المقدسة ولادةً جديدةً للحياة الروحية المسيحية وبالميرون المقدس يحصل على القُوَى الضرورية التي بها يستطيع ان يثبت في هذه الحياة الجديدة وبسر الشركة الالهي ينال دائمًا الطعام والشراب الالهيين اللذين بهما يتغذي في هذه الحياة الروحية ومن حيث ان الانسان بعد دخوله في الكنيسة المسيحية لا يزال قابلاً للخطيئة ومعرضًا للامراض أُعطي له سرُّ التوبة والزيت المقدس. فبسرّ التوبة يأخذ العلاج الموافق لامراض نفسهِ وبسرّ الزيت المقدس ينال دواءً مضاعفًا لشفاء امراض نفسهِ وجسدهِ معًا. واما سرُّ الزيجة فيقدس بالنعمة الالهية رباط الزواج لحفظ اعضاء الكنيسة المسيحية ونموها بواسطة الولادة. وسرُّ الكهنوت يقدم للكنيسة رعاةً ومعلمين ومدبرين وحفظةً للاسرار الالهية يرشدون جميع المسيحيين الى الحياة الابدية والغبطة [1].

الفصل الثالث

في الشروط المطلوبة لتتميم الاسرار وفعلها

١. الشرط الاول يتعلق بصفة خادم السر — ٢. الشرط الثاني يتعلق بكيفية تتميم السر — ٣. اعتراضات بعض الخارجين (اولاً في ما اذا كان خادم السر غير فاضل. ثانيًا في ما اذا كان المتقدم الى السر غير مؤمن به) وحلها.

١. يطلب لاقامة الاسرار وفعلها اولاً اسقفٌ او كاهنٌ ارثوذكسيٌ مشرطنٌ قانونيًا. وهذا يتضح اولاً من ان مخلصنا قد اعطى الكهنة

(١) التعليم المسيحي الكبير فصل ١

والاساقفة وحدهم من حيث هم خلفاء الرسل سلطانًا ليمنحوا الناس مواهب الروح القدس باقامة الاسرار المقدسة كما رتبها هو. ثانيًا لان الشمامسة انفسهم الذين لهم درجة الكهنوت المؤسسة من الله لم يأخذوا سلطانًا لتتميم الاسرار فضلاً عن الشعب العام وطبقة الرهبان ثالثًا لان الاساقفة والكهنة لايمكنهم اجراء هذا السلطان قبل ان ينالوا اولاً تناولاً قانونيًا بسرّ الكهنوت الذي يقدسهم ويمنحهم الكفاية لاجرائهِ حق الاجراء مالئًا اياهم من مواهب الروح القدس كما رأينا في الابحاث السابقة [1]. فعلى ذلك قد ضلّ ضلالاً فظيعًا اتباع لوثيروس الذين يعلمون ان كل مسيحيّ يقدران يتمم الاسرار وان لم يكن على احدى درجات الكهنوت. وضلَّ مثلهم الذين يرفضون الكهنة ويسمحون بتتميم الاسرار لعامة الشعب حتى النساء والذين لا يرفضون الكهنة لكنهم لا يفرقون بين كهنة قانونيين والكهنة المحرومين او المقطوعين [2].

٢. اما الشرط الثاني في تتميم الاسرار وفعلها فهو ان تتمّ الاسرار تتميمًا قانونيًا على الترتيب المعطى من الله. ويثبت هذا الشرط ما رايناهُ سابقًا من ان مخلصنا نفسهُ الذي رتب الاسرار انتخب لكل واحدٍ منها مادةً معينةً او علامةً منظورةً خصوصيةً. وقد رسم هو نفسهُ طريقة تتميم كل سرٍ وهو نفسهُ سرٌ ايضًا لن تمنح مواهب الروح القدس بالاسرار متى أُقيمت بالمادة او العلامة المنظورة التي عينها وبحسب الطريقة التي

(١) راجع الفصول التي تبحث في من له الحق ان يتمم كل واحدٍ من الاسرار

(٢) راجع تمهيد الكتاب

سِنها لاقامتها . فلا يكون السرُّ اذن حقيقيًا ولا يفعل في المؤمنين الا متى أُقيم طبقًا لارادة الرب ولتأسيسه الالهي . وهذا الامر اوضح من ان يوضح ولما كانت الاسرار لا تتم بحسب ارادة الرب متى كان خدام الاسرار لا يصغون للعمل المقدس الذي يتممونهُ وللطريقة التي يجب عليهم ان يتمموهُ بها ليكون كما ترتَّب نم ينتج طبعًا انهُ عند تتميم الاسرار يُطلب من رعاة الكنيسة كهنةً كانوا او اساقفةً عزمٌ ونيةٌ وفعلٌ في اتباع الترتيب المسلَّم من الله لاقامة كل سرٍ

٢. على ان بعض غرباء المذهب قد ارتأوا آراء غير صحيحةٍ في هذا الباب فقالوا : اولاً انهُ شرطٌ ضروريٌّ لتتميم الاسرار وفاعليتها ان يكون خادمها فضلاً عن الشرطونية القانونية رجلاً ذا تقوى وفضيلة وانكروا على الاسرار المتممة من خدام خطأةٍ او غير افاضل اهميتها وفعلها . ثانيًا يقولون انهُ يُشترَط ايضًا لحقيقة السرّ ايمان المسيحي المتقدم اليهِ وان هذا الايمان هو الذي يجعل السرَّ حقيقيًا وذا فعل ومن ثمَّ يزعمون ان السرَّ ليس سرًا وليس لهُ قوةٌ البتة غير البرهة التي فيها يشترك بهِ المؤمن ومتى مضت تلك البرهة او اشترك المسيحي بالسرّ وهو ليس على يقينٍ وايمانٍ بهِ لايكون السرُّ سرًا بل عملاً بطالاً بلا ثمرٍ وبلا فعلٍ [1] . فعلى ذلك نجيب : اولاً ان الرأي الاول من هذين الرأيين ليس لهُ اساسٌ . لان قوة السرّ بحسب النعمة التي تمنحها ليست متعلقةً باستحقاق خادم السرّ بل هي متعلقةٌ على الخصوص باستحقاق وارادة ربنا يسوع المسيح الذي هو

(١) راجع التمهيد

نفسهُ يتمم السرَّ بوجهٍ غير منظورٍ . اما رعاة الكنيسة فهم آلاتٌ منظورةٌ بها يوزع المخلص النعمة للمتقدمين الى الاسرار وقد كان القديس يوحنا المعمدان يقول عن يسوع المسيح « هذا هو الذي يعمِد بالروح » [1] على ان يسوع نفسهُ لم يكن يعمد بل التلاميذ [2] . والرسول يقول « ليس الغارس شيئًا ولا الساقي بل الله الذي ينمي » [3] والمعلمون الاقدمون يقولون ان المسيح نفسهُ بقوة الروح القدس يتمم المعمودية للبشر وهو غير منظور [4] . وانهُ هو الذي يحل الخطايا [5] وانهُ هو الذي يشرطن ويمنح درجات الكهنوت المتنوعة [6] وانهُ هو الذي يبارك القرابين الالهية على المذبح المقدس [7] فكان الآباء

(١) يو ١ : ٣٣ (٢) ٤ : ٢ (٣) ١كو ٣ : ٦ (٤) قال القديس كيرلس الاورشليمي في عظة ١٧ : ٣٥ « لان النعمة ليست من بشر لكن من الله بواسطة البشر فانت ادنُ من المعمد وعندما تدنو لاتنظر الى الشخص الذي تراهُ بل اذكر الروح القدس الذي كلامنا الان عنهُ لانهُ حاضرٌ ومستعدٌ لان يختم الان نفسك ويمنحك ختمًا » . والقديس اثناسيوس الكبير في الثالوث الاقدس فصل ٤٠ يقول « ان الكاهن لايقدس الماء بل يتمم الخدمة الواجبة وقد اخذ لها نعمةً من الله » (٥) « ان عمدنا وان تبنا وان صفحنا فان المسيح هو علة هذا كلهِ وفاعلهُ » رسالة ٢ : ٧ (٦) قال الذهبي الفم « ان اليد توضع على الرجل والله يعمل كل الامر ويدهُ هي التي تلمس راس المشرطن ان كان يشرطن كما يجب » مقالة ١٤ : ٣ على الاعمال (٧) قال الذهبي الفم « فآمنوا اذن ان هذا العشاء هو العشاء الذي اتكأ فيه هو . لانهُ لا فرق بين هذا وذاك . وليس الانسان يصنع هذا وهو صنع ذاك بل هو الصانع ذاك وهذا . فعندما ترى الكاهن يناولك لاتظن ان الكاهن يفعل هذا الفعل بل اعرف ان اليد الممدودة هي يد المسيح . وكما ان الكاهن عندما يعمدك ليس هو الذي يعمدك بل الله هو الضابط رأسك بقوة غير منظورة ولا يجاسر ملاكٌ او رئيس ملائكة او احدٌ غيرهما ان يدنو منك ويلمسك هكذا الان ايضًا . لانهُ عندما يلد الله تكون الموهبة منهُ وحدهُ » مقالة ٥٠ : ٣ على متى

القديسون ينبذون باتفاق رأي الهراطقة السابق ذكرهم ويقولون ان قوة الاسرار لاتتعلق قطعياً بآداب الخادم واستحقاقهِ او عدم استحقاقهِ ونحن نذكر هنا بعضاً من شهاداتهم في ذلك :

قال القديس غريغوريوس الثاولوغوس «كل واحدٍ هو مستحقٌ ان تصدقوا انهُ يطهركم . ويكفيهِ لذلك ان يكون واحداً من الذين اخذوا السلطان ليغفروا الخطايا ولم يصيروا مرفوضين علانيةً (من الكنيسة) . فانتم الذين تطلبون الشفاء لاتدينوا قضاتكم ولا تبحثوا عن اهلية الذين يطهرونكم ولا تجروا انتخاباً على والديكم لانهُ امرٌ قلَّما يعنيكم ان كان هذا افضل وذاك ادنى . وكلُّ واحدٍ من هؤلاء هو افضل منكم فانظروا انتم كيف يجب ان تفتكروا : عندي خاتمان احدهما من ذهبٍ والاخر من حديدٍ وكلاهما عليهما الصورة الملوكية نفسها . فأطبعُ بكليهما طبعةً على شمعٍ . فبماذا تمتاز طبعة الواحد عن طبعة الآخر ؟ انها لاتمتاز بشيءٍ . فان كنت انت ممتازاً بحذاقة عقلك فاحكم في طبع المعدن على الشمع وقل لي : اية صورة من هاتين الصورتين هي صورة الخاتم الذهبي واية هي صورة الحديدي ؟ ولماذا الصورتان كلتاهما متشابهتان ؟ لانهُ وان كانت المعادن مختلفةً ليست متباينةً في الصورة الاصلية . فتأملوا على ذلك كل واحدٍ من (الكهنة) الذين يعمدونكم . فالواحد يمكن ان يسموَ الاخر بالسيرة الروحانية غير ان قوة المعمودية واحدةٌ والقادر ان يعلمكم الايمان الواحد نفسهُ يقدر أن يرشدكم الى الكمال »[1]

(١) خطاب في المعمودية

والقديس يوحنا الذهبي الفم يقول « لانهُ يتفق ان يكون الرؤساء اشراراً ومدنسين والمرؤوسين ودعاء ولطفاء . وان يكون العالميون عائشين بالتقوى والكهنة بالخبث . فلو كانت النعمة في كل واحدٍ متوقفةً على الاستحقاق لما كانت باولئك معموديةٌ ولا جسد المسيح ولا قربانٌ . واما الله فانهُ اعتاد ان يفعل بواسطة غير المستحقين ايضاً من دون أن تضر سيرة الكاهن شيئاً بنعمة المعمودية . والاَّ فيكون الذي يأخذ السرَّ هو الخاسر . نعم هذا الامر نادرٌ . ولكنهُ مع ذلك يجري . هذا اقولهُ لكي لا يرتاب احدٌ من الحاضرين في الطقوس المتممة اذا بحث في سيرة الكاهن . لان الانسان لا يضيف شيئاً الى ما هو موضوع (لاقامة السرّ) بل كلُّ شيءٍ هو عمل قوة الله وهو الذي يمنحكم نعمة السرّ »[1] .

وايسيدورُس البيلوسيوتي يقول « ان من ينال الاسرار لا يخسر شيئاً وان كان خادمها غير مستحقٍ . وايضاً لا ينالها عيبٌ وان كان القسُّ الذي يخدمها مريداً ان يسحب معهُ كل العالم الى الدينونة »[2] .

والقديس اوغسطينوس يقول « ان السرَّ ايضاً يتعلق بالله وما الانسان الاَّ خادمٌ بسيطٌ . فان كان الانسان صالحاً فيكون موافقاً لله ويفعل بالله وان كان شريراً فالله يمنح ايضاً بهِ نعمتهُ غير المنظورة كما بآلةٍ . ولا تظنوا ان الاسرار تتعلق بآداب البشر واعمالهم . فانها مقدسةٌ ونابعةٌ من الله القدوس »[3] .

والقديس ثاوفيلاكطُس يقول « ان النعمة تفعل بواسطة غير

(١) مقالة ٨ : ١ على ١ كو (٢) رسالة ـ ٣٤ (٣) فصل ٣٧ : ٨٨

المستحقين كما اننا نُقدَّس بواسطة الكهنة غير المستحقين »[1].

ولكي يفهم المؤمنون هذه الآرآء الصائبة ينبههاالآبآء القديسون بالنهر الجاري الذي يمكن ان ينقل بواسطة انبوب او قناة يابسة وعادمة المائية ولا تمسّ طهارته وبالبذار الجيد الذي يثمر سوآء رُمي في الارض من ايدٍ طاهرة او غير طاهرة وباشعة الشمس التي لا تتدنَّس اذا مرَّت على موادٍ دنسة[2].

ثانيًا · ان الرأي الثاني الذي يعتبر قوة الاسرار وفاعليتها مبنيتين على ايمان ونوايا المتقدمين اليها هو ايضًا غير صحيحٍ كالاول · فان ربنا يسوع المسيح قد رأى حسنًا ان يرتب الاسرار على هذا الوجه كما رأينا اعني ان يجعل كل موهبةٍ من مواهب الروح القدس مرتبطة ارتباطًا جوهريًا بعلامةٍ معينةٍ منظورةٍ حتى ان كل سرّ متى أُقيم بحسب ترتيبه يفعل ضرورةً في البشر فعله بالنعمة[3] · وقد رأينا ايضًا ان الكنيسة المقدسة الجامعة كانت منذ القديم تمنح اسرار المعمودية والميرون والشركة للاطفال ايضا موقنةً كل اليقين بان هذه الاسرار تفعل فعلاً خلاصيًا فيهم وان كانوا غير قادرين ان يعترفوا بالايمان بالمسيح ثم رأينا ان القدسات التي قد بوركت في سر الشركة تلبث بعد البركة جسد الرب نفسهُ ودمهُ نفسهُ وهي بعد على المذبح سوآء كان قبل توزيعها للمؤمنين او بعدهُ وسوآء توزعت اولم تتوزَّع عليهم · فنقول الآن ما قالهُ البطاركة

(1) على متى ٧ (2) اوغسطينوس على يوحنا ٥: ١٥ وضد كريسكس ٢: ٨ وفي المعمودية ٢: ١٠ و٣: (3) راجع الفصل الاول

الشرقيون ايضًا وهو ان سرّ الشركة لو كان كمالهُ محصورًا بالبرهة التي يتناولهُ فيها المسيحي بايمانٍ حيٍّ فقط ولم يكن قبل وقت الاشتراك بهِ كاملاً او كان كمالهُ متعلقًا بايمان المشترك لما كان المشتركون بهِ وهم على خلاف الاستحقاق ياكلون ويشربون دينونةً لنفسهم اذ لم يميزوا جسد الرب كما قال الرسول[1]. لانهم يكونون اذ ذاك اشتركوا بخبزٍ بسيطٍ وخمرٍ بسيطٍ ليس الاَّ »[2].

على انهُ مطلوبٌ ولا شك من المتقدمين الى الاسرار ايمانٌ حيٌّ واستعدادٌ لائقٌ بها كما تامر الكنيسة المقدسة · ولكن هذا الايمان وهذا الاستعداد ليسا من جملة الشروط التي بدونها لا تكون للسر قوةٌ وفعلٌ بل هما فرضان واجبٌ اتمامها من المؤمنين لينالوا الاسرار باستحقاقٍ ولا ياخذوا لانفسهم دينونةً عوض نعمةٍ ولكي تكون نتائج النعمة الممنوحة بالاسرار خلاصيةً لهم وتثمر ايضًا في نفوسهم حياةً ابدية ·

الفصل الرابع

يشتمل على النتائج الادبية الحاصلة من الاعتقاد بالاسرار

ان درس اسرار الكنيسة المقدسة لهُ تأثيرٌ عظيمٌ جدًا في آداب المسيحي سوآء كان بالنظر الى عموم الاسرار او الى افرادها

١ . نتائج الاعتقاد باسرار من النظر اليها عمومًا

١ . نحو الله ٢ . نحو القريب ٣ . نحو انفسنا

(1) ١كو ١١: ٢٩ (2) رسالة في الايمان الارثوذكسي بند ١٥

١. نستفيد من درس الاسرار عموماً بالنسبة الى الله الايمان والرجاء والمحبة. فنستفيد الايمان اذ نعلم ان الايمان هو الشرط الاول الذي لابدَّ لنا منهُ للاشتراك بكلٍ واحدٍ من الاسرار. ونستفيد الرجاء اذ نرى ان الرب مخلصنا الذي يَعِدُنا في كل واحدٍ من الاسرار بموهبةٍ خصوصيةٍ يؤهلنا ان ننظر عهودهُ متممةً بالفعل. ونستفيد المحبة اذ نرى ان ربنا يمنحنا مجاناً بالاسرار احساناتٍ لاتُحصَى انما يحركهُ الى افاضتها علينا صلاحهُ الاقصى وحدهُ.

٢. نستفيد أيضاً بالنسبة الى القريب تعاليم المحبة والاتفاق الاخوي لاننا جميعنا اعتمدنا بروحٍ واحدٍ لجسدٍ واحدٍ يهوداً كنا ام يونانيين عبيداً ام احراراً وجميعنا سقينا روحاً واحداً فاننا نحن الكثيرين خبزٌ واحدٌ جسدٌ واحدٌ لأنا جميعاً نشترك في الخبز الواحد »(١) وجميعنا تطهرنا من خطايانا بسرّ التوبة بالنعمة الواحدة والمواهب تُمنَح لنا جميعاً بالاسرار ولذا يجب «ان نحفظ وحدة الروح برباط السلام جسداً واحداً وروحاً واحداً محتملين بعضنا بعضاً بطول اناةٍ بمحبةٍ »(٢).

٣. نستفيد بالنسبة الى انفسنا تعاليم الاتضاع والقداسه لان الاسرار تذكّرنا سقوطنا وضعفنا الادبي وانّا لا نستطيع ان ننهض بقوانا الشخصية ونسير طريق الخلاص بلا معونةٍ. وتذكّرنا ايضاً اعادة ولادتنا وتبررنا وتقدسنا بالنعمة الالهية وتحثنا على التواضع اذ نشعر بحالتنا التعيسة وبضعفنا وتُلزِمنا ان نحفظ القداسة التي منحها الرب لنا لننال مساعة

(١) ١كو١٢: ١٣ و١٠: ١٧ (٢) افس ٤: ٣ و٤ و٤: ٢

نعمتهِ الالهية التي يمنحنا اياها لكي ننجح ونتقدم في التقوى والفضيلة.

٣. نتائج الاعتقاد بالاسرار من النظر الى كل واحدٍ منها على حدتهِ

١. من المعمودية ٢. من الميرون ٣. من الشركة ٤. من التوبة ٥. من الزيت المقدس ٦. من الزيجة ٧. من الكهنوت.

١. عند ما نتقدم الى المعمودية نعترف اولاً امام الله والكنيسة باننا رفضنا الشيطان وجميع اعمالهِ ووافقنا المسيح لنعيش فيهِ وحدهُ. ثم نتطهر بالمعمودية من كل خطيئةٍ ونلبس المسيح ونصير بني الله مدعوين للحياة الابدية. فاي ضمير يتذكر ذاك الوعد وهذا الاحسان ولا يعرف او لايشعر بعظم الواجبات التي علينا بعد المعمودية وبثقل المسؤولية التي القيناها على عاتقنا امام الله الذي عدلهُ الابدي لايتركنا بلا قصاصٍ اذا كنا لاسمح الله نحنث باقسامنا ولا نقوم بوعودنا واذا كنا نظهر غير مستحقين لدعوتنا؟

٢. اننا بسر المسحة المقدس ننال الروح القدس ومواهبهُ التي لاغنى لنا عنها لنثبت وننجح في الحياة ونعد بأنا «لانطفئ الروح »(١). واننا نحيي موهبة الله ولا نسلك بحسب الجسد بل بحسب الروح »(٢) وانّا نثمر اثمار الروح التي هي المحبة والفرح والأناة واللطف والصلاح والايمان والوداعة والعفاف »(٣).

٣. اننا نتناول في سر الشركة الالهي جسد ربنا نفسهُ ودمهُ نفسهُ ونستحق ان نحوي في داخلنا المسيح الالهِ المتأنس كلهُ. فاي انتباهٍ واي وقارٍ

(١) ١ تس ٥: ١٩ (٢) رو٨: ١ و٤ (٣) غلا ٥: ٢٢—٢٣

يجب ان يكون عندنا حينما نستعد لهذا السرّ الذي هو رهيب جداً ومخيف وايّ ورع وايمان ومحبة يجب ان نقدم حينما نشترك به وبكم من الشعائر الحية والاهتمام العظيم يجب علينا بعد ذلك ان نحفظ في انفسنا هذه المنحة الشريفة ذخيرةً لحياتنا الابدية وخلاصنا ؟

٤. كلما تقدمنا الى سرّ التوبة بخشوع عميق وانسحاق قلب على خطايانا وكلما حصلنا من الاب الروحي على الصفح عنها يجب علينا ان نتمم وعدنا لله بالندامة على ما فات والعزم الثابت على اصلاح ذاتنا في المستقبل والعيشة بتقوى وبلا عيب ويجب ان يكون هذا الوعد تجاه اعيننا بلاانقطاع ليجعلنا نثمر اثمار التوبة الحقيقية [1].

٥. ان المريض يطهر من خطاياه بسرّ الزيت المقدس وفضلاً عن ذلك يُشفى من امراضه الجسدية « ويقيمه الرب وان كان قد ارتكب خطايا تغفر له ». فلمَن يجب عليه بعد ذلك ان يخصص حياته التي منحهُ اياها الرب وانقذهُ من خطر فقدها الاّ لله وحدهُ ؟

٦. وفي سرّ الزيجة يَعِدُ العروسان احدهما الآخر امام الله والكنيسة بالمحبة والامانة وياخذان مواهب الروح القدس الضرورية لاتمام واجباتهما الجديدة العائلية . فتذكار هذا الوعد يعلّمهما دائمًا كيف ينبغي ان يتصرف احدهما مع الآخر وكلاهما مع اولادهما الذين منحهم الله لهما.

٧. ان الذين ينتدبون الى الكهنوت يُشرطنون بسرّ الكهنوت في الكنيسة لرتبةٍ خصوصية وياخذون نعمةً من فوق ليكونوا معلمي الايمان

(١) مت ٣: ٧

وخادمي الاسرار المقدسة ووكلاء قطيع المسيح. فكم في هذه الدعوة سامية وكم هي المسؤولية ايضاً عظيمة على الذين تقلدوا وظيفة هذه الخدمة الشريفة وباي احترام يجب على الرعاة ان يتذكروا على الدوام اقوال الرب هذه « انتم ملح الارض انتم نور العالم ؟ » [1] ووصية رسول الامم القائلة « كن مثالاً للمؤمنين في الكلام والتصرف والمحبة والروح والايمان والطهارة » [2] وباي انتباه لانفسهم ولرعيتهم ينبغي « ان يرعوا كنيسة الله التي اقتناها بدمه ؟ » [3]. وباية غيرة ينبغي ان يتمموا العمل العظيم الذي به يتعلق خلاصهم وخلاص المؤمنين الذين أُتمنوا على تدبيرهم وسياستهم الروحية؟

نسأل الله بقلب متخشع وروح منسحق ان يثبتنا على صخرة الايمان الحقيقي ويجعلنا نتمتع دائمًا باسراره المقدسة باستحقاق ونثمر الاثمار الخلاصية لننال مواعيدهُ الالهية في ملكوته السماوي . امين

(١) مت ٥: ١٣ و١٤ (٢) ١تي ٤: ١٢ (٣) اع ٢٠: ٢٨

تمّ الكتاب
بحول الله وتوفيقه

فهرس الكتاب

٧ سرّ الكهنوت

الخاتمة

ملاحظات عمومية في الاسرار

فهرس الكتاب